برنار فيربير

النمل

تعريب: د.عقيل الشيخ حسين

الـدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

النمل

* **النمل** (رواية).

* تأليف: **برنار فيربير**.

* تعريب: د. **عقيل الشيخ حسين**.

الطبعة الأولى: 1425 ميلادية ـ الفاتح

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

سرت: ص.ب. 921 ـ مبرق: 30098 مطبوعات ـ ناسوخ: 62100 ـ 054

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

المحتويات

النمل

برنار ڤيربير (Bernard Werber) في الثلاثين من عمره. مغامرته في دنيا النمل تبدأ، على وجه الحقيقة، في العام 1983. قبل ربع ساعة من اختتام مسابقة مؤسسة نيوز، يتقدم بعرض لإجراء تحقيق حول النمل في افريقيا. يفوز عرضه في المسابقة فيسافر إلى شاطىء العاج لمراقبة معسكرات النمل المدهشة ثم يعود وقد استحوذت عليه رغبة شديدة في التعريف بعالم النمل العجيب والمعقد وفي تقريب هذا العالم من القلوب.

أنهى برنار دراسة الحقوق في تولوز وتخرج من المدرسة الوطنية للصحافة ثم عمل في قسم الصحافة العلمية بمجلة «لو نوڤيل أوبسرڤاتور».

حازت روايته الأولى «النمل» على جائزة قراء مجلة «العلوم والمستقبل» عام 1991.

* * *

خلال الثواني القليلة اللازمة لقراءة هذه الجمل وحدها، سيولد على الأرض أربعون بشرياً و... سبعماية مليون نملة.

النمل سبق الإنسان في الوجود بأكثر من مئة مليون سنة. وهو يتوزع في فيالق ومعسكرات وامبراطوريات في جميع أنحاء الكوكب. وقد أقام النمل حضارة موازية للحضارة البشرية وأنشأ ممالك حقيقية وأوجد الأسلحة الأكثر تطوراً وابتكر فناً للحرب والإجتماع يَقْصِرُ الإنسان كثيراً عن مضاهاته. وكذلك، زوَّد نفسه بتقنية مذهلة. كما أن بين النمال أشباه لآتيللا(*) وكريستوف كولومبس ويوليوس قيصر وميكيافيللي وليوناردو دافنشي.

لقد اقترب زمن النمل! وهذه الرواية المميَّزة تحيطنا علماً بالسبب وهي تلقي بنا، بطريقة أخَّاذة، في عالم من الجرائم والفظائع والحروب التي لم نشهد لها مثيلاً. شيء يفوق الخيال. هذه الرواية توغل بنا في عالم الكائنات ما تحت ـ الأرضية.

انتبهوا لمواطىء أقدامكم إذ من الممكن، بعد قراءتكم لهذه الرواية المذهلة، ألا تنظروا إلى الواقع كما كنتم تنظرون إليه من قبل.

(*) زعيم قبائل الهون التي قدمت من أواسط آسيا واجتاحت الممالك الشرقية والغربية قبل أن تستقر في وسط أوروبا في القرن الخامس الميلادي.

خلال الثواني القليلة التي ستستغرقها قراءة السطرين التاليين:

ـ سيولد أربعون إنساناً وسبعمئة مليون نملة على وجه البسيطة.

ـ سيموت ثلاثون إنساناً وخمسمئة مليون نملة على وجه البسيطة.

الإنسان: حيوان ثديي. القامة: من متر إلى مترين. الوزن: من ثلاثين إلى مئة كيلوغرام. فترة الحمل عند الإناث: تسعة أشهر. نمط التغذية: شديد التنوع. العدد التقديري: أكثر من خمسة مليارات نسمة.

النملة: حشرة. القامة: من ١ ,٠١ سنتم. الوزن: من ١ إلى ١٥٠ ملغ. وضع البيوض: بحسب مشيئة الملكة وتبعاً لمخزون الحيوانات المنوية المذكرة. نمط التغذية: شديد التنوع. العدد المحتمل: أكثر من مليار مليار نسمة.

إدمون ويلز
موسوعة العلم النسبي والمطلق

«من جرّب طبائع النمل أدرك عِلْمَ أزمان المطر والصحو»

«الإمتاع والمؤانسة»

أبو حيّان التوحيدي

ـ 1 ـ

الـمُوقِظ

سَتَرَوْنْ. الأمر مختلف تماماً عما تتوقعون.

أوضح الكاتب العدل أن المبنى مصنف كأثر تذكاري تاريخي وأن عدداً من حكماء عصر النهضة قد أقاموا فيه. لكنه لا يذكر أسماءهم بالضبط.

ارتقوا درجات السلم فأفضى بهم إلى ممر مظلم حيث أمضى الكاتب العدل وقتاً طويلاً في معالجة غير مجدية لزر كهربائي:

ـ تباً له! إنه معطل.

تقدموا داخل الظلمة وهم يتحسسون الجدران محدثين الكثير من الضجيج. أخيراً، وبعد أن تمكن الكاتب العدل من العثور على الباب، ثم من فتحه والنجاح، هذه المرة، في تشغيل الزر الكهربائي، لاحظ تشنجاً واضحاً على وجه زبونه.

ـ أنت بخير يا سيد ويلز؟

ـ أشعر بشيء من الخوف. ليس الأمر مهماً.

ـ أهو الخوف من الظلمة؟

ـ بالضبط. لكن الوضع تحسن الآن.

قاموا بتفحص المكان. شقة في الطابق الأرضي من المبنى. مساحتها مئتا متر مربع. ارتاح لها جوناثان على قلة نوافذها المفضية إلى الخارج وعلى ضيق هذه النوافذ وقربها الشديد من السقف. الجدران رمادية قاتمة والغبار في كل مكان... لكن جوناثان ليس في موقع التعزز والتمنّع. فالشقة التي يسكن فيها حالياً أقل اتساعاً بخمسة أضعاف، ثم إنه لم يعد قادراً على دفع إيجارها لأن معمل الأقفال الذي كان يعمل فيه قد استغنى عن خدماته قبل أيام قليلة. لذا، فإن هذه الشقة التي ورثها بعد وفاة خاله ادمون كانت بالنسبة له كنعمة هبطت من السماء.

استقر بعد يومين لا غير في الرقم 3، شارع السيباريت، مع زوجته لوسي وإبنهما نيكولا وكلبهما «أورزازات». كاينش(*) ضئيل الحجم ومخصي(**).

ـ أنا، من جهتي، لا أنزعج من كل هذه الجدران الرمادية. قالت لوسي، وهي ترفع شعرها الغزير الأصهب. سنرتب التذويق كما نشاء. كل شيء هنا بحاجة إلى تغيير، كما ولو أننا نحول سجناً إلى فندق.

ـ أين هي غرفتي؟ سأل نيكولا.

ـ في آخر الممر. لجهة اليمين.

(*) فصيلة من الكلاب البيتية الصغيرة الحجم والطويلة الشعر.

(**) الإشارة مهمة جداً بما تزيل الإبهام واللغط فيما يتعلق بالمقاصد الحقيقية من اقتناء أنواع معينة من الحيوانات البيتية في المجتمعات الحديثة.

ـ واف، واف، أطلقها الكلب ثم طفق يعضعض ساقي لوسي غير عابىء بانشغال ذراعيها بحمل أواني المائدة التي حصلت عليها عند زواجها.

وللحال، تمّ سجنه في المرحاض وأقفل عليه الباب بالمفتاح لأنه كان يستطيع القفز حتى قبضة الباب، ويعرف كيفية تحريكها لفتحه.

ـ هل كنت تعرف خالك الكريم بشكل جيد؟ سألت لوسي.

ـ الخال ادمون؟ كل ما أتذكره هو أنه كان يلاعبني بلعبة الطائرة عندما كنت صغيراً. وقد أخافني ذلك كثيراً في إحدى المرات لدرجة أني بلت عليه.

يضحكون.

ـ كنت رعديداً منذ ذلك الوقت؟ قالتها لوسي ممازحة.

تظاهر جوناثان بأنه لم يسمع شيئاً.

ـ لم يحقد عليّ بسبب ذلك. كل ما فعله هو أن توجه إلى أمي قائلاً: «حسناً، نعرف الآن أننا لن نجعل منه طياراً. . .». فيما بعد، كانت أمي تقول لي بأنه يتتبع مسيرة حياتي بانتباه؛ غير أنني لم أره مطلقاً بعد ذلك.

ـ ما كانت مهنته؟

ـ كان عالماً. في البيولوجيا، على ما أظن.

ثم غرق جوناثان في الوجوم. فهو، في النهاية، لم يكن يعرف ولي نعمته.

على

بعد ستة كيلومترات من هناك:

بيلوكان،

الإرتفاع: متر واحد.

خمسون طابقاً تحت الأرض.

خمسون طابقاً فوق الأرض.

أكبر مدن المنطقة.

العدد التقديري للسكان: 18 مليوناً.

الإنتاج السنوي:

خمسون ليتراً من عسيل البرغتان(*) (Puceron).

عشرة ليترات من عسيل القِرمزية(**) (Cochenille).

أربعة كيلوغرامات من فطر الغاريقون.

كمية الحصى المنقول إلى الخارج: طن واحد.

طول الدهاليز السالكة: 120 كيلومتراً.

المساحة فوق سطح الأرض: متران مربعان.

شعاع ضوء يمر. قائمة تتحرك. إنها الحركة الأولى منذ الدخول في حالة الخدر الشتوي قبل ثلاثة أشهر. قائمة أخرى تتقدم ببطء. في طرفها مخلبان ينفرجان شيئاً فشيئاً. قائمة ثالثة

(*) بالعربية الفصحى هي أزقه أو حشرة المن.

(**) حشرة تضر بالأشجار المثمرة.

تتمدد. يظهر جذع الحشرة، ثم الحشرة بأكملها. ثم إثنتا عشرة حشرة.

الحشرات ترتجف لتمكن دمها الشفاف من الجريان في شبكات عروقها. الدم ينتقل من الحالة العجينية إلى الحالة المائعة ثم إلى الحالة السائلة. شيئاً فشيئاً تعود مِضَخَّة القلب إلى سابق عملها. إنها تدفع السائل الحيوي نحو نهايات الأطراف. الحرارة تدب في الأواليات العضوية، والتمفصلات البالغة التعقيد تدور حول محاورها. في جميع أنحاء الجسد تتحرك الكريات المفصلية داخل غلافاتها الواقية سعياً لبلوغ نقطة التمدد والإنحناء القصوى.

الحشرات تنهض. أجسامها تستعيد حيويتها. حركاتها مفككة ورقصها بطيء. إنها تنتفض وتند عنها ارتعاشات خفيفة. قوائمها الأمامية تجتمع أمام أفواهها كما ولو أنها تصلي. لا بل إنها تبلل مخالبها لتنظيف قرونها وتلميعها.

الحشرات الإثنتا عشرة التي استيقظت تحك أجساد بعضها البعض ثم تحاول إيقاظ جاراتها. لكنها لا تكاد تمتلك القوة اللازمة لتحريك أجسامها. ليس عندها ما تعطيه من الطاقة. تكف عن المحاولة.

تشق طريقها بعناء وسط أجساد أخواتها المتجمدة. تتجه نحو فضاء الخارج الرحب. لا بد لأجسادها ذات الدم البارد من التقاط الحريرات من كوكب النهار.

تتقدم بأجسامها المنهكة. كل خطوةٍ وجع. إنها شديدة

الرغبة بالعودة إلى النوم والهدوء، كالملايين من مثيلاتها إلاَّ، لا، هن أول من استيقظ. لا بدّ لهن الآن من إيقاظ المعسكر بأكمله.

إنها تعبر فوق سطح المعسكر. أشعة الشمس تغشي أبصارها ولكن اتصالها بالطاقة الصرفة يبعث فيها النشاط والهمة.

أيتها الشمس أدخلي إلى هياكلنا النَّخِرَة،

حركي عضلاتنا المتوجعة،

وحدي أفكارنا المشتتة.

إنها إحدى الترنيمات المعروفة عند النمل الأصهب. ترنيمة قديمة متوارثة منذ مئة ألف عام. حتى في ذلك الزمن، كانت النمال تستشعر الرغبة بالغناء عند أول اتصال لها بالحرارة.

إنها الآن في الهواء الطلق. تغتسل بدقة بالغة. تفرز لعاباً أبيض. تطلي به ملاقطها وقوائمها.

تفرك أجسامها. احتفالية كاملة لا تتغير. تبتديء من العينين بنفض الغبار عن الألف والثلاثمائة من الثقوب الصغيرة التي تتكون منها كل واحدة من عيونها الكروية. بعدها، يتم تضميخ العيون بالسائل ومن ثم تنشف. تعاد العملية ذاتها لتنظيف القرون والأطراف السفلية والأطراف الوسطى والأطراف العليا. تختتم العملية بتلميع الدروع الضخمة الصهباء حتى تشعشع كأنها نقاط من نار.

بين النمال الإثنتي عشرة التي استيقظت ذكر مهمته التخصيب. حجمه أصغر قليلاً من المتوسط المعروف عند

الشعب البيلوكاني. ملقطاه ضيقان وهو مبرمج ليعيش بضعة شهور وحسب. ولكنه يمتلك امتيازات غير معهودة عند بني جلدته.

أول الإمتيازات التي يتمتع بها في فئته، من حيث هو كائن ذو جنس، امتلاكه لخمس عيون. اثنتان كبيرتان مكورتان تسمحان له بالرواية في حقل باتساع 180 درجة، إضافة إلى ثلاث عيون صغيرة متمركزة على شكل مثلث وسط جبهته. وهذه العيون الزائدة عن الحد العادي هي في الحقيقة مستقبِلات ما تحت ـ حمراء تُمكن الذكر من الكشف من مسافة بعيدة عن أي مصدر للحرارة حتى ولو كان في الظلمة الحالكة.

وتتجلى القيمة الفريدة لهذه الخاصية في واقع أن معظم سكان معسكرات النمل الكبرى في هذا الألف المئة ألف(*) قد أصيبوا بالعمى الكامل بحكم قضاء حياتهم كلها تحت الأرض.

ولكن الذكر لا يتمتع بهذه الميزة وحسب. فهو يمتلك إلى ذلك (شأنه شأن الإناث) أجنحة تمكنه يوماً ما من الطيران بهدف ممارسة الحب.

كما أن جذعه محمي بحلقة هي عبارة عن درع خاص هو الجذع الأوسط.

أما قرونه فهي أكثر طولاً وحساسية من قرون السكان الآخرين.

(*) حساب الزمان غير مألوف بهذه الطريقة في اللغة العربية. يكفي لتصور الفارق الشاسع بين تاريخ النمل وتاريخنا أن ننطلق من أننا لا نزال في الألف الثاني من التقويم الغريغوري.

أمضى هذا الذكر الفتيُّ المخَصِّب برهة غير وجيزة فوق سطح التل الصغير وهو يصب حرارة الشمس وضوءها. ثم عاد إلى المعسكر بعد أن أحرز بغيته من الدفء. إنه الآن، وبشكل مؤقت، عنصر في فئة النمال التي تقوم بوظيفة «رواد الحرارة».

إنه يتجول الآن في ممرات الطابق السفلي الثالث. نمال هذا المكان لا تزال تغط في نوم عميق. الأجساد متجلدة وبلا حراك والقرون مشتبكة بغير نظام.

النمال لا تزال في عالم الأحلام.

الذكر الفتي يمد قائمته نحو إحدى العاملات بغية إيقاظها بحرارة جسده. الملامسة الدافئة تحدث شحنة كهربية ممتعة.

حفيف خطورة هامة يُسمع، بعد الدقة الثانية على الجرس. الباب يفتح ثم يغلق قليلاً لتتمكن الجدة أوغوستا من نزع سلسلة الأمان.

منذ موت ولديها والجدة تعيش على الذكريات القديمة في عزلتها داخل هذه الشقة الصغيرة ذات الثلاثين متراً مربعاً. لم يكن ذلك ليسعدها، ولكنه لم ينتقص مطلقاً من لطفها.

ـ أعرف أن ذلك شيء تافه. ومع ذلك، عليك أن تستعمل خُفَيَّ الإنزلاق لأنني لمعت خشب الأرضية.

صدع جوناثان بالأمر وشرعت الجدة تخب أمامه وهي تقوده نحو صالة غطيت جميع قطع الأثاث فيها بأغطية قماشية واقية.

جلس جوناثان على حافة الأريكة الكبيرة ولكنه أحبط في رغبته بعدم تسبب ثقله في إطلاق أي صرير من غطاء المقعد البلاستيكي.

ـ إنني جد فرحة لمقدمك. قد لا تصدقني، كنت أنوي الإتصال بك هذين اليومين.

ـ آه، صحيح؟

ـ تصور أن ادمون قد أودعني شيئاً يخصك. رسالة لك. قال لي: إذا مِتُّ، سيكون عليك تسليم هذه الرسالة إلى جوناثان بأي ثمن.

ـ رسالة؟

ـ رسالة، نعم، رسالة... همم، لم أعد أذكر أين وضعتها.

انتظر قليلاً... أعطاني الرسالة، قلت له بأنني سأضعها في مكان مناسب، وضعتها في علبة. لا بد وأنها إحدى علب التنك الموضوعة في الخزانة الكبيرة.

قامت وبدأت بالتحرك فوق خفي التزحلق. لكنها توقفت بعد الخطوة التزحلقية الثالثة.

ـ انتظر، كم أنا غبية! يا له من استقبال! هل لك بفنجان من زهورات اللويزة «ڤرڤين»؟(*).

(*) Verveine: أعشاب تغلى أوراقها بالماء للحصول على شراب مهدىء. وتسمى بالعربية عشبة رعى الحمام أو اللويزه.

ـ بكل سرور.

دخلت إلى المطبخ وسَمع صوت حركة الأواني.

ـ أخبرني عن أحوالك يا جوناثان. هتفت به من مكانها هناك.

ـ هأ! ليست على ما يرام. صُرفت من عملي.

أطلت الجدة برأسها من خلال الباب ثم أقبلت متجهمة وقد التفت بإزار طويل أزرق.

ـ صرفوك من العمل؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ تعرفين أن لمصنع الأقفال وضعاً خاصاً. شركة «**الخدمات الطارئة للأقفال**» التي اشتغل فيها تقدم خدماتها طيلة الليل والنهار في جميع أحياء باريس. وقد رفضت الذهاب ليلاً إلى الأحياء المشبوهة بعد تعرض أحد زملائي لاعتداء فصرفوني.

ـ حسناً فعلت. من الأفضل أن تكون عاطلاً عن العمل وبصحة جيدة من أن تكون على عكس ذلك.

ـ ثم إنني لم أكن في حالة وفاق مع المسؤول.

ـ وماذا حلّ بتجاربك الطوباوية. في زماننا، كنا نطلق على ذلك اسم «**كومونات العصر الجديد**» ـ **نيو آج**. (تضحك من

طرف خفي لأنها كانت تطلق العبارة بلفظ «نوياج»)(*).

ـ تركت ذلك بعد فشل المزرعة التي أقمناها في البيرينيه. لوسي عانت الأمرين من تحضير الطعام وجلي الأواني للجميع. كان بيننا بعض المتعيشين، فانتهينا إلى الشجار. أعيش حالياً مع لوسي ونيكولا لا غير... وأنتِ، يا جدتي، كيف حالك؟

ـ أنا؟ أعيش. وهذا يشغلني طيلة الوقت.

ـ إنك محظوظة! عشتِ الإنتقال من آخر الألف عام إلى بداية الألف التالي...

ـ أوه! ما يدهشني حقاً هو أن شيئاً لم يتغير. في السابق، عندما كنت فتاة يافعة، كنا نقول بأن أموراً غير عادية ستحصل بعد الإنتقال إلى الألف التالي. وكما تلاحظ، لم تحدث أية تطورات. هنالك دائماً أشخاص مسنون يعيشون وحشة العزلة، هنالك دائماً عاطلون عن العمل، هنالك دائماً سيارات تنفث الدخان. حتى الأفكار لم تتحرك. ألا تلاحظ أنهم رجعوا العام الماضي إلى اكتشاف السوريالية وعادوا، في العام السابق، إلى الروك أن رول؟ الصحف تبشرنا منذ الآن بالعودة الكبيرة إلى

(*) الكومونات: تجمعات من عدة أفراد من الجنسين يعيشون نوعاً من الحياة الإشتراكية في بيت أو شقة واسعة. ازدهر هذا النوع من التجارب بين بعض الفئات الشابة في الغرب خلال الستينات قبل أن يفضي إلى الفشل السريع. الواضح أن الجدة تسخر من هذه التجارب عندما تنطق العبارة بلفظ غير قواعدي مشتق من التلاعب بكلمات تندمج فيها معاني «البلادة» و «طبخة المعجنات»...

الميني ـ جوب في الصيف القادم. إذا استمرت الأمور على هذا المنوال فإنهم سيعودون قريباً إلى أفكار القرن الماضي من الشيوعية إلى التحليل النفسي والنسبية...

جوناثان يبتسم.

ـ ولكن بعض التقدم قد تمّ إحرازه: إرتفع متوسط الأعمار وازدادت حالات الطلاق ونسبة تلوث الهواء وأصبحت حظوظ أنفاق القطار (المترو) أكثر طولاً...

ـ تشرفنا. أنا كنت أعتقد بأن كل فرد سيمتلك طائرة خاصة تقلع عن الشرفة. عندما كنت صغيرة، كان الناس يخافون من الحرب الذرية. كانوا يخافون بشكل فظيع. تصور كيف يكون الموت في عمر مئة عام داخل محرقة فطر نووي هائل. موت مع الكوكب بكامله. كان ذلك الخوف شديد الوطأة. أما الآن، فإنني سأموت، بدلاً عن ذلك، كحبة بطاطا مهترئة. ولن يهتم أحد لموتي.

ـ لا يا جدتي، لا، أبداً.

تمسح جبينها.

ـ والطقس، فوق كل ذلك، شديد الحرارة. في زماننا، لم تكن حرارة الطقس تبلغ مثل هذا الارتفاع. كان الشتاء شتاءً حقيقياً والصيف صيفاً حقيقياً. أما الآن، فإن القيظ اللاهب يبدأ مع حلول آذار/ مارس.

تعود إلى المطبخ وتتقافز وهي تلتقط، بإحكام ورشاقة غير

عاديين، جميع الأدوات اللازمة لتحضير فنجان حقيقي ولذيذ من زهورات اللويزة. وبعد أن تشعل عود ثقاب ويسمع صفير الغاز في الأنابيب القديمة داخل جهاز الطبخ، ترجع إلى الصالة أكثر إنشراحاً بكثير من ذي قبل.

ـ ولكن، لا بد وأنك جئت لسبب محدد. إذ لا أحد، في أيامنا هذه، يزور الأشخاص المسنين للاشيء.

ـ لا تكوني قاسية هكذا، يا جدتي.

ـ لست قاسية ولكنني أعرف في أي عالم أعيش. هيا، كف عن الرياء وقل لي لم أتيت؟

ـ أود أن تحدثيني «عنه». أورثني شقته وأنا لا أعرفه بالمرة...

ـ تقصد ادمون؟ ألا تتذكر ادمون؟ مع أنه كان يلاعبك بلعبة الطائرة عندما كنت صغيراً. أتذكر أنه في إحدى المرات...

ـ أجل، أنا أيضاً أتذكر ذلك، ولكنني لا أتذكر شيئاً غير تلك القصة.

جلست فوق مقعد كبير وهي تبذل أقصى جهدها لكي لا يتجعد غطاؤه القماشي.

ـ ادمون، إنه، هم... كان شخصية فريدة. حتى في صغره، كان خالك يسبب لي الكثير من المتاعب. أن أكون أمه، لم يكن ذلك بالأمر السهل، بالنسبة لي. على سبيل المثال، كان يكسر جميع لعبه دون استثناء ويفككها ولا يعود إلى تركيبها إلاً

في الحالات النادرة. ولو أنه كان يكتفي بتكسير اللُّعب! كان يفكك كل شيء، من الساعة المنبهة إلى جهاز إدارة الأسطوانات، إلى فرشاة الأسنان الكهربائية. بلغ به الأمر مرة حد تفكيك الثلاجة.

أرسل رقاص الساعة القديم دقاته الثقيلة في فضاء الصالة كما ولو أنه يقدم تأكيداً لما قالته. فالرقاص أيضاً عانى الأمرين من الصغير ادمون.

ـ ثم إنه كان مهووساً بشيء آخر هو بناء الجحور. كان يقلب المنزل رأساً على عقب لبناء الملاجيء والملاذات. بنى لنفسه ملاذاً فوق السدة من قماش الأغطية والمظلات. وبنى ملاذاً آخر في غرفته من الكراسي ومعاطف الفرو. كان يحب البقاء قابعاً هكذا داخل ملاذاته وسط الكنوز التي كان يراكمها فيها. نظرت مرة فوجدتها مليئة بالمخدات وبكل ما هبّ ودبّ من القطع التي كان ينتزعها من مختلف أنواع الآلات. ومع ذلك، كانت تلك الأشياء تبدو لطيفة جداً.

ـ جميع الأولاد يفعلون ذلك. . .

ـ ربما، ولكن هذه الأفعال كانت تأخذ عنده أبعاداً مدهشة. فقد كفّ عن النوم في سريره وصار لا يقبل النوم خارج تلك الأعشاش. كان يحدث له أن يبقى داخل إحداها أياماً كاملة دون حراك. كما ولو أنه في حالة خدر. كانت أمك تقول بأنه ربما كان سنجاباً في حياة سابقة.

ابتسم جوناثان لكي يشجعها على الاستمرار.

ـ أراد، في إحدى المرات، أن يبني وكره بين قوائم الطاولة، طاولة الصالة. تلك المحاولة كانت النقطة التي طفح لها الكيل. جدك انفجر غيظاً، على غير عادته، فضربه على قفاه وخرّب أعشاشه وأجبره على النوم في سريره.

تنهدت.

ـ ومنذ ذلك اليوم، انفلت منا بلا رجعة. كما ولو أن حبل السرة انقطع بيننا وبينه. لم يعد لنا وجود في عالمه. ولكنني أعتقد بأن تلك التجربة كانت ضرورية. كان لا بد له من أن يعرف أن العالم لن يستجيب على الدوام لنزواته. في ما بعد، عندما كبر، أدى ذلك الوضع إلى حدوث مشاكل. لم يكن يتحمل المدرسة. ستقول لي بأن «الأولاد جميعاً هم كذلك». ولكن ذلك كان يأخذ عنده أبعاداً أكثر خطورة. هل تعرف أولاداً يشنقون أنفسهم بحزامهم في المرحاض لأن المدرس عبس في وجوههم؟ لقد شنق نفسه في السابعة من عمره ولكن عامل النظافة أنقذه من الموت.

ـ ربما كان مفرط الحساسية. . .

ـ حساسية؟ هذا وهم. في العام التالي، حاول طعن أحد معلميه بالمقص. صوب ضربته نحو القلب ولكن الضربة لم تتلف غير علبة السجائر الجلدية. لحسن الحظ.

رفعت عينيها نحو السقف. ذكريات مشتتة كانت تتساقط على فكرها كنتف الثلج.

ـ لكن الأمور تحسنت بعض الشيء فيما بعد لأن بعض

المدرسين كانوا يمتلكون القدرة على إثارة اهتمامه. كان يحصل على عشرين علامة في المواد التي تهمه وعلى صفر في جميع المواد الأخرى. صفر أو عشرون ولا شيء غير ذلك.

- أمي كانت تقول بأنه كان رائعاً.

- كان يثير إعجاب أمك لأنه شرح لها مرة كيف يحاول تحصيل «المعرفة المطلقة». كانت أمك تعتقد، منذ سن العاشرة، بأن الإنسان يعيش حيوات سابقة قبل حياتنا هذه. لذا، كانت تظن بأنه قد يكون تجسداً لانشتاين أو لليوناردو دافينتشي.

- فوق كونه تجسداً لسنجاب؟

- لم لا؟ كان بوذا يقول بأنه «لا بد من حيوات عديدة لكي تتشكل النفس...».

- هل أُجريت له اختبارات الذكاء؟

- أجل. ولكن النتيجة كانت سيئة جداً. نال ثلاثاً وعشرين علامة من مئة وثمانين مما يعني، بحسب الاختبار، بأنه يعاني من عته خفيف. المربون اعتبروه مجنوناً وقالوا بضرورة إلحاقه بأحد المراكز المختصة. ومع ذلك، كنت أعرف تماماً بأنه ليس مجنوناً. كان، على وجه الدقة، «على حدة». أتذكر، في إحدى المرات، أوه! لا بد أنه كان في الحادية عشرة من عمره. تحداني يومها بأن أشكل أربعة مثلثات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب لا غير. لم يكن الأمر سهلاً. حاول أنت القيام بذلك لكي أرى...

ذهبت مجدداً إلى المطبخ. ألقت نظرة على إبريق غلي الماء وأحضرت ستة عيدان ثقاب. تردد جوناثان قليلاً. كان الأمر يبدو قابلاً للتحقيق. ركب العيدان الستة بطرق مختلفة ولكنه توقف بعد ست دقائق من البحث غير المجدي.

ـ كيف نصل إلى الحل؟

الجدة أوغوستا ركزت تفكيرها وقالت:

ـ في الحقيقة، لم يكشف لي مطلقاً عن الحل. لا أتذكر غير العبارة التي قالها لي لمساعدتي على إيجاد الحل: «يجب التفكير بطريقة أخرى؛ إذا فكرنا بالطريقة الإعتيادية لا نصل إلى شيء». هل تتصور أن صبياً بعمر أحد عشر عاماً يقول مثل هذه الأشياء؟! آه، أظن أنني أسمع صفير إبريق الغلي. لا بدّ أن الماء قد أصبح ساخناً.

عادت بفنجانين مليئين بسائل مائل إلى الصفرة ذي رائحة قوية.

ـ أتدري؟ ما تبديه من الاهتمام بخالك يسعدني كثيراً. في هذه الأيام يموت الناس ولا يعلم أحد أنهم ولدوا.

ترك جوناثان عيدان الثقاب وارتشف، بلياقة، عدة جرعات من اللويزة «الفيرفين».

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا أعلم. انقطعت أخباره عندما بدأ الدراسة في جامعة

العلوم. سمعت من أمك أخباراً مبهمة مفادها أنه أنهى الدكتوراه بتفوق وبأنه عمل في شركة للمنتجات الغذائية ثم تركها وسافر إلى افريقيا وسكن بعد عودته في شارع السيباريت حيث لم نسمع عنه شيئاً حتى وفاته.

ـ كيف مات؟

ـ آه! لا نعلم؟! شيء لا يصدق. الصحف تحدثت عن ذلك. تصور! قتلته الدبابير.

ـ الدبابير؟ كيف ذلك؟

ـ كان يتجول في الغابة. يبدو أنه اصطدم بقفيرها من غير انتباه فانقضّت عليه بمجموعها. قال الطبيب الشرعي بأنه لم ير في حياته كلها عدداً مماثلاً من اللسعات على جسد شخص واحد! نسبة السم في دمه كانت 0,3 غرام لليتر الواحد. شيء لا مثيل له.

ـ وهل له قبر؟

ـ لا. طلب أن يُدفن تحت شجرة صنوبر في الغابة.

ـ هل عندك صورة له؟

ـ انظر، هناك على الحائط، فوق الصوان. سوزي، أمك، لجهة اليمين (هل سبق لك ورأيتها وهي شابة هكذا؟) وادمون، لجهة اليسار.

مقدم رأسه خال من الشعر، شارباه صغيران ومروسان، أذناه

بلا شحمتين، على طريقة كافكا(*)، وترتفعان إلى مستوى أعلى من مستوى الحاجبين. كان يبتسم بمكر. شيطان حقيقي صغير.

إلى جانبه، كانت لوسي باهرة الجمال في ثوبها الأبيض. تزوجت بعد سنوات ولكنها تمسكت، على الدوام، باسم عائلتها «ويلز». كما ولو أنها لم تكن ترغب في أن يترك زوجها آثار اسمه على نسلهما.

اقترب جوناثان من الصورة فلاحظ أن ادمون يرفع إصبعيه فوق رأس شقيقته.

ـ كان ماكراً بلا خبث، أليس كذلك؟

أوغوستا لاذت بالصمت. كانت غمامة حزن قد لفت نظراتها بعد أن التقت عيناها بوجه إبنتها الوضيء في الصورة. ماتت سوزي قبل ست سنوات. شاحنة من وزن خمسة عشر طناً يقودها سائق سكران صدمت سيارتها وألقتها في جرف على جانب الطريق. نازعت الموت طوال يومين. طلبت رؤية ادمون ولكنه لم يأت. كان غائباً، على جري عادته...

ـ هل تعرفين أشخاصاً آخرين يمكنهم أن يحدثوني عن ادمون؟

(*) Franz Kafka (1883 ـ 1924): كاتب تشيكي كتب بالالمانية. ترك سيرة ذاتية ومجموعة من الأعمال القصصية ركز فيها على المعنى الكارثي لوجود بشري تتلاطم فيه تهويمات العالم الحديث وهواجسه في محيط محكوم بالبحث المحموم والضياع والشعور بالذنب والعجز عن تحقيق الذات.

ـ همم. . . كان له صديق من أيام طفولته وكان يلتقي به في كثير من الأحيان. كانا معاً في الجامعة أيضاً. اسمه جازون براجيل. لا بد وأن رقم هاتفه لا يزال عندي.

بحثت أوغوستا بسرعة في جهاز الحاسوب فوجدت عنوان ذلك الصديق وأعطته لجوناثان وهي تلحظه بحنان. إنه آخر أفراد عائلة ويلز الذين ما زالوا على قيد الحياة. إنه شاب جيد.

ـ هيا، إنك لم تنته من احتساء الشراب، لا تدعه يبرد. عندي أيضاً بعض من بسكوت «المادلين». هل لك بشيء منه؟ إني أحضره بنفسي وأستخدم فيه بيض طائر الفرّي.

ـ لا ، شكراً، عليّ أن أذهب. مرّي يوماً ما لرؤيتنا في شقتنا الجديدة. لقد انتهينا من نقل أمتعتنا إليها.

ـ حسناً، ولكن انتظر. لم أعطك الرسالة بعد.

استبسلت في البحث عن الرسالة داخل الخزانة الكبيرة وفي علب التنك فعثرت، أخيراً، على مظروف أبيض كتب عليه بخط مضطرب: «إلى جوناثان ويلز». كان المظروف مقفلاً وقد ألصقت على فتحته عدة طبقات من الأوراق اللاصقة منعاً لأية محاولة تطفلية لفتحه. مزق جوناثان المظروف بعناية فسقطت منه ورقة مدعوكة من النوع المستعمل في دفاتر تلامذة المدارس. قرأ الجملة الوحيدة المكتوبة على الورقة:

«إحذر خصوصاً من النزول إلى القبو!».

قرون النملة تهتز. إنها تشبه سيارة نحاول إدارة محركها بعد أن تُركت لفترة طويلة تحت الثلوج المنهمرة. الذكر يعاود المحاولة عدة مرات. يدلكها ويضمخ جسمها بلعابه الحار، وهكذا. . .

الحياة! المحرك يبدأ بالدوران من جديد. فصل انتهى وكل شيء بدأ بالتجدد كما ولو أن النملة لم تمر بذلك «الموت الصغير».

إنه يواصل تدليكها ليزودها بحريرات أخرى. أصبح وضعها جيداً الآن. وبينما كان يواصل عمله، مدت النملة قرونها باتجاهه. إنها تتحسسه. تحاول التعرف على هويته.

تتلمس المنطقة الأولى من جسده إنطلاقاً من جمجمته وتتعرف على عمره: 173 يوماً. العاملة العمياء تتلمس المنطقة الثانية فتتعرف على فئته: ذكر مخصب. المنطقة الثالثة، فصيلته ومعسكره: نملة صهباء من النوع الذي يعيش في الغابات، متحدرة من مدينة المنشأ، بيل ـ أو ـ كان. تتلمس المنطقة الرابعة فتتعرف على رقم البيضة التي خرج منها والذي يرمز إليه: إنه الذكر السابع والعشرون بعد المائة الثالثة والذي باضته أمه منذ بداية الخريف.

هنا تتوقف النملة عن متابعة الإستبار الشميّ. فالمناطق المتبقية ليست مشحونة بمعلومات قابلة للبث. المنطقة الخامسة تستخدم لتلقي الجزيئات الدالة على إشارات الطرق. المنطقة السادسة تستخدم في أشكال الحوار البسيط. السابعة تسمح بإجراء أشكال الحوار المعقد ذي الطابع الجنسي. الثامنة مخصصة للحوار مع الأم. المناطق الثلاث الأخيرة تستخدم كهراوات صغيرة.

وهكذا، إنتهت من استكشاف المناطق الإحدى عشرة من النصف الثاني من قرن الذكر. ليس عندها ما تقوله له. تبتعد عنه وتنطلق لتدفيء جسدها فوق سطح المعسكر.

أما هو فيعود إلى المهمة نفسها. وبعد إنهاء عمله كرسول حراري، ينتقل إلى أعمال الترميم.

الذكر رقم 327 يصعد إلى السطح حيث يكتشف حصول بعض الأضرار. فالمعسكر كان مبنيّاً بشكل مخروطي لمقاومة تأثير التقلبات الجوية. ولكن الشتاء المنصرم كان مدمراً للغاية. فالريح والثلج والبَرَد اقتلعت الطبقة السطحية المكونة من الغصينات الصغيرة. روث العصافير سد بعض المداخل. لا بد من الإسراع إلى العمل. الرقم 327 يندفع نحو بقعة صفراء كبيرة ويهاجم المادة الصلبة والكريهة الرائحة بملقطيه. من الجانب الآخر يظهر، من خلال شفافية الحاجز، شبح حشرة أخرى وهي تحفر إنطلاقاً من الداخل.

أظلمت فتحة الضوء الصغيرة في منظار الباب. هذا يعني أن هنالك من ينظر إليه من الداخل.

ـ من هناك؟

ـ أنا السيد غويني... جئت بخصوص الغلاف.

فُتح الباب بعض الشيء وخفض المدعو غويني نظرته ليرى صبياً أشقر في حدود العاشرة من عمره، ثم خفض نظرته أيضاً ليرى كلباً ضئيلاً وهو يدسّ رأسه بين ساقي الصبي ويبدأ بإطلاق نخيره الخافت.

ـ أبي ليس هنا!

ـ هل أنت متأكد؟ كان من المفروض أن يمر البروفسور ويلز لرؤيتي و...

ـ البروفسور ويلز هو خال أبي وقد توفي.

همَّ نيكولا بإغلاق الباب ولكن الرجل مدّ رجله إلى الداخل بإصرار.

ـ تعازيَّ المخلصة. ولكن هل أنت متأكد من أنه لم يترك مغلفاً كبيراً مليئاً بالأوراق؟ إنني أعمل في صنع غلافات الكتب وقد دفع لي سلفاً أجرة صنع غلاف جلدي لبعض كتاباته. كان يريد تكوين موسوعة على ما أظن. كان من المفروض أن يمر لرؤيتي ولكنني لم أره منذ مدة طويلة...

ـ قلت لك بأنه قد مات.

أقحم الرجل قدمه أكثر من ذي قبل وضغط بركبته على الباب كما ولو أنه يريد الدخول بزحزحة الصبي عن مكانه. عندها شرع الكلب، الذي كان حجمه قد ازداد تضاؤلاً، بإطلاق نباح غاضب فجمد الرجل في مكانه.

ـ افهمني، يؤذيني كثيراً عدم الوفاء بوعودي حتى ولو كنت قطعتها لشخص فارق الحياة. تحقق، من فضلك. لا بد وأن مغلفاً ضخماً أحمر اللون موجود في مكان ما.

ـ قلت آنفاً بأنك تبحث عن موسوعة؟

ـ أجل. هو نفسه كان يطلق على تلك الكتابات اسم «موسوعة العلم النسبي والمطلق». ولكنني أستبعد كثيراً أن تكون هذه العبارة مكتوبة على الغلاف...

ـ لو كانت موجودة عندنا لكنا رأيناها.

ـ عذراً على الإلحاح لأنني...

عاد الكلب الصغير إلى إطلاق نباحه من جديد. تراجع الرجل قليلاً إلى الوراء فكان ذلك كافياً لإغلاق الباب في وجهه.

ها قد استيقظ معسكر النمل بكامله. الممرات تعج بـ «الرسل الحرارية» المنهمكة بتدفئة سائر القطيع. غير أن بعض المواطنات ما زلن بلا حراك هنا وهناك على المفترقات. عبثاً حاولت الرسل الحرارية تحريكها، وصلت إلى حد ضربها، ولكنها لم تتحرك.

ولن تتحرك أبداً. لقد ماتت، قضت عليها فترة الخدر الشتوي، إذ أن مواصلة الحياة لمدة ثلاثة أشهر بالاعتماد على قلب توقفت حركته، من الناحية العملية، ليست أمراً عديم الخطورة. ماتت من غير ألم. انتقلت من نومها إلى مَصَارعها خلال لحظة هبت فيها الريح حول المعسكر. أُخرجت جثثها ورُميت في مستودع القاذورات. كل صباح يتخلص المعسكر من خلاياه الميتة بهذه الطريقة ويرميها مع القاذورات الأخرى.

بعد تنظيف الطرقات من الأوساخ، تصبح مدينة الحشرات بنبض الحركة. القوائم تتحرك مسرعة في كل مكان. الملاقط تحفر والقرون تنتعص بالمعلومات. كل شيء يعود كما كان قبل شتاء الخدر.

كان الذكر رقم 327 يجر غصيناً يزيد، بالتأكيد، على وزن جسمه بستين ضعفاً، عندما اقتربت منه نملة محاربة يزيد عمرها عن خمسمائة يوم. تلمست جمجمته بالمنطقة الهراوية من قرنها بهدف إثارة انتباهه. رفع رأسه نحوها. شبكت قرونها بقرونه.

تريد منه أن يترك أعمال ترميم السطح التي كان يقوم بها ليرافق مجموعة من النمل في... مهمة صيد.

يلمس فمها وعينيها.

أية مهمة صيد؟

تقرب من متناول حاسة الشم عنده قطعة لحم جافة كانت تخبؤها في إحدى طيات مفصل جذعها.

يبدو أنهم عثروا على هذا مباشرة قبل حلول الشتاء في المنطقة الغربية على زاوية 23 درجة بالنسبة لشمس الظهيرة.

يتذوق اللحم. لحم حشرة من فصيلة مغمدات الأجنحة دون ريب، الحشرة النضارية chrisomèle، على وجه الدقة. شيء غريب. لم يئن بعد وقت خروج المغمدات من الخدر الشتوي. فالكل يعلم أن النمل الأصهب ينهض من الخدر عندما تصل حرارة الهواء إلى 12 درجة، والأرضة تنهض عند بلوغها 13 درجة والذباب 14 درجة والمغمديات 15 درجة.

المحاربة العجوز لا تتراجع أمام هذه الحجة. تشرح له أن قطعة اللحم قد أُحضرت من منطقة غير عادية، منطقة ترتفع الحرارة فيها بفضل منبع للمياه المتفجرة تحت الأرض. لا شتاء في تلك المنطقة بل مناخ خاص تنمو فيه حياة حيوانية ونباتية خاصة.

ثم إن المدينة ـ القطيع تكون شديدة الجوع عند استيقاظها. فهي سرعان ما تحتاج إلى البروتيين لتأمين القدرة على المشي. الحرارة وحدها لا تكفي.

تضم المجموعة ثمانية وعشرين نملة من فئة المحاربات. أغلبيتها لا جنس لها، كالمحاربة التي حملت الرسالة إلى الذكر. الذكر رقم 327 هو العنصر الجنسي الوحيد في المجموعة. إنه يتفحص رفيقاته عن بُعد من خلال غربال عيونه.

عين النملة لها آلاف الأوجه الصغيرة. لكن الصورة التي تراها لا تتكرر آلاف المرات، بل تراها مرة واحدة ولكن بشكل مشابه لما يبدو عليه الشيء عندما نراه من خلال شبكة. يصعب على تلك الحشرات تمييز التفاصيل ولكنها، بالمقابل، تلاحظ أدق الحركات وأصغرها.

كل شيء يدل على أن المستكشفات اللواتي تتكون منهن البعثة المكلفة بتنفيذ المهمة متمرسات، كلهن، بالأسفار الطويلة. بطونهن مثقلة بالحوامض القاتلة. رؤوسهن مدججة بالأسلحة الفتاكة. دروعهن مثلمة لكثرة ما تعرضت لضربات الملاقط في المعارك.

الرتل يتقدم في خط مستقيم منذ عدة ساعات. يطوي خلفه عدة مدن تابعة للفيدرالية. مدن تنتصب عالياً في السماء أو تحت الأشجار. مدن

متحدرة من أسرة «ني»: يودو ـ لو ـ بايكان (الأولى في إنتاج الحبوب)؛ جيو ـ لي؛ أيكان (فيالق محارباتها هزمت منذ عامين تحالف مساكن الأرضة في الجنوب)؛ زيدي ـ باي ـ ناكان (مشهورة بمختبراتها الكيماوية القادرة على إنتاج حوامض حربية شديدة التركيز) بالي ـ فيو ـ كان (الكحول التي تنتجها من عسيل لها طعم الصمغ المرغوب جداً).

النمل الأصهب لا يعتمد نظام المدن فحسب. فهو يقيم نظاماً على أساس تجمعات المدن. الإتحاد قوة. فقد لوحظ، في منطقة الجوار [الفرنسية]، وجود فيدرليات نمل أصهب تضم 15 ألف معسكر فوق مساحة تغطي 80 هكتاراً ويبلغ مجموع سكانها أكثر من 200 مليون رأس.

بيل ـ او ـ كان لم تصل بعد إلى هذا المستوى من الضخامة. إنها فيدرالية ناشئة تحدرت من أسرة أصلية تشكلت قبل خمسة آلاف عام. تقول الميتولوجيا المحلية أن نملة تائهة ألقت رحالها هنا بعد أن فصلتها عن أمتها عاصفة رهيبة فأسست بيل ـ أو ـ كان ومن بيل ـ أو ـ كان تحدرت الفيدرالية ومئات الأجيال من ملكات الـ «ني» التي كونتها.

بيلو ـ كيو ـ كيوني. ذلك هو إسم تلك الملكة الأولى. «الملكة التائهة»؛ ذلك ما يعنيه ذلك الإسم. ولكن جميع الملكات اللواتي تبوأن العش المركزي أطلقن ذلك الإسم على أنفسهن.

بيل ـ أو ـ كان لا تضم حالياً غير مدينة مركزية كبيرة وتجمعاً من 64 مدينة أصغر متحدرة من المدينة المركزية ومتناثرة حول أطرافها. ولكن بيل ـ أو ـ كان قد وصلت الآن إلى حد فرض نفسها كأكبر قوة سياسية في ذلك الجزء من غابة فونتينبلو(*).

بعد تجاوز المدن الحليفة وخصوصاً لا ـ شولا ـ كان، آخر المدن البيلوكانية لجهة الغرب، تشرف مجموعة المستكشفات على بضع تلعات صغيرة: إنها أعشاش الصيف أو «المواقع المتقدمة». لم يصل إليها أحد

(*) فونتينبلو: غابة تقع جنوبي العاصمة الفرنسية.

بعد. لكن الرقم 327 يعرف أنها ستمتلىء بالمحاربات قريباً، مع موسم الصيد والحروب.

يتابعن سيرهن بخط مستقيم. المجموعة تنحدر لتجتاز مرجاً فسيحاً لازوردي اللون ثم تُصَعِّد لتجتاز أكمة أحاط بحفافيها الشوك. إنهن يغادرن الآن منطقة الأراضي التي تشكل مجال الصيد. المدينة المعادية شي - غاي - بو تبدأ بالظهور. بعيداً. لجهة الشمال. لا بد وأن سكانها ما زالوا يغطون في النوم في هذا الوقت.

يتابعن المسير. معظم الحيوانات حولهن لا تزال أسيرة النوم الشتوي. بعض الحيوانات التي بكرت في النهوض تطل برؤوسها من جحورها المتناثرة هنا وهناك. ولكنها تختبيء مذعورة لمجرد رؤية المدرعات الصهباء. فالنمال ليست موصوفة بأنها من النوع الذي يُرغب عادة باستضافته. خصوصاً عندما يتقدمن بهذه الطريقة وهنّ مدججات بالسلاح حتى أعالي قرونهن.

المستشكفات يصلن الآن إلى أقصى حدود الأراضي المعروفة. ليست أمامهن أية مدينة حليفة. ليس في الأفق أي موقع متقدم. ليسَ هنالك أية طريقة سبق وشقتها القوائم المدببة. بالكاد يعثرن على آثار قد عَفَتْ لبعض طرقات قديمة تدل روائحها على أن البيلوكانيات سبق لهنّ أن مررن من هنا.

يترددن. أوراق النبات التي تنتصب أمامهن غير واردة على أية خارطة شمّية معروفة من قبلهن. إنها تشكل سقفاً لا يتخلله الضوء ليزيل ما تحته من ظل قاتم. هذه الكتلة النباتية التي أنبت في أنحائها حضور حيواني أكيد تبدو جاهزة لالتقام النمال المقتربة.

كيف يمكن إنذارهم بعدم النزول إلى القبو؟

خلع سترته وعانق أفراد العائلة.

ـ هل فرغتم من توضيب الأمتعة؟

ـ نعم، يا أبي.

ـ حسناً. هل رأيتم المطبخ؟ يوجد باب في أقصاه.

ـ كنت، بالضبط، أريد أن أعلمك عنه، قالت لوسي. لا بد أنه يفضي إلى قبو. حاولت فتحه، ولكنه مقفل بمفتاح. فيه ثقب كبير؛ لا نرى من خلاله شيئاً واضحاً. ولكن يبدو أن وراءه مكاناً عميقاً. سيكون عليك أن تكسر القفل. هنالك، على الأقل، فائدة ما من كونك خبيراً بالأقفال!.

تبتسم ثم تقترب لتتهالك بين ذراعيه. لوسي وجوناثان يعيشان معاً منذ ثلاثة عشر عاماً. التقيا في نفق القطار (المترو) كان أحد السفلة قد ألقى قنبلة مسيلة للدموع في العربة، لا لشيء إلاّ لتزجية الوقت. وعلى الفور، ألقى جميع الركاب بأنفسهم فوق أرض العربة وهم يبكون ويسعلون بشكل يكاد فيه أن تخرج أحشاءهم من مواضعها. لوسي وجوناثان سقطا هما أيضاً أحدهما فوق الآخر. وبعد زوال نوبة السعال والدموع، اقترح جوناثان على لوسي مساعدتها في الرجوع إلى منزلها. وبعد ذلك، دعاها إلى إحدى أوائل كوموناته الطوباوية في شقة قريبة من محطة القطارات «غار دو نور» بباريس. قررا الزواج بعد ذلك بثلاثة أشهر.

ـ لا.

ـ ماذا تعني بقولك «لا»؟

ـ لا، لن نكسر القفل ولن نستعمل ذلك القبو. لن نعود إلى

الكلام عن ذلك. لا ينبغي الإقراب من الباب بعد الآن و، خصوصاً، لا ينبغي التفكير بفتحه.

ـ هل تمزح؟ ماذا تقصد؟

لم يكن جوناثان قد فكّر في كيفية إعداد طرح منطقي حول موضوع الإبتعاد عن القبور. ودونما إرادة منه، خلق وضعاً أدى إلى عكس ما كان يرغب به بإثارة الحيرة والتساؤل عند زوجته وإبنه. ماذا يمكنه أن يفعل الآن؟ هل يخبرهما بالسر المتعلق بخاله المتوفى وبرغبة هذا الأخير في عدم النزول إلى القبو؟

لا. ليس ذلك كافياً لإقناعهما، لأن مثل هذا التفسير سيعتبر خرافياً في أحسن الأحوال. فالبشر يحبون المنطق ولن يفلح هذا التفسير مطلقاً في إقناع لوسي ونيكولا.

قال جوناثان متلعثماً:

ـ الكاتب العدل هو الذي حذرني.

ـ مَن حذرك؟ ومن أي شيء حذرك؟

ـ هذا القبو مليء بالجراذين!

ـ جراذين؟ يا للقرف! إنها ستعبر إلينا من الثقب، بكل تأكيد. قال الصبي محتجاً.

ـ لا تقلقوا، سنسد جميع الثقوب.

لم يكن جوناثان مستاءً من التأثير السريع الذي أحدثته قصته. إنه محفوظ جداً بالعثور على فكرة الجرذان.

ـ طيب، اتفقنا. لن يقترب أحد من القبو. أليس كذلك؟

توجه نحو غرفة الإستحمام. لحقت به لوسي على الفور.

ـ هل ذهبت لرؤية جدتك؟

ـ بالضبط.

ـ واستغرق ذلك طيلة الغداة؟

ـ بالضبط، مجدداً!

ـ لن تمضي وقتك بالتسكع هكذا. هل تذكر ما كنت تقوله للآخرين في مزرعة البيرينيه: «البطالة أمُّ الرذائل». عليك أن تجد عملاً. المال الذي نملكه يتناقص.

ـ ورثنا شقة من مايتي متر مربع في حي راقٍ بمحاذاة الغابة، ثم تأتين لتكلميني عن العمل! ألا تستطيعين تذوق اللحظة الراهنة؟

إقترب ليضمها إليه فتراجعت.

ـ أعرف طبعاً. ولكنني أعرف أيضاً كيفية التفكير بالمستقبل. ليس لي، من جهتي، أي وضع يمكنني أن أستفيد منه. أما أنت، فعاطل عن العمل. كيف سنعيش بعد عام؟

ـ لا نزال نمتلك بعض المال الاحتياطي.

ـ لا تكن بهذه البلاهة. عندنا ما يقيم أودنا لبضعة أشهر، وبعد ذلك...

ركزت قبضتيها الصغيرتين فوق خاصرتيها ونفخت صدرها.

ـ إسمع يا جوناثان، خسرت عملك لأنك لم تشأ الذهاب ليلاً إلى الأحياء الخطرة. وافقنا. أتَفَهَّمُ ذلك. والآن عليك أن تجد عملاً في مكان آخر!.

ـ بالتأكيد. سوف أبحث عن عمل. أمهليني فقط حتى أقَلِّب أفكاري. أعدك بأنني سأقوم بعد ذلك، لنقل بعد شهر واحد، بوضع إعلانات مبوّبة.

رأس أشقر يظهر من شق الباب. يظهر الكلب الصغير على الأثر. إنهما نيكولا واورزازات.

ـ حضر رجل قبل قليل وقال بأنه يريد تغليف كتاب.

ـ كتاب؟ أي كتاب؟

ـ لا أدري. كلمني عن موسوعة كبيرة كتبها الخال ادمون.

ـ آه، هكذا إذن... وهل دخل؟ هل وجدتم الموسوعة؟

ـ لا. لم تكن تبدو عليه سيماء اللطف. وبما أن الكتاب غير موجود على كل حال...

ـ حسناً، أيها الابن. أحسنت صنعاً.

الخبر أثار حيرة جوناثان وتساؤلاته. فحص كل مكان في الطابق الماتحت ـ أرضي دون جدوى. أمضى بعد ذلك برهة غير قصيرة في المطبخ وهو يدقق في باب القبو. ما هو السر المخبأ خلف هذا القفل الضخم وهذا الثقب الواسع؟

يجب الدخول في هذا الدغل.

فكرة طرحتها إحدى المستكشفات المتقدمات في السن. التشكيل المسمى «حية ذات رأس كبير» هو أفضل وسيلة للتقدم داخل الأراضي غير المضيافة. إجماع فوري، الفكرة ولدت في رؤوس الجميع في وقت واحد.

في المقدمة، أخذت ثلاث رائدات شكل مثلث مقلوب لتشكل بذلك الأداة البصرية للمجموعة. مشين بخطوات متمهلة وموزونة. يتحسسن الأرض، يتنشقن السماء، يتفحصن الطحلب. إذا كان كل شيء على ما يرام، فإنهن سيرسلن إشارة شمية معناها: «لا شيء أمامنا!» يعدن بعد ذلك إلى المؤخرة ويتم استبدالهن بأفراد «جدد». نظام التبديل هذا يحوّل المجموعة إلى شيء شبيه بحيوان طويل مجهّز بأنف بالغ الحساسية على الدوام.

إشارة «لا شيء أمامنا»: سجلت بشكل واضح عشرين مرة. المرة الحادية والعشرون قوطعت بصوت يثير الرغبة بالتقيؤ. فقد اقتربت إحدى الرائدات، بغير حذر، من إحدى النباتات آكلات اللحوم. من فصيلة آكلات الهوام. جذبت النملة برائحتها المسكرة فعلقت قوائمها بصمغ النبتة.

لا أمل بالخلاص. فالاحتكاك بالشعيرات يشغل أوالية المفصَّلة العضوية وعندها تنطبق الورقتان العريضتان المتصلتان على بعضهما البعض بشكل لا مندوحة منه. أهدابها الطويلة تقوم مقام الأسنان وعندما تتشابك في بعضها البعض، تتحول إلى قضبان صلبة كقضبان الأقفاص الحديدية. وعندما تصبح الفريسة مفلطحة كالرقاقة تفرز عليها النبتة المفترسة أنزيماتها الأكثر شراهة والقادرة على هضم الأجسام الأكثر صلابة ومنعة.

وهكذا، تذوب النملة. يتحول جسمها كله إلى سائل في حالة غليان. تطلق دخاناً يدل على أنها في وضع ميؤوس منه.

لا يمكن القيام بأي عمل من أجل إنقاذها. هذا الحادث يشكل جزءً من الأمور الحساسة المشتركة في جميع الغزوات البعيدة المدى. كل ما يمكن فعله هو وضع إشارة «انتبه، خطر» حول منطقة الفخ الطبيعي.

النمال تعاود المسير مسترشدة برائحة الطريق وتنسى ما جرى. الفيرومونات، هرمونات التواصل الخاصة بالكشف عن المسالك، هي التي تدل على الطريق. النمال تغذ السير نحو الغرب بعد أن اجتازت المنطقة المتلبدة بالعشب. الإتجاه لم يتغير: زاوية 23 درجة بالنسبة لأشعة الشمس. ترتاح قليلاً عندما تنخفض الحرارة انخفاضاً شديداً أو عندما ترتفع ارتفاعاً شديداً. عليها الإسراع بتنفيذ المهمة لكي تتجنب العودة في عزّ اندلاع الحروب.

فقد سبق لبعض المستكشفات أن عدن فوجدن مدنهن محاصرة من قبل الجيوش المعادية. اختراق الحصار لم يكن مطلقاً بالأمر السهل.

ها هن تعثرن على فيرومون التواصل الدال على مدخل المغارة. الحرارة تنبعث من الداخل. يغبن في أعماق الأرض بين الحصى.

كلما ازداد انحدارهن نحو الأسفل، كلما ازدادت قدرتهن على تمييز الخرير المكتوم لمجرى ماء قريب. إنه نبع المياه الساخنة. يتصاعد منه الدخان وتنبعث منها رائحة قوية. رائحة الكبريت.

النحال ترد الماء وتشرب.

بعد برهة، يلاحظن وجود حيوان طريف: كأنه كتلة مكورة لها قوائم. إنه جُعَل من فصيلة القلقولات Scarabée géotrupe يدفع أمامه كرة من الروث الممزوج بالرمل بعد أن أخفى بيوضه بداخلها. يحمل «عالمـ» ـه مثل أطلس(*) الخرافة. الكرة تتدحرج من تلقاء ذاتها عندما تسمح المنحدرات بذلك فلا يكون عليه غير اتباعها. ينهكه التعب، في الحالة المعاكسة، فيزلق ويجد نفسه مرغماً على النزول لإعادة رفعها من الحضيض. العثور على جُعَل في مثل هذا المكان أمر مدهش. أليس الجعل من حيوانات المناطق الحارة...؟

(*) من شخصيات الميتولوجيا اليونانية القديمة. عملاق شارك في الحرب ضد الآلهة فعاقبه كبير الآلهة، زوس، بحمل قبة السماء فوق كتفيه، إلى الأبد.

البيلوكانيات يدعنه لشأنه. لحمه ليس مرئياً على كل حال ودرعه الواقي يجعل من نقله أمراً بالغ العسر.

ظِلٌ أسود يمرق لجهة اليسار قبل أن يختفي في تجويف صخرة. إنها ثاقبة الآذان (Perce - oreille): حشرة لذيذة اللحم خلافاً للجعل. المستكشفة الأكبر عمراً هي الأكثر سرعة: تُدخل بطنها تحت عنقها وتأخذ وضعية الرمي بعد أن تحفظ توازن جسمها بواسطة قوائمها الخلفية ثم تصوب نحو الهدف وتطلق نقطة من حامض النملي النملي (الفورميك) عن بعد شاسع. السائل اللاذع بدرجة تركيز تزيد على الأربعين بالمئة يخترق الفضاء.

إصابة مباشرة.

ثاقبة الآذان تصعق وتسقط وهي في عز طيرانها. الحامض المركز بدرجة أربعين بالمئة شيء ومخيض اللبن الرائب شيء آخر! ذلك إنه شديد اللسع عندما يكون مركزاً بدرجة أربعين بالألف، فما ظنكم به عندما يكون مركزاً بدرجة أربعين بالمئة!؟ الحشرة تهوي والنمال تهرع نحوها لإلتهام لحمها المحترق. مستكشفات الخريف الماضي (خلفن وراءهن إفراز من فيرومونات تواصل جيدة. فالمكان يبدو غنياً بالطرائد وموسم الصيد سيكون طيباً.

تنزل النمال في بئر إرتوازي وتثير الذعر في صفوف صنوف من الحشرات التحت ـ أرضية غير المعروفة حتى الآن. أحد الخفافيش يحاول طرد النمال من المكان ولكنهن يجبرنه على الهرب بعد أن تُجَلْبِبْنَهُ بغيمة من رذاذ حامض النملي (الفورميك).

تابعت النمال تمشيط المغارة الدافئة طيلة الأيام التالية وجمعت أكواماً من جثث الحيوانات الصغيرة البيضاء ومن الفطر الأخضر الفاتح. ثم نثرن من غددهن الشرجية فورومونات تواصل جديدة لرسم الطرقات التي ستساعد شقيقاتهن على إرتياد المكان والصيد فيه دون عناء.

المهمة تطلق بالنجاح والأراضي التابعة للفيدرالية مدت ذراعاً جديدة

إلى هذا المكان الواقع خلف أعشاب المنطقة الغربية. وقبل أن تسلك النمال طريق العودة زرعت، من تحت أحمالها الثقيلة، علم الفيدرالية الكيميائي في أرض المكان الذي خفقت في أجوائه رائحة مميزة:

«بيل ـ أو ـ كان!».

ـ هل يمكنك أن تعيد ما قلت؟

ـ ويلز، إبن أخت ادمون ويلز.

فتح الباب وظهر شخص مديد القامة. متران تقريباً.

ـ السيد جازون براجيل؟... عذراً على إزعاجك. أود أن أتكلم معك بخصوص خالي. لم أعرفه ولكن جدتي أخبرتني بأنك كنت أفضل أصدقائه.

ـ تفضل... ماذا تريد أن تعرف عن ادمون؟

ـ كل شيء. لم أعرفه. وأنا في غاية الأسف لذلك...

ـ همم. أفهم ذلك. على كل حال، كان ادمون سراً يسعى على قدمين.

ـ هل عرفته جيداً؟

ـ من يمكنه أن يزعم بأنه يعرف أي شيء؟ لنقل بأننا مشينا كثيراً جنباً إلى جنب وبأن كلينا لم يكن يجد ضيراً في ذلك.

ـ كيف التقيتما؟

ـ في كلية البيولوجيا. كنت أعمل على النباتات وهو يعمل على البكتيريات.

ـ عالمان متوازيان أيضاً.

ـ أجل. مع فارق أن عالمي هو، نوعاً ما، أكثر توحشاً. قال جازون براجيل مصححاً وهو يشير إلى ركام النباتات الخضراء المتشابكة في أنحاء غرفة الطعام. انظر إليها كيف تتصارع. كلها مستعدة للقتال من أجل ومضة ضوء أو نقطة ماء. يكفي أن يميل الظل نحو إحدى الأوراق، حتى تتخلى النبتة عنها لتفسح المجال أمام الأوراق المجاورة في تحقيق نمو إضافي.

عالم النبات هو، في الحقيقة، عالم بلا رحمة.

ـ وماذا عن بكتيريات ادمون؟

ـ كان، هو نفسه، يقول بأنه لا يفعل غير دراسة أسلافه. لنقل أنه كان يتعدى، بعض الشيء، موقعه الفعلي في شجرة النسب...

ـ لماذا اختار البكتيريات، وليس القرود أو الأسماك؟

ـ كان يريد أن يعرف الخلية في طورها الأكثر بدائية. لم يكن الإنسان في نظره بأكثر من ركام تتداخل فيه الخلايا وتندمج، كان من الضروري بالنسبة له التوصل إلى معرفة معمقة لـ «سيكولوجيا» الخلية من أجل استخلاص حركة المجموع. كان حَرْفياً تماماً في فهمه للمأثور القائل: «ليست المشكلة الكبيرة والمعقدة غير تجمع لمشاكل صغيرة وبسيطة».

ـ ألم يعمل إلاّ على البكتيريات؟

ـ لا، لا. كان من نوع المتصوفين. عالماً بالمعنى العام.

كان يريد معرفة كل شيء. وفي الوقت نفسه، كان صاحب نزوات. . . على سبيل المثال، كان يريد التوصل إلى التحكم بضربات قلبه.

ـ ولكن ذلك مستحيل!

ـ يبدو أن بعض من يمارسون اليوغا من الهنود والتيبيتين يحققون مثل هذا العمل الضخم.

ـ وما الفائدة من ذلك؟

ـ لا أعلم. . . بالنسبة له، كان يريد التوصل إلى تحقيق ذلك ليتمكن من الانتحار عن طريق إيقاف ضربات قلبه إرادياً. كان يظن أن ذلك سيعطيه القدرة على الخروج من اللعبة ساعة يشاء.

ـ ما الفائدة في هذا؟

ـ ربما كان يخاف من الآلام التي تصاحب الشيخوخة.

ـ هُمْمْ. . . وماذا فعل بعد نيله الدكتوراه في البيولوجيا؟

ـ عمل في القطاع الخاص. في شركة سويتميلك كوربورايشن العاملة في إنتاج الكبتيريات الحية التي تدخل في تصنيع صنوف اللبن الرائب. نجح في عمله واكتشف بكتيريا قادرة ليس فقط على تحسين الطعم بل على تحسين الرائحة أيضاً! وقد نال على ذلك جائزة أفضل اختراع للعام 63. . .

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم تزوج من امرأة صينية اسمها لينغ مي. فتاة رقيقة

وضاحكة. وبفضل هذا الزواج، تحول ادمون من رجل دائم التأفف والتذمر إلى رجل لطيف وهادىء. كان متيماً بها. ومنذ تغيره هذا، لم أعد أراه إلاً نادراً. هذا أمر طبيعي.

ـ سمعت بأنه ذهب إلى أفريقيا.

ـ صحيح ولكنه ذهب بعد. . .

ـ بعد ماذا؟

ـ بعد المأساة. لينغ مي كانت مصابة بمرض إبيضاض الدم. نوع من سرطانات الدم لا شفاء منه. قتلها المرض في غضون ثلاثة أشهر. أما هو. . . المسكين الذي نادى، بكل قوة، بأن الخلايا ذات قيمة هائلة وبأن الآدميين لا أهمية لهم. . . فقد لُقِّن درساً قاسياً. لم يستطع فعل أي شيء. وبالتوازي مع هذه الكارثة، كثرت مشاجراته مع زملائه في الـ «سويت كوربورايشن». فترك عمله واعتزل العالم في شقته. لينغ مي كانت قد أعادت إليه ثقته بالإنسانية وموتها أعاده دفعة واحدة إلى حالة العداء للبشر.

ـ هل كان سفره إلى افريقيا بهدف نسيان لينغ مي؟

ـ ربما. على كل حال، كان يريد، بشكل خاص، لملمة جرحه عن طريق الانصراف الكامل إلى إهتماماته البيولوجية. كان واضحاً أنه وجد موضوعاً شيقاً للدراسة. لا أعرف بالضبط ما هو ذلك الموضوع، ولكنه لم يكن عن البكتيريات. استقر في افريقيا لأن متابعة ذلك الموضوع كانت، على الأرجح، أكثر سهولة هنالك. أرسل لي بطاقة بريدية اعلمني فيها بأنه يعمل مع فريق

من المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS)(*) تحت إشراف بروفسور يدعى روزنفيلد. لا أعرف ذلك البروفسور.

ـ هل رأيت ادمون بعد ذلك؟

ـ أجل، مرة واحدة. بالصدفة. في الشانزيليزيه(**). كان من الواضح أنه قد استعاد علاقته بالحياة. ولكنه كان لا يزال مجانباً إذ تملص من الإجابة على أسئلتي حول اهتماماته المهنية.

ـ يبدو أيضاً أنه كان مهتماً بكتابة موسوعة.

ـ تلك مسألة قديمة شكلت اهتمامه الأكبر. كان يريد جمع معلوماته كلها في مؤلف واحد.

ـ هل رأيت تلك الموسوعة؟

ـ لا. ولا أظن أنه أظهرها لأحد. أظن، انطلاقاً من معرفتي به، أنه لم يخفها إلاّ في أقاصي آلاسكا، في عهدة تنين من النوع الذي ينفث اللهب. كان ذلك من باب إحاطة شؤونه الكبيرة بالتكتم والتعقيد.

كان جوناثان يتأهب للإنصراف عندما:

ـ آه، سؤال أخير: هل تعرف كيف نشكل أربعة مثلات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب؟

ـ بالتأكيد. ذلك كان إختبار الذكاء المفضل لديه.

(*) مركز أبحاث معروف في باريس.

(**) جادة ضخمة تشكل أحد أهم المعالم الباريسية.

ـ كيف يتم ذلك؟

انفجر جازون ضاحكاً وقال:

هذا ما لن أدلك عليه أبداً! إذ، كما كان إدمون يقول، «على كل إنسان أن يجد طريقه بنفسه». سترى أن لذتك ستكون أكبر بكثير عندما تكتشف الحل بنفسك.

مع كل هذه الأحمال من اللحم، بدت طريق العودة أكثر طولاً مما كانت عليه أثناء الذهاب. المجموعة تغذ السير بلا كلل كي لا تباغتها صرامة الليل.

النمال تستطيع العمل طيلة الليل والنهار من آذار/مارس حتى تشرين الثاني/نوفمبر دون أي توقف. لكن النوم يغلبها عند أدنى هبوط في درجة الحرارة. لذا، يندر أن تخرج النمال في غزوات تدوم أكثر من نهار واحد.

مدينة النمال الصهباء تحك قريحتها، منذ زمان بعيد، بحثاً عن حل لهذه المشكلة. فهي تعرف جيداً أهمية توسيع أراضي الصيد والتعرف إلى البلدان البعيدة، حيث تنمو نباتات أخرى وتعيش حيوانات ذات طبائع مختلفة.

في الألف رقم 850، كانت بي ـ ستين ـ غا، وهي ملكة صهباء من سلالة غا (إحدى سلالات الشرق المنقرضة قبل مئة ألف عام) تتحرق طموحاً لاكتشاف «نهايات» العالم. جردت مئات الحملات وأرسلتها في الجهات الأربع الأصلية. لم يرجع أحد.

الملكة الحالية، بيلو ـ كيو ـ كيوني، ليست بمثل تلك الشراهة. تقف حدود حشريتها عند التعرف على تلك الحشرات الغمدية الصغيرة الذهبية اللون الشبيهة بالأحجار الكريمة (والتي تعيش في أعماق الجنوب) وعند التأمل في هذه النباتات من آكلات اللحوم والتي تجلبها لها النمال، أحياناً،

وهي لا تزال على قيد الحياة بكامل جذورها. إنها تأمل في التوصل، يوماً ما، إلى تدجين تلك النباتات.

كانت بيلو ـ كيو ـ كيوني تعلم جيداً أن توسيع حدود الفيدرالية هو خير طريقة لاستكشاف أراضٍ جديدة. لا بد إذن من مواصلة إرسال المزيد من البعثات إلى الأماكن النائية لإقامة المزيد من المدن الجديدة والمواقع المتقدمة مع ما يتطلبه ذلك من مواصلة شن المزيد من الحروب ضد كل من يحاول وضع حد أمام هذا التوسع.

لا شك بأن فتح أقاصي العالم يتطلب وقتاً طويلاً. ولكن سياسة الخطوات البطيئة كانت منسجمة تماماً مع الفلسفة العامة المرتكزة، عند النمال، على مبدأ: «على مهل إنما دوماً إلى الأمام».

فيدرالية بيل ـ أو ـ كان تضم الآن 64 مدينة جديدة. 64 مدينة تسود فيها الرائحة ذاتها. 64 مدينة متصلة فيما بينها بـ 125 كيلومتراً من الطرقات المحفورة وبـ «780 كيلومتراً من الطرقات المحددة بالإشارات الشمية. 64 مدينة متكاتفة في أزمنة الحروب والمجاعات.

مفهوم فيدرالية المدن كان يفتح أمام بعض هذه المدن مجالات التخصص. وقد كانت بيلو ـ كيو ـ كيوني تحلم بالوصول إلى يوم تكون فيه إحدى المدن متخصصة بمعالجة الحبوب وأخرى باللحوم وثالثة بالحروب.

ولكن ذلك اليوم لم يكن قد أتى بعد.

وعلى كل حال، كان ذلك المفهوم منسجماً تماماً مع مبدأ آخر من مبادىء الفلسفة العامة عند النمال: «المستقبل ملك ذوي التخصص».

المستكشفات ما زلن بعيدات عن المواقع المتقدمة. إنهن يضاعفن جهدهن في المسير. وعند مرورهن بالقرب من النبتة المفترسة، تتقدم إحدى المحاربات باقتراح لاقتلاعها وحملها إلى الملكة بيلو ـ كيو ـ كيوني.

تشتبك القرون بالمشاورات. إنهن يتباحثن عن طريق إرسال وتلقي جزئيات صغيرة جداً. جزئيات تنتقل في الهواء وتنبعث منها الروائح. إنها

الفيرومونات. هرمونات الغدد تمتاز بالقدرة على الخروج من أجسادهن. ويمكن التعبير عن ذلك بصورة بصرية تأخذ فيها الجزئية شكل إناء تكون فيه كل سمكة عبارة عن كلمة.

وبفضل الفيرومونات، يمكن للنمال أن تدخل في حوارات تبلغ تفاصيلها مدى من الدقة لا نهاية له. يكفي أن نلحظ الهياج في حركات القرون لنعرف أن النقاش قد احتدم.

سيكون نقلها مربكاً.

أمنا لا تعرف هذا النوع من النبات.

يمكن أن نفقد بعض العناصر وسيقل عدد الزنود اللازمة لحمل الغنائم.

عندما نتوصل إلى تدجين النباتات الآكلة اللحوم فإنها ستكون أسلحة بكل معنى الكلمة. سيكون بإمكاننا فتح جبهات حقيقية عن طريق غرسها على شكل خطوط ليس إلاَّ.

إننا متعبات والليل أوشك أن يدهمنا.

قرار بعدم التعرض للنبتة. يجتزن بعيداً عنها ويواصلن المسير. المجموعة تقترب من أجمة معشبة والرقم 327 الذي كان يسير في المؤخرة يستشعر وجود زهرة لؤلؤ حمراء (pâquerette) في الناحية. لم يكن قد رأى هذا النموذج النوعي قبل ذلك. لا مجال إذن للتردد.

لم نأخذ آكلة الهوام، ولكننا سنأخذ هذه.

يتخلف قليلاً عن الرتل ويقطع جذع الزهرة بمنتهى الحذر. **تشليك!** ثم يقبض على اكتشافه بقوة ويسرع للحاق برفيقاته.

غير أن الرفيعات لم يعد لهن وجود. كامل أفراد البعثة الأولى للعام الجديد أمام وجهه. هذا مؤكد. ولكن في أية حالة؟... الذكر 327 يصاب بصدمة انفعالية. يستولي عليه الإحساس بالعياء وتأخذ قوائمه بالإرتجاف. جميع الرفيقات يتوسدن الأرض ميتات.

ماذا أصابهن. لا بدّ أن الهجوم الذي تعرضن له كان من النوع الصاعق. لم يجدن الوقت الكافي لاتخاذ وضعية القتال. جميعهن لا زلن في وضعية التشكيل المسمى «أفعى برأس كبير».

يفحص الأجسام فيثبت لديه عدم حصول أية عملية إطلاق حوامض وأن النمال لم يجدن حتى الوقت الكافي لإطلاق فيرومونات الإنذار.

الرقم 327 يجري تحقيقاً معمقاً.

يفتش قرون جثة إحدى الأخوات عن طريق الملامسة الشمية. القرون لم تسجل أية صورة كيميائية. كن يمشين؛ فجأة توقف كل شيء.

لا بدّ من فهم ذلك. لا بدّ من فهم ذلك. هنالك، تفسير ما بالضرورة. يقوم بتنظيف أداة الإستبار الحسي. يمسك الأنبوبين الناشبين من جبهته بمخلبيه المعقوفين الواقعين في نهاية أحد طرفيه الأماميين ويكشطهما نازعاً عنهما الرغوة الحامضة التي أفرزت عند بداية إحساسه بالعياء. يطويهما باتجاه فمه ويلحسهما ثم ينشفهما بالمهماز ـ الفرشاة الصغيرة التي علقتها الطبيعة بعناية ودقة في أعلى كوعه الثالث.

ثم يخفض قرونه بعد أن أصبحت نظيفة ويجعلها بموازاة عينيه ويبدأ بتشغيلها رويداً رويداً؛ 300 ذبذبة في الثانية: بدون نتيجة. يرفع مستوى الحركة: 500، 1000، 2000، 5000، 8000 ذبذبة في الثانية. إنه يشغل الآن ثلثي قدرته على التلقي. وهنا، يبدأ بالتقاط أدق الروائح السابحة في الجوار: أحجزة الندى، غبار الطلع، غبيريات لازهرية إضافة إلى رائحة خفيفة سبق له وعرفها ولكنه يعجز عن تحديدها.

يزيد مستوى السرعة فيبلغ مداها الأقصى: 12000 ذبذبة في الثانية. حركة الدوران السريعة لقرونه تحدث تيارات هوائية جاذبة تشفط نحوه غبار المكان.

ثم المراد: توصل إلى تحديد الرائحة الخفيفة. إنها رائحة الجانيات. أجل، لا يمكن إلاً أن تكن هنَّ بعينهن. جارات الشمال القاسيات اللواتي سببن ما سببن من متاعب العام الفائت.

إنهن نمال شي ـ غاي ـ بو القزمات.

لقد استيقظن هن أيضاً. لا بد أنهن نصبن كميناً واستخدمن سلاحاً صاعقاً جديداً.

يجب ألا تضيع ثانية واحدة. يجب إعلام الفيدرالية كلها بالأمر.

«شعاع لازر ذو اتساع ترددادي شديد هو ما قتلهم جميعاً، أيها الزعيم.

ـ شعاع لازر؟

ـ نعم، سلاح جديد قادر على إذابة أكبر مركباتنا عن بعد، أيها الزعيم...

ـ أتظن أنهم الـ...

ـ أجل أيها الزعيم هم سكان الزهرة(*) هم وحدهم القادرون على توجيه مثل هذه الضربة. إنها تحمل توقيعهم.

ـ ردنا سيكون مرعباً إذن. ما هو عدد الصواريخ الحربية المتبقية بحوزتنا في حزام أوريون(**)؟

ـ أربعة، أيها الزعيم:

ـ لن يكون هذا العدد كافياً. يجب طلب النجدة من الجيوش الـ...

ـ هل تريد المزيد من الحساء؟

ـ لا شكراً، قال نيكولا المُنْشِدَة تماماً بما يراه من صور.

ـ انظر إلى طعامك وإلاَّ أطفأتُ جهاز الإذاعة المرئية!

(*) Les Vénusiens : سكان الكوكب المعروف، الزهرة.

(**) نجوم متكاثفة على شكل سحابة كبيرة يرى ضوؤها بالعين المجردة من على سطح الأرض.

ـ أوه، أرجوك يا أمي. . .

جوناثان يتدخل:

ـ ألم تضجر بعد من كل هذه الحكايات عن الرجال الخضر المقزومين والكواكب ذات الأسماء الشبيهة بأسماء مساحيق الغسيل؟

ـ إنها تثير اهتمامي. أنا واثق تماماً بأننا سنلتقي يوماً ما بسكان الكواكب البعيدة.

ـ هكذا إذن. . . لطالما تحدثنا عن ظهورهم دون أن يظهروا.

ـ لقد أطلقوا مسبراً فضائياً نحو النجم الأكثر قرباً إلينا. المسبر اسمه ماركو بولو. قد نعرف قريباً من هم جيراننا.

ـ سيرجع كما ذهب غيره من المسابر التي أطلقوها لتلويث الفضاء.

قلت لك بأن ذلك بعيد جداً.

ـ قد تكون محقاً. ولكن ما يدريك بأن سكان الفضاء لن يكونوا هم البادئون بالمجيء إلينا. وعلى كل حال، فإن أحداً لم يُزِل الغموض المحيط بالصحون الطائرة غير المكشوفة الهوية.

ـ وحتى لو حصل ذلك. ما هي الفائدة التي سنجنيها من الإلتقاء بأقوام أخرى عاقلة؟ سننتهي يوماً إلى الإقتتال معها. ألا تجد أن هنالك ما يكفي من المشاكل بين سكان الأرض.

ـ إذا ما حصل ذلك، فإنه سيكون شيقاً لغرابته. ثم إننا قد نجد أمكنة جديدة لقضاء العطلة.

ـ سيعني ذلك مزيداً من الهموم.

يأخذ نيكولا من ذقنه ويقول:

ـ دع عنك يا صغيري، سترى عندما تصبح كبيراً. سترى الأمور كما أراها تماماً وستعرف أن الحيوان الوحيد الشيق حقاً، والحيوان الوحيد ذا الذكاء المختلف عن ذكائنا هو. . . المرأة!

احتجت لوسي لمجرد الإحتجاج الشكلي وضحكوا جميعاً. قطب نيكولا حاجبيه غير معجب بما ظنه طريقة المزاح عند الكبار وأطلق يده بحثاً عن الهدوء بين ثنايا فروة الكلب.

لكن الطلب لم يكن تحت الطاولة.

ـ أين ذهب أورزازات؟

لم يكن في غرفة الطعام.

ـ وارزي! وارزي!

أدخل نيكولا أصابعه في فمه وراح يصفر. كانت النتيجة الإيجابية تظهر مباشرة في العادة فيُسمع نباح يعقبه وقع التوائم المقتربة. صفر من جديد. دون نتيجة. شرع بالبحث في جميع غرف الشقة ثم انضم إليه أبواه. الكلب غير موجود. كان الباب مقفلاً مما يعني استحالة خروجه لأن الكلاب لم تتعلم بعد كيفية استعمال المفاتيح.

إتجه الجميع آلياً نحو المطبخ و، على وجه التحديد، نحو باب القبو. الثقب كان لا يزال مفتوحاً كما كان وكان على قدر من الإتساع يسمح بمرور حيوان بحجم أورزازات.

ـ إنه في الداخل. أنا واثق أنه في الداخل! ثم تابع يقول وهو يئن: يجب الدخول لإخراجه.

إنبعث من الداخل نباح متقطع جاء وكأنه إجابة على مطلب نيكولا. كان واضحاً أن النباح لا يأتي من مكان قريب.

اقترب الجميع من الباب المحظور ولكن جوناثان سبق إليه واعترض الطريق وهو يقول:

ـ سبق واتفقنا أن الذهاب إلى القبو ممنوع!

قالت لوسي :ـ ولكن، لا بد من إخراج الكلب يا عزيزي. ربما يكون قد تعرض لهجوم الجرذان. قلت بأن القبو مليء بالجرذان. . .

قال جوناثان عابساً:

ـ وأسفاً على الكلب. سنشتري كلباً آخر منذ الغد.

صعق الصبي لما يسمع.

ـ ولكنني لا أريد كلباً «آخر» يا أبي. أورزازات هو صديقي ولا يمكنك أن تتركه يموت هكذا.

أضافت لوسي قائلة:

ـ ماذا تخسر؟ دعني أدخل إذا كنت خائفاً!

ـ هل تخاف يا أبي؟ هل أنت جبان؟

لم يعد بمقدور جوناثان أن يتمالك نفسه. غمغم قائلاً «حسناً، سأنزل لإلقاء نظرة» ثم ذهب للبحث عن مصباح

كهربائي. أدخل المصباح في الثقب وأضاءه. ظلام حالك، حالك تماماً. ظلام لا ينقشع عن شيء.

ارتعد جوناثان من الخوف. تحرق رغبة في الهرب. ولكن زوجته وابنه كانا يدفعانه نحو تلك الهاوية. طوفان من الأفكار اللاذعة ألهب رأسه واستحوذ خوفه المرضي من الظلمة على أحاسيسه كلها.

وانفجر نيكولا منتحباً.

ـ لقد مات! إني واثق من أنه قد مات! إنك أنت المسؤول عن موته.

حاولت لوسي تهدئته بقولها:

ـ ربما كان جريحاً. لا بد من النزول لمعرفة ما حصل.

فكر جوناثان مجدداً بالتحذير الذي خلفه ادمون. لهجته صارمة. ولكن ما العمل؟ لا بد أن واحداً منهم سيفقد السيطرة على نفسه يوماً ما وسينزل ليرى ما في القبو. عليه أن يقف أمام المشكلة وجهاً لوجه وليكن ذلك الآن، لا غداً. يمرر يده فوق جبينه المبتل بالعرق.

لا. لن يمر الأمر هكذا. إنه يمتلك الآن فرصة ثمينة لمجابهة خوفه المرضي، لاتخاذ قراره الخطير ولتحدي الخطر. أيمكن أن تبتلعه الظلمة؟ ليكن. كان مستعداً لإلقاء نفسه في عمق المشكلة فهو، على كل حال، لم يعد يمتلك ما يأسف لخسارته.

ـ سأنزل.

غاب قليلاً ثم عاد بأدواته وكسر القل.

ـ لا تتحركا من موضعكما مهما حصل وخصوصاً لا تحاولا اللحاق بي أو الإتصال بالشرطة. انتظراني هنا!

ـ إنك تتكلم بكثير من الغرابة؛ وهل في الأمر أكثر من قبو؟ قبو كسائر الأقبية في سائر الأبنية؟

ـ لست واثقاً من ذلك تماماً. . .

وحيداً. وحيداً لدرجة لا تطاق، كان الذكر رقم 327، العائد الوحيد من حملة الصيد الربيعي الأولى، يركض وحيداً تحت الضوء البرتقالي المنبعث من الشمس الغرابة.

قوائمه تخبط وتعثر منذ فترة طويلة في البرك الصغيرة والوصول والأوراق المتعفنة. جفت شفاهه في الريح وغطى الغبار كامل جسمه برداً، ذهبي أصفر. لم يعد يشعر بوجود عضلاته وتقصف العديد من مخالبه.

ولكنه لم يلبث أن شاهد المكان الذي كان يتوجه نحوه في آخر السكة الشمية التي كان يندفع فوقها. وكان شكل المكان المقصود الرابض بين الآكام الصغيرة التي تقوم المدن البيلوكانية بداخلها يزداد وضوحاً عند كل خطوة. ذلك المكان هو الهرم الضخم الذي يضم بداخله المدينة الأم. إنه منارة هادية تشع منها رائحة تجذبه إليها وتشده نحوها.

أخيراً، وصل الرقم 327 إلى أسفل مدينة النمل الضخمة. رفع رأسه ولاحظ أن مدينته قد كبرت. لقد فرغوا إذن من بناء الطبقة الجديدة الواقية لسطح القبة وتطاولت قمة جبل الغصينات الصغيرة لتغامز القمر.

تلفت الذكر اليافع باحثاً عن مدخل البناء. وجده، بعد برهة، على مستوى امتداد الأديم فاندفع فيه نحو الداخل.

لقد وصل في الوقت المناسب؛ فجميع العاملات والمجندات كن قد فرغن من مهامهن في الخارج ورجعن؛ والحراس كانوا يستعدون لسد المنافذ لحفظ الحرارة داخل المكان. أما عاملات البناء فكن قد شرعن بإقفال المدخل الذي سدّ تماماً لحظة وصول الذكر ومروقه الخاطف فوق العتبة.

وهكذا انزاح العالم الخارجي ببرده وتوحشه وبات الرقم 327 في كنف الحضارة. صار بإمكانه أن يذوب من جديد في الارتياح الذي يشيعه جو الجماعة. لم يعد وحيداً. صار متعدداً.

هنالك حارسات يقتربن. لا يعرفنه وهو خلف غشاء الغبار الساتر لجسمه. يسارع إلى بث روائحه الكاشفة عن هويته فتعود الحارسات إلى التزام الهدوء.

إحدى العاملات تلتقط رائحته الدالة على كونه متعباً. تعرض عليه وجبة التزقيم: طقسية إطعامه من داخل جسدها.

لكل نملة داخل بطنها تجويف يشبه الجيب. إنه معدة إضافية لا تهضم الطعام. معدة برسم الجماعة تستخدمها النملة لاختزان الغذاء وحفظه لمدة طويلة يظل خلالها طازجاً وغير منقوص. يمكنها، بعد ذلك، أن تتجشأه لإعادته إلى معدتها وهضمه بالطريقة العادية، كما يمكنها أن تلفظه لتستضيف عليه إحدى بنات جنسها.

حركات الطقس وأفعاله هي ذاتها على الدوام: تمر النملة الواهبة بجانب العنصر الذي ترغب بتزقيمه وعندما تحاذيه تداعب جمجمته بقرنيها. يدلل العنصر المعني على قبوله العرض بخفض قرنيه، وإلاً فإنه يرفعهما عالياً جداً للدلالة على الرفض مما يعني أنه لا يشعر بالجوع.

ولكن الرقم 327 لا يتردد في القبول. فمخزونه الإحتياطي في حالة من الضعف يوشك معها على الهمود فلا يبقى عليهما غير أن يلتقم كل منهما فم الآخر بفمه لكي يبدأ الطعام بالصعود. الواهبة تتجشأ في البداية

قليلاً من اللعاب ثم شيئاً من العسيل وشيئاً من نقيع الحبوب. وكل ذلك لذيذ ومجدد النشاط والقوة.

عند إنتهاء الضخ يبعد الذكر فمه عن فم النملة ويتذكر مباشرة كل الأحداث التي عاشها خلال الرحلة، من القتلى إلى الكمين. لا مجال للتلكؤ. يرفع قرونه وينشر المعلومات على شكل رذاذ ناعم في المكان المحيط به.

إنذار. إندلعت الحرب. النمال المقزومة قامت بتدمير بعثتنا الأولى، إنهن يمتلكن سلاحاً جديداً ذا قدرة تدميرية كبيرة. استعدوا للمعركة. لقد نشبت الحرب.

النملة الحارسة تبتعد لأن روائح الإنذار التي قام يبثها تحدث تأثيراً مزعجاً في دماغها. ولكن تجمعاً بدأ بالتكون حول الذكر رقم 327.

ماذا هنالك؟

ما الذي يجري هنا؟

يقول بأن الحرب قد نشبت.

هل يملك أدلة؟

نمال كثيرة تهرع من كل مكان.

إنه يتحدث عن سلاح جديد وعن تدمير بعثة بكاملها.

حدث خطير.

هل يملك أدلة؟

أصبح الذكر محاطاً الآن بحشد من النمال.

إنذار، إنذار. لقد نشبت الحرب. إستعدوا للمعركة!

هل يملك أدلة؟

الجميع يبثون السؤال بروائحهم.

ليس عنده أية أدلة. فقد كانت صدمته كبيرة إلى حد أنساه إحضار

بعض الأدلة. القرون تهتز والرؤوس تتحرك ولا تبث غير الإرتياب والشك.

أين حدث ذلك؟

إلى الغرب من لا ـ شولا ـ كان. بين نقاط الصيد التي حددتها طلائع مدتنا في منطقة تكثر فيها دوريات المقزومات.

هذا مستحيل. فقد عادت الجاسوسات وأكدن بشكل قاطع أن المقزومات لم ينهضن بعد!

الجملة العيزونومية الأخيرة أطلقها قرن نملة مجهولة الهوية وتفرق الجمع مصدقاً قولها ومكذباً قوله. صحيح أن كلامه لا يخلو من إمارات الصدق، ولكن ما تحدث عنه لا يبدو قابلاً للتصديق بما فيه الكفاية لأن حروب الربيع لا تبدأ عادة في هذه الفترة المبكرة. فالمقزومات سيكونن مصابات بالجنون حقاً لو أنهن باشرن الهجوم قبل أن يستيقظن كلهن. ثم عاد كل إلى عمله غير عابىء بما جاء به الذكر رقم 327.

استولى الذهول على العائد الوحيد من حملة الصيد الأولى. يا للعنة! إنه لم يختلق قصة ذلك العدد الكبير من القتلى. والنمال ستنتهي إلى إكتشاف النقص الحاصل في عدد عناصر إحدى فئاتها.

تهدلت قرونه ببلاهة فوق جبهته، واستولى عليه إحساس هو كيانه وأشعره بأنه لا يصلح لشيء بعد الآن. شعر بأن حياته لم تعد للآخرين وبأنه سيعيش، من الآن فصاعداً، لنفسه وحسب.

إنه يرتجف هلعاً من هذه الفكرة. إندفع إلى الأمام وأخذ يركض بعصبية محاولاً تحريض النمال وإلقاء الحجة عليها. ولكن النمال تتردد حتى عن التوقف للإستماع إليه وهو يرتل الإبتهال المقدس.

مستكشف أنا. كنت القائمة التي مشت.

كنت العين التي رأت.

ها أنذا رجعت. أنا المنبه العصبي.

النمال لا تكترث. تستمع إليه دون انتباه ثم تعود إلى شؤونها وكأن شيئاً لم يكن. لا فائدة من مواصلة التنبيه!

مضت أربع ساعات على نزول جوناثان إلى القبو. زوجته وإبنه يغليان بدمهما من شدّة القلق.

ـ ألا تستدعي الشرطة يا أمي؟

ـ لا، ليس بعد.

تقترب من باب القبو.

ـ هل مات أبي؟ قولي يا أمي، هل مات أبي كما مات وارزي؟

ـ لا، طبعاً لا يا عزيزي! ما هذه الحماقات التي ترددها؟!

كانت لوسي نهبة للقلق الشديد. إنحنت نحو الثقب وحاولت أن ترى شيئاً. الضوء المنبعث من مصباح الكهرباء المقوّى الذي اشترته مؤخراً قوي جداً. بدا لها أنها ميزت في قلب الظلمة غير بعيد عن المدخل... سلماً حلزونياً.

قبعت جالسة على الأرض. جلس نيكولا إلى جانبها. ضمته إليها وقبلته.

ـ سيعود. لنصبر قليلاً. طلب منا أن ننتظر، فلننتظر أيضاً.

ـ وإذا لم يعد مطلقاً؟

الرقم 327 يشعر باليأس، كما ولو أنه يصطرع داخل الماء: يتحرك دون أن يتقدم.

يقرر أن يقابل بيلو ـ كيو ـ كيوني شخصياً.

الأم بيلو ـ كيو ـ كيوني عمرها أربعة عشر شتاءً وتجربتها لا تضاهى، في حين أن النمال التي لا جنس لها والتي يتكون منها عامة القطيع لا تعيش إلاّ ثلاثة أعوام على الأكثر. هي الوحيدة التي يمكنها أن تساعده على إيجاد طريقة لتمرير المعلومة.

الذكر اليافع يسلك الطريق السريع المفضي إلى مركز المدينة. عدة آلاف من العاملات المحملات بالبيوض يسرن الخبب في ذلك الرواق العريض. إنهن يصعدن بأحمالهن من الطابق الرابع عشر تحت سطح الأرض إلى قاعات الحضانة في قاعة الاستحمام الشمسي الواقع في الطابق الخامس والثلاثين فوق سطح الأرض. سيل متدفق عريض من القوقعات الصغيرة المحمولات على أطراف القوائم والمتجه من الأسفل نحو الأعلى ومن اليمين نحو اليسار.

عليه أن يسلك في الإتجاه المعاكس. ليس الأمر سهلاً. يصطدم ببعض الحاضنات اللاتي يزعقن مباشرة بطلب النجدة لإيقاف المخرب الشقي، يتعرض هو نفسه للصدمات فيداس بالقوائم ويُدفع وتخمشه المخالب. لحسن حظه، لم يكن الممر مكتظاً إلى الحد الأقصى. يعينه ذلك على شق طريقه بين الجحافل المتدفقة.

يفضي به المسير، بعد ذلك، إلى الأنفاق الضيقة حيث المسافات أكثر طولاً ولكن اجتيازها أقل عسراً فيخب فيها بأقصى سرعته. ينتقل من الشرايين إلى الشرينات ومنها إلى الأوردة والوُريدات. وهكذا يقطع كيلومترات عديدة يمر خلالها فوق جسور وقناطر كما يعبر ساحات مقفرة وأخرى مكتظة.

يتقدم دون عسر، داخل الظلمات الحالكة، بفضل عييناته الجبهية الثلاث المبصرة بالأشعة ما تحت الحمراء. وكلما ازداد اقتراباً من المنطقة المحظورة، تصبح الرائحة الناعمة المنبعثة من الأم أكثر حضوراً، وتصبح الحارسات المنتشرات أكثر عدداً.

حارسات من جميع الفصائل المحاربة. من جميع الأحجام ومن مختلف الفرق المسلحة. من ذوات الملاقط الصغيرة إلى ذوات الملاقط الكبيرة المنشارية. ومن الكبيرات المجهزات بصفائح جذعية صلبة كالخشب، إلى العبلاوات ذوات القرون القصيرة، إلى الراشقات من ذوات البطون الضامرة المحتقنة بالسموم المسببة للتخبط الإرتعاشي.

الذكر رقم 327 مزود بجوازات المرور المناسبة فيتمكن بذلك من اجتياز معابر التصفية المنصوبة من قبل الحارسات دون مشقة. المجندات هادئات تماماً. كل شيء يدل على أن مواسم الحروب الإقليمية الكبرى لم تبدأ بعد.

إنه الآن على مقربة من المكان المقصود. يبرز «أوراق هويته» للبوابات ثم يدخل الرواق النهائي المفضي إلى المقر الملكي.

يقف عند العتبة مبهوراً بجمال ذلك المكان الفريد. قاعة دائرية واسعة ومصممة وفقاً للقواعد الهندسية الدقيقة التي زقتها قرون الملكات الأمهات إلى قرون بناتهن عبر الأجيال.

تنتصب القبة الرئيسية بارتفاع عشرة رؤوس وبقطر ستة وثلاثين رأساً (الرأس هو وحدة القياس المعتمدة في الفيدرالية وهو يساوي ثلاثة من المليمترات المعتمدة من قبل البشر). ويقوم هذا المعبد الحشراتي فوق أعمدة شيدت بواسطة ملاط نادر. أما الأرضية المقعرة فقد صممت بحيث ترتد الجزئيات المكونة للروائح التي يطلقها الأفراد لأطول مدة ممكنة ودون أن تمتصها الجدران. على هذا، يكون المعبد عبارة عن مدرج شمي حقيقي شبيه بالمدرجات الجامعية.

في وسط القاعة تستقر نملة ضخمة. تنام على بطنها وتمد قائمتها، بين الفينة والفينة، نحو زهرة صفراء. أحياناً تطبق الزهرة تويجيتها بجفاء ولكنها تفشل في تحقيق مرادها بسبب انسحاب القائمة السريع.

تلك النملة الضخمة هي بيلو ـ كيو ـ كيوني.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، آخر ملكات النمال الصهباء في المدينة المركزية.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، البياضة الوحيدة التي ولدت منها جميع أجسام القطيع وجميع أرواحه.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، التي استلمت مقاليد المُلْك قبل الحرب الكبرى مع النحل خلال فتح معسكرات الأرضة في الجنوب، وخلال إخضاع أراضي العناكب، وخلال حرب الاستنزاف الفظيعة التي فرضتها الدبابير القاطنة في أشجار السنديان.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، التي أخذت على عاتقها، منذ العام الفائت مهمة التنسيق بين جهود المدن من أجل تعزيز الصمود على الحدود الشمالية ومقاومة ضغوطات النمال المقزومة.

بيلو ـ كيو ـ كيوني التي حققت أرقاماً قياسية بعمرها المديد.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، أمه.

ذلك الصرح الحي ماثل هنا، بالقرب منه، كما في الماضي. مع فارق أنها الآن بين يدي عشرين نملة شابة من المستعبَدات يرطبنها وينعشنها ويداعبنها، في حين كانت من قبل بين يديه هو، الرقم 327، ليعتني بها بقوائمه الصغيرة التي لم تكن بعد قد اكتسبت الحذق الكافي.

النبتة المفترسة الفتية لا تني تطبق فكيها والأم تبث رائحة تحمل شيئاً من البرم والشكوى. ما من أحد يعرف كيف استولى عليها هذا الولع بالوحوش النباتية المفترسة.

الرقم 327 يقترب. يلاحظ أن الملكة ـ الأم ليست باهرة الجمال عند ما ننظر إليها عن كثب. جمجمتها تستطيل لجهة الأمام بعينيها المكورتين الضخمتين اللتين تبدوان وكأنها تنظران إلى كل مكان في آن معاً. عييناتها المتخصصة بالرؤية ما تحت الحمراء منكمشة في وسط جبينها في حين تباعَدَ قرناها عن بعضهما البعض شكل ملفت. وهما، إلى ذلك، طويلان جداً وبالغاً الخفة والرشاقة بما يند عنهما من ذبذبات اهتزازية وجيزة لا

نخطيء مطلقاً إذا اعتبرناها مقصودة ومدروسة بمنتهى الدقة والضبط.

بيلو ـ كيو ـ كيوني نهضت من نومها الكبير قبل أيام ولم تتوقف، منذ ذلك الحين، عن وضع البيوض تلو البيوض. بطنها الذي تضاعف حجمه عشر مرات عما هو عليه في الحالات العادية تخترطه انقباضات مستمرة. ها هي تضع، في هذه اللحظة بالذات، ثمان بيوض هزيلة نوعاً ما بألوانها الرمادية الفاتحة ذات اللمعان اللؤلؤي. جيل بيلوكاني جديد يبصر النور، مستقبل مستدير لزوج يخرج من أحشائها ويتدحرج فوق أرض القاعة فتتلقفه عناية الحاضنات على الفور.

الذكر اليافع يعرف الدفعة الأخيرة من البيوض برائحتها. إنها تضم مجندات عقيمات وذكور. فالطقس لا يزال بارداً وغدّة إنتاج «البنات» لم تبدأ نشاطها بعد والملكة ـ الأم ستبيض احتياجات المدينة من مختلف الفائت بمجرد أن تسمح بذلك حالة الطقس. فريق من العاملات سيمثل بين يديها ليقول: «هنالك نقص في عدد طاحنات الحبوب أو في عدد الراشقات» وستبيض حسب الطلب. ويحدث أيضاً أن تخرج بيلو ـ كيو ـ كيوني من مقرها لتفقد الوضع في الممرات، فقرنها يتمتع بما يكفي من الحساسية اللازمة للكشف عن أدنى النواقص في هذه الفئة أو تلك، ثم تبيض لسد النواقص قبل مغادرة المكان.

الملكة ـ الأم تبيض خمس وحدات ثم تلتفت نحو القادم لزيارتها. تلمسه وتلحسه. الإحساس باللعاب الملكي فوق الجسد أمر رائع. فهذا اللعاب ليس مطهراً يقضي على جميع الآفات فحسب، بل إنه ترياق حقيقي يشفي جميع أنواع الجراح أيضاً. . . ما عدا تلك التي تصيب داخل الرأس.

صحيح أن بيلو ـ كيو ـ كيوني لا يمكنها أن تتعرف، شخصياً، على كل واحد من صغارها الذين لا يحيط بهم عد وحصر. ولكنها تدلل، بمجرد أن تجود على أحد بذلك الفيض اللعابي، على أنها عرفته من رائحته. أجل، عرفته كواحد من صغارها.

والآن، يمكن للحوار بالقرون، أن يبتدىء:

أهلاً بك في بؤرة تكاثر القطيع. لقد انفصلت عني ولكنك لا تستطيع منع نفسك عن الرجوع.

إختفاء طقوسي من أم لأبنائها. بثتها إليه ثم طفقت تستبر فيرومونات المناطق الإحدى عشرة على قرينه بهدوء دهش له الصغير رقم 327. . . لقد فهمت أسباب زيارته. . . البعثة الأولى التي أُرسلت نحو الغرب دمرت تماماً. رائحة النمال المقزومة كانت تفوح في المنطقة المحيطة بمكان الكارثة. لا بد أنهن اكتشفن سلاحاً سرياً.

مستكشف أنا. كنت القائمة التي مشت.

كنت العين التي رأت.

ها أنذا رجعت. أنا المنبه العصبي.

هذا مؤكد، ولكن المشكلة هي في عدم تمكنه من تنبيه القطيع. الروائح التي يبثها لا تقنع أحداً. يظن بأن بيلو ـ كيو ـ كيوني هي الوحيدة التي يمكنها أن تعرف كيف تمرر المعلومة وتعطي إشارة الإنذار.

الملكة ـ الأم تستبره بانتباه مضاعف. تلتقط أصغر الجزيئات المتصاعدة من مفاصله وقوائمه. أجل، آثار الموت واللغز المجهول ناطقة فيها. ربما تكون الحرب. . . وربما لا تكون.

تُفهمه بأنها لا تمتلك، بحال من الأحوال، أية سلطة سياسية. فالقرارات يتخذها القطيع عن طريق التشاور الدائم، من خلال تشكيل لجان عمل تدرس مشاريع يتم اختيارها بطريقة حرة. لذا، عليه أن يعمل على توليد مركز عصبي من هذا النوع أي، باختصار، تكوين فريق عمل خاص وإلاّ فإن تجربته لن تثمر شيئاً.

لا يمكنها إسداء أية معونة إليه.

الذكر رقم 327 يلحّ. لا يريد أن يفوّت فرصة وجود هذه المحاوِرة التي تبدو مستعدة للاستماع إليه حتى النهاية. يجمع قواه ويبث جزيئاته الأكثر إغراءً. يحاول أن يثبت أن الكارثة يجب أن تحوز على الأولوية

المطلقة. يجب، برأيه، إرسال الجاسوسات حالاً لمحاولة الكشف عن طبيعة ذلك السلاح السري.

تجيب بيلو ـ كيو ـ كيوني بأن القطيع مثقل بـ «الإهتمامات ذات الأولوية». فالنهوض الربيعي لم يكتمل بعد وورشة إصلاح سطح المدينة في أوج عملها. ثم إن الخروج إلى الحرب يظل مغامرة طالما أن الطبقة الأخيرة من الفصينات لم توضع بعد. وفوق ذلك، يعاني القطيع من نقص في البروتينات والسكر. وأخيراً، لا بد من الإنتباه إلى ضرورة البدء بالإعداد لعيد الإنبعاث. وكل ذلك يحتاج إلى طاقة الجميع وحيويتهم. حتى الجاسوسات يقمن بأعمال إضافية. ولكل ذلك، فإن الرسالة القلقة التي يحاول أن يبثها لا يمكن أن تجد من يستمع إليها.

يمر بعض الوقت. لا شيء يُسمع غير أصوات شفاه العاملات وهن يلحسن درع الملكة ـ الأم التي كانت قد استغرقت من جديد في نزالها مع نبتتها المفترسة. كانت تنثني لتصل إلى حد إدخال بطنها تحت جذعها تاركة قائمتيها الأماميتين معلقتين في الهواء لتسحب قائمتها لحظة انطباق الفكين النباتيين، ثم تلتفت إليه مُدِلَّةً أمامه بالأهمية التي يمكن أن يكون عليها مثل هذا السلاح:

يمكننا أن نقيم جداراً من النباتات المفترسة لحماية كامل الحدود الشمالية ـ الغربية. المشكلة الوحيدة هي أن هذه الوحوش الصغيرة لا تزال عاجزة عن التمييز بين أهالي المدينة والأجانب.

الرقم 327 يعود إلى الموضوع الذي يشغله. بيلو ـ كيو ـ كيوني تسأله عن عدد العناصر التي قضت في «الحادث». ثمانية وعشرون. أكان الجميع من فصيلة المحاربات المستكشفات؟ أجل، كان الذكر الوحيد في البعثة. تجمع نفسها وتبيض ثمان وعشرين لؤلؤة. بعدد الأخوات المفقودات وإن كانت لا تزال في الحالة المائعة.

ثمان وعشرون نملة ماتت. هذه الثمان وعشرون بيضة ستقوم مقامها.

سيأتي يوم لا محالة: سيأتي يوم لا محالة وتقع بعض الأصابع على هذه الصفحات. بعض العيون ستقرأ هذه الكلمات. وبعض العقول ستفقه معانيها.

لا أود أن يأتي ذلك اليوم سريعاً، لأن ذلك قد يكون رهيباً بنتائجه. إنني أحاول جهدي، حتى في اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، من أجل المحافظة على سري.

ومع هذا، لا بد من أن يأتي يوم تعرف فيه الحقيقة عما حصل. لأن الأسرار الدفينة في أعمق الأعماق تنتهي إلى الطفو على سطح الماء. فالوقت هو العدو اللدود للأسرار.

قبل كل شيء، أتوجه إليك بالتحية، كائناً من كنت، أيها القارئ. في اللحظة التي ستكون مكباً فيها على قراءة هذه الصفحات، سأكون أنا قد فارقت الحياة قبل بضع عشرة سنة أو، على الأقل ـ وهذا ما آمله ـ قبل بضع مئات من السنين.

يعتريني الأسف أحياناً لأنني وصلت إلى معرفة ما أعرف. ولكنني كائن بشري وأعرف ـ حتى ولو كان إحساسي بالتضامن مع أبناء جنسي، في هذه اللحظة، هو في أدنى مستوياته... أعرف كل الواجبات التي يلزمني بها مجرد كوني قد ولدت بينكم، يا معشر البشر في هذا العالم.

عليّ أن أحيطكم علماً بقصتي.

كل القصص تتشابه عندما تنظر إليها على وجه التقريب. هنالك في البداية دائماً شخص يتطور داخل «صيرورة ما». يمر بأزمة ما، تجبره الأزمة على اتخاذ موقف ما، فيموت أو يستمر بالحياة تبعاً لما يتبعه من سلوك.

القصة الأولى التي سأرويها هي قصة عالمنا هذا. لأننا نعيش فيه ولأن جميع الأشياء، كبيرة كانت أم صغيرة، تخضع للقوانين نفسها وتترابط فيما بينها بعلاقات الإعتماد والتبادل ذاتها.

خذ إليك مثلاً ما يجري عندما تقلب هذه الصفحة لمتابعة القراءة: إبهامك يحتك، في نقطة ما، بالمادة الخلليلوزية(*) المكونة لهذه الورقة. من هذا الاحتكاك تتولد حالة سخونة ضئيلة جداً. ولكنها، مع هذا، سخونة حقيقية. هذه السخونة تقابلها، في عالم الجزيئات الصغيرة جداً، عملية ينفصل فيها أحد الإلكترونات عن الذرة التي كان جُزيئة من جزيئاتها ويقفز ليصطدم بجزيئة أخرى.

ولكن هذه الجزيئة هي، في الواقع وبالقياس إلى ذاتها، ضخمة جداً لدرجة يصبح معها ذلك الاصطدام بالإلكترون حدثاً هائلاً بالنسبة إليها. قبل الاصطدام، كانت جامدة بلا حراك وفارغة وباردة. ولكنك أدخلتها في أزمة عندما قمت بـ «قلب» الصفحة. جعلتها نهبة لأمواج ضخمة مكونة من نقاط صغيرة من اللهيب لا عد لها ولا حصر، لا لشيء إلاّ لأنك لمستها بإبهامك. أحدثت فيها انقلاباً لا يمكنك التكهن بكل عواقبه. ربما تكون قد أوجدت بهذه الحركة عوالم كاملة يعيش فوقها أناس، وهؤلاء ربما يكتشفون المعادن وفن الطبخ الريفي وغزو الفضاء. قد يكونون أكثر ذكاء منا... وكل ذلك ما كان يمكن له أن يحصل، لو أنك لم تمسك هذا الكتاب بين يديك، ولو أن إصبعك لم تحدث حالة السخونة

(*) الخلليلوز (cellulose): مادة تتكون منها أغشية الخلايا في النبات.

تلك في ذلك المكان المحدد من الورقة.

وعلى هذا القياس، فإن عالمنا هذا يأخذ موقعه، بالتأكيد، في زاوية صفحة في كتاب... قطعة نعل في حذاء أو فقاعة في رغوة خارجة من فتحة صفيحة البيرة... في عالم آخر ذي حضارة عملاقة أخرى.

جيلنا هذا، لا شك بأنه لن يجد الوسائل التي تمكنه من التحقق من ذلك. ولكننا نعلم أن عالمنا هذا أو، على كل حال، أو الجزيئة التي يقبع عالمنا هذا بداخلها، كانت، منذ زمان بعيد، فارغة وباردة وسوداء وجامدة بلا حراك. ثم جاء أحد ما، أو شيء ما، وأحدث الأزمة. جاء أحدهم وقلب الصفحة أو احتكت قدمه بحجر أو كشط الرغوة عن البيرة. وفي جميع الحالات، حدث اضطراب ما، ومن هذا الاضطراب كان لجزيئتنا أن استيقظت. بالنسبة لنا، الأمر معروف تماماً: حدث انفجار هائل يطلقون عليه اسم الـ «بيغ بانغ».

كل ثانية تمر في العالم اللامتناهي في الصغر، في العالم اللامتناهي في الكبر، في العالم اللامتناهي في البُعد، قد يولد فيها عالم كا ولد عالمنا قبل خمسة عشر ملياراً من الأعوام. نحن لا نعرف العوالم الأخرى، ولكننا نعرف أن عالمنا قد ابتدأ عندما انفجرت الذرة المتناهية في «الصغر» والمتناهية في «البساطة»: ذرة الهيدروجين.

تخيل إذن فضاء الصمت الشاسع هذا وهو يستفيق على انفجار مهول. لماذا قلبت الصفحة هناك، في الأعلى؟ لماذا كشطت الرغوة عن وجه الكاس؟ هذا لا يهم. المهم أن الهيدروجين يحترق، ينفجر ويُشِع فيكون ضوء هائل

ويخترق عذرية الفضاء. هي الأزمة. الأشياء الجامدة تتحرك. الأشياء الباردة تلتهب. الأشياء الصامتة تعج بالأصوات.

في محرقة المبتدأ، يتحول الهيدروجين إلى هيليوم. ذرة الهيليوم لا تكاد تزيد تعقيداً عن ذرة الهيدروجين. ولكن هذا التحول يكفي لأن نستخلص القاعدة الكبيرة الأولى من قواعد اللعبة الدائرة في عالمنا: الانتقال نحو الأكثر تعقيداً.

كل شيء يظهر بديهية هذه القاعدة. لكن شيئاً لا يثبت أن العوالم المجاورة ليست محكومة بقواعد أخرى. من الممكن أن تكون القاعدة هناك هي الانتقال الدائم نحو الأكثر سخونة أو نحو الأكثر صلابة أو نحو الأكثر غرابة.

عندنا أيضاً، تصبح الأشياء أكثر سخونة أو أكثر صلابة أو أكثر غرابة. ولكن ذلك لا يشكل قانون المبتدأ. لا يشكل غير أمور جانبية. القانون الجذر عندنا والذي تنتظم حوله سائر القوانين هو قانون الانتقال الدائم نحو الأكثر تعقيداً.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الذكر رقم 327 يهيم على وجهه في ممرات جنوب المدينة. لم يهدأ. لا يزال يلوك العبارة الطقسية السعيدة الذكر:

مستكشف هو، كان القائمة التي مشت،

كان العين التي رأت.

ها هو ذا قد رجع. إنه المنبه العصبي.

لماذا لا يسير الأمر كما ينبغي؟ أين هو الخلل. جسده يغلي بالمعلومة

الخام. كيف أصيب القطيع بهذا الجرح دون أن يشعر؟ أليس هو نفسه المنبه المولج بإثارة الألم في القطيع؟ عليه إذن أن يقوم هو نفسه باستثارة المدينة.

آه، كم هو مضن أن تضم بين جنبيك رسالة العذاب؛ أن تحتفظ بها داخل نفسك؛ ألا تجد قرناً يقبل استقبالها منك. آه، كم يود أن يفرغ شحنة هذا الحِمْلِ، أن يتقاسم علمه الرهيب مع الآخرين.

إحدى النمال، من مراسلات الحرارة، تمر بالقرب منه. تظن، إذ تشم فيه رائحة الانقباض والتوتر، إنه لم يستيقظ تماماً فتمنحه حريراتها الشمسية. يعطيه ذلك بعض القوة فيستخدمها فوراً في محاولة لإقناعها:

إنذار، إحدى بعثاتنا تمّ تدميرها في كمين نصبته المقزومات، إنذار!

ولكنه لم يوجد يمتلك لهجة الصدق كما كان في البداية. المراسلة الحرارية تمضي في سبيلها كما ولو أن شيئاً لم يكن. الرقم 327 لا يتراجع. يكر ويفر في الممرات مطلقاً رسالة الإنذار.

بعض المحاربات يتوقفن أحياناً. يصغين إليه. يصلن إلى حد التحاور معه. لكن قصته عن السلاح الفتاك غير قابلة للتصديق. يظل عاجزاً عن تشكيل فريق قادر على الاضطلاع بمهمة عسكرية.

يواصل المسير مهموماً منكسراً.

يجتاز نفقاً مقفراً في الطابق الرابع تحت سطح الأرض. فجأة، يلتقط صوت ضجيج آت من الخلف. هنالك من يتتبع خطاه.

الذكر رقم 327 يستدير ويتفحص المقر بعييناته العاملة بالأشعة ما تحت الحمراء. بقع حمراء وسوداء. ما من أحد وراءه.

شيء غريب. لعل في الأمر خطأً. ولكن وقع القوائم يسمع خلفه من جديد. **سكريتش... تسسس، سكريتش... تسسسس.** لا بد أن من يتبعه يعرج بقائمتين من قوائمه الست.

لكي يتأكد من صدق ظنه، أخذ ينعطف عند كل مفترق ويتوقف قليلاً، فيتوقف وقع القوائم خلفه على الأثر. وكلما عاد إلى المسير من

جديد، عاد وقع الأقدام كما كان: **سكريتش... تسسس، سكريتش... تسسس، سكريتش... تسسس.**

لا شك بأن هنالك من يتتبع خطاه.

هنالك من يختبيء لكما استدار إلى الوراء. سلوك غريب لا سابق له. ما الذي يدفع بإحدى خلايا القطيع إلى تتبع خلية أخرى دون أن تكشف عن هويتها؟ الجميع هنا يعيشون حياة مشتركة وما من أحد يخفي شيئاً عن الآخرين.

الشيء الذي يتبع خطاه لا يزال حاضراً وراءه. المسافة الفاصلة بينهما لا تتغير ولكنه لا يزال خفياً إلاً من **سكريتش... تسسس، سكريتش تسسس**. كيف يرد على ذلك. عندما كان لا يزال يرقة صغيرة، علمته الحاضنات ألا ينكص أبداً عن مواجهة الخطر. يتوقف ويتظاهر بأنه يغتسل. الشيء الذي يتبعه لم يعد بعيداً عنه. إنه يكاد يشعر به. يهزّ قرنيه دون أن يتوقف عن التظاهر بالإغتسال إنه يلتقط الآن جزيئات الروائح المنبعثة من الشيء الذي يتبع خطاه. ذلك الشيء هو محاربة فتية بعمر عام واحد. تفوح منها رائحة فريدة تطغى على روائح هويتها العادية. من الصعب تحديد هذه الرائحة. كما ولو أنها رائحة الصخور.

المحاربة الفتية تكف الآن عن الإختباء. **سكريتش... تسسس، سكريتش، تسسس**. إنه يراها جيداً بالأشعة ما تحت الحمراء. تنقصها قائمتان. رائحتها الصخرية تزداد حضوراً.

الرقم 327 يبث.

من هناك؟

لا إجابة.

لماذا تتبعين خطاي؟

لا إجابة.

يحاول تناسي الحادث ويتابع طريقه ولكنه لا يلبث أن يكتشف شيئاً

آخر آتياً نحوه من الجهة الأمامية. إنها محاربة ضخمة هذه المرة. الدهليز ضيق. لن يتمكن من العبور.

هل ينفتل على عقبيه؟ هذا يعني أنه سيجد نفسه وجهاً لوجه مع العرجاء التي بدأت تتقدم نحوه بالفعل.

إنه محاصر تماماً.

إنه يعرف الآن طبيعة الموقف: محاربتان تنبعث من كلتيهما رائحة الصخور. المحاربة الكبرى تفتح ملقطيها الطويلين.

لقد وقع في الفخ.

من المستحيل أن تسعى نملة من نمال المدينة إلى قتل صاحبتها. هل يمكن أن يكون ذلك ناتجاً عن خلل في نظام المناعة؟ ألم تتعرفا من روائحه على هويته؟ أتحسبانه جسماً غريباً. شيء عديم المعنى: كما ولو أن معدته قد قررت الفتك بأمعائه...

الذكر 327 يزيد قوة البث:

أنا مثلكما، خلية من خلايا القطيع. أنا وأنتما من الجسم نفسه.

إنهما محاربتان فتيتان، لا بد أنهما وقعتا في خطأ.

ولكن الرسائل التي قام ببثها لم تخفف مطلقاً من غلواء مطاردتيه. فالعرجاء الصغيرة قفزت فوق ظهره وأمسكت به من خاصرتيه بينما أخذت الكبيرة تشد على رأسه بملقطيها وقادتاه وهو مشدود بهذه الطريقة باتجاه مجمع النفايات.

الذكر 327 يتخبط بينهما على غير هدى. يستخدم خط الحوار الجنسي فيبث كل إشارات الإنفعالات بما فيها تلك التي تجهلها النمال غير المجهزة جنسياً. ينتقل بسلوكه من التصرف غير المفهوم إلى التصرف المحكوم بالذعر.

العرجاء القابضة على حلقته البطنية الوسطى تكشط جوانب قرنيه بملقطيها لكي لا تتسخ بما يبثه من أفكار «مجردة». وهكذا، تنتزع كل ما

بحوزته من فيرومونات وتزيل مصادر روائحه الدالة على هويته الشبوتية تحديداً. على كل حال، فإن هذه الروائح لن تغني عنه شيئاً في المكان الذي يقاد إليه. . .

الثلاثي الرهيب يتقدم بطيئاً داخل الممرات شبه المقفرة. العرجاء الصغيرة تواصل القيام بأعمال التنظيف التي بدأتها. كل شيء يوحي بأنها لا تريد أن تترك أية معلومات على رأسه. الذكر يكف عن المقاومة. يستسلم ويبدأ بالاستعداد للإنطفاء. يخفف من ضربات قلبه.

«لماذا كل هذا العنف، لماذا كل هذا الحقد، يا إخوتي؟ لماذا؟

نحن شيء واحد. لسنا غير شيء واحد. نحن جميعاً أبناء الأرض والإله.

لنقف بصراعاتنا العقيمة عند هذا الحد. القرن الثاني والعشرون سيكون قرناً روحياً أو لا يكون. لنتخلى عن صراعاتنا القديمة القائمة على التكبر والرياء.

الفردية هي عدونا الحقيقي! إذا كان أخوك تحت وطأة الحاجة وتركته يموت جوعاً فلست جديراً بالإنتماء إلى الجماعة البشرية الواسعة. لست منا إذا أغلقت بابك في وجه إنسان بائس جاءك في طلب العون والمساعدة.

إني أعرفك يا أيتها الضمائر الحية المتمرغة في الحرير! إنكم لا تفكرون في غير رفاهكم الشخصي. لا ترغبون في غير أمجادكم الفردية. تطلبون السعادة؟ لا بأس. ولكنكم لا تطلبون غير سعادتكم الشخصية وسعادة أقرباءكم المقربين.

أقول لكم بأنني أعرفكم. أنت وأنت وأنت وأنت! كفوا عن الابتسام أمام شاشات أجهزتكم. إنني أكلمكم عن أمور خطيرة. أكلمكم عن مستقبل البشرية. لا يمكن للأمور أن تستمر بهذا الشكل. نمط حياتنا لا معنى له. إننا نهدر كل شيء وندمر كل شيء. استأصلنا الغابات لنصنع منها مناديل من الورق نرميها بعد الإستعمال. كل شيء صار يرمي بعد الإستعمال:

الصحون والشوك والملاعق، الأقلام والثياب وآلات التصوير والسيارات. ومن حيث لا تشعرون، أصبحتم، أنتم أنفسكم كائنات ترى بعد الاستعمال. أعرضوا إذن عن شكل الحياة السطحية التي تعيشونها. أعرضوا عنها اليوم، قبل أن يأتي من يجبركم على الإقلاع عنها غداً.

تعالوا إلينا، التحقوا بصفوف جيشنا من الأنصار الأمناء. نحن جميعاً جنود الله يا إخوتي».

تظهر على شاشة الإذاعة المرئية صورة إحدى مقدمات البرنامج: «النشر الدينية التي شاهدتموها قدمت إليكم من قبل الأب ماكدونالد لليوم الخامس والأربعين بالتعاون مع شركة «سويتملك» للأغذية المجلدة. وقد تمّ بثها بالأقمار الصناعية على جميع الشبكات العالمية. والآن وقبل الإنتقال إلى المسلسل العلمي - الخيالي «نحن من خارج الأرض ونحن فخورون بكوننا كذلك»، نترككم مع صفحة الإعلانات»!.

لم يكن بمقدور لوسي أن تتوقف تماماً عن التفكير، كما يفعل نيكولا، عند مشاهدة الإذاعة بالمرئية. فقد مضت ثمان ساعات على نزول جونوثان إلى القبو وانقطاع أخباره تماماً!

يدها تقترب من جهاز الهاتف. صحيح أنه طلب عدم فعل أي شيء، ولكن ربما يكون قد مات الآن أو أصبح عاجزاً عن الحركة بفعل انهيار حائط أو كتلة تراب...

لم تكن تمتلك التصميم الكافي للنزول إلى القبو. رفعت السماعة وطلبت شرطة النجدة.

- آلو، الشرطة؟

- طلبت إليك ألاّ تتصلي بالشرطة. جاء هذا الجواب ضعيفاً

وخالياً من النبرة جاء من. . . المطبخ.

ـ أبي! أبي!

أعادت السماعة إلى مكانها في حين كان الصوت القادم من الطرف الآخر من الخط يواصل القول بإلحاح: «آلو، تكلمي، أعطنا العنوان. . .». كلاك! ارتطمت السماعة بالجهاز.

ـ أنا هنا، بالطبع، أنا هنا. لم يكن هنالك أي داعٍ للقلق. قلت لكما بأن تنتظراني بكل هدوء.

كيف لا نقلق؟ كانت هناك أسباب للقلق، وأية أسباب!

لم يكن جوناثان يحمل بين ذراعيه بقايا أورزازات الذي أصبح الآن قطعة من اللحم المدمى وحسب، بل إن الرجل نفسه كان ذا هيأة غير هيأته. لم تكن تبدو عليه سيماء الذعر أو الغم، بل كان باسماً بالأحرى. لا، ليس الأمر كذلك. كيف يمكن التعبير عن ذلك؟ كانت تبدو عليه أعراض الشيخوخة أو المرض. نظرته محمومة ولونه باهت. كان يرتجف ويبدو متقطع الأنفاس.

انفجر نيكولا بالبكاء عندما رأى كلبه المهشم. كان الكلب المسكين في حالة بدا معها وكأنه قد اصطُلِم بمئات من شفرات الحلاقة.

وضع جوناثان بقية الكلب فوق صحيفة افترشت لهذه الغاية.

نيكولا يبكي ويبكي لما أصاب صاحبه. إنتهى الأمر. لا مجال بعد الآن لرؤيته وهو يقفز فوق الحائط عند سماعه لكلمة

«هر». لا مجال بعد الآن لرؤيته وهو يقفز مسروراً لفتح الباب من قبضته. ولا مجال بعد الآن لانقاذه من براثن الطلاب الضخمة المنحرفة جنسياً.

لقد انتهى أورزازات. فارق الحياة.

ـ سنحمله غداً إلى مقبرة الحيوانات في بير لاشيز(*). قالها جوناثان مستسلماً ثم أردف:

ـ سنشتري له قبراً بأربعة آلاف فرنك. أتدري أي قبر؟ ذاك الذي توضع صورة الميت في أعلاه.

ـ أجل، أجل، قالها نيكولا بين شهقتين. ذاك أقل ما يستحقه.

ـ ثم تذهب بعد ذلك إلى شركة حماية الحيوانات حيث يمكنك أن تختار أي حيوان تشاء. لماذا لا تأخذ «بيشون مالطي»؟ إنه لطيف جداً هو الآخر.

ـ لم تكن لوسي قد تمالكت نفسها بعد. لم تكن تعرف بأي سؤال تبدأ. لماذا تأخر إلى هذا الحد؟ ماذا حدث للكلب؟ ماذا فعل هو طيلة ذلك الوقت؟ هل يريد أن يأكل؟ هل فكر بما سببه من قلق ارتيابه؟ ولكنها انتهت بأن قالت بصوت باهت.

ـ لا شيء، لا شيء.

(*) حي فيه إحدى أكبر المقابر الباريسية. وفي المقبرة، كما هو واضح، جناح خاص بالحيوانات.

ـ ولكنك ترى في أية حالة تعود إلينا. والكلب. . . كأنه سقط في آلة فرم كهربائية. ما الذي حدث له؟

فرك جوناثان جبينه بيده، يده وسخة بشكل مبيّن.

ـ كان الكاتب العدل محقاً. هنالك جرذان كثيرة في القبو. الجرذان الهائجة فرقت أورزازات إرباً إرباً.

ـ وأنت؟

يضحك.

ـ أنا؟ أنا حيوان أكبر حجماً. لقد خافتني الجرذان!

ـ شيء لا يصدق. ماذا فعلت في القبو طيلة ثماني ساعات؟

ماذا يوجد داخل ذلك القبو اللعين؟ قالت بحدة وغضب.

ـ لا أعرف ماذا يوجد بداخله. لم أصل إلى نهايته.

ـ لم تصل إلى نهايته!

ـ لا إنه عميق جداً.

ـ كل هذه الساعات، ولم تصل إلى نهاية القبو. . . قبونا نحن!

ـ لا. توقفت عندما رأيت الكلب. كان هنالك دم في كل مكان. أورزازات أبدى مقاومة شرسة. تصوري أن كلباً بهذا الصغر يمكنه أن يصمد طيلة ذلك الوقت.

ـ ولكن أين توقفت؟ في منتصف الطريق؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف. على كل حال، لم يكن بإمكاني

أن أستمر في النزول. استولى عليّ الخوف. تعرفين أنني لا أطيق الظلمة والعنف. أي إنسان غيري كان توقف هو أيضاً. لا يمكن لأحد أن يستمر في النزول إلى ما لا نهاية نحو المجهول. ثم إنني فكرت بك. بكما. لا يمكنك أن تتصوري كم كان الظلام شديداً في القبو.

إنه الموت.

ظهر إلتواء لاشعوري على زاوية فمه اليسرى وهو ينهي نطق عبارته الأخيرة. لم يسبق لها مطلقاً أن رأته بهذا الشكل. فهمت أن عليها أن تتوقف عن إجهاده. أحاطته بذراعيها وقبلت شفتيه الباردتين.

ـ هدّىء من روعك، انتهت المشكلة. سنسد الباب ولن نعود إلى الكلام في هذا الموضوع.

ندت عنه حركة تراجع إلى الوراء.

ـ لا، لا، لم ينتهِ شيء. توقفت هناك بسبب تلك الزاوية الملطخة بالدماء. أي شخص آخر يفعل ما فعلت. العنف يثير فينا الهلع دائماً حتى ولو كانت ضحيته الحيوانات. لا، لا يمكنني أن أظل هكذا. قد لا أكون الآن بعيداً عن الهدف.

ـ إنك لا تحاول أن تقول بأنك ستعيد الكرة!

ـ بلى. لقد وصل ادمون، وسأصل أنا أيضاً.

ـ ادمون، خالك ادمون؟

ـ لقد فعل شيئاً هناك، تحت. أريد أن أعرف ما فعل.

خنقت لوسي عويلاً كاد يند عنها.

ـ أتوسل إليك، باسم حبك لي ولنيكولا. لا تعد إلى القبو.

ـ لا خيار لي في ذلك.

عاد الإلتواء اللاشعوري إلى الظهور على طرف فمه.

ـ لم أكمل شيئاً بدأته أبداً. كنت أتوقف دائماً عندما كان عقلي يقنعني بأن الخطر بات قريباً. انظري إلي وإلى ما إلت إليه. إنسان لم يتعرض للأخطار، هذا صحيح. ولكنني أيضاً إنسان لم ينجح في بناء حياته. لكثرة ما توقفت في منتصف الطريق، لم أصل أبداً إلى نهايات الأشياء. كان يجدر بي ألا أترك العمل في الأقفال وأن أتعوَّد التكيُّف مع الكدمات. كان بإمكانها أن تكون نافعة بالنسبة لي. كان بإمكاني أن أتعرف من خلالها على العنف وأن أتعلم كيفية التعايش معه. ولأنني لم أفعل ذلك وأعرضت عن مواجهة المتاعب، ها أنا الآن كطفل بلا تجربة.

ـ إنك تهذي.

ـ لا، أنا لا أهذي. لا يمكننا أن نعيش دائماً داخل قوقعة. بسبب هذا القبو، وجدت الآن فرصتي الوحيدة للعبور وإذا لم أفعل، فإنني لن أجرؤ ما حييت على النظر إلى وجهي في المرآة لأنني لن أرى فيها غير وجه جبان. ثم إنك أنتِ نفسِكِ دفعتني إلى النزول، ألا تذكرين؟

نزع قميصه الملطخ بالدم.

ـ لا تلحي عليّ. لن أعود عن قراري.

ـ حسناً، سأنزل معك في هذه الحالة. قالت ذلك وأمسكت بالمصباح الكهربائي الذي كان يحمله بيده.

ـ لا، ستبقين هنا. وأمسك يديها بشدة وتصميم.

ـ أترك يدي. ماذا بك؟

ـ اعذريني. يجب أن تفهمي. هذا القبو شيء يخصني أنا، بمفردي. إنه فرصتي للعبور، إنه طريقي ولا يحق لأحد أن يتدخل في شأني. أتفهمين؟

خلفهما، كان نيكولا لا يزال ينشج فوق جثة أورزازات. ترك جوناثان يدي لوسي واقترب من ولده.

ـ هيا، هدّيء من روعك يا فتى!

ـ لقد ذقت ذرعاً بكما. مات وارزي وأنتما لا عمل لكما غير المشاجرة.

حاول جوناثان حرف الموقف وتوجيهه وجهة أخرى.

ـ انظر، سأطرح عليك لغزاً. يمكنك أن تصنع أربعة مثلثات متساوية الزوايا بعيدان الثقاب الستة هذه. حاول. لا بد أنك تقدر على ذلك.

فوجيء الصبي فمسح دموعه وشلف بأنفه ثم عكف على عيدان الثقاب يرتبها في مختلف الوضعيات والأشكال.

ـ وسأسدي إليك بنصيحة أيضاً. من أجل العثور على

الحل، لا بد من التفكير بطريقة مختلفة. لا نعثر على شيء إذا ما فكرنا بالطريقة المألوفة.

تمكن نيكولا من تشكيل ثلاثة مثلثات لا أربعة. نظر إلى أبيه بعينيه الزرقاوين و رف بأجفانه.

ـ وهل وجدت الحل يا أبي؟

ـ لا، لم أجده بعد، ولكنني أشعر بأنني سأجده عن قريب.

وهكذا، أفلح جوناثان مؤقتاً في تسكين ولده دون زوجته. كانت لوسي ترميه بنظرات مغضبة. وفي المساء، تشاجرا بعنف ولكن جوناثان رفض أن يقول شيئاً عن القبو وأسراره.

نهض مبكراً في اليوم التالي وصرف الغداة كلها في تركيب باب حديدي بقفل ثقيل عند مدخل القبو. ثم جعل مفتاحه الوحيد في قلادة حول عنقه.

جاء الخلاص بطريقة غير متوقعة: شيء شبيه بهزة أرضية.

في البداية، تداعت الجدران بفعل هزة جانبية، وبدأ الرمل يتدفق من السقوف كالشلال. هزة ثانية أعقبت الهزة الأولى، ثم هزة ثالثة ورابعة. . . وتتابعت الإنهيارات بسرعة متزايدة وهي تقترب شيئاً فشيئاً من الثلاثي الغريب الشكل. تحولت أصوات الإنهيارات إلى هدير لا يتوقف. هدير يهتز له كل شيء.

ـ الإرتجاجات أعادت الحيوية إلى الذكر رقم 327 فعاد إلى تسريع ضربات قلبه من جديد ووجه بملقطيه ضربتين ذهلت لهما الجلادتان فاغتنمها فرصة وانفلت منهما منسحباً نحو النفق المتهدّم. جناحاه لا يزالان في حالة جنينية ولكنه راح يحركهما للإسراع في هروبه ولتأمين قدرة أكبر على القفز فوق الركام المنهدم.

وكلما جاءت هزة أكثر عنفاً من سابقتها، كان يجد نفسه مجبراً على التوقف والإنتظار بعد أن يقبع على الأرض، ريثما يتوقف تدفق الرمال. جدران بعض الممرات كانت تنهار فيسد ركامها ممرات أخرى. جسور وأقواس وأقبية كانت تميد في أمكنتها جارفة مع انهيارها ملايين الشخوص المذعورة.

روائح الإنذار بدرجته القصوى كانت تبث وتنتشر في كل مكان. خلال المرحلة الأولى من الإنذار، كانت الفيرومونات المنبهة قد شكلت ضباباً سد كافة الأروقة العليا وكل النمال التي استنشقت روائحها بدأت، على الفور، بالإرتجاف والركض في جميع الإتجاهات، وهي تطلق فيرومونات أشد لسعاً وتهييجاً من سابقاتها، مما جعل الذعر يطغى ويشتد كما تشتد النار في الهشيم.

وانتشرت غيمة الإنذار كالضباب وانسابت في جميع عروق المنطقة المنكوبة، ثم بدأت بالتغلغل في الشرايين الرئيسية. وهكذا، نجح «ذو الجناح» حيث فشل الذكر رقم 327: لقد اندفع جسد القطيع إلى إفراز توكسينات الألم. وللحال، بدأ الدم الأسود يتدفق بقوة أكبر في عروق الجماهير البيلوكانية فاندفعت الجموع لإخلاء البيوض القريبة من المنطقة المنكوبة وأخذت المحاربات تتجمعن في وحدات قتالية.

كان الذكر رقم 327 يتعثر داخل أحد تقاطعات الطرق المقفلة بشكل شبه كامل بانهيارات الرمل واحتشاد الجموع عندما توقفت الهزات. أعقب توقفها صمت مخيف، جمد كل في موضعه مترقباً بقية الحدث. كانت القرون مشرئبة تَرِفُّ بالإنتظار.

فجأة، حل محل القعقعة التي عمت المكان خلال اللحظات المنصرمة صوت زمجرة حادة. شعر الجميع بأن شيئاً قد ثقب طبقة الغصينات الواقية لسطح المدينة. نفذ شيء هائل في القبة، طحن الجدران وانزلق من خلال الغصينات.

لسان دقيق زهري اللون اندفع وسط تقاطع الطرق. كالسوط مرق في

الهواء، وراح يكنس الأرض بسرعة مذهلة لاقفاً كل ما يقع في متناوله من مواطنين. تكون عند طرفه الملامس للأرض عنقود أسود كبير: إنهن المحاربات اللواتي اندفعن لعضه بملاقطهن. لكن اللسان يلتقط ما يلتقط منهن ويرتفع إلى الأعلى فيفرغ صيده في البلعوم ثم يبرز من جديد. أطول مما كان في البداية وأكثر شراهة. كالصاعقة.

عندها أعلنت المرحلة الثانية من الإنذار. العاملات يقرعن الأرض بأطراف بطونهن لينبهن محاربات الطبقات السفلى اللواتي لم تصل إليهن المأساة بعد.

أرجاء المدينة تدوي بقرع تلك الطبول البدائية. بدا وكأن المدينة جسد يلهث: طاك، طاك، طاك! فيأتي الجواب: طوك... طوك... طوك، من «ذي الجناح» الذي أخذ يدك القبة من جديد ليحقق المزيد من التقدم نحو الأعماق. التصق الجميع بجوانب الجدران بعيداً عن متناول تلك الأفعى الحمراء الهائجة التي كانت تسوط الأروقة. وبعد كل لعقة، كان اللسان يعود ليبرز من جديد. وبعد اللسان منقار، وبعد المنقار رأس ضخم.

إنه النقار الأخضر! الطائر الذي يملأ ربيع النمال بالرعب. طائر شَرِهٌ يتغذى على الحشرات. يحفر في سطح المدينة ثقوباً بعمق ستين سنتيمتراً ثم يلتقم ما فيها من النمال.

لم يَعُدْ إلاً أن تُعْلَنَ المرحلة الثالثة من الإنذار. بعض العاملات اللواتي دفع بهن الهياج الشديد، غير المتجسد في فعل، إلى ما يشبه الجنون يبدأن بأداء رقصة الخوف. حركات الرقصة متقطعة، مهتزة، تتراوح بين القفز وفتح الملاقط وإطباقها والبصاق... نمال أخريات يركضن في حالة هستيريا كاملة داخل الممرات وينهلن عضاً على كل ما يتحرك حولهن. إنه التشوش والإختلاط الناجمان عن الخوف. عجز المدينة عن تدمير المعتدي عليها يدفعها إلى تدمير نفسها.

المكان الذي حلت فيه البلية هو الجناح الغربي من الطابق العلوي الخامس عشر. ولكن إطلاق المراحل الثلاث من الإنذار وضع المدينة كلها

في حالة استعداد تام للحرب. فالعاملات يهبطن إلى الطوابق السفلية لتنحية البيوض بعيداً عن مكامن الخطر. تمر بهن المحاربات وهن يصعدن بملاقطهن المشرعة.

تعلمت مدينة النمل على مر الأجيال المتعاقبة كيف تحمي نفسها من مثل هذه المكدرات. ففي قلب الفوضى العارمة، برزت النمال الراشقات للحوامض ورحن ينتظمن في فرق انتحارية ويتوزعن المهام القتالية ذات الأولوية.

أحطن بالنقار الأخضر على مستوى نقطة ضعفه الأولى: حول عنقه. ثم استدرن واتخذن الوضعية المناسبة للقصف المركز. فوهات بطونهن مصوبة تماماً نحو الهدف. وفور صدور الأمر، أطلقن، دفعة واحدة، وبكل قوة عضلاتهن العاصرة، رشقات من حامض النمل (الفورميك) العالي التركيز.

يشعر الطائر بغتة وكأن قلادة من دبابيس قد التفت حول عنقه. يقاوم. يحاول أن يتفلت ولكن لات حين مناص بعد أن أوغل في الغوص داخل الجرف حتى اشتبك جناحاه بالتراب وبالأغصان التي تجلل سطح القبة. يصفع بلسانه وجه المكان من جديد ليقتل أكبر عدد ممكن من خصومه الضئيلة الأحجام.

فرقة ثانية من المحاربات تتمركز في مواقع الفرقة الأولى. ومع صدور الأمر بالرشق ينوء الطائر بجسده إذ لم يعد الوخز مجرد وخز بالدبابيس بل صار وخزاً بالأشواك. يخبط بمنقاره خبطاً عصبياً. رشق جديد فيرتجف الطائر تحت سيل الحوامض. يجد الآن مشقة في التنفس. رشق جديد ويبدأ الحامض بإحراق أعصابه. لقد أُحيط به تماماً.

الرشق بالحوامض يتوقف. محاربات بملاقط عريضة يهرعن من كل مكان. يغرزن ملاقطهن في مواضع الجروح التي أحدثتها الحوامض. جبهة أخرى تفتحها المحاربات من الجهة الخارجية: يصعدن فوق ما تبقى من القبة ويبحثن، تحت ذنب الطائر، عن المكان الذي تفوح منه أقوى

الروائح. عن الشرج. فرقة الهندسة وسعت المدخل بسرعة واندفعت النمال داخل أمعاء الطائر.

الفرقة الأولى تمكنت من تمزيق الجلد عند العنق. وعندما سالت النقاط الأولى من الدم الأحمر، توقف بث فيرومونات الإنذار واعتبرت المعركة بحكم المنتهية. فتحة واسعة في العنق. فيالق كاملة تغلغلت فيها. لا تزال بعض النمال حية في حنجرة الطائر. يجري إنقاذها بسرعة.

بعض المحاربات ولجن إلى داخل الرأس بحثاً عن المنافذ الآيلة إلى الدماغ، إحدى العاملات وجدت منفذاً من خلال الشريان السباتي. ولكن ذلك لا يكفي ولا بد من العثور على الممر المناسب: إنه الشريان الصاعد من القلب نحو الدماغ وليس العكس. ها هو الشريان المطلوب: أربع محاربات يخترقن نسيج الممر ويغطسن في مجرى السائل الأحمر حيث دفعهن دفق التيار الصاعد من القلب نحو نقطة إلتقاء نصفي الدماغ إنهن الآن على قدم وساق يحفرن المادة الرمادية.

النقار الأخضر جن جنونه من الألم. يتمرغ أرضاً ذات اليمين وذات الشمال. ولكنه لا يمتلك وسيلة لمواجهة كل هذا الغزو الذي يمزقه من الداخل. فصيلة من النمال تدخل إلى رئتيه وتفرغ فيهما شحنة من الحوامض. الطائر ينتابه سعال فظيع.

نمال أخرى، جيش بأكمله، يتوغل داخل البلعوم ليلتقي في وسط الجهاز الهضمي بالجموع القادمة من الجهة الأخرى، جهة الشرج. فقد اجتازت تلك الجموع المنطقة السفلى من المعي الغليظ وأتلفت، في طريقها، كل ما وصلت إليه ملاقطها من أعضاء حيوية. إنها تنفذ داخل اللحم الحي، كما تفعل عادة عندما تمخر عباب التراب، وتشن هجماتها على الحوصلة والكبد والقلب والطحال والبنكرياس تماماً كما تشن الهجمات على القلاع والحصون.

يحدث بين الفينة والفينة أن ينبثق الدم هنا أو السائل اللمفاوي هناك فتغرق فيه بعض العناصر الزاحفة. ولكن ذلك لا يحدث إلاّ لغير الماهرات

من اللواتي يجهلن كيف وأين يعملن مباضعهن في اللحم الطري.

الأخريات يتقدمن بانتظام داخل المناطق اللحمية الحمراء أو السوداء. يعرفن تماماً كيف يبتعدن قبل أن يسحقهن مغص أو تشنج. يحاذرن الإقتراب من الأوعية المليئة بالصفراء أو بالحوامض الهضمية.

طلائع الجمعين تلتقي أخيراً على مستوى الكليتين. لكن الطائر لم يمت بعد. قلبه المبضع بضربات الملاقط يواصل ضخ الدم في الأنابيب المليئة بالخروق والمزوق.

لماذا الإنتظار؟ سلاسل طويلة من العاملات تشكلت قبل أن يلفظ الطائر أنفاسه الأخيرة، ومن قائمة لقائمة، راحت تنقل قطع اللحم التي لم تتوقف بعد عن الإختلاج. لا شيء يصمد أمام عمليات الجرّاحات الصغيرات. بدأن الآن بتقطيع أوصال النخاع. الطائر يختلج. إنها اختلاجته الأخيرة.

المدينة بكاملها تهرع إلى تقصيب الوحش. تعج الممرات بالنمال. كل تحمل منه ريشة أو قطعة زغب للذكرى!

الفريق المولج بمهام البناء انصرف إلى مزاولة عمله في ترميم القبة والأنفاق المتضررة.

الناظر من بعيد يخال أن معسكر النمل يقوم بالتهام عصفور. ولكن الحقيقة أن النمال لا تفعل غير توزيع لحمه ودهنه، ريشه وجلده، على كافة الأمكنة التي تكون فيها مناسبة، إلى الحدود القصوى، لمصالح المدينة.

التكوين: كيف تكونت حضارة النمل؟ لفهم ذلك، لا بد من الرجوع عدة مئات من ملايين السنين إلى الوراء، إلى اللحظة التي بدأت فيها الحياة بالتكون على الأرض.

كانت الحشرات بين أوائل القادمين.

كانت تبدو غير متكيفة مع عالمها. صغر أجسامها وسرعة عطبها يجعلان منها فرائس مثالية لجميع الكواسر. من أجل المحافظة على البقاء، إختار بعضها ـ كالجراد مثلاً ـ طريق التوالد. الأعداد الهائلة من الصغار التي تخرج من بيوضها تلزم ببقاء بعضها على قيد الحياة.

حشرات أخرى، كالدبابير أو النحل، اختارت السم. إبرها السامة تطورت عبر الأجيال وجعلتها مرهوبة عزيزة الجانب.

حشرات أخرى، كبنات وردان، إختارت أن تكون غير صالحة للأكل. إحدى غددها الخاصة تعطي لحمها طعماً بلغت رداءته حداً جعل الجميع يعزفون عن تذوقها.

حشرات أخرى، كحصان إبليس أو كفراشات الليل، اختارت التمويه. شبهُها بالأعشاب وقشور الجذورع يجعلها غير قابلة للرؤية في أحضان الطبيعة المعادية. غير أن الغاب الذي مثلته تلك الأيام الأولى عرف حشرات أخرى لم تجد «وسيلة» للبقاء فبدت محكومة بالإنقراض.

ومن هذه الحشرات «غير المحظوظة» نجد، أول ما نجد، الأرضة *(termite)* ظهرت الأرضة منذ ما يقرب من مئة وخمسين مليون عاماً على سطح القشرة الأرضية. تلك الحشرة القارضة للأخشاب لم تكن تمتلك حظاً كبيراً بالبقاء. فالكواسر كثر والتجهيزات الطبيعية اللازمة للمقاومة قليلة.

فما كان من أمر الأرضة؟

مات منها الكثير، وما بقي منها ضاق عليه الخناق حتى أفلح، قبل فوات الأوان، في إيجاد حل مبتكر: «عدم دخول

الحشرة في مجابهة بمفردها واللجوء إلى تشكيل مجموعات متضامنة، لأن هجوم العدو على عشرين حشرة متضامنة فيما بينها أصعب من هجومه على حشرة واحدة لا عمل لها غير محاولة الفرار». بهذا، كانت الأرضة تشق أحد أهم سبل التعقيد، أي سبيل التنظيم الاجتماعي.

وهكذا، بدأت هذه الحشرات بالعيش داخل خلايا صغيرة، عائلية في البداية، حيث تظل مجتمعة حول الأمّ واضعةِ البيوض. ثم اجتمعت العائلات في قرى وكبرت القرى فصارت مدناً. ولم يطل بها الزمان حتى شمخت مدنها المبنية بالرمل والملاط في جميع أنحاء الكوكب.

الأرضة هي أول بناء ذكي ظهر على سطح الكوكب، ومجتمع الأرضة أول المجتمعات.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الذكر رقم 327 لم يعد ير الساعيتين لقتله، اللتين تفوح منهما رائحة الصخور. لقد تخلص منهما بالفعل. ماذا لو توفر شيء من الحظ وكانتا الآن ميتتين تحت الأنقاض...

لا يجب الاستغراق في الأحلام. لو كان الأمر بالأحلام لما كان تخلص من ورطته. لقد فقد رائحته الثبوتية ولا شك بأن حسابه سيصفى تماماً إذا ما التقى بأي واحدة من المحاربات. سيتعامل معه الجميع، تلقائياً، على أنه جسم غريب. حتى شرح موقفه لن يكون ميسوراً له. ستطلق عليه الحوامض أو تطبق عليه الملاقط دون إنذار. ذلك هو شكل المعاملة التي يحظى بها كل من لا يبرز روائحه الثبوتية الخاصة بالفيدرالية.

غير معقول. كيف وصل به الأمر إلى ما هو عليه؟ كل ذلك بسبب

هاتين المحاربتين اللعينتين اللتين تفوح منهما رائحة الصخور. ماذا دهاهما؟ لا بد أنهما مجنونتان. قد تقع أخطاء في البرمجة الجينية وقد يُحدث ذلك أعراضاً نفسية من هذا النوع... من نوع مشابه لما حصل للنمال التي أصيبت بالهستيريا وراحت تضرب كل ما يتحرك حولها خلال المرحلة الثالثة من الإنذار... ولكن ذلك نادر الوقوع.

ولكن لم يكن على هاتين النملتين أي أثر للهستيريا. بل إن كل شيء كان يدل على أنهما تعرفان تماماً ما تقومان به. قد يمكن القول... هنالك حالة واحدة تقوم فيها الخلايا، عن سابق تصميم، بتدمير خلايا أخرى في الجسم نفسه. الحاضنات يطلقن على هذه الحالة اسم السرطان. قد يمكن القول... بأنهما خليتان مصابتان بالسرطان.

رائحة الصخور تصبح، والحالة هذه، رائحة حالة مَرَضية... لا بد، هنا أيضاً، من إطلاق إشارات الإنذار. كان الذكر 327 أمام لغز واحد، وها هو الآن يبحث عن حلين للغزين اثنين: سلاح المقزومات السري وخلايا بيلوكان السرطانية. ولا يمكنه طرح الموضوع على أحد. لا بد من التفكير. قد يكون متوفراً، هو نفسه، على بعض الإمكانات الخفية... التي قد تؤدي إلى إيجاد الحل.

شرع بغسل قرنيه. بللهما (إنه لشيء طريف أن يلحس قرنيه دون أن يتعرف فيهما على الطعم المميز لفيرومونات الهوية الثبوتية) دلكهما ومسّدهما بالفرشاة الواقعة في أسفل كوعه. نشفهما.

ما العمل الآن؟ يا للعنة!

قبل كل شيء، لا بد من البقاء على قيد الحياة.

هنالك شخص واحد يمكنه تذكر صورته بالأشعة ما تحت الحمراء دونما حاجة للتأكد بواسطة روائح الهوية: ذلك الشخص هو الأم. ولكن المدينة المحظورة تعج بالمحاربات. شيء مؤسف، ولكن ألا تقول الحكمة القديمة التي كانت تبثها بيلو ـ كيو ـ كيوني: **غالباً ما نشعر بأننا في أفضل حالاتنا الأمنية عندما نكون في معترك الأخطار؟**

ـ لم يترك ادمون ويلز أية ذكريات طيبة هنا. ثم إن أحداً لم يحاول منعه من الإنصراف عندما قرر الرحيل. قائل هذا الكلام هو رجل عجوز ذو وجه أليف ومحبب. إنه أحد نواب مدير شركة «سويتميلك كوربورايشن».

ـ ولكن يبدو أنه اكتشف، مع هذا، بكتيريا غذائية جديدة، تلك التي تعطي روائح خاصة للألبان...

ـ من هذه الناحية، لا بد من الإعتراف بأن ضربات عبقرية مفاجئة كانت تأتي من ناحيته في مجال الكيمياء. ولكن هذه العبقرية لم تكن تظهر بشكل دوري. كان ظهورها متقطعاً وحسب.

ـ هل سبب لك بعض المتاعب؟

ـ لا، بكل تجرد. ولكن يمكن القول بأن اهتمامه بفريق العمل أخذ يخف. كان يعمل بمفرده. وحتى لو أن عمله على البكتيريا درّ عليه الملايين، فإنني لا أعتقد بأن أحداً كان سيقابله بشيء من التقدير.

ـ هل يمكنك أن تكون أكثر وضوحاً؟

ـ لا بد لكل فريق من رؤساء. ادمون لم يكن يطيق الرؤساء ولا أي شكل من أشكال السلطة الهيكلية. كان يحتقر القائمين بالعمل الإداري الذين لا عمل لهم غير «الإدارة للإدارة دون أن ينتجوا شيئاً»، على حد قوله. والحقيقة أننا مضطرون جميعاً للحس أحذية رؤسائنا. لا يوجد أي ضرر في ذلك. إنها إرادة

النظام. أما هو، ادمون، فقد كان يترفع. وأظن أن موقفه هذا كان يغيظنا نحن، زملاءه، أكثر مما كان يغيظ الرؤساء أنفسهم.

ـ وكيف ترك العمل؟

تشاجر مع أحد نواب المدير عندنا بسبب مسألة كان ـ لا بد لي من قول ذلك. . . كان محقاً فيها تماماً. كان نائب المدير قد دخل خلسة إلى مكتبه واطلع على أوراقه الخاصة فجمح به جنون الغضب، ووجد نفسه مضطراً إلى ترك العمل عندما وقف الجميع إلى جانب الآخر بدلاً من أن يتضامنوا معه.

ـ ولكنك قلت للتوء بأنه كان محقاً تماماً. . .

ـ قد يكون من الأفضل أحياناً أن تتخذ موقفاً جباناً لمصلحة أناس تعرفهم حتى ولو كانوا غير محببين، من أن تتخذ موقفاً شجاعاً لصالح أناس لا تعرفهم حتى ولو كانوا محببين. ادمون لم تكن تربطه بالعاملين أية علاقات صداقة. لم يكن يتناول طعامه معنا ولا يشرب معنا. كان يبدو، على الدوام، وكأنه في القمر.

ولكن لماذا اعترفت لي بالجبن طالما أن الأمر كان كذلك. لم يكن هنالك أي داعٍ لأن تخبرني بكل ذلك.

ـ همْم، لم يعد الآن على قيد الحياة؛ وأنا أعرف، بيني وبين نفسي، بأننا لم نعامله بطريقة لائقة. إنك ابن أخته وإنه لمما يريحني قليلاً أن أخبرك بذلك.

عند طرف المجاز الضيق، يمكن أن نتبين القلعة الخشبية بوضوح. إنها المدينة المحظورة.

ذلك البناء هو، في الواقع، جذع صنوبرة أقيمت القبة حوله. جذع الصنوبرة هو بمثابة قلب بيلو ـ او ـ كان وعمودها الفقري. قلبها، لأنه يضم المقر الملكي واحتياطي الأطعمة القيمة. وعمودها الفقري، لأنه يمكّن المدينة من الصمود في وجه العواصف والأمطار.

وإذا ما نظرنا إلى الجدار الخارجي للمدينة المحظورة من قرب، نجد أن زخارف معقدة قد حفرت عليه. كأنها أشكال كتبت بحروف بربرية. هذه الزخارف هي بالضبط ممرات قديمة سبق وحفرها سكان الجذع الأولون: حشرات الأرضة.

وعندما هبطت بيلو ـ كيو ـ كيوني المؤسِّسة هذه المنطقة قبل خمسة آلاف عام، اصطدمت مباشرة بحشرات الأرضة. وقد طالت الحرب بين الفريقين واستمرت لأكثر من ألف عام وأسفرت عن انتصار البيلوكانيات. وكم كانت دهشتهن كبيرة عندما اكتشفت مدينة «صلبة» ذات ممرات من الخشب، أي ممرات لا يمكنها أن تنهار مطلقاً. ومهما يكن من أمر، فإن جذع الصنوبرة قد فتح أمامهن آفاقاً هندسية وعمرانية جديدة.

الجانب العلوي من الجذع مسطح ومرتفع عن سطح الأرض. أما جانبه السفلي فينتهي بجذور عميقة تتشعب في باطن الأرض.

كان الجذع حينذاك مـ ـ تارلياً. ولكنه لن يلبث أن يضيق عن استيعاب الأعداد المتزايدة من النمال الصهباء. لذا، عمدت النمال حينئذٍ إلى الحفر تحت الجذع. على امتداد الجذور. ووضعت أكواماً من الغصينات فوق جذع الشجرة المقطوعة الرأس لجعل قمته أكثر اتساعاً.

المدينة المحظورة تكاد تكون مقفرة حالياً. ففيما عدا الأم ونخبة الحراس، فإن جميع النمال تعيش في مناطق الأطراف.

الرقم 327 يقترب من الجذع بخطى محاذرة وغير منتظمة. ذلك أن

الإرتجاجات المنتظمة يمكن كشفها باعتبارها تعبيراً عن وجود كائن يمشي، في حين أن الأصوات غير المنتظمة يمكن أن تمر على أنها ضجيج انهيارات. عليه فقط أن يأمل بألا تصادفه أية واحدة من المحاربات. لذا، فإنه يواصل تقدمه زاحفاً. مثتا رأس فقط لا تزال تفصله عن المدينة المحظورة. إنه يبدأ الآن بتمييز عشرات المداخل التي تخترق جوانب الجذع أو، على وجه الدقة، إنه يميز الآن رؤوس النمال «البوابات» اللواتي يسددن بأجسامهن تلك المداخل.

محير أمر ذلك التحريف الجيني الذي «قَوْلَبَ» هاتيك البوابات وحبا أجسامهن بهاتيك الأشكال! رأس عريض مدور ومفلطح تصبح معه كل واحدة منهن وكأنها مسمار يحكم سد جوانب الثقب المولجة بحراسته.

هذه الأبواب الحية حازت على ما هي عليه الآن من فجاعة الأداء في الماضي البعيد. خلال حرب الفراولة التي دارت رحاها قبل سبعمائة وثمانين عاماً، تعرضت المدينة لاجتياح النمال الصفراء. جميع البيلوكانيين الذين توفرت لهم سبل النجاة التجأوا إلى المدينة المحظورة ودخلت البوابات القهقرى في الثقوب فسدتها سداً محكماً.

إزالة هذه المزاليج عن أمكنتها من قبل النمال الصفراء استغرق يومين كاملين. فالبوابات لم يكن يسددن الثقوب وحسب، بل كن يوجهن الضربات القاتلة بملاقطهن الطويلة. النمال الصفراء قمن بالهجوم بنسبة مئة مقابل واحدة وانتهين بالنفاذ إلى الداخل بعد أن تمكن من إحداث ثقوب في الأجزاء المدرعة من رؤوس البوابات. ولكن تضحيات «الأبواب الحية» لم تذهب سدى. فبفضل هذه التضحيات تمكنت مدن الفيدرالية من كسب الوقت اللازم لإقامة التحصينات والتوصل إلى تحرير المدينة قبل انقضاء ساعات معدودات.

الذكر رقم 327 لا يحدث نفسه مطلقاً بمواجهة إحدى البوابات بمفرده. ولكنه ينوي الإفادة من انفتاح أحد الأبواب مثلاً... عند خروج إحدى الحاضنات بشحنة مما تضعه الأم من بيوض. قد يمكنه النفاذ إلى

الداخل قبل أن تعود البوابة إلى إقفال المدخل.

ها إن رأساً يتحرك في هذه اللحظة... إنه يفسح الطريق لمرور إحدى الحارسات. لا مجال للتقدم والمحاولة، فالحارسة ستعود إليه فوراً وستقتله.

رأس البوابة يتحرك من جديد. الرقم 327 يثني قوائمه الست إستعداداً للوثوب. لا، ليست هي الحركة المنتظرة، فالبوابة لم تفعل غير تغيير وضعيتها داخل الثقب. لا بد أن إبقاء عنقها محشوراً هكذا داخل قلادة خشبية يسبب لها تشنجات شديدة.

ضاق ذرعاً وعيل صبره فقرر الإقتحام وليكن ما يكون. لحظة دخوله في الحقل الذي تغطيه البوابة بقرنيها، كشفت هذه الأخيرة عدم حيازته للفيرومونات الدالة على هويته فتراجعت قليلاً إلى الوراء لتزيد من إحكام سد الثقب بجسدها ثم أطلقت رائحة الإنذار.

جسم غريب في المدينة المحظورة! جسم غريب في المدينة المحظورة! رددت ذلك على طريقة صفارات الإنذار.

إنها تضرب بملاقطها في كل إتجاه لتبعث الخوف في نفس هذا الكائن غير المرغوب فيه. كان يمكنها أن تتقدم نحوه للقضاء عليه، ولكن الأوامر صارمة: سد الثقب أولاً!

لا بد من التحرك بسرعة. الرقم 327 يمتلك ورقة رابحة: إنه يرى في الظلمة في حين أن البوابة عمياء تماماً. يرمي بنفسه في المعمعة محاذراً الوقوع تحت الملاقط المنفلتة خبطاً وضرباً على غير هدى، ثم يغوص تحتها للوصول إلى جذورها فيقصها الواحد بعد الآخر. دم شفاف يسيل وأصول الملاقط المقطوعة تواصل الضرب ولكنها لا تحدث أي أذى.

ومع هذا، لا يزال الرقم 327 غير قادر على المرور لأن جثة البوابة لا تزال تسد المنفذ وقوائمها التي تصلبت تضغط بقوة أكبر، بفعل الإنعكاس،

على جوانب الممر الخشبي. ما العمل؟ يصوب فوهة بطنه نحو جبهة البوابة ويطلق رشقاً من السائل الحامض. جسدها ينتفض ودرع جمجمتها المتآكل تحت تأثير حامض النحل (الفورميك) يبدأ بالذوبان ويتصاعد منه دخان رمادي. ولكن رأسها سميك مما أجبره على إطلاق السائل الحامض أربع مرات قبل أن يتمكن من شق طريقه داخل الجمجمة المفلطحة.

في الداخل رأى جذعاً هزيلاً وبطناً ضارة. فالنملة كانت باباً. باب ليس إلاّ.

التنافس مع الأرضة: عندما بدأت النمال الأولى بالظهور، بعد خمسين مليون سنة، لم يكن عليها غير الصمود لتأمين البقاء. لقد تحدرت من سلالة جد قديم هو دبور متوحش وإنطوائي اسمه «تيفيد». لم تكن تمتلك ملاقط كبيرة ولا إبراً للوخز. كانت صغيرة وضامرة لكنها لم تكن غبية ففهمت بسرعة أن من مصلحتها تقليد الأرضة وأن تتحد فيما بينها.

قامت ببناء قراها، بأشكال بدائية غير متقنة. ولكن الأرضة ما لبثت أن خافت من هذه المنافسة. كانت الأرضة تظن أن ليس عى الأرض مكان إلاّ لجنس واحد من الحشرات الاجتماعية.

وهكذا لم يكن من الحروب مناص. في كل مكان من العالم تقريباً، في الجزر وفوق الأشجار وعلى الجبال، نشبت الحروب بين جيوش مدن الأرضة وجيوش مدن النمل الفتية.

لم يكن مثل ذلك قد رؤي من قبل في مملكة الحيوان. ملايين من الملاقط تضرب جنباً إلى جنب من أجل هدف غير غذائي. من أجل هدف «سياسي»!.

في البداية، ربحت الأرضة، بحكم تجاربها، كل المعارك. ولكن النمال تمكنت من التكيف، قلدت أسلحة الأرضة وأوجدت أسلحة أخرى جديدة. وواصلت الحروب العالمية تأججها بين النمل والأرضة حتى ألهبت كامل الكوكب منذ المليون الخمسين حتى المليون الثلاثين قبل التاريخ. وفي ذلك التاريخ تقريباً، سجلت النمال تفوقاً ساحقاً عندما اكتشفت سلاح الرشق بحامض الفورميك.

وفي أيامنا هذه أيضاً، لا تزال الحروب مستعرة بين الحشرتين اللدودتين، ولكن النصر لا يكون حليف الأرضة إلاّ في النادر.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

ـ لقد عرفته في افريقيا، أليس كذلك؟

ـ أجل، أجاب البروفسور. كان ادمون يخفي حزناً عميقاً. أظن، على ما أذكر أن زوجته قد ماتت فألقى بنفسه في مجال دراسة الحشرات.

ـ لماذا الحشرات؟

ـ ولم لا؟ الحشرات لها سحرها القديم. أجدادنا القدماء كانوا يهابون البعوض الذي كان يحمل إليهم الحمّيات، والبراغيث التي كانت تورثهم الحكّة، والعناكب التي كانت تلدغهم، والسوس الذي كان يلتهم مخزونات غذائهم. وكل هذا خلف ما خلف من آثار.

كان جوناثان في المختبر رقم 326 التابع للمركز الوطني للأبحاث العلمية الخاصة بالحشرات والواقع في غابة فونتينبلو. كان برفقة بيار دانيال روزنفيلد، كمّل جميل الصورة معقوف الشعر على شكل ذنب الحصان، ضحوك، ذلق اللسان.

ـ الحشرة تبعث على الحيرة. إنها أصغر منا وأكثر هشاشة وضعفاً.

ومع هذا، تحتقرنا وتهددنا. ثم لو أننا فكرنا جيداً لوجدنا أننا ننتهي جميعاً في بطون الحشرات. لأن دويدات يرقات الذباب هي التي تقيم ولائمها على أجسادنا...

ـ لم أنتبه لهذا من قبل.

ـ لقد اعتبرت الحشرة على الدوام كتجسيد للشر. وليس من قبيل الصدفة أن يصور «بعل زابوت»(*)، أحد معاوني الشيطان برأس ذبابة.

ـ ولكن النمال تتمتع بسمعة أفضل من سمعة الذباب.

ـ ليس الأمر كذلك دائماً. فالكلام عنهما يختلف من ثقافة إلى أخرى.

فالنمال هي في التلمود رمز للشرف. وفي بوذية التيبت تمثل

(*) هنالك تصحيف واضح في استخدام هذا الاسم الذي يرد أيضاً، في اللغات الأوروبية، بشكله الأرامي الأصلي (بعل زبوب = إله الذباب، أو الإله ـ الذبابة). وقد وردت اللفظة مرتين في «الكتاب المقدس» (كتاب الملوك الثاني 1:2؛ إنجيل متى 12:24) للدلالة على الشيطان.

الشيء المثير للسخرية والنشاط المادي. أما قبائل الباولي في شاطىء العاج فتعتبر أن المرأة الحامل التي تلدغها النملة تضع طفلاً له رأس نملة. أما بعض سكان بولينيزيا، فإنهم ينظرون إلى النمال على أنها آلهة صغيرة.

ـ كان ادمون يعمل سابقاً على البكتيريات. لماذا تخلى عن ذلك الاهتمام؟

ـ اهتمامه بالبكتيريات كان بنسبة واحد إلى ألف قياساً إلى اهتمامه بالحشرات والنمال بوجه خاص. كان اهتمامه بها عبارة عن التزام كامل. فهو الذي كان وراء العريضة التي وقعت بصدد «ألعاب بيوت النمل» تلك العلب البلاستيكية التي كانت تباع في المحلات الكبرى بعد أن توضع فيها ملكة وستماية نملة. وهو الذي ناضل من أجل استخدام النمال كـ «مبيدات حشرية». كان يريد أن تُوضع، في جميع الغابات، معسكرات نمال صهباء بهدف تنظيفها من الطفيليات. لم تكن الفكرة سيئة. فالحقيقة أن النمال استخدمت في الماضي لمكافحة الحشرات التي تفتك بأشجار الصنوبر في ايطاليا وتلك التي تفتك بأشجار السرو في بولونيا.

ـ هل كانت الفكرة عبارة عن تجريد جيوش حشرية لمكافحة جيوش حشرية أخرى؟

ـ همْم... كان إدمون يطلق على فكرته اسم «التدخل في شؤونها الدبلوماسية». فالحقيقة أن حماقات كثيرة ارتكبت، خلال القرن الماضي، من جراء استخدام المبيدات الكيميائية. لا يجب

أن تواجه الحشرة بشكل مباشر، وفوق ذلك، يجب عدم الإستخفاف بها ومحاولة قهرها بالطريقة المتبعة مع الثدييات. للحشرة فلسفة أُخرى، وزمان ومكان آخرين، وبُعد آخر مختلف. إنها تعرف مثلاً كيف تكون مناعتها الخاصة إزاء السموم الكيمائية. إنك تعلم أن عجزنا عن التخلص من الجراد إنما يعود إلى قدرة هذه الشياطين الصغيرة على التكيف في جميع الظروف. إنك ترشها بالمبيدات فتقتل 99 بالمئة منها ولكن جرادة واحدة تتخلص من الموت ولاتخرج من المعترك وهي تمتلك مناعة ضد المبيد المستعمل وحسب، بل إنها تلد مئة جرادة «ملقحة» بالمناعة ضد ذلك المبيد. ألم يقترف الناس قبل مائتي عام خطأً فادحاً عندما عمدوا إلى الاستمرار في رفع قدرة المبيدات على التسميم فكانت النتيجة أن أعداد ضحاياها من البشر تجاوزت أعداد ضحاياها من الحشرات، إضافة إلى أثر ذلك في ظهور سلالات حشرية ذات قدرة خارقة على المقاومة وعلى استهلاك أقوى السموم دون أن يرف لها جفن؟

ـ تريد أن تقول بأننا لا نمتلك رسائل حقيقية لمكافحة الحشرات؟

ـ استنتج بنفسك: العالم لا يزال مليئاً بالبعوض والجراد والسوس وذباب الـ «تسي ـ تسي». الحشرات تقاوم كل شيء. وقد لوحظ، عام 1945، أن النمال والعقارب خرجت سليمة من أنقاض الانفجارات الذرية. أجل، تكيفت حتى مع الانفجارات الذرية!

لقد أراق الذكر رقم 327 دم إحدى خلايا القطيع. لقد ارتكب أسوأ أشكال العنف بحق الجسم الذي ينتمي إليه. إن لذلك في نفسه مذاق مر. ولكن، هل كان يمتلك ـ هو، هورمون الإعلام ـ وسيلة أخرى للبقاء حتى إكمال مهمته؟

إذا كان قد قتل، فلأنه تعرض للقتل. إنه رد فعل تسلسلي. كالسرطان. لأن القطيع يتصرف تجاهه بطريقة غير سوية، يجد نفسه مجبراً على التصرف بطريقة مماثلة. عليه أن يحمل نفسه على قبول هذه القناعة.

لقد قتل خلية هي أخت له، وربما يقتل خلايا أخرى.

ـ ولكن لماذا ذهب إلى إفريقيا؟ طالما أن النمال موجودة، كما قلت، في كل مكان.

ـ بالتأكيد، ولكنها ليست النمال نفسها... أظن أن أدمون كان قد سئم كل شيء بعد وفاة زوجته. إنني أتساءل، مع مرور الزمن، عما إذا لم يكن يسعى إلى «الانتحار» عن طريق النمال.

ـ ماذا تقول!؟

ـ كادت النمال مرة أن تلتهمه! نمال الماغنان في إفريقيا... ألم تشاهد فيلم «**عندما تزمجر المارابونتا**»؟

هز جوناثان رأسه بإشارة النفي.

ـ المارابونتا هي الجحفل الكبير من نمال **الماغنان** (**فصيلة آنوما نيغريكان**) الذي يجتاح السهل ويدمر كل شيء في طريقه. (البروفسور روزنفيلد ينهض من مكانه ويقف وكأنه يواجه اجتياحاً غير مرئي).

ـ في البداية تسمع ضجيجاً واسعاً تختلط فيه صنوف الصراخ

والصأصأة مع الزقزقة ورفيف الأجنحة والأبيب ووقع القوائم وما إلى ذلك من أصوات تصدرها الحيوانات وهي تحاول الفرار. في هذه المرحلة، لا تكون نمال الماغنان قد ظهرت للعيان بعد. لحظات قليلة ثم نرى عدداً من المحاربات يبرزن فوق قمة هضبة صغيرة. وبعد هذه الطلائع، تصل الأخريات مسرعات في صفوف منتشرة على مدى النظر. الهضبة كلها تكتسي باللون الأسود، كسيل من الحمم التي تذيب كل ما تمر عليه.

البروفسور يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يشير براحتيه لشدة استغراقه في الحديث.

ـ هي دم إفريقيا السام. إنها حوامض حية. أعدادها مخيفة. معسكر نمال الماغنان الواحد يضع، في المتوسط، خمسمائة ألف بيضة يومياً. يمكن أن تملأ سطولاً كثيرة من هذا العدد. . . إذن، ذلك السيل من حامض السولفيريك الأسود يتدفق. يرتفع فوق كل تلعة وشجرة. لا شيء يقف في وجهه. العصافير والحراذين والثدييات من آكلات العشب التي يقودها حظها العاثر إلى الإقتراب تتحول مباشرة إلى فُتات. أمر مهول. كَهْولِ يومِ الهَولِ! نمال الماغنان لا تخاف سن أية دابة أخرى. رأيت مرة هراً فضولياً وهو يذوب بينها في طرفة عين. إنها تجتاز حتى الجداول والسواقي بعد أن تنصب فوقها جسوراً بأجسادها!

في المنطقة المجاورة لمركز «لامتو (Lamto)» لأبحاث البيئة المدارية في شاطئ العاج حيث كنا ندرس هذه النمال، كان السكان عاجزين تماماً عن إيجاد وسيلة للوقوف في وجه

الإجتياح. كان يكفي أن ينطلق نداء يعلن أن «الآتيلات(*) الصغيرة» على وشك عبور القرية حتى يلوذ الناس بالفرار حاملين معهم ما خف وغلا. كانوا يضعون قوائم الطاولات والكراسي في دلاء مليئة بالخل ثم يضرعون إلى آلهتهم. وعند الإياب. يجدون بيوتهم نظيفة تماماً. كما بعد الإعصار. لا مجال للعقور على نتفة من طعام أو من أية مادة عضوية مهما كان نوعها. ولا حتى على دودة صغيرة. نمال الماغنان أفضل وسيلة لتنظيف البيت من أدناه إلى أقصاه.

ـ وكيف كنتم تتمكنون من دراسة هذه النمال. إذا كانت كاسرة إلى هذا الحد؟

ـ كنا ننتظر وقت الظهيرة. لأن الحشرات لا تمتلك نظاماً لضبط الحرارة كما هي الحال بالنسبة لنا. فعندما تكون درجة الحرارة 18° في الخارج تكون 18 أيضاً داخل أجسام الحشرات. وعندما يشتد لهيب الحرارة في الخارج، فإن دم الحشرات يبدأ بالغليان. لذا، فإن الحشرات لا تحتمل هذا الوضع. وبالنسبة للماغنان، فإنها تحفر، مع بدء ارتفاع الحرارة، عشاً تخيم فيه بانتظار عودة الطقس إلى الإعتدال. وخلال هذا التخييم تكون في حالة شبيهة بِخِذْرٍ مصغر مع فارق بسيط هو أن تلك النمال تكون رهينة الحرارة لا رهينة البرودة.

ـ ثم ماذا؟

(*) سبق التعريف بي «آتيلا».

لم يكن جوناثان يعرف كيفية التخاطب مع الآخرين. كان ينظر إلى النقاش وكأنه موجود ليستخدم كما في الأوعية المتصلة. هنالك طرف يعرف، أي الوعاء المليء بالسائل، وطرف لا يعرف، أي الوعاء الفارغ. وكان يعتبر أنه هو، جوناثان، الوعاء الفارغ بوجه عام. الذي لا يعرف ما عليه إلا أن يفتح أذنيه جيداً وأن يدفع الحوار إلى الأمام، بين الفينة والفينة، عن طريق تشديد عزيمة المتكلم بتدخلات من نوع «ثم ماذا» أو «حدثني عن كذا» أو من نوع الاكتفاء بهز الرأس.

كان يجهل وجود وسائل إتصال أخرى. لا بل إنه كان يخال أن المحيطين به لا يفعلون غير الإسترسال في حوارات ذاتية (مونولوجات) متوازية لا يهتم فيها كل محاور بغير استخدام الآخر كمحلل نفسي غير مدفوع الأجر. لذا، كان يفضل تقنيته الخاصة على هذه الأساليب. صحيح أنه كان يبدو بمظهر من لا يمتلك أية معرفة ولكنه كان، على الأقل، يتعلم باستمرار. ألا يقول المثل الصيني بأن من يطرح سؤالاً هو جاهل لمدة خمس دقائق في حين أن من لا يطرح أي سؤال يظل جاهلاً طيلة حياته؟

ـ ثم ماذا؟ وماذا غير البدء بالعمل؟ صدقني أنه كان عملاً وأي عمل! كنا نرجو العثور على تلك الملكة اللعينة. تلك البلهاء الضخمة التي تضع خمسمائة ألف بيضة كل يوم. انتعلنا جزمات ضخمة من النوع الذي يستعمله عمال المجارير. إلا إدمون. كان حظه عاثراً. قياس قدمه كان 43 والجزمة المتبقية له كانت من قياس 40. لذا انتعل جزمة بساقين من قماش. . . أذكر ذلك كما

ولو أنه حصل البارحة. في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، رسمنا على التراب الشكل المحتمل للعش الذي خيمت فيه النمال تحت الأرض ثم شرعنا بالحفر حول ذلك الشكل. حفرنا خندقاً بعمق متر واحد فوصلنا إلى الغرف الخارجية في تمام الساعة الواحدة والنصف. سيل أسود اللون بدأ بالتدفق. كان يصدر عنه صوت فرقعة شديدة: آلاف المحاربات الحانقات خرجن وهن يفتحن ملاقطهن ويطبقنها. ملاقط هذا النوع من النمال حادة وقاطعة كشفرات الحلاقة. الملاقط تنغرز في جزماتنا ولكننا نواصل التقدم ونحن نحفر بالرفش وبالمعول باتجاه الخلية الملكية. وأخيراً وصلنا إلى الكنز الذي نبحث عنه. وصلنا إلى الملكة. جسمها يفوق بعشرة أضعاف أجسام ملكات النمال الأوروبية. قمنا بتصويرها من جميع جوانبها في حين كانت تصيح، دون أدنى شك، بلغتها الروائحية: يا رب احفظ الملكة(*)... لم يطل بها الدعاء: محاربات اقبلن من جميع الجهات وشكلن قطعاناً ضخمة حول أقدامنا. بعضهن تمكن من التسلق فوق ظهور أخواتهن الناشبات ملاقطهن في كاوتشوك جزماتنا وصولاً إلى أعلى الجزمة. ومن هناك أخذن بالعبور تحت السروال ثم تحت القميص. صار كل واحدٍ منا عبارة عن «جلفر»(**)، ولكن أقزامنا نحن لا يريدون غير تقطيعنا وتحويلنا إلى نتف جاهزة للالتهام. كان من الضروري خصوصاً أن نحول

(*) بالإنكليزية في النص الفرنسي: God Save the Queen إشارة إلى انكلترا.
(**) بطل روائي مشهور يعيش أحداثاً شيقة في بلاد العمالقة والأقزام وغيرها...

بينها وبين الدخول في بعض ثقوبنا الطبيعية كالأنف والفـ والمؤخرة والأذنين. وإلا لكان انقضى الأمر بمجرد أن يبدأ الحفر من الداخل!

جوناثان كان مستغرقاً في الذهول أو، على الأصح، في روعة ما يسمع. أما البروفسور فقد كان يبدو بمظهر من يعيش الحدث بقوة الشاب الذي عاشه لا بقوَّة الكهل الذي يرويه.

ـ كنا نضرب أجسام بعضنا البعض بهدف إبعاد النمال عنا. أما هي، فقد كان يشدها الينا تنفسنا وتعرقنا. كنا قد خضعنا جميعاً إلى تمرينات يوغا لإبطاء التنفس وضبط الخوف. حاولنا ألا نفكر وأن ننسى عناقيد المحاربات اللواتي يردن قتلنا. صورنا فيلمين كاملين من الصور. بعضها صورناه بالضوء. وعندما انتهينا قفزنا خارج الحفرة. إلا إدمون. كان مغطى بالنمال حتى قمة رأسه. كانت على قدم الاستعداد لانتهاشه! أخرجناه دون إبطاء بعد أن جذبناه بذراعه ثم جردناه من ملابسه وكشطنا عن جسمه بالسيف الذي يستعمله الأفارقة لقطع الأشجار، كل الملاقط والرؤوس المزروعة في جلده. لقد نلنا حسابنا نحن أيضاً، ولكن دون الوصول إلى مستواه، هو، الذي نزل بدون جزمة، حيث جمد في مكانه مذعوراً و. . . أطلق فيرمونات الخوف!

ـ شيء فظيع.

ـ لا، شيء لطيف، لأنه خرج من المعمعة حياً يرزق. ثم إن ذلك لم يثر قرفه من النمال، بل على العكس من ذلك، أخذ يدرسها بمزيد من الحماس الملتهب.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ عاد إلى باريس وانقطعت أخباره عنا. لم يتصل ولو مرة واحدة بصديقه روزنفيلد. وأخيراً قرأت نبأ موته في الصحف. سلام على روحه.

(البروفسور روزنفيلد يتوجه نحو النافذة ويزيح الستارة ليتفحص ميزان الحرارة المركب داخل ميناء من الصفيح المزركش).

ـ همْمْم... 30 درجة في عز نيسان/ أبريل! هذا غير معقول. الحرارة تزداد ارتفاعاً سنة بعد سنة. إذا استمرت الأمور على هذا المنوال، فإن فرنسا ستصبح بلداً مدارياً في غضون عشر سنوات.

ـ إلى هذا الحد؟

ـ الناس لا يشعرون بذلك لأنه يتم بشكل تدريجي. أما نحن، معشر علماء الحشرات فإننا نستنتج ذلك من تفصيلات دقيقة: إننا نعثر على أصناف من حشرات المناطق الإستوائية في حوض باريس. إلا تلاحظ تكاثر الفراشات الزاهية الألوان؟

ـ فعلاً. رأيت واحدة منها البارحة بالذات. كانت حمراء سوداء لامعة على أحدى السيارات...

ـ إنها ولا شك، بَزَّة (Zygène) ذات خمس بقع. فراشة سامة لم نكن نعثر عليها إلا في مدغشقر. إذا استمرت الأمور على هذا المنوال. تصور... نمال الماغنان في باريس! هل تتصور الذعر؟ لا بد أن رؤية ذلك ستكون مسلية جداً...

بعد أن نظف قرنيه وأكل قطعتين ساخنتين اقتطعهما من البوابة «المخلوعة»، إنطلق الذكر العديم الرائحة راكضاً في الممرات الخشبية. المقر الملكي قريب من هنا. إنه يحس بذلك. لحسن حظه، كانت الحرارة في حدود 25 درجة زمنية ولم تكن المدينة المحظورة شديدة الازدحام في مثل هذا الطقس. لا بد أنه سيتمكن من التسلل بسهولة.

فجأة، يشم رائحة محاربتين قادمتين في الإتجاه المعاكس. واحدة كبيرة وواحدة صغيرة، والصغيرة ناقصة التوائم...

كلا الفريقين يشم الرائحة المنبثقة عن بعد.

غير معقول! إنه هو

غير معقول! إنهن هن.

بمطلق الرقم 327 بأقصى سرعته على أمل الخلاص منهما. يدور ويدور في المتاهة الثلاثية الأبعاد. يخرج من المدينة المحظورة. لا تستوقفه البوابات لأنهن مبرمجات على منع المرور من الخارج نحو الداخل. قوائمه تدوس الآن الأرض الطرية. يغذ في الركض وينعطف، ثم ينعطف...

هما أيضاً سريعتان. لا يدعانه يسبقهما. الذكر يصدم عاملة كانت تنقل عشيبة فيرميها أرضاً. لم يفعل ذلك عامداً ولكن ذلك أعاق سرعة القاتلتين اللتين تفوح منهما رائحة الصخور.

لا بد من الإفادة من هذه المهلة. يجد تجويفاً فيختبئ فيه دون تلكؤ. العرجاء تقترب. يغوص في مخبئه أكثر فأكثر.

ـ أين هو؟

ـ لقد نزل من جديد.

ـ كيف ذاك؟ ولم؟

أمسكت لوسي ذراع أوغوستا وقادتها نحو باب القبو.

ـ إنه هنا منذ مساء البارحة.

ـ لم يصعد منذ ذلك الوقت؟

ـ لا. لا أدري ماذا يحدث هناك. لقد منعني بشكل مبرم من إعلام الشرطة... نزل عدة مرات حتى الآن وكان يعود دائماً.

ـ هذا جنون! وقد نهاه خاله عن النزول البتة...

ـ إنه ينزل الآن ويأخذ معه أدوات عديدة. قطع فولاذية، أحجار إسمنت. أما ماذا يفعل هناك؟

أسندت لوسي رأسها بيديها. لم تعد بها قوة عل التحمل، كانت على قاب قوسين من الإنهيار العصبي.

ـ أولاً يمكننا النزول في طلبه؟

ـ لا. لقد وضع قفلاً يقفل به الباب من الداخل.

جلست أوغوستا مغلوبة مهمومة.

ـ هيهات، هيهات. ما كنت أظن أن استذكار أدمون سيجلب كل هذه المتاعب...

تخصص: أدى توزيع المهام وتكرارها خلال ملايين السنين إلى إحداث تحولات جينية عند النمال التي تعيش في مدن النمل الحديثة.

وهكذا، تولد بعض النمال ولها ملاقط ـ مقصات فتكون في فئة المحاربات. أخريات تولد بملاقط طاحنة لتحويل

الحبوب إلى طحين. ومنهن من تكون لها غدد لعابية ضخمة تبلل بها اليرقات الصغيرة وتنظفها.

كما ولو أن الجنود البشريين يولدون بأيد على شكل السكاكين، والفلاحين بأرجل على شكل الملاقط لتسلق الأشجار وقطف الثمار، والحاضنات بعشرة أزواج من الحلمات.

ولكن أهم التحولات «المهنية» وأشدها إثارة هي تلك التي طرأت عل الحب.

فلكي لا تتلهى جمهرة العاملات عن الكدح، بالنزوات الشبقية فقد ولدن بلا جنس. وهكذا كانت جميع الطاقات التناسلية مركزة في عناصر متخصصة: الذكور والإناث، أمراء وأميرات تلك الحضارة الموازية لحضارتنا.

يولدون ويولدن بتجهيزات للحب وحده. مجهزون ومجهزات بأعضاء من شأنها، على إختلافها، تسهيل عملية التسافد: من الأجنحة والعيينات المتخصصة بالرؤية ما تحت الحمراء إلى القرون ومناطقها الخاصة ببث والتقاط الإنفعالات المجردة.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

ليس مخبؤه مغلقاً ككيس بفتحة واحدة. إنه يفضي إلى مغارة ضيقة. الرقم 327 يتحصن فيها. المحاربتان اللتان تفوح منهما رائحة الصخور تمران، لكنهما لا تكتشفان وجوده. ولكن المغارة ليست فارغة تماماً. فيها كائن ساخن وذو رائحة. إنه يبث:

من أنت؟

الرسالة الشمية واضحة ودقيقة وصارمة. بعييناته التي ترى بالأشعة ما تحت الحمراء يميز الحيوان الضخم الذي يخاطبه. من مجرد رؤيته يمكن تقدير وزنه بأكثر من تسعين حبة رمل. ومع هذا، فهو ليس نملة من فئة المحاربات. حيوان لم يشمه من قبل بقرن لاقط ولا رآه بعين.

هي أنثى

وأية أنثى! يتفحصها على مهل. قوائمها الممشوقة بانحناءات أخاذة تَزْدان بشعيرات صغيرة ضُمخت بالهرمونات الجنسية بنعومة رشيقة. قرونها العريضة تتلألأ بروائح قوية. عيناها كثمرتين من ثمار الآس، تومضان بشعاع حمرة خفيفة. بطنها مكتنز ناعم ورشيق الانحناء كمغزل. درع صدري واسع ينتهي بعنق انتشرت عليه حبيبات أعطته روعة ما بعدها روعة. وأخيراً، جناحان كمثليَّ جناحيه.

الأنثى تفتح ملقطيها الصغيرين الناعمين و. . . تثب إلى عنقه تريد فصل رأسه عن جسده.

يجد الذكر صعوبة كبيرة في التنفس؛ إنه يختنق. لا تصدر عنه أية روائح هوية، إذن فالأنثى ليست في وارد الكف عن عصر عنقه. إنه جسم غريب لا بد من تدميره.

يستفيد الذكر من صغر جسمه فيتوصل إلى التخلص من قبضتها فيتسلق من ناحية كتفيها ويحيط رأسها بذراعيه. لقد دار الدولاب وجاء دورها في مواجهة المتاعب. تقاوم.

يدركها الضعف فيمد قرنيه إلى الأمام. لا يريد قتلها. كل ما يريده منها هو أن تستمع إليه. ليس الأمر بسيطاً. يريد أن يجري معها أ.م.؛ نعم، إتصال مطلق.

الأنثى (يتمكن من معرفة رقم خروج بيضتها إلى العالم، إنها الرقم 56) تبعد قرنيها. لا تريد الإتصال. ثم تنتفض لإلقائه عنها والتخلص منه. لكنه يتشبث بعنقها بأصرار ويزيد الضغط على رأسها بمقبضيه. إذا استمر

بالضغط، فإنه سيقتلع رأسها كما يقتلع عشبة جافة من التراب.

تكف عن الحركة. يكف بدوره.

عييناتها تكشف ما يحيط بها على زاوية 180 درجة. بوضوح ترى المعتدي عليها، المتشبث بجذعها. إنه صغير الجسم.

ذكر!

تتذكر الدروس التي تلقنتها على أيدي الحاضنات:

الذكور هم أنصاف كائنات. هم غير مجهزين، خلافاً لجميع خلايا المدينة، غير مجهزين إلا بنصف الكروموزومات التي تملكها سائر النمال. إنهم يخرجون من بيوض غير ملقحة. هم إذاً عبارة عن بيوض كبيرة، أو بالأحرى، حيوانات منوية ذكرية تعيش في الهواء الطلق.

هكذا إذن. يوجد على ظهرها حيوان منوي ذكري وهو آخذ بخنقها. الفكرة تكاد تضحكها. لماذا يتم تلقيح بعض البيوض ولا يتم تلقيح بعضها الآخر؟ السبب هو درجة الحرارة على الأرجح. عندما تكون الحرارة أقل من عشرين درجة مئوية، لا يكون خزان الحيوانات المنوية ناشطاً فتضع الأم بيوضاً غير ملقحة. الذكور يأتون إذن من العالم البارد. كالموت تماماً.

إنها المرة الأولى التي ترى فيها ذكراً بلحمه وغضاريفه. ماذا عساه يفعل هنا في الحريم المخصص للعذارى؟ المكان محرم. لا تطأه غير الخلايا الجنسية المؤنثة. وإذا كان بإمكان أية خلية أجنبية أن تنفذ في هذا الحرم البالغ الحساسية، فإن الباب يكون مفتوحاً أمام جميع الأمراض الممكنة!

الذكر 327 يحاول مجدداً إجراء إتصال قرني. ولكنها تمتنع منه. يشد قرنيها نحوه ولكنها تطبقهما على رأسها. يحاول دغدغة الحلقة الثانية من قرنيها، لكنها ترفعهما وتعيدهما إلى الوراء. إنها لا تريد.

يضاعف الضغط بملقطيه وينجح في ملامسة الحلقة السابعة من قرنها بالحلقة السابعة من قرنه. الانثى رقم 56 لم يسبق لها مطلقاً أن اتصلت بأحد

على هذه الصورة. علموها أن تتجنب كل إتصال وأن تكتفي ببث الروائح واستقبالها عن طريق الهواء وحسب. ولكنها تعرف أن هذا النوع من الإتصال الأثيري قد يكون خادعاً. ذات يوم، ألقت الأم خطاباً فيرومونياً بهذا المعنى:

كل أشكال اللاتفاهم ممكنة دائماً بين دماغين، وكل أشكال الأكاذيب يمكن أن تنتقل على أجنحة الروائح الطفيلية وتيارات الهواء أو من خلال رداءة نوعية البث والإلتقاط..

الوسيلة الوحيدة لتجنب الآثار الضارة لمثل هذا الإتصال هي هذه: الإتصال المطلق. الإتصال المباشر بين القرون المتلاصقة، ومرور الوسائط العصبية من الدماغ إلى الوسائط العصبية في دماغ آخر دون الإصطدام بأية عقبات.

إنها تشعر وكأنها تتعرض لعملية افتضاض لفكرها. على كل حال، التجربة قاسية وغير معروفة.

لكنها لم تعد تمتلك الخيار. إذ أنه سيقتلها فيما لو واصل الضغط. ترفع قرنيها نحو كتفيها علامة التسليم.

يمكن البدء إذن بإجراء الإتصال المطلق. زوجا القرون يقتربان من بعضهما البعض بشكل صريح. يتلامسان. شحنة كهربائية خفيفة. شيء من التوتر وقليلاً قليلاً، ثم بِهِمَّةٍ أكبر، تأخذ كل واحدة من الحشرتين في مداعبة المناطق المسننة الإحدى عشرة في قرون الأخرى. رغوة مشحونة بالتعبيرات المبهمة والمختلطة تبدأ بالظهور شيئاً فشيئاً. هذه المادة الدهنية تشحم القرون وتسمح بزيادة تواتر الإحتكاكات وتناغمها. رأسا الحشرتين يتذبذبان دون نظام واضح غير أن سيقان القرون لا تلبث أن تتوقف عن الرقص لتلتصق ببعضها البعض من أخمص القاعدة إلى منتهى القمة. أصبحا الآن كائناً واحداً برأسين، جسمان بزوج واحد من القرون.

المعجزة الطبيعية تحققت إذن. الفيرومونات تنتقل إذن من جسم لآخر طة آلاف المسامات والشعيرات المنبثة في مناطق القرون. الفكران

يتزاوجان والأفكار لم تعد تمر بعملية صياغة لتنتقل منها إلى عملية التقاط الصياغة وإعادة تحليلها وفهمها. إنها تُتبادل بحالة بساطتها الأصلية: صور، موسيقى، انفعالات وروائح.

بهذه اللغة المباشرة والكاملة إلى أبعد الحدود، يروي الذكر رقم 327 قصة مغامرته للأنثى رقم 56: مصرع أفراد البعثة، آثار روائح المحاربات المقزومات. مقابلته مع الملكة الأم، محاولة التصفية التي تعرض لها، فقدانه لروائحه الثبوتية، معركته مع البوابة والملاحقة المستمرة التي يتعرض لها من قبل القاتلتين اللتين تفوح منهما رائحة الصخور.

بلغ الاتصال المطلق غايته فمدت الأنثى قرينها إلى الوراء كناية عن استعدادها للتعامل الإيجابي. ينزل عن ظهرها. إنه الآن تحت رحمتها إذ يمكنها أن تقضي عليه بسهولة تامة. تقترب منه فاتحة مقبضيها و. . . تعطيه بعضاً من الفيرمونات الثبوتية. بذلك يمكنه أن يكون مؤقتاً في وضع آمن. تعرض عليه وجبة تزقيم فيقبل. بعدها، تهز جناحيها لتزيل آثار الروائح التي انبعثت من حديثهما.

قضي الأمر. نجح الذكر في إقناع أحدى خلايا القطيع. أوصل المعلومة إليها، فهمتها وقبلتها.

نجح الذكر في تكوين فريق عمل.

الزمان: إدراك مرور الزمان مختلف عند البشر عما هو عليه عند النمال. فالزمان مطلق بالنسبة للبشر حيث الفترات ومدد الثواني متساوية في جميع الظروف.

أما عند النمال، فإن الزمان نسبي، إذ تكون الثواني قصيرة جداً عندما ترتفع حرارة الطقس. أما عندما تنخفض حرارة الطقس، فإن الثواني تتمدد وتطول إلى ما لا نهاية... حتى فقدان الوعي في الخور الشتوي.

مرونة الزمان هذه تجعل إدراك النمال لسرعة الأشياء مختلفاً تماماً عما هو عند البشر. فالحشرات لا تستخدم الحيز والمدة وحدهما لتحديد الحركة. إنها تضيف إلى ذلك بعداً ثالثاً هو درجة الحرارة.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

هما اثنان، من الآن فصاعداً. همهما إقناع أكبر عدد مكن من الأخوات بخطورة «قضية السلاح السري المدمر». لا يزال هنالك مجال للعمل، لكن لا بد من أخذ مسألتين بعين الاعتبار. فمن جهة، لن يكون بإمكانهما التوصل إلى إقناع عدد كاف من العاملات قبل عيد الانبعاث الذي ستكرس له جميع الطاقات. لا بد لهما إذن من البحث عن شريك ثالث. ومن جهة أخرى، لا بد من التحسب لعودة المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور إلى الظهور مجدداً. لا بد من إيجاد مخبأ.

الأنثى رقم 56 تقترح أن يكون بيتها ذلك المخبأ، خصوصاً وأنها حفرت فيه ممراً سرياً للفرار إذا ما أدلهمت الأمور. لم يدهش الذكر رقم 327 كثيراً للإقتراح وللخبر لأن حفر الممرات السرية موضة شديدة الرواج منذ مئة سنة، منذ الحرب التي نشبت مع النمال النافثة للصمغ. هاي ـ يكت ـ دوني، ملكة إحدى مدن الفيدرالية، أشاعت هذياناً أمنياً عندما قامت ببناء مدينة مخطورة «مدرعة». أسوارها كانت محمية بجدران من حصى كبيرة الأحجام لُحْمَتُها طين مأخوذ من أجساد حشرات الأرضة!

ولكن المشكلة هي أن المدينة لم يكن لها غير منفذ وحيد بحيث أن الملكة وجدت نفسها سجينة قصرها عندما قامت النمال النافثة للصمغ بضرب الحصار حول المدينة. لذا، لم تجد نافثات الصمغ أية صعوبة في إلقاء القبض عليها وقتلها خنقاً بغرائهن الكريه السريع التيبس. صحيح أن الصهباوات ثأرن سريعاً لملكتهن ها ـ يكت ـ دوني وحررن قصرها ولكن

نهايتها الفظيعة والشنيعة ظلت ماثلة لوقت طويل في الذهن البيلوكاني.

وبما أن النمال محظوظة بقدرتها المذهلة على تغيير شكل مساكنها بضربة ملقط، فقد شرعت كل نملة بحفر ممرها السري. وكان من الممكن أن تستمر الحياة في دورتها الطبيعية لو اقتصر الأمر على نملة واحدة وممر واحد. كان هنالك مليون نملة. . . وكانت الكارثة عندما بدأت الممرات «الرسمية» بالإنهيار لكثرة ما حفر تحتها وحولها من ممرات «خصوصية». فقد كانت النملة تسير في ممرها السري فيفضي بها المسير إلى متاهة حقيقية تشتبك فيها «ممرات الأخريات». أحياء كاملة أصابها العطب وأصبح مستقبل بيلو ـ او ـ كان كلها مهدداً بالخطر.

وكان لا بد للملكلة ـ الأم من إصدار الأمر بالتوقف فلم يعد من المسموح لأحد أن يحفر لحسابه الخاص. ولكن، من يستطيع مراقبة جميع المساكن؟

الأنثى رقم 56 تزيح حصاة صغيرة فيظهر خلفها ثقب مظلم. هنا يبدأ الممر السري. الذكر 327 يتفحص المخبأ فيجده مثالياً. تبقى مسألة العثور على شريك ثالث. يخرجان بعد إقفال الثقب بعناية. الأنثى رقم 56 تبث:

أول نملة نصادفها ستكون هي الشريك المطلوب. دعني أتصرف.

لم يعتما أن التقيا بمحاربة ضخمة الجثة من غير ذوات الجنس. كانت تجر قطعة فراشة. دعتها الأنثى عن بعد ووجهت إليها خطاباً مؤثراً عن الخطر الكبير الذي يتهدد القطيع. إنها تستخدم الكلام المؤثر ببراعة مدهشة بهت لها الذكر تماماً. أما المحاربة فقد تركت صيدها فوراً واقتربت لمواصلة النقاش.

خطر كبير يتهدد القطيع؟ أين ومن وكيف ولم؟

حدثتها الأنثى باقتضاب عن الكارثة التي حلت ببعثة الربيع الأولى. طريقتها في التعبير تفوح بعبق لذيذ. إنها تتمتع، منذ الآن، بكل تأنق الملكة وجاذبيتها. اقتنعت المحاربة دون إبطاء.

متى نسير؟ كم عدد المحاربات اللازمات لشن الهجوم على المقزومات؟

تقدم نفسها: إنها الرقم 103683 من غير ذوات الجنس... من دفعة البيض الصيفية. جمجمة كبيرة لامعة. ملقطان طويلان. عيون لا تكاد تبين. قوائم قصيرة. إنها حليفة ذات وزن. ثم إنها متحمسة بطبيعتها. اضطرت الأنثى 56 إلى كبح جماح حَمِيَّتِها.

أعلمتها بوجود جواسيس داخل القطيع بالذات وأنهم قد يكونون من المرتزقة الذين يعملون لحساب المقزومات بهدف منع البيلوكانيات من كشف اللغز المحيط بمسألة السلاح السري.

تمكن معرفتهن من رائحتهن المميزة. رائحة الصخور. لا بد من الإسراع في العمل.

يمكنكما أن تعتمدا علي.

قامت النمال الثلاث بتقاسم الأدوار والمهام. تكفل الذكر 327 بمحاولة إقناع الحاضنات اللواتي يعملن في قاعة الاستحمام الشمسي. إنهن على وجه العموم ساذجات بما فيه الكفاية.

الرقم 103683 ستحاول اجتذاب المحاربات. إذا تمكنت من تشكيل فيلق منهن، فإن ذلك سيكون شيئاً رائعاً.

يمكنني أيضاً أن أسائل المستكشفات وأن أحاول جمع شهادات أخرى عن سلاح المقزومات السري.

أما الأنثى رقم 56 فإنها ستزور الحظائر وقاعات تربية الفطر للبحث فيها عن أنصار إستراتيجيين.

إتفاق على اللقاء لتقديم التقرير في المكان نفسه بعد 23 درجة زمنية.

كانت الإذاعة المرئية تقدم، ضمن إطار برنامج «ثقافات العالم»، تحقيقاً حول العادات اليابانية:

«اليابانيون شعب يسكن الجزر ويألف حياة التقشف منذ قرون.

يعتبرون أن العالم مقسوم إلى قسمين هما اليابانيون والآخرون، أي الأجانب ذوو العادات غير المفهومة، البرابرة الذين يُعرفون عندهم باسم «غاي جين». ومنذ القدم، تميز اليابانيون بحس وطني بالغ التشدد. فعندما يأتي أحد اليابانيين للعيش في أوروبا مثلاً، فإنه يستبعد آلياً من قبل جماعته. وإذا رجع بعد ذلك إلى وطنه، فإن أهله وأسرته لا يعترفون به بوصفه واحداً منهم. فهم يعتقدون أن العيش بين الـ «غاي جين» يعني التشبع بروحية «الآخرين» والتحول، بالتالي إلى «غاي جين». وحتى رفاق طفولته، فإنهم لا يتعاملون معه إلا كما يتعاملون مع أي سائح عادي».

تمر على الشاشة صور تمثل مختلف المعابد والأماكن المقدسة عند الشينتو. الصوت المرافق للشريط يواصل قائلاً:

«رؤيتهم للحياة والموت مختلفة تماماً عن رؤيتنا. فموت أحد الناس ليس أمراً مهماً هنا. أما ما يبعث على القلق فعلاً فهو فقدان إحدى الخلايا المنتجة. ويميل اليابانيون إلى التروض على فنون القتال بهدف التعايش مع الموت وتطويعه. لذا فهم يعلمون الكندو (Kendo)(*) لأولادهم منذ بداية مراحل التعليم...».

محاربان يظهران وسط الشاشة بلباسهما الشبيه بألبسة الساموراي (Samouraï)(**) القدامى. كل منهما يغطي جذعه بصفائح صغيرة متصلة ببعضها البعض ويعتمر خوذة بيضاوية الشكل بريشتين طويلتين ترتفعان بمحاذاة الأذنين. يهجم كل منهما على الآخر وهو يطلق صرخة قتالية ثم يتبارزان بسيفين طويلين.

(*) من فنون الرياضيات القتالية في اليابان وهي عبارة عن مبارزة بسيوف من خشب البامبو.

(**) فئة المحاربين العامين في خدمة أسياد العصر الاقطاعي في اليابان.

صور جديدة تمثل رجلاً يجلس القرفصاء على كعبيه وهو يمسك بكلتا يديه مقبض سيف قصير ويوجه سنان السيف نحو بطنه.

«طقسية الانتحار، أو السيبوكو، هي خاصية أخرى من خصائص الثقافة اليابانية. يصعب علينا بالتأكيد فهم هذه الـ. . .»

- الشاشات، الشاشات دائماً! إنها تلبد الذهن. تحشو رؤوسنا جميعاً بالصور نفسها. وعلى كل حال، إنهم يقدمون خليطاً من الأشياء التافهة. كيف يمكنك الاستمرار في تحملها؟ قال جوناثان ذلك متعجباً. كان قد صعد من القبو قبل ساعات.

- دعه يفعل. المرئيات تهدئه وتعزيه. لقد ساءت حاله منذ موت الكلب. أجابت لوسي بلهجة آلية.

جوناثان يداعب ذقن ولده.

- ألست على ما يرام يا صغيري؟

- اسكت! إنني أصغي.

- إنظروا كيف يتكلم معنا الآن!

- كيف يتكلم «معك». الواقع أنك لا تراه كثيراً، فلا تتعجب إذا قابلك بشيء من البرود.

- هيه نيكولا! هل توصلت إلى تركيب المثلثات الأربعة بعيدان الكبريت؟

- لا، كف عن إزعاجي، إنني أصغي.

ـ طيب، طيب، إذا كان ذلك يزعجك. . .

وانصرف جوناثان إلى عيدان الثقاب التي كانت ملقاة على الطاولة وراح يقلبها في وضعيات مختلفة وقد بدت عليه علائم التفكير العميق.

ـ شيء مؤسف. إن لذلك قيمة تعليمية أكيدة.

لم يكن نيكولا يسمع شيئاً. كان ذهنه مشدوداً بالكامل إلى الإذاعة المرئية. ذهب جوناثان إلى غرفته.

ـ ماذا فعلت؟ قالت لوسي.

ـ ألا ترين؟ إنني أتهيأ. سأعود إلى القبو.

ـ ماذا تقول؟ لا، إنك لن تفعل ذلك!

ـ لا خيار لي.

ـ جوناثان، قل لي الآن، ما الذي يشدك إلى القبو بهذا الشكل؟ إنني زوجتك، في نهاية المطاف!

لا إجابة. زاغت عيناه وعاد ذلك الإلتواء الشنيع إلى وجهه. أما هي، فقد أسقط في يدها. تنهدت وسؤلته:

ـ هل قتلت الجرذان؟

ـ وجودي وحده يكفي لإخافتها. إنها تظل بعيدة عني، وإذا اقتربت مني. فإن هذا الشيء معي.

وشهر سكيناً كبيراً من سكاكين المطبخ كان سبق وشحذه

بعناية. وأخذ بيده الأخرى مصباحه الكهربائي (الهالوجيني)(*) وتوجه نحو باب القبو بعد أن حمل على ظهره محفظة فيها مقدار كبير من الأطعمة إضافة إلى أدوات معالجة الإقفال. وبالكاد ودعهما قائلاً:

ـ إلى اللقاء يا نيكولا. إلى اللقاء يا لوسي.

ماذا يمكنها أن تفعل؟ أمسكته من ذراعه.

ـ لا يمكنك أن تذهب هكذا! ليس الأمر بهذه السهولة. عليك أن تخبرني!

ـ آه، أرجوك!

ـ لا أعرف كيف أكلمك. لقد صرت شخصاً آخر منذ نزولك إلى هذا القبو اللعين. نفدت مدخراتنا ولم يمنعك ذلك من صرف خمسة آلاف فرنك، على الأقل، لتشتري بها أدواتٍ وكتباً عن النمل.

ـ إنني أهتم بالاقفال وبالنمل. لي الحق في ذلك.

ـ لا، لا حق لك في ذلك. لك ابن وزوجة وعليك أن تعيلهما وإذا كنت تريد إنفاق كامل تعويضات البطالة لشراء كتب عن النمل، فإنني سأنتهي إلى...

ـ طلب الطلاق؟ هذا ما تريدين قوله؟

(*) مصابيح تجعل بداخلها غازات كالفليور أو البروم أو الكلور، وهذه الغازات لها خاصية تخفيف حدة الضوء وإعادة توزيعه على شكل هالة ناعمة وذات قدرة عالية على الإنارة، في الوقت ذاته.

تركت ذراعه كسيرة الخاطر.

ـ لا.

أمسكها من كتفيها والتوى فمه من جديد.

ـ عليك أن تثقي بي. لا بد لي من الاستمرار حتى النهاية. لست مجنوناً

ـ لست مجنوناً؟ هلاَّ نظرت قليلاً إلى نفسك. إنك كمن يخرج من قبر. كما ولو أنك مصاب بحمى دائمة.

ـ جسمي يشيخ ورأسي يعود إلى شبابه.

ـ جوناثان! أخبرني بما يجري هناك!

ـ أشياء مثيرة. يجب النزول والاستمرار بالنزول من عمق إلى عمق، إذا كنا نريد العودة إلى الصعود يوماً ما. أتعرفين؟ الأمر شبيه بما يجري في المسبح: في القعر نجد المرتكز الصلب للصعود. ـ ثم انفجر بضحك جنوني ظل صداه المشؤوم يتردد أكثر من ثلاثين ثانية في جوانب السلم الحلزوني.

الطابق 35 فوق سطح الأرض. الغطاء الرقيق المكون من الغصينات الصغيرة يحدث تأثيراً شبيهاً بتأثير عازل زجاجي. أشعة الشمس تتلألأ وهي تمر عبر ثقوب هذه المصفاة ثم تنهمر على الأرض كمطر من نجوم. نحن في قاعة الاستحمام الشمسي، في «المصنع» الذي يتم فيه إنتاج المواطنين البيلوكانيين.

درجة الحرارة مرتفعة جداً في المكان: 38. وهذا طبيعي لأن قاعة الاستحمام الشمسي موجهة نحو الجنوب تفيد لأطول مدة ممكنة من وهج

الجرم السماوي الأبيض. ويحدث أحياناً أن تبلغ الحرارة 50 درجة بفعل ما تحدثه طبقة الغصينات من تأثير منشط!

مئات القوائم تتحرك. الفئة الأكثر تواجداً في المكان هي فئة الحاضنات. إنهن منهمكات في توضيب آخر دفعة من البيوض التي وضعتها الملكة ـ الأم. 24 دفعة تشكل كومة. اثنتا عشرة كومة تشكل صفاً. الصفوف تمتد في خطوط يقصر البصر عن رؤية نهاياتها. غيمة تمر فتلقي ظلها على جانب من القاعة فتهرع الحاضنات إلى نقل البيوض من ذلك الجانب، لأن البيوض الحديثة العهد بالوضع يجب أن تظل مغمورة بدفءٍ كامل. «حرارة رطبة للبيوض؛ حرارة جافة للشرانق»: قاعدة متوارثة تطبقها النمال للحصول على صغار بحالة جيدة.

إلى اليسار، عاملات مهمتهن تنظيم الحرارة. يرصفن أكواماً من الخشب الأسود لحفظ الحرارة وأكواماً من السماء العضوي لتوليد الحرارة. بفضل هاتين المدفأتين تحافظ قاعة الإستحمام الشمسي على حرارة تتراوح بين 25 و 40 درجة حتى عندما لا تتجاوز حرارة الخارج 15 درجة. مجموعات من راشقات الحوامض تتجول في المكان استعداداً لمواجهة التقاء الأخضر إذا ما اقترب. . .

إلى اليمين بيوض غير حديثة الوضع. بيوض يتم تعريضها لتحولات أطول. تلحسها الحاضنات لفترات طويلة فيكبر حجمها ويصغر لونها وتتحول إلى يرقات بشعيرات مذهبة بعد إخضاعها لأسابيع سبعة إلى هذا النوع من العناية. وهنا أيضاً تتوقف مدة العناية على حالة الطقس والأحوال الجوية.

الحاضنات يعملن بمنتهى التركيز والاهتمام. لا يبخلن باللعاب المضاد للحيويات العضوية ولا بالإنتباه، لأن شيئاً من الأوساخ، ولو كان ضئيلاً جداً، لا ينبغي أن يصل إلى اليرقات. فاليرقات رقيقة جداً. حتى فيرومونات التخاطب لا تستخدم إلا في حدودها الدنيا.

ساعديني على نقلها إلى هذه الناحية. انتبهي، ربما تنهار البيوض في هذه الكومة. . .

إحدى الحاضنات تنقل يرقة تفوقها طولاً بمرتين. إنها يرقة إحدى المحاربات دون شك. الحاضنة تضع «قطعة السلاح» في إحدى الزوايا وتشرع بلحسها.

في وسط هذه الحضانة الواسعة. أكوام من اليرقات. الحدود الفاصلة بين الأقسام العشرة المكونة لأجسامها بدأت ترتسم بوضوح. اليرقات تصرخ مطالبة بوجبة التزقيم. تلوح برؤوسها في جميع الإتجاهات، تمد أعناقها وتحركها حتى موافقة الحاضنات على إعطائها شيئاً من العسيل أو من لحوم الحشرات.

بعد ثلاثة أسابيع، تبلغ اليرقات سن «النضج» فتتوقف عن الأكل والحركة. تمر بفترة سبات ضروري تمهيداً للبدء بالعمل المجهد. إنها توفر الطاقة اللازمة لإفراز الشرنقة والتحول بذلك إلى حَوراوات.

الحاضنات يحملن هذه الأكياس الصفراء الكبيرة وينقلنها إلى قاعة مجاورة مفروشة بالرمل الجاف الذي يمتص رطوبة الهواء. «حرارة رطبة للبيوض؛ حرارة جافة لليرقات». مهما ترددت هذه القاعدة، فإن الحاجة تظل ماثلة للمزيد من تردادها.

في فرن التجفيف هذا تتحول اليرقات البيضاء ذات اللمعة الميالة إلى الزرقة إلى اللون الأصفر ثم إلى الرمادي فالأسمر. كأنها تخضع لحجرْ سحري ذي تأثير مقلوب. فتحت القشرة القوقعية تكتمل المعجزة الطبيعية ويتغير كل شيء. من الجهاز العصبي إلى الجهاز التنفسي والهضمي، إلى أعضاء الحس والدرع الصلب. . .

ينتفخ جسم الحوراء الموضوعة في فرن التجفيف خلال بضعة أيام. فالبيضة تُسلق بهدوء واللحظة الكبرى تقترب شيئاً فشيئاً. وعندما توشك البيضة على التفقيس تُسحب وتُنحى جانباً هي وكل البيوض المماثلة لها. ثم تقوم الحاضنات بإحداث ثقب في غشاء البيضة بأقصى حذر ممكن. قرن

صغير يخرج من الثقب، تتبعه قائمة وهكذا، شيئاً فشيئاً، حتى اكتمال خروج هذا الكائن الشبيه بنملة بيضاء لا تكف عن الإرتجاف والتلوي. درعها لا يزال طرياً وفاتح اللون. لكنه سيكون أصهبَ بعد أيام. كدروع سائر البيلوكانيات.

الرقم 327 يقف في وسط هذه الزوبعة من النشاط والحركة. لا يعرف إلى من يتوجه بالحديث. يبث نتفة رائحة باتجاه إحدى الحاضنات. كانت تلك الحاضنة تدرب وليداً على خطواته الأولى.

لقد وقع خطب مهول.

الحاضنة ترد ببث رائحة هامسة دون أن تكلف نفسها عناء الالتفات إليه:

صه! لا شيء أكثر أهمية وخطراً من ولادة كائن جديد.

تصدمه إحدى الراشقات وتوجه إليه ضربات خفيفة بالهراوة المركزة في طرف قرنها.

تِب، تِب، تِب. الإزعاج ممنوع، تابع مسيرك.

الطاقة المتوفرة لديه ليست بمستوى جيد. لا تمكّنه من أن يبث كما ينبغي وأن يكون قادراً على الإقناع. آه! لو أنه يمتلك موهبة الإتصال التي تتمتع بها الأنثى رقم 56! ومع هذا، يعيد الكرة مع حاضنات أخريات، لكنهن لا يعرنه أدنى اهتمام. يدفعه ذلك إلى التساؤل عما إذا كانت مهمته بالأهمية التي يتصورها. ربما كانت الملكة ـ الأم على حق. هنالك أولويات: العمل من أجل استمرار الحياة بدلاً من العمل على إثارة الحرب، مثلاً.

في الوقت الذي كانت هذه الفكرة تعتمل في خاطره، مر رشق من حامض النمل (الفورميك) بحذاء قرنيه. إحدى الحاضنات هي التي رشقته. وضعت ما كانت تحمله وصوبت فوهتها نحوه. لكنها لم تثبت التصويب جيداً لحسن حظه.

إنطلق كالسهم للحاق بالإرهابية. ولكنها كانت قد توغلت في قاعة الحضانة الأولى بعد أن قلبت كومة من البيوض بهدف إعاقة تقدمه.

تحطمت البيوض وانساح منها سائل شفاف.

لقد حطمت كمية من البيوض! ما الذي دهاها؟ دب الإضطراب في المكان وتراكضت الحاضنات في جميع الاتجاهات حرصاً منهن على حماية الجيل الذي كان في طور الولادة.

فهم الذكر رقم 327 أنه لن يتمكن من اللحاق بالنملة الهاربة فعقف بطنه حتى صارت تحت جذعه وصوب سلاحه باتجاهها. وفي اللحظة التي هم فيها برشقها إذ بها تسقط مصعوقة تحت ضربات راشقة رأتها وهي تقلب البيوض.

تجمعت النمال حول الجسد المحترق بحامض النورميك وحنى الرقم 327 قرنيه فوق الجثة. يفوح منها اثر رائحة يعرفها تماماً. رائحة الصخور.

الحاجة إلى التجمع: **الحاجة إلى التجمع أمر جبري عند النمال كما هو عند البشر. ويكون فرخ النمال عاجزاً عن تمزيق غشاء البيضة التي نما بداخلها. وكذلك حال الوليد البشري العاجز عن المشي وتحصيل الغذاء بمفرده.**

فالنمال وبنو البشر هما نوعان يحتاجان بتكوينهما إلى مساعدة المحيطين بهما وهما لا يعرفان كيف يتعلمان بمفردهما.

هذه التبعية تجاه الكبار هي، بالتاكيد، من مناهي الضعف عندهما. ولكنها تشكل نقطة الإنطلاق لعملية أخرى هي عملية طلب المعرفة. فإذا كان الكبار يعرفون كيفية التصرف من أجل الاستمرار في الحياة، فإن الصغار مجبرون، منذ البداية، على البحث عن المعارف عند الكبار.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الطابق العشرون تحت سطح الأرض. الأنثى رقم 56 لم تبدأ بالحديث بعد عن سلاح المقزومات السري مع المزارعات. لأن ما تشاهده يثير فيها ما يكفي من الإعجاب للحيلولة بينها وبين بث أية رسالة من أي نوع كانت.

لما كانت فئة الإناث ذات أهمية شديدة الخصوصية، فإنهن جميعاً يقضين طفولتهن بين جدران الحريم المخصص للأميرات. وهن، في الغالب، لا يعرضن من العالم غير حوالي مئة ممر وقليلات منهن سبق لهن وخاطرن بالنزول إلى أبعد من الطابق العاشر تحت سطح الأرض أو الطابق العاشر فوق سطح الأرض.

ذات مرة، حاولت الرقم 56 أن تخرج لمشاهدة العالم الفسيح الذي كانت الحاضنات قد حدثنها عنه. ولكن الحارسات أبعدنها وحلن بينها وبين ما تريد. كان يمكنها أن تموه روائحها إلى حد ما، ولكن تمويه جناحيها الطويلين لم يكن ممكناً بالمرة. وقد حذرتها الحارسات آنئذٍ من أن في الخارج وحوشاً هائلة تأكل الأميرات الصغيرات اللواتي يحاولن الخروج قبل عيد الإنبعاث. ومنذ ذلك الحين، كانت الرقم 56 متأرجحة بين الحشرية والرعب.

وبنزولها إلى الطابق العشرين تحت سطح الأرض، اكتشفت الأنثى رقم 56 بأن أعاجيب كثيرة تستحق أن تكتشف داخل مدينتها بالذات قبل الخروج إلى العالم الفسيح. فها هي الآن ترى العاملات المسؤولات عن تربية الفطر للمرة الأولى في حياتها.

تقول الميتولوجيا البيلوكانية أن اكتشاف مربيات الفطر قد تم للمرة الأولى خلال حرب الحبوب التي نشبت في الألف الخمسين ألف. كانت إحدى الفرق الإنتحارية، قد فتحت قرية من قرى الأرضة فعثرت المحاربات على قاعة واسعة الأبعاد تقوم في وسطها كتلة ضخمة مستديرة وبيضاء اللون وحولها مئة من العاملات المكبات على العناية بها دون توقف.

تذوقنها فوجدنها لذيذة الطعم. كانت... كقرية قابلة لأن تؤكل كلها! بعض السجينات اعترفن بأن ذلك هو الفطر. الواقع أن الأرضة لم تكن تأكل

غير الخلليلوز ولكن عسر هضمه جعلهن يلجأن الى الفطر لتسهيل امتصاصه.

أما النمال، فإنها تهضم الخلليلوز بسهولة ولا تحتاج إلى هذا الشيء مطلقاً. لذا، فإنها لم تدرك المصلحة من تربيته حتى في داخل المدن: إنه مهم من أجل الصمود في أزمنة الحصار والمجاعات.

أما اليوم، فإن القاعات الكبيرة في الطابق العشرين تحت سطح الأرض مخصصة، في بيل ـ أو ـ كان، لانتخاب الأرومات الفطرية. ولكن النمال لا تربي الفطريات التي تربيها الأرضة. بيل ـ او ـ كان تهتم، خصوصاً بتربية فطر الغاريتون. وقد نمت فيا تقنية كاملة إنطلاقاً من النشاطات الزراعية.

الرقم 56 تتجول في ردهات هذه الحديقة البيضاء. في أحد جوانب القاعة، بضع عاملات يقمن بتهيئة أرض «المسكبة» التي ستنمو فوقها الفطريات. إنهن يقطعن أوراقاً فيجعلن منها مربعات صغيرة ثم يكشطن أغشيتها ويهرسنها ويدعكنها ويحولنها إلى عجينة يقمن بمدها فوق طبقة من سماد مكون من روثهن الخاص (النمال تجمع روثها في أحواض مخصصة لهذه الغاية). وبعد ذلك ترطبها بلعابها وتترك لمرور الأيام أمر إنجاز المهمة.

وعندما يكتمل اختمار العجينة تظهر حولها لفافة من خيطان دقيقة بيضاء قابلة للأكل. ويرى ذلك هناك، إلى يسار القاعة حيث تسقيها العاملات بلعابها المطهر وتقص الأجزاء الطافرة فوق جوانب المخروط الصغير الأبيض. لأن ترك المخروط ينمو على هواه يؤدي سريعاً إلى تدمير القاعة. عاملات من ذوات الملاقط المسطحة يقمن بعمل الحصاد. يجمعن الخيوط التي ستتحول إلى طحين لذيذ الطعم ومشبع بالطاقة الغذائية.

وهنا أيضاً، يبلغ التركيز من قبل العاملات حدوده القصوى، إذ لا ينبغي لأية عشبة ضارة ولا لأي فطر طفيلي، مهما كان صغيراً، أن يفيد من العناية المبذولة.

هنا، في هذا المكان غير المناسب على وجه العموم، تحاول الأنثى رقم 56 إقامة اتصال قرني مع مزارعة منهمكة في تقطيع مخروط أبيض بكل ما أوتيت من دقة.

خطر كبير يتهدد المدينة. نحن بحاجة إلى المساعدة. هل يمكنك الانضمام إلى إحدى الخلايا العاملة؟

ما هو ذلك الخطر؟

المقزومات اكتشفن سلاحاً سرياً فتاكاً. ينبغي لنا أن نتحرك في أسرع وقت ممكن.

المزارعة تسألها بكل سكينة وهدوء عن رأيها بالفطر الذي كانت تعتني به. الرقم 56 تبدي إعجابها على سبيل المجاملة. المزارعة تدعوها إلى تذوقه. الأنثى تلتقم قطعة من العجينة البيضاء فتشعر مباشرة بلسع الطعم المحرق يلهب بلعومها. سم! الغاريقون كان مضمخاً بالميرميكاسين، وهو حامض صاعق يستعمل عادة، بعد تخفيفه، كمبيد للأعشاب. الرقم 56 تسعل وتلفظ الطعام السام قبل فوات الأوان. أما المزارعة فقد كانت قد ألقت الفطر جانباً وقفزت فاتحة ملقطيها وأمسكت بالأنثى من جذعها.

تتعاركان فوق طبقة السماد. تتبادلان الضربات على الجمجمتين. تطويان قرونهما إلى الوراء بحركات سريعة وتضربان بالهراوات المثبتة في أطرافها. تشاك! تشاك! تاشك! كل منهما تكيل الضربات لصاحبتها بنيّة القضاء عليها. مزارعات يقبلن ويفصلن بينهما.

ما بكما أنتما الإثنتان؟

لاذت المزارعة بالفرار، لكن الرقم 56 فتحت جناحيها ووثبت وثبة كبيرة فألقتها إلى الأرض وَثَبّتَتْها فلاحظت عندها أنها تفوح برائحة الصخور. لا شك إذن في أنها وقعت بدورها على أحد أعضاء تلك الزمرة الغريبة من القتلة. تعضها من قرنيها.

من أنتِ؟ لماذا حاولت قتلي؟ ما رائحة الصخور التي تفوح منك؟

لا إجابة. تعرك قرنيها عركاً شديداً. هذا مؤلم جداً ولكن الأخرى ترفس بقوائمها دون أن تجيب على الأسئلة. الرقم 56 ليست من النوع الذي يهون عليه إيلام إحدى الخلايا الشقيقة، لكنها تزيد، مع ذلك، من عرك قرنيها.

الأخرى تتوقف عن الحركة. إنها تدخل في حالة التخشب الإرادي. نبضات قلبها على وشك التوقف النهائي وهي لن تعتم أن تموت. ومع ذلك، تستمر الرقم 56 في عرك قرنيها وتقطعهما تماماً. لكن دون جدوى، لأن الرقم 56 كانت تصب غضبها على جثة هامدة.

المزارعات يحطن بها من جديد.

ما الذي حدث؟ ماذا فعلت بها؟

فهمت الرقم 56 أن اللحظة غير مناسبة لتقديم التبريرات وأن من الأفضل لها أن تلوذ بالفرار. لذا، فقد أسلمت جناحيها للريح. الرقم 327 محق تماماً. أمور مذهلة تحدث في المدينة. بعض خلايا القطيع أصيبت بالجنون.

ـ 2 ـ

النزول أيضاً وأيضاً

الطابق الخامس والأربعون تحت سطح الأرض: الرقم 103683 من غير ذوات الجنس تلج إلى قاعات المصارعة. قاعات منخفضة السقوف حيث تتلقى المحاربات تدريباتهن تهيؤاً لحروب الربيع.

في كل مكان محاربات في مبارزات ثنائية. المتبارزات يقمن أولاً بجسّ بعضهن البعض لتقدر كل واحدة قوة صاحبتها ومقاييس قوائمها. ثم يستدرن، كل واحدة تتحسس خاصرتي الأخرى وتشد شعيراتها. وبين هذا وذاك، يطلقن روائح التحدي ويتدافعن بالهراوات التي تشكل نهايات قرونهن.

ثم تندفع كل واحدة نحو الأخرى. ترتطم الدروع وتحاول كل مصارعة أن تمسك بمفاصل جذع الأخرى. وعندما تتمكن إحداهما من ذلك، تحاول الأخرى أن تعضها على مستوى مفاصل الركب. تنتصب كل واحدة على قائمتيها الخلفيتين؛ تتعاركان بحركات اهتزازية متقطعة؛ تسقطان معاً على الأرض؛ تتمرغان وتحتدم المعركة بعنف وحنق.

تجمدان، على العموم، في وضع قتالي معين ثم، فجأة، توجهان الضربات إلى مناطق أخرى من جسديهما. لا بد من الانتباه، فالأمر مجرد تدريب ولا ينبغي أن يُعطب عضو أو تسيل نقطة دم. تتوقف المعركة عندما تتمكن إحداهن من إلصاق ظهر الأخرى بالأرض. وعندها ترفع المهزومة قرنيها إلى الوراء علامة الإستسلام. ومع هذا، فإن المبارزات حقيقية إلى

حد بعيد، فالمخالب تنغرز بحرية في العيون، بحثاً عن مواضع يمكن التشبث بها والملاقط تصفق في الهواء.

غير بعيد من المتصارعات، كانت أعداد من الراشقات مقعيات على بطونهن يصوبن ويطلقن الرشقات على حصى نصبت على بعد خمسمائة رأس منهن. رشقات الحوامض كانت تصيب أهدافها في الغالب.

إحدى المحاربات القديمات تشرح لمتدربة حديثة العهد بالتدريب، أن الأمر كله يتم قبل الاحتكاك. فضربة الملقط أو رشقة الحامض لا تفعلان غير تثبيت هيمنة سبق وأعترف بها أطراف النزاع. إذ قبل المعترك، يكون هنالك، بالضرورة، طرف قرر أن يكون هو الغالب وطرف وافق على أن يكون هو المغلوب. فالمسألة هي مسألة توزع أدوار ليس إلا. وعندما يكون كل طرف قد اختار دوره، يصبح بإمكان المنتصر أن يطلق رشقاً من الحامض دون أن يصوب أو يصيب وتعتبر رشقته صائبة تماماً. أما المنهزم، فإنه يوجه أدق الضربات بملقطيه دون أن يتمكن من إصابة الطرف الآخر ولو بجرح. هنالك نصيحة واحدة: يجب الإقتناع بالنصر. كل شيء يجري ويتم على مستوى التفكير. يجب الإقتناع بالنصر ثم لا يصمد بعد ذلك أي شيء.

متبارزتان تصدمان الرقم 103683. تدفعهما عنها بقوة وتواصل طريقها. إنها تبحث عن الجناح المخصص للمرتزقة والموجود تحت حلبة المصارعة. ها هي تجد الممر المفضي إليه.

قاعة المرتزقة تزيد اتساعاً عن قاعة المحاربات. صحيح أن المرتزقات يعشن في المكان الذي يتدربن فيه. فهن موجودات هنا لهدف واحد هو الحرب. عناصر من سكان المنطقة على اختلافها يعيشون هنا جنباً إلى جنب. عناصر من شعوب حليفة أو من شعوب خاضعة: نمال صفراء، نمال حمراء، نمال سوداء، نمال نافثة للصمغ، نمال بدائية من ذوات الإبرة السامة ونمال. . . من المقزومات أيضاً.

من الأرضة أيضاً، تعلمت النمال فكرة تقديم الغذاء لجماعات أجنبية

بهدف حملها على القتال إلى جانبها في زمن الحرب.

فقد حدث أيضاً لمدائن النمل أن تحالفت، بحكم الحساسيات الدبلوماسية الدقيقة، مع الأرضة... ضد نمال أخرى.

وقد كان ذلك في أساس الفكرة التالية: لماذا لا يتم اللجوء مباشرة إلى تجنيد فرق من النمال تقيم بشكل دائم في مدن الأرضة؟ كانت الفكرة ثورية حقاً، وكانت المفاجأة كبيرة حقاً في صفوف جيوش النمل عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع نمال تحارب في صفوف الأرضة. وبهذا فإن الحضارة النملية التامة الجهوزية للتكيف قد فعّلت مواهبها، مرة أخرى، بشكل زائد، نوعاً ما، عن اللزوم.

ولم تألُ النمال جهداً في محاولة رشوة فرق من الأرضة بهدف حملها على محاربة الأرضة الأخريات. ولكن جهودها اصطدمت، على الدوام، بعقبة كأداء هي إخلاص الأرضة المطلق لبني جلدتها. إخلاصها لا تشوبه شائبة. إنها تعجز تماماً عن محاربة بني قومها. النمال وحدها، بنظمها السياسية المختلفة باختلاف انتماءاتها الفيزيولوجية، هي القادرة على استيعاب كل ما يقتضيه نظام الإرتزاق من خيانات.

المهم أن فيدراليات النمال الصهباء الكبيرة اكتفت بتعزيز جيوشها بالعديد من فرق النمال الأجنبية، وقد اجتمعت هذه الفرق تحت الأعلام التي لا تفوح بغير الرائحة البيلوكانية.

الرقم 103683 تقترب من المرتزقات المقزومات. تسألهن عما إذا كن سمعن عن اختراع سلاح سري في شي - غاي - بو من شأنه أن يقضي، بلمحة بصر، على عناصر بعثة مكونة من ثمان وعشرين نملة صهباء. يجبن بأنهن لم يرين في حياتهن سلاحاً بمثل هذه النجاعة ولا سمعن به.

الرقم 103683 تسأل مرتزقات أخريات. نملة صفراء تزعم أنها شهدت عملاً خارقاً مماثلاً... ولكنه كان عبارة عن إجاصة متعفنة سقطت فجأة من إحدى الأشجار. الجميع يطلقن سيلاً زاخراً من فيرومونات القهقهة. إنها الدعابة النملية الصفراء.

الرقم 103683 تصعد نحو قاعة تتدرب فيها زميلات قريبات إليها. تعرفهن جميعاً معرفة شخصية. يصغين إليها بانتباه، فهن يثقن بها. فريق العمل الخاص بـ «البحث عن السلاح السري عند المقزومات» سيضم قريباً أكثر من ثلاثين محاربة قوية الشكيمة. آه! لو أن الرقم 327 يرى كل هذا!

انتباه! هنالك زمرة منظمة تسعى إلى تدمير كل من يحاول البحث عن معلومات حول الموضوع. لا شك بأنها مكونة من مرتزقات صهباوات يعملن لحساب المقزومات. يمكن التعرف إليهن من روائح الصخور التي تفوح منهن جميعاً.

قررن، على سبيل الاحتياط الأمني، أن يعقدن اجتماعهن الأول في أسفل المدينة، في إحدى القاعات السفلية من الطابق الخمسين تحت سطح الأرض. لا أحد ينزل إلى ذلك الطابق. يمكنهن هناك أن ينظمن هجومهن بكل هدوء.

ولكن جسم الرقم 103683 يسجل تسارعاً مفاجئاً في مررو الزمن. إنها الدرجة 23. تستأذن في الإنصراف وتحثّ الخطى لتصل إلى مكان الموعد المضروب بينها وبين الرقمين 327 و 56.

جماليات: أي شيء يمكنه أن يكون بمستوى جمال النملة؟ خطوط جسمها لطيفة الإنحناءات ودينامية الإنسياب، عندها، تبلغ الكمال. هيكل الحشرة كله مدروس بحيث يدخل كل عضو في الفجوة المخصصة له دخولاً محكماً. كل مفصل من مفاصلها هو آية من آيات الاتقان الآلي. صفائحها تتداخل وتتآزر كما ولو أنها صممت بمساعدة الحاسوب. من غير الممكن سماع أي صرير أو حدوث أي احتكاك. الرأس المثلث يشق الهواء والقوائم الطويلة تمكن جسمها من الوقوف بارتياح بمحاذاة التراب. كما ولو أنها سيارة سباق إيطالية.

أما البراثن فتمكنها من المشي معلقة بالسقوف وعيونها تسمح لها بالرؤية على 180 درجة. وبالقرون تلتقط آلاف المعلومات غير المرئية بالنسبة لنا. وطرف كل واحد من القرون يمكن أن يستخدم كمطرقة. بطنها مليء بالجيوب والأكياس والحجرات التي تخزن الحشرة فيها مختلف المواد الكيميائية. وملاقطها تقطع وتقص وتلتقط. شبكة ضخمة من الأنابيب الداخلية تمكنها من بث الرسائل بالروائح.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

نيكولا لا يريد أن ينام. كان لا يزال جالساً أمام الشاشة كانت نشرة الأخبار قد انتهت بخبر عن عودة المسبر الفضائي ماركو بولو. نتيجة الرحلة: لا وجود لأي أثر من آثار الحياة في النظم الشمسية المجاورة. جميع الكواكب التي مر عليها المسبر لم تظهر فيها غير صور الصحاري الصخرية والمساحات الشاسعة المليئة بسوائل الأمونياك. لا أثر للطحالب، ر أثر للآميبيات، لا أثر لأي جرثومة.

قال نيكولا لنفسه: «ماذا لو كان أبي محقاً؟ ماذا لو كنا الشكل الوحيد من أشكال الحياة العاقلة في الدنيا كلها؟ . . .». لا شك بأن ذلك مخيب للأمل. ولكن ذلك قد يكون حقيقياً.

بعد نشرة الأخبار، تحقيق كبير ضمن سلسلة «ثقافات العالم». التحقيق يدور اليوم حول الفئات الاجتماعية في الهند.

«الهنود ينتمون طيلة حياتهم إلى فئة المولد. كل فئة تعيش

وفق نظام قواعدها الخاص بها. نظام صارم يؤدي المس به إلى الطرد من فئة الأصل ومن كل فئة أخرى. لكي نفهم هذه المسلكيات، علينا أن نتذكر...».

ـ إنها الساعة الواحدة صباحاً. قالت لوسي.

كان نيكولا غارقاً في بحر من الصور. إنه يقضي أربع ساعات يومياً أمام الإذاعة المرئية منذ بداية أحداث القبو. كان ذلك وسيلته لعدم التفكير وللشعور بأنه لم يعد هو هو. صوت أمه أعاده إلى الواقع المزعج.

ـ هيا، ألم تتعب بعد؟

ـ أين أبي؟

ـ لا يزال في القبو. يجب أن تنام الآن.

ـ لا أريد النوم.

ـ أتريد أن أروي لك قصة؟

ـ أجل، أجل! قصة! قصة جميلة!

رافقته لوسي إلى غرفته وجلست على طرف السرير وحلت عقدة شعرها الطيول الأصهب. ستقصّ عليه قصة قديمة(*):

ـ كان، مما كان، رجل يعمل في اقتلاع الحجارة وتقصيبها. وكان أن بَرِم الرجل بالعمل وإنهاك نفسه في حفر

(*) القصة موجودة في العديد من الثقافات الأخرى ونجد تعبيرات عنها في الثقافة العربية.

الجبل تحت أشعة الشمس المحرقة، فقال في نفسه: «لقد ضقت ذرعاً بهذه الحياة. العمل في الحجارة أمر متعب جداً... وهذه الشمس، إنها دائماً هناك، في الأعالي! كم أحب أن أكون في مكانها. لو كنت في مكانها، لكنت هناك، في الأعالي، قوياً ودافئاً ولا عمل لي غير اغراق العالم بأشعتي». وحدثت معجزة وسُمع كلام الرجل فصار شمساً. فرح الرجل كثيراً بتحقق أمنيته وجعل يتلذذ بإرسال أشعته في جميع الأنحاء. لكنه لاحظ أن أشعته لا تصل إلى جميع الأنحاء بسبب ما يعرضها من غيوم، فقال في نفسه متعجباً: «ما الفائدة في أن أكون شمساً طالما أن غيوماً بسيطة تقدر على منع أشعتي من المرور! إذا كانت الغيوم أشد قوة من الشمس، فإنني أفضل أن أكون غيمة». فصار غيمة لتوه وأخذ يسبح في الفضاء من مكان إلى مكان ويرسل الأمطار. لكنه لاحظ أن الريح قد هبت وفرقت الغيمة وشتتها في أرجاء السماء، فقال في نفسه: «الريح يمكنها أن تشتت الغيوم. الريح هي الأقوى إذن، وأنا أريد أن أكون الريح».

ـ وهل تحول إلى ريح؟

ـ أجل، صار ريحاً وجعل ينفخ هنا وهناك ويثير العواصف والزوابع والأعاصير. ولكنه لاحظ أن الجدار يسد عليه الطريق. جدار عال ومتماسك. وكان ذلك الجدار جبلاً. قال في نفسه: «ما الفائدة في أن أكون ريحاً طالما أن الجبل يوقفني. الجبل هو الأقوى إذن!».

ـ صار جبلاً إذن!

ـ بالضبط. وعلى الفور، شعر بأن شيئاً يضربه، شيء أقوى منه يحفره من الداخل. كان ذلك الشيء رجلاً. . . يقتلع الحجارة. . .

ـ آآآه!

ـ هل أعجبتك هذه القصة!

ـ نعم، نعم يا أمي!

ـ هل أنت متأكد من أنك لم تر أجمل منها في البرامج الإذاعية؟

ـ لا، لم أر أجمل منها يا أمي.

ضحكت وضمته بين ذراعيها.

ـ قولي يا أمي، هل تعتقدين بأن أبي يحفر هو أيضاً؟

ـ ربما. من يعرف؟ على كل حال، يظهر أنه يظن بأنه سيتحول إلى شيء آخر بمواصلة النزول دائماً إلى الأسفل.

ـ أليس سعيداً هنا؟

ـ لا يا بني. إنه يستحي من كونه عاطلاً عن العمل. يظن أن من الأفضل له أن يكون شمساً. شمساً تحت الأرض.

ـ يظن أنه أصبح ملك النمل!

لوسي تبتسم.

ـ سيعود إلى حاله الأولى. أتعرف، أنه، هو أيضاً صبي صغير. والصغار يفتتنون دائماً ببيوت النمل. أو لم يحدث لك،

أنت أيضاً، أن لعبت مع النمال؟

ـ بلى يا أمي.

لوسي تصلح له وضع المخدّة وتقلبه.

ـ يجب أن تنام الآن. هيا، ليلة سعيدة.

ـ ليلة سعيدة، يا أمي.

رأت لوسي عيدان الثقاب على المنضدة بجانب السرير. لا بد أنه حاول، مرة أخرى، اكتشاف المثلثات الأربعة. توجهت إلى غرفة الجلوس وتناولت كتاب الهندسة الذي يتحدث عن تاريخ المنزل.

علماء عديدون سبق لهم وعاشوا في هذا المكان. علماء دين على وجه الخصوص. ميشيل سيرڤي (M. Servais) مثلاً، عاش هنا خلال عدة سنوات.

أحد مقاطع الكتاب استثار اهتمامها بوجه خاص. إنه يتحدث عن ممر تم حفره تحت الأرض خلال الحروب الدينية ليتمكن البروتستانت من المرور فيه والهرب إلى خارج المدينة. ممر تحت الأرض بعمق وطول غير عاديين...

الحشرات الثلاث تشكل مثلثاً بأجسادها لتقوم بعملية اتصال مطلق. وبذلك لا يكون عليها أن تروي قصة مغامراتها، لأنها ستعرف كل ما حصل لها كما ولو أنها لم تكن غير جسد واحد قسم إلى ثلاثة أجزاء بغية إجراء التحقيق بشكل أفضل.

يتماسكن بأطراف قرونهن. أفكارهن تبدأ بالانتقال بينهن، أفكارهن

تتدامج وحركة «الجهاز» تتسارع. دماغ كل واحدة يتحرك وكأنه جهاز إذاعي صغير: يعزز الرسالة الكهربائية بعد أن يتلقاها وقبل أن يبثها. عندما تجتمع ثلاث حاملات للتفكير النمالي بهذا الشكل، فإنها تنتج ما يزيد عن مجرد مجموع مواهبهن الفعلية.

لكن الإتصال المطلق يتوقف لشكل مفاجئ. فقد التقطت الرقم 103683 رائحة طفيلية. فالجدران لها قرون «تتسمع». وبالتحديد، هنالك قرنان يتلصصان عند مدخل مسكن الأنثى رقم 56. هنالك من يتجسس.

منتصف الليل. مضى يومان وجوناثان لم يصعد من القبو. لوسي تروح وتجيء بعصبية في غرفة الاستقبال. ذهبت لإلقاء نظرة عل نيكولا فوجدته يغط في نوم عميق. فجأة، تسمرت عيناها على شيء فوق المنضدة. عيدان الثقاب. حدست، في تلك اللحظة، أن بداية إجابة عن لغز القبو قد تكون ماثلة في لغز عيدان الثقاب. أربعة مثلثات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب. . .

«يجب أن نفكر بطريقة مختلفة. لا نجد شيئاً إذا ما فكرنا بالطريقة العادية». هذا ما كان يردده جوناثان. تناولت عيدان الثقاب وعادت إلى غرفة الإستقبال حيث حاولت وحاولت، لفترة طويلة. أنهكها القلق أخيراً فقامت لتأخذ قسطها من النوم.

رأت، في تلك الليلة، حلماً عجيباً. في بداية الحلم، رأت الخال ادمون أو، على الأقل، شخصاً تنطبق عليه أوصافه كما تعرفت عليه من خلال أحاديث جوناثان. كان يتحرك داخل صف يشبه شريطاً من الأشرطة البلاستيكية التي تسجل عليها الأفلام

السينمائية. كان الصف يمتد بعيداً في عمق الصحراء، بين الحجارة والحصى. جنود مكسيكيون يحيطون بالصف ويسهرون على «حسن تنفيذ العمل». في البعيد، تنتصب مشانق عشر وأناس يُشنقون. كانوا ينزلونهم عن المشانق عندما تتيبس أجسادهم موتاً ويعلقون غيرهم. ويستمر الصف بالتقدم. . .

كان جوناثان يقف خلف أدمون وهي خلف جوناثان وخلفها رجل سمين يضع نظارتين صغيرتين. كان كل هؤلاء المحكومين بالإعدام يتحادثون بهدوء، كما ولو أن شيئاً لم يكن.

وعندما جاء دورهم ووضعوا الحبال حول أعناقهم وعلقوهم، هم الأربعة صفاً واحداً، لم يفعلوا شيئاً غير الانتظار، هكذا، بكل بلاهة. كان الخال ادمون أول من فتح فاه وتكلم. تكلم بصوت أبح ـ وكان من الطبيعي أن يتكلم بصوت أبح:

ـ ماذا نفعل هنا؟

ـ لا أدري. . . نعيش. لقد ولدنا وبما أننا ولدنا فإننا نحاول أن نعيش أطول مدة ممكنة. أما الآن، فإنني أظن أن النهاية قد بدأت. قال جوناثان.

ـ أنت متشائم، يا ابن أختي العزيز. لا شك بأننا مشنوقون وبأن جنوداً مكسيكيين يحيطون بنا، ولكن ذلك ليس غير تفصيل فرعي بسيط من تفاصيل الحياة. ذلك ليس غاية أو نهاية. ذلك تفصيل فرعي بسيط ليس إلاّ. ثم لا بد أن لهذا الوضع نهاية ما. هل أنتم موثقون ورائي بحبال متينة؟

يجرجرون أنفسهم في وثاقهم. والرجل السمين يقول:

لا، أنا أعرف كيف أتخلص من وثاقي!

ويفك وثاقه للحال.

ـ حسناً، تعال وخلصنا إذن.

ـ كيف ذاك؟

ـ تَأَرْجَحْ وواصل التأرجح حتى تصل إلى يديَّ.

أخذ يتلوّى وتحول إلى رقاص حي. كرقاص الساعة. وبعد أن فك وثاق ادمون، فُكت أوثقة الآخرين تباعاً، بالطريقة نفسها. ثم قال ادمون: «افعلوا كما أفعل!». وأخذ يقفز بعنقه من حبل إلى حبل متجهاً نحو المشنقة الأخيرة في الصف. وتابعه الآخرون.

ـ لكننا لا نستطيع التقدم. لا يوجد شيء وراء هذه الخشبة. إنهم سيكشفوننا.

ـ انظروا، يوجد ثقب صغير في الخشبة. هيا بنا.

ثم قفز ادمون باتجاه الخشبة وأخذ جسمه يتضاءل حتى اختفى داخل الثقب. تبعه في ذلك جوناثان ثم الرجل السمين وفعلا كما فعل. أما لوسي، فقد قالت لنفسها بأنها لن تتمكن أبداً من فعل ما فعلوا، ومع ذلك قفزت باتجاه الخشبة ودخلت في الثقب!

في داخل الثقب سلم حلزوني. ارتقوا درجاته أربعاً أربعاً، وهم يسمعون أصوات الجنود الذين كانوا قد انتبهوا لفرارهم.

لوس غرينفوس، لوس غرينفوس، كويدادوا!(*) وقع جزمات عسكرية، أصوات طلقات نارية. كانوا يطاردونهم.

أفضى بهم اللم إلى غرفة مطلة على البحر في فنذف حديث. دخلوا وأغلقوا الباب خلفهم. إنهم في الغرفة رقم 8. ولكن الـ 8 العامودية تحولت، عندما صفقوا الباب خلفهم، إلى أفقية، إلى رمز اللامتناهي. كانت الغرفة أنيقة فاخرة وشعروا فيها بأنهم باتوا في مأمنٍ من الجنود الغلاظ.

وفي الوقت الذي كانوا يتنفسون فيه الصعداء إحساساً منهم بالإرتياح والطمأنينة، قفزت لوسي فجأة وأطبقت بكفيها على عنق زوجها وهي تصرخ «يجب أن تفكر بنيكولا! يجب أن تفكر بنيكولا!». ثم ضربته بإناء أثري عليه رسم يمثل هرقل عندما كان لا يزال طفلاً وهو يخنق التنين. سقط جوناثان على السجادة وتحول إلى... صرصور البحر (قريدس) منزوع القشور وأخذ يتلوى بطريقة مضحكة.

تقدم الخال ادمون نحوها.

ـ أنت نادمة على ما حدث، أليس كذلك؟

ـ لا أفهم قصدك.

ـ ستفهمين. قال ذلك مبتسماً وأردف: اتبعيني.

مشى أمامها نحو الشرفة. قبالة البحر؛ وفرقع بأصابعه

(*) بالاسبانية في النص الفرنسي: Los gringos, los gringos, cuidado.

فنزلت من الغيوم ستة عيدان ثقاب مشتعلة واصطفت على راحة يده. قال:

ـ اسمعيني جيداً. إننا نفكر دائماً بالطريقة ذاتها. ننظر دائماً إلى العالم بالطريقة المألوفة التافهة ذاتها. كما ولو أننا لا نأخذ صوراً إلا بعدسة كبيرة الزاوية. ذلك يمكننا من تكوين رؤية للعالم، ولكنها ليست الرؤية الوحيدة. **يجب**... **أن**... **نفكر**... **بطريقة**... **مختلفة!** انظري.

تطايرت عيدان الثقاب قليلاً في الفضاء ثم حطت على الأرض وزحفت كأنها كائنات حية واجتمعت لتشكل...

في اليوم التالي، كانت لوسي تعاني من حمى خفيفة لم تمنعها من الخروج لشراء أنبوبة نافثة للهيب. وهكذا، أتت على القفل من أساسه وهمت باجتياز عتبة القبو عندما دخل نيكولا إلى المطبخ وهو لا يزال نصف نائم.

ـ أمي! أين تذهبين؟

ـ أريد أن أنزل لاحضار أبيك. إنه يخال نفسه غيمة قادرة على اختراق الجبال. أريد أن أنظر وأعرف ما إذا لم يكن قد أمعن في شططه بعض الشيء. سأخبرك بكل شيء...

ـ لا يا أمي، لا تذهبي، لا تذهبي لأنني سأكون وحيداً.

ـ لا تبتئس يا نيكولا. سأعود. لن أبطئ عليك، انتظرني.

أضاءت مدخل القبو. كان الظلام شديداً، شديداً جداً...

من هناك؟

قرنان يتقدمان. بعدهما رأس ثم جذع فبطن. إنها العرجاء الصغيرة التي تفوح منها رائحة الصخور.

هممن بالهجوم عليها. لكنهن رأين خلفهاملاقط نحو مئة من المحاربات المدججات بالسلاح. تفُحنَ كلهن برائحة الصخور.

لنهرب عبر الممر السري. قالت الأنثى رقم 56.

رفعت الحصاة عن مدخل الثقب فانكشف القبو السري، ثم ضربت بجناحيها وارتفعت حتى لامست السقف وأطلقت رشقات من الحامض على أوائل الداخلات. وفي هذه الأثناء. لاذ شريكاها بالفرار وانطلقت من الفرقة المهاجمة رائحة فظّة.

اقتلوهن جميعاً!

الأنثى رقم 56 تغوص بدورها في الثقب بعد أن تحاشت رشقات الحامض التي أخطأتها وما كادت تخطئها.

الحقن بهن، بسرعة!

مئات القوائم تهرع مسرعة للحاق بهن. الجاسوسات كثيرات العدد. يعبرن المضيق بصخب شديد ويجتهدون في محاولة اللحاق بالثلاثي الهارب.

البطون ملتصقة بالأرض والقرون مثنية إلى الوراء. بهذه الصورة مرق الذكر والأنثى والمحاربة في الممر الذي لم يعد سرياً بالمرة، وبالصورة ذاتها خرجوا من منطقة الحريم وهبطوا باتجاه الطوابق السفلية. الممر الضيق يفترق، بعد قليل، إلى شعبتين، ثم تكثر المفترقات والتشعبات. لكن الذكر رقم 327 يتمكن من تحديد المكان الذي وصلوا إليه وينجح في إخراج صاحبتيه من الورطة التي وقعن فهيا جميعاً.

فجأة، وعلى زاوية أحد الأنفاق، يجدن أنفسهن وجهاً لوجه مع فرقة من المحاربات المتجهات نحوهن. غير معقول: العرجاء سبقتهن إلى هذا

المكان وسدت عليهن الطريق. هذه الحشرة الميكيافيلية تعرف جميع الطرقات المختصرة دون أدنى شك!

الثلاثي الهارب يتقهقر، ثم ينطلق متراجعاً بأقصى سرعة ممكنة. وعندما يجد فرصة لاستعادة أنفاسه، تتقدم النملة رقم 103683 باقتراح مفاده أن من الأجدى عدم القتال في مواقع الآخرين الذين يتحركون بكل ارتياح في هذه الممرات المتشابكة.

عندما يكون عدوك متفوقاً عليك، تصرف بحيث تستعصي على طريقته في الفهم. هذه الحكمة القديمة الموروثة عن الأم الأولى تنطبق تماماً على الوضع الذي يعيشه الثاني. الأنثى رقم 56 تقترح، من جهتها، أن يموهن أنفسهن ويختبئن داخل أحد الجدران.

وقبل أن تصل إليهن المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور، شرعن بالحفر، بكل ما أوتين من قوة، في الصفحة الجانبية لأحد الجدران يغرزن ملاقطهن في التراب ويرفعنه دون هوادة. امتلأت عيونهن بالتراب وبه تعفرت قرونهن. ومن أجل المزيد من الإسراع في الحفر، كان يحدث لهن ـ أحياناً ـ أن يبتلعن كتلاً دسمة من التراب. وعندما أصبح عمق الحفرة كافياً، ولَجنَها وقبعنَ فيها وبدأن الإنتظار بعد أن قمن بسد الفجوة وإعادة الجدار كما كان من قبل. المطاردات يصلن إلى المكان ويجتزنه راكضات بالسرعة القصوى. لكنهن لا يلبثن أن يرجعن بخطى أكثر بطئاً، هذه المرة. إنهن يتفحصن المكان خلف الحاجز الرقيق. . .

لا، إنهن لم يلاحظن شيئاً. ومع هذا، لا يمكن للمختبئات أن يبقين في مكانهن، فالأخريات سينتهين إلى التقاط بعض الجزئيات الدالة على وجودهن في هذا المكان. لذا، فقد تابعن الحفر. ولأن ملاقط الرقم 103683 كانت هي الأكبر والأقوى، فقد تكفلت بالحفر أمام الذكر والأنثى اللذين انصرفا إلى جرف الرمال وتكديسها لسد المنافذ خلفهما.

أما القاتلات، فقد فهمن المناورة وبدأن بتفحص الجدران فعثرن على

آثارهن وشرعن يحفرن بشكل محموم. النملات الثلاث ينعطفن نزولاً. وعلى كل حال، فإن تتبعهن داخل هذا الكثيب الكثيف المظلم ليس بالأمر السهل. إذ في كل لحظة تنفتح ممرات ثلاثة ويُسَدُّ اثنان منها على الفور. فمن يمكنه في مثل هذا الوضع، أن يضع خارطة دقيقة وموثوقة لمدينة ليست لها علامات ثابتة غير القبة وجذع الشجرة!

النملات الثلاث يتقدمن بطيئات في لحم المدينة. يعترضهن، أحياناً، ساق نبتة طويل من تلك النباتات التي تغرسها المزارعات لشد بنية المدينة والحيلولة دون انهيارها عند سقوط المطر. ويقعن أحياناً على أماكن تكون الأرض فيها أكثر صلابة أو ترتطم ملاقطهن بحجر من الأحجار. لا بد عندها من الإلتفاف حول الحاجز.

لم يعد الذكر والأنثى يسمعان ذبذبات المطارِدات. يتخذ الثلاثي قراراً بالتوقف. إنه الآن داخل جيب هوائي ضائع في ثنايا بيل ـ او ـ كان. داخل بقعة مكورة لا ينفذ إليها أحد، ولا يشمها أحد، ولا يعفرها أحد. داخل جزيرة مقفرة مقورة جوفاء. من يمكنه أن يجيء ويكشف عن وجود النمال الثلاث في هذا الكهف البالغ في الصغر؟ إنهن يشعرن وكأنهن في التجويف البيضاوي المظلم داخل البطن الذي خرجن منه.

الأنثى رقم 56 تقرع جمجمة الذكر القابع قبالتها بأطراف قرنيها. تدعوه لتزقيمها. يثني قرنيه تعبيراً عن الموافقة ثم يلصق فمه بفمها ويتجشأ مخرجاً قليلاً من عسيل البرغثان الذي سبق وقدمته له الحارسة الأولى. الأنثى 56 تشعر فوراً بعودة النشاط والانتعاش إليها وبقرني الرقم 103683 يقرعان جمجمتها. تلصق شفتيها بشفتيها وتتجشأ لها بعض الطعام الذي حصلت عليه لتوها، ثم تميل كل واحدة من النمال الثلاث إلى صاحبتيها تداعبهما وتدعكهما. آه! لا شيء أكثر إمتاعاً من العطاء، عند النمال...

استعادت النمال الثلاث بعض قواها. ولكن ذلك لا يعني)أنها تستطيع البقاء حيث هي إلى ما لا نهاية. فالأوكسيجين لن يعتم أن ينفد، وحتى لو كان بمقدور النمال أن تستمر في الحياة لفترة طويلة دون غذاء وماء وحرارة

وهواء، فإن فقدان هذه العناصر الحيوية لا يلبث أن يرمي بها في أحضان نوم قاتل.

إتصال بالقرون

ماذا نفعل الآن؟

المجموعة المكونة من ثلاثين مقاتلة والتي تبنت قضيتنا تنتظرنا الآن في قاعة في الطابق الخمسين تحت سطح الأرض.

هيا بنا.

يعاودن الحفر ويحددن اتجاههن على هدي عضو جونستون اللاقط لذبذبات الحقل المغناطيسي للكرة الأرضية. منطق الأشياء يدفعهن إلى الظن بأنهن بين مخازن الحبوب في الطابق الثامن عشر تحت سطح الأرض ومزارع الفطر في الطابق العشرين تحت سطح الأرض. ولكن البرد يتزايد كلما ازددن نزولاً. فالصقيع يتوغل في عمق الأرض مع هبوط الليل. حركاتهن تتباطأ. ثم يتوقفن نهائياً وهن في وضعية الحفر ويستسلمن للنوم، بانتظار عودة الدفء.

ـ جوناثان، جوناثان، هذه أنا، لوسي!

شعرت بالخوف يجتاح كيانها وهي تنزل وتنزل في أعماق عالم الظلمات هذا. هذا النزول اللامتناهي في هذه الدورة الطويلة داخل السلم اللولبي أفضى بها إلى الوقوع فريسة لإحساس آخر. فقد شعرت بأنها تهوي وتهوي عميقاً داخل ذاتها. إنها تشعر الآن بألم ينتشر في بطنها. قبله مباشرة، شعرت بجفاف حاد في حنجرتها، تبعه تشنج مثير للقلق في ضفيرتها العصبية الشمسية، وبعده أحست بلذعات حادة في المعدة.

ركبتاها وقدماها واصلت التحرك، ولكن بشكل آلي. هل

يعني ذلك أنها على وشك التعطل هي أيضاً؟ هل سيعصف بها الألم هي أيضاً؟ هي يعني ذلك أنها لن تعينها على مواصلة النزول؟

صور من طفولتها تجتاح ذهنها. أمها المتسلطة التي لم تكن تكف عن إشعارها بالذنب وعن ارتكاب الظلامات تلو الظلامات بحق إخوتها الذين كانت تكن لهم محبة كبيرة. . . وأبوها، ذلك الشخص المنطفئ المرتجف أمام زوجته. كان لا يفعل غير الهرب، حتى من أدنى النقاشات ولا يقول إلا «آمين» إزاء أدنى القرارات الصادرة عن الملكة ـ الأم. أبوها، ذلك الجبان. . .

هذه الذكريات المؤلمة لم تلبث أن أخلت المجال للإحساس بأنها كانت غير عادلة في تعاملها مع جوناثان. فالواقع إنها كانت تتهمه بكل ما من شأنه أن يذكرها بأبيها. وبسبب الاتهامات التي كانت تكيلها له على الدوام، وبسببها بالضبط، قمعته وهشمته وجعلته، شيئاً فشيئاً، شبيهاً بأبيها. وهكذا، أعادت الدورة ذاتّها عندما أعادت إلى الحياة دون وعي منها ما كانت تمقته أكثر من أي شيء آخر: قصة العلاقة بين والديها.

كان ينبغي وقف تلك الدورة. إنها الآن حاقدة على ذاتها من أجل جميع المشاجرات التي أثقلت بها كاهل زوجها. كان ينبغي محو تلك الإساءات.

تابعت الدوران والنزول. إحساسها بمشاعر الذنب عندها، حرر جسمها من مخاوفه ومن آلامه الضاغطة. كانت مستمرة في

الدوران والنزول عندما ألفت نفسها على شفا الإرتطام بباب أمامها. باب عادي. تغطي جزءً منه كتابات لم تكلف نفسها عناء قراءتها. كان للباب مقبض فأدارته، فإذا به ينفتح دون أن يند عنه أي صرير.

بعد الباب، السلم الحلزوني يواصل النزول. الفارق المهم الوحيد هو أن عريقات من الصخر الحديدي بدأت بالظهور في وسط الحجر. كان الحديد الممزوج بماء يتسرب، على الأرجح، من نهر باطني، يأخذ تلوينات مشوبة بحمرة مغراء.

إنتابها الشعور بأنها قد دخلت مرحلة جديدة. فجأة، وقع ضوء مصباحها اليدوي على بقع من دم عند قدميها. لا بد أنه دم أورزازات. الكلب الصغير النبيل وصل إذن إلى هذا المكان. . . كانت البقع في كل ناحية، ولكن تمميز بقع الدم عن بقع الحديد الصديء لم يكن بالأمر السهل.

فجأة، يتسرب إلى أذنيها ضجيج خفي يتحول إلى طقطقة وفرقعة. كما ولو أن كائنات تمشي نحوها. وقع الخطى كان عصبياً، كما ولو أن الكائنات خجولة لا تجرؤ عكلى الإقتراب. توقفت لتسير أغوار الظلمة بأطراف ضوء مصباحها. عندما شاهدت مصدر الضجيج، أطلقت زعيقاً غير بشري. ولكنها في مكان لا يسمعها فيه أحد.

الصبح يطلع على جميع مخلوقات الأرض والنمال الثلاث تواصل النزول. إنها الآن في الطابق السادس والثلاثين تحت سطح الأرض. الرقم 103683 تعرف الناحية جيداً وتظن أن الخروج ممكن دون التعرض لأي

خطر لأن من غير الممكن أن تكون المحاربات الصخريات قد تابعتهن إلى هذا المكان.

النمال الثلاث تفضي بمسيرها إلى أروقة واطئة وخالية تماماً من المارة. ثقوب تظهر بين الفنية والفينة يميناً وشمالاً، إنها أهراءات قديمة مهجورة منذ عشرة أجيال على الأقل. الأرض لزجة مما يعني وجود تسربات رطبة. ذلك هو السبب الذي تحولت فيه هذه المنطقة الموبؤة إلى واحد من أهم الأحياء السيئة السمعة في بيل ـ او ـ كان.

المكان يفوح برائحة كريهة.

الذكر والأنثى لا يشعران بالاطمئنان. يلاحظان ما يدل على وجود مظاهر عدائية. قرون تتلصص. لا بد وأن المكان حافل بالحشرات الطفيلية والوافدة.

النمال الثلاث تتقدم شاهرة ملاقطها في القاعات والممرات الموحشة. يرتعدن إذ يفجأهن بغتة صوت صرير حاد. **رويك، رويك، رويك**... هذه الأصوات تتغير من حيث درجة ارتفاعها، تنتظم في ترداد رتيب ذي أثر تنويمي ساحر تتردد أصداؤه في المغاور الطينية.

الأصوات، بحسب المحاربة، هي أصوات جنادب. غناء موسم الحب عندها. هذا التفسير لا يطمئن الذكر والأنثى إلا قليلاً. نصف اطمئنان فحسب، لأنه من غير المعقول أن تصل الجنادب إلى تحدي جيوش الفيدرالية في عقر دارها!

ليس في الأمر أية مفاجأة بالنسبة للرقم 103683. ألا تقول إحدى مأثورات الملكة ـ الأم السابقة: **تعزيز نقاط القوة خير من السعي إلى السيطرة على جميع النقاط**؟ وتلك هي النتيجة...

ضجيج من كل نوع. كما ولو أن في المكان أعمال حفر سريع. هل كشفتهن المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور؟ لا... يدان تبرزان

أمامهن. يدان كمجرفتين تنفرزان وتجرفان التراب إلى الوراء ليندفع الجسم الأسود الكبير إلى الأمام.

كل شيء يظل معقولاً إلا أن يكون هذا الشيء خِلداً!

النمال الثلاث تجمد في مكانها فاغرة الملاقط.

إنه خِلد.

دوامة في داخل الرمل. كتلة من الوبر الأسود والمخالب البيضاء. الحيوان يسبح بين طبقات التراب كضفدع في مستنقع. النمال الثلاث تتمايل وتتأرجح في تشبثها بكتل الطين، لكنها تنتهي بالخروج سالمة من المعترك، لأن آلة الحفر قد غادرت المكان. الخلد لا يبحث إلا عن الديدان. لذته الكبرى هي أن يعضها في عقدها العصبية ليشلها ويخزنها حية في وجاره.

النمال الثلاث تنفض عن نفسها الغبار وتغتسل، مرة أخرى، بعناية فائقة، ثم تواصل المسير.

دخلن لتوهن في ممر ضيق ومرتفع الجدران. المحاربة ـ الدليل تبث رائحة الإنذار وهي تشير إلى السقف. فالسقف مكسو تماماً بالبق. حشرات حمراء ذات بقع سوداء.

هذه الحشرات التي يبلغ طولها ثلاثة رؤوس (تسعة مليمترات) تبدو، بالبقع السوداء في ظهورها، وكأنها عيون تلقي نظرات غاضبة. وهي تتغذى عموماً بلحوم الحشرات الميتة، أو الحية أحياناً.

إحدى البقات تلقي بنفسها مباشرة على الثلاثي القادم إلى المكان. قبل وصولها إلى الأرض كانت النملة رقم 103683 قد ثنت بطنها تحت جذعها وأطلقت رشقاً من حامض الفورميك. وعندما وصل جسم البقة إلى الأرض كان قد تحول إلى خبيص ساخن.

التهمته النمال الثلاث سريعاً واجتزن المكان على عجل قبل هبوط مسخ آخر عليهن.

الذكاء: بدأت بإجراء التجارب الفعلية في شهر كانون الثاني / جانفييه 58 الموضوع الأول حول الذكاء. هل النمال ذكية؟

ولكي أجد الإجابة، أخذت نملة صهباء (من فصيلة فورميكا روفا)، متوسطة القامة ومن غير ذوات الجنس، ووضعتها أمام المشكلة التالية:

وضعت قطعة من العسل المتيبس في قعر ثقب بعد أن سددت مدخله بعشبة خفيفة الوزن لكنها طويلة جداً ومثبتة جيداً في الثقب ما تفعله النملة عادة في مثل هذه الحالة هو توسيع الثقب بحيث تتمكن من المرور. ولكن مدخل الثقب في التجربة كان مصفحاً بمادة من اللدائن الصلب، فلم تتمكن النملة من اختراقه.

اليوم الأول: النملة تشد العشبة على دفعات متتالية. ترفعها قليلاً ثم تتركها قبل أن تعود إلى شدها من جديد.

اليوم الثاني: النملة تقوم بالعمل نفسه ثم تحاول قص العشبة من أصلها. إخفاق المحاولة.

اليوم الثالث: العمل نفسه. يبدو كما ولو أن النملة تتخبط في نمط من التفكير غير المجدي، وأنها تستمر فيه لعجزها عن تصور نمط آخر. يمكن اعتبار ذلك دليلاً على عدم ذكائها.

اليوم الرابع: العمل نفسه.

اليوم الخامس: العمل نفسه.

اليوم السادس: استيقظت صبيحة اليوم فوجدت العشبة خارج الثقب. لا بد وأنها أخرجتها أثناء الليل.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق.

الأنفاق التالية مسدودة حتى نصفها. تراب سقوفها بارد وجاف. يتكيء على الجذور البيضاء مشكلاً ما يشبه العناقيد. يحدث أحياناً، أن تتساقط قطع منه. «البَرَد الداخلي»، ذلك هو الإسم الذي يطلق على هذه الظاهرة. الوسيلة الوحيدة المعروفة لاتقائه هي مضاعفة الإنتباه والحذر والقفز جانباً عند أول إحساس بحدوث الإنهمار.

النمال الثلاث تتقدم. بطونها لاصقة بالأرض، قرونها مثنية إلى الخلف، قوائمها متباعدة باتجاه الجانبين. كل شيء يشير إلى أن النملة رقم 103683 تعرف أين تقود صاحبتيها. الأرض تميل، مرة أخرى، نحو الرطوبة. رائحة كريهة تنبعث من هذه الجهة. رائحة حياة. رائحة تنبعث من حيوان.

الذكر رقم 327 يتوقف. ليس واثقاً تماماً، ولكنه أحس وكأن جانباً من جوانب الجدار قد تحرك فجأة. إقترب قليلاً نحو المنطقة المشبوهة فرأى الجدار ينتفض من جديد ويظهر فيه شكل كأنه شكل شدق. يتراجع. الشيء أصغر هذه المرة من أن يكون خلداً. الشكل الشبيه بالشدق يتغير ويأخذ مظهراً حلزونياً ثم ينبت في وسطه نتؤ لا يلبث أن يندلع ليرتمي عليه.

الذكر يطلق رائحة صراخ حاد.

لكنها دودة من ديدان الأرض! يقطعها نصفين بضربة ملقط. غير أن الجدران لا تلبث أن تموج بعجيج من هذه الديدان الملتوية. لكثرتها، تخال النملة نفسها في معيّ عصفور(*).

إحدى هذه الديدان تتجشم الإلتفاف بجسمها حول جذع الأنثى رقم 56. لكن الأنثى تصفق بملقطيها من هنا ومن هنا، فإذا بالدودة عدة قطع تتلوى كل منها في ناحية.

ديدان أخرى تتدخل وتحاول الإلتفاف حول قوائم النمال ورؤوسها.

(*) أمعاء العصافير معروفة بكثرة الديدان بداخلها.

النمال لا تطيق ملامسة الديدان لقرونها. تخترط أسلحتها دفعة واحدة وتطلق رشقات الحوامض على الديدان العاجزة عن الإنبراء للرد. وأخيراً تصبح الأرض مجللة بأكوام اللحم الأمغر المشرئب كأنه يتحدى النمال.

النمال تسلم قوائمها للريح مبتعدة عن المكان.

عندما استعادت روعها، أشارت النملة رقم 103683 على صاحبتيها بدخول منطقة تلاحقت فيها ممرات جديدة. دخلن فيها وبدأن بالتقدم، ومع كل خطوة إلى الأمام كانت تفوح في المكان رائحة كريهة تزداد قوتها شيئاً فشيئاً. لكنهن ما عتمن أن اعتدن عليها، فالاعتياد ممكن على كل شيء. تشير المحاربة إلى أحد الجدران وتشرح أن الحفر فيه مطلوب.

إنها مخازن الأسمدة وقاعة الاجتماع تجاورها تماماً. هدوء المكان هو ما حفزهن على الاجتماع فيه.

يخترقن الجدار فيجدن أنفسهن في قاعة كبيرة تفوح منها روائح الروث.

المحاربات الثلاثون اللواتي انخرطن معهن في خدمة القضية كن ينتظرن هناك. لكن مخاطبتهن كانت تتطلب معرفة الحد الأدنى من كيفية اللعب بقطع البيزل. كانت المحاربات عبارة عن قطع غيار مفككة. كانت رؤوسهن، في الغالب، بعيدة عن جذوعهن...

النمال الثلاث يتفحصن قاعة الموت المرعبة. من يمكن أن تكون القوة التي قتلتهن هنا، في هذا المكان، عند الأساس الذي تقوم عليه بيل - أو - كان؟

ذلك بالتأكيد شيء أتى من الأسفل، قال الذكر 327 بلسان رائحة أطلقها.

لا أظن ذلك أبداً.

ردت الأنثى رقم 56، دون أن يمنع ذلك من أن تقترح عليه بأن يحفر في المكان.

يغرز ملقطيه. يتألم. هنالك صخرة في الأسفل.

صخرة كبيرة من الغرانيت. إنها أساس المدنية وقاعدتها السفلية الصلبة. وهي سميكة، سميكة جداً، وعريضة، عريضة جداً. لم يتمكن أحد من بلوغ حدودها. هذا ما قالته النملة رقم 103683، بعد قليل، على سبيل الإيضاح.

في النهاية، يمكن أن تكون هذه الصخرة أساس لعالم. رائحة غريبة تنتشر في المكان. لقد دخل إلى القاعة شيء ما، شيء لم يلبث أن أصبح قريباً من قلوبهن. لا، إنه ليس نملة من نمال القطيع. إنه لمقز (Lomechuse) من مغمدات الأجنحة.

كانت الأنثى 56 لا تزال يرقة عندما سمعت الملكة ـ الأم تتكلم عن هذه الحشرة.

ليس هنالك من إحساس يمكنه أن يضاهي الإحساس الذي يصاحب تذوق رحيق اللمقز. رحيقه هو ثمرة جميع الرغبات الجسمية وإفرازاته تذيب الإرادة مهما كانت صلابتها.

فالواقع أن تناول هذا الرحيق يزيل الألم والخوف والذكاء. والنمال السعيدة الحظ التي تتمكن من مواصلة الحياة بعد موت مُمَوِّنتها بالسم، تجد نفسها مدفوعة بقوة لا تقاوم إلى مغادرة المدينة. بحثاً عن مُمَوِّنة جديدة. تكف عن الطعام والراحة وتمشي حتى الإنهاك التام. وفي حال عدم عثورها على اللمقز، تلتصق بعشبة وتستسلم للموت، في حين يكون جسمها مرتعاً لآلاف الوخزات الناجمة عن الاشتياق للمخدر المفقود.

وكانت الرقم 56 لا تزال في حداثتها الأولى عندما سألت، يوماً، عن السبب الذي يُسمح من أجله بدخول المدينة لآفات من الأنواع التي تقتلها الأرضة والنحل، مثلاً، دون هوادة. أجابتها الملكة ـ الأم يومها بأن هنالك

طريقتان لمواجهة مشكلة ما؛ إما أن نمنعها من المرور وإما أن ندعها تعبر من خلالنا. وليست الطريقة الثانية هي الأسوأ بالضرورة. فإفرازات اللمقز التي تؤخذ بجرعات مدروسة. أو التي تمزج بمواد أخرى، تتحول، في الحقيقة، إلى أودية ممتازة.

الذكر رقم 327 يتقدم أولاً. صعقتة الروائح المعطرة التي كانت تفوح من اللمقز، فجعل يلحس وبر بطنه. كان الوبر مضمخاً بسوائل مهلوسة. وهنالك أمر يبعث على الإرتباك: بطن الحشرة المسممة والشعرتان الطويلتان المنطلقتان منها تأخذان بالضبط شكل وصورة رأس النملة وقرنيها!

الرقم 56 تهرع بدورها، ولكنها لم تتمكن من الشروع بالتلذذ بالوليمة. فقد امتشقت النملة رقم 103683 سلاحها وأطلقت رشقاً صافراً من الحامض، فإذا باللمقز يحترق ويتلوى من الألم.

علقت المحاربة على تدخلها باقتضاب.

من غير الطبيعي أن تتواجد هذه الحشرة على عمق كهذا. فاللمقز لا يعرف كيف يحفر الأرض، ولا بد أن أحداً أحضره خصيصاً إلى هذا المكان لمنعنا من التوغل فيه أكثر! يجب أن نكتشف شيئاً ما في هذا المكان.

استولى الارتباك والخجل على النملتين الاخرتين، ولم يكن بوسعهما غير الإعراب عن الإعجاب بدقة النظر عند صاحبتهما. وفتشت النمال الثلاث طويلاً. نقلن حجارة من أماكنها وشممن أصغر الزوايا في القاعة. المؤشرات نادرة. ولكنهن استطعن، على الرغم من ذلك، تمييز رائحة عفنة يعرفنها. إنها رائحة الصخور التي تفوح من القاتلات. رائحة خافتة بالكاد يمكن شمها، جزيئتان أو ثلاث، ليس إلا. الرائحة تفوح من هناك تحت تلك الصخرة الصغيرة بالضبط. يُزِحنها من مكانها، فيجدن ممراً سرياً. أجل، ممر سري آخر.

غير أن هذا الممر يتميز بخاصية بالغة الأهمية. فهو ليس محفوراً في التراب ولا في الخشب، بل إنه مثقوب مباشرة في الغرانيت الصخري! لا يمكن لأي ملقط أن يفعل فعله في هذه المادة.

الممر واسع بما فيه الكفاية، لكنهن يتقدمن فيه بحذر. بعد خطوات وجيزة، يعثرن على قاعة رحبة مليئة بالأغذية. طحين، عسل، حبوب، لحوم مختلفة. كميات كبيرة يمكنها أن تغذي المدينة بكاملها طيلة سنوات خمس! وكل ذلك يفوح بالرائحة التي تفوح من القاتلات اللواتي يطاردنهن. رائحة الصخور.

كيف تيسرت إقامة مثل هذا المخزن الكبير المشحون بالمواد الغذائية سراً في هذا المكان؟ ومن أين جيء باللمقز لحراسة مدخله!؟ هذه معلومة لم تتناقلها قرون القطيع قط...

تناولن وجبة دسمة ثم جمعن قرونهن للتداول في الوضع. القضية تزداد تعقيداً وإبهاماً. السلاح السري الذي فتك بالبعثة الأولى، المحاربات اللواتي يفحن بتلك الرائحة الخاصة، اللمقز، مخبأ الغذاء في أسفل المدينة... كل ذلك يتجاوز الفرضية السائدة عن مجموعة من الجواسيس المرتزقة العاملين لحساب المقزومات. اللهم إلا إذا كانت المجموعة ذات تنظيم رفيع المستوى!

لا مجال أمام الرقم 327 ورفيقتيه لتعميق الأفكار حول الموضوع. ذبذبات صماء تتجاوب في الصمت. بان بان بانبان، بان بان بانبان! العاملات في الطوابق العلوية يقرعن الأرض بأطراف بطونهن. الأمر خطير، إنه الإنذار في مرحلته الثانية ولا يمكن تجاهل النداء. أجسام النمال الثلاث تدفعها، منذ الآن قوة لا تقاوم نحو الإنضمام إلى بقية القطيع.

العرجاء، التي كانت تتعقب آثارهن عن كثب، تتنفس الصعداء، فهن، لحسن الحظ، لم يكتشفن شيئاً...

لا أمه عادت من القبو ولا أبوه عاد. قرر نيكولا، أخيراً، إعلام الشرطة. ولد يتضور جوعاً يدخل إلى مقر الشرطة محمر العينين ليشرح بأن «أباه وأمه قد اختفيا في القبو» وأن الأرجح أن

تكون الجرذان أو النمال قد التهمتهما. ورجع الغلام مخفوراً بشرطيين مذهولين إلى الطابق السفلي في البناية رقم 3، شارع السيباريت.

الذكاء (تتمة): إعادة التجربة ولكن مع التصوير بآلة تسجيل (فيديو).

الموضوع: نملة أخرى من الفصيلة ذاتها والعش ذاته.

ـ اليوم الأول: النملة تشد العشبة وتدفعها وتعضها دون جدوى.

ـ اليوم الثاني: العمل نفسه.

ـ اليوم الثالث: تحسن! النملة تعتمد الطريقة التالية: تشد العشبة قليلاً وتحفظها في وضعها الجديد بأن تدخل بطنها في الثقب وتنفخها، ثم تلتقط أسفل العشبة وتشدها من جديد وهكذا، تتوصل شيئاً فشيئاً إلى سحب العشبة عن طريق جذبها على دفعات متتالية.

هكذا، إذن، توصلت النملة الأولى إلى حل المشكلة...

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

كان سبب الإنذار حدث غير عادي: فقد تعرضن لا ـ شولا ـ كان، إحدى المدن المتحدرة من بيل ـ او ـ كان، إلى هجوم من قبل فيالق النمال المقزومة.

النمال الثلاث تقرر إذن تأجيل ما كنَّ فيه...

فالحرب ستنشب الآن لا محالة.

النمال التي ظلت على قيد الحياة، وتمكنت من اختراق الحصار الذي فرضته الشيغابونيات، تروي قصصاً لا تُصدق. ذلكم مسلسل الأحداث كما ترويه الشيغابونيات:

في تمام الدرجة الزمنية السابعة عشرة، اقترب غصن شجرة الأكاسيا من المدخل الرئيسي لمدينة لا ـ شولا ـ كان. هذا الغصن لا يتحرك عادة، ولكنه جاء وانغرز دفعة واحدة في المدخل وأخذ يدور فيه حتى هدمه تماماً!

عندها خرجت الحارسات لمهاجمة هذا الشيء الثاقب غير المعروف، ولكنهن قُتلن جميعاً. لذا قبعت النمال الأخريات في الداخل بانتظار توقف الغصن عن القيام بعمله التخريبي. ولكن الغصن لم يتوقف.

سقطت القبة كما يسقط برعم الورد، وعاث الغصن تخريباً داخل الممرات. وبالطبع، أطلقت الراشقات الحوامض بغزارة، ولكن الحوامض لم تؤثر مطلقاً في تلك النبتة المدمرة.

لم تعد باللاشولا كانيات قدرة على التحمل من شدة الرعب. ولكن الغصن توقف عن الدوران. لمدة درجتين زمنيتين توقف، ثم بدأت المقزومات بالهجوم.

وجدت المدينة المبقورة البطن صعوبة كبيرة في الصمود أمام الهجمة الأولى. فالخسائر تعد بعشرات الألوف. النمال التي نجت من المعمعة التجأت آخر الأمر إلى جذع السروة وصمدت أمام الحصار، غير أنها لا تستطيع الصمود طويلاً لأنها تقاتل في مكان ليس فيه أي احتياطي غذائي ولأن المعارك قد وصلت إلى قلب الشرايين الخشبية في المدينة المحظورة.

لا ـ شولا ـ كان تشكل جزءاً من الفيدرالية. بيل ـ او ـ كان وسائر المدن المتحدرة منها يجب أن تمد لها يد المساعدة. إعلان التأهب للقتال صدر حتى قبل أن تلتقط القرون آخر أخبار الروايات الأولى لمسلسل الفاجعة. انتهى الكلام عن الأمن والإعمار، فحرب الربيع الأولى قد نشبت.

الذكر رقم 327 والأنثى رقم 56 والمحاربة رقم 103683 يصعدون من طابق إلى طابق بأقصى سرعة ممكنة. جميع الأمكنة من حولهم تعج بالحركة.

الحاضنات ينزلن البيوض واليرقات والحوراوات إلى الطابق الثالث والأربعين تحت سطح الأرض. المزارعات يهيئن مؤناً من الأغذية المطحونة التي يمكن تقديمها كوجبات جاهزة أثناء المعارك. في القاعات المخصصة للفئات المحاربة صفوف من الراشقات يترعن بطونهن بحامض الفورميك. المحاربات القاطعات يشحذن ملاقطهن. المرتزقة يتجمعون في صفوف متراصة. النمال ذوات الجنس تتحصن داخل الأجنحة المخصصة لها.

ليس الهجوم ممكناً في الوقت الحاضر لأن الطقس بارد أكثر مما يجب. لكن الحرب ستستعر في صبيحة الغد، مع بزوغ الشمس.

في الأعلى، هناك فوق القبة، تقوم العاملات بإغلاق الثقوب الخاصة بضبط الحرارة. مدينة بيل ـ او ـ كان تدخر سمومها، تغمد مخالبها وتَضْرِفُ بأنيابها. إنها جاهزة للانقضاض.

أكثر الشرطيين بدانة وسمنة يلف بذراعه كتفي الصبي.

ـ إذن أنت واثق تماماً من أنهما هنا، في الداخل؟

الصبي المنهك يتملص مبتعداً دون أن يعير جواباً؛ أما المفتش غالين فينحني فوق مدخل السلم و، بأعلى صوته، يطلق نداءاً قوياً وسخيفاً. يجيبه الصدى، فيقول:

ـ يبدو أن المكان عميق جداً. لا يمكننا النزول هكذا، لا بد لنا من لوازم.

أما المفوض بيلشايم، فيضع إصبعه الضخم على فمه متفكراً مهموماً.

ـ بالتأكيد، بالتأكيد.

ـ سأذهب لاستدعاء رجال المطافئ، يقول المفتش غالين.

ـ حسناً، أنا سأقوم، خلال ذلك، باستجواب الصبي.

يشير المفوض إلى القفل المكسور.

ـ أأمك هي التي فعلت هذا؟

ـ أجل.

ـ إنها حاذقة إذن. لا أعرف كثيراً من النساء اللواتي يمكنهن استخدام انبوب قاذف للهيب لخلع باب حديدي مصفح... ولا أعرف امرأة واحدة يمكنها فتح انبوب المغسلة لتنظيفه.

لم يكن نيكولا في حالة تساعده على المزاح.

ـ كانت تريد النزول للبحث عن أبي.

ـ هذا صحيح، اعذرني... وكم مضى عليهما من الوقت هناك؟

ـ يومان.

ـ بيلشايم يحك أرنبة أنفه.

ـ ولماذا نزل أبوك؟ أتعرف لماذا؟

ـ نزل في البداية لإعادة الكلب. لا نعرف لماذا نزل بعد ذلك. اشترى كميات من الصفائح المعدنية وأنزلها معه. وبعد ذلك، اشترى كتباً كثيرة تتحدث عن النمل.

ـ النمل؟ طبعاً، طبعاً.

تبدو على وجه المفوض بيلشايم أمارات حيرة عابرة، ولكنه يكتفي بهز رأسه وهو يتمتم مردداً «طبعاً، طبعاً». فالمسألة سيئة منذ البداية، وهو لا يدرك شيئاً منها بأحاسيسه. إنها ليست المرة الأولى التي يجد نفسه فيها غاطساً في قضايا «شديدة الخصوصية». بل يمكن القول بأنهم كانوا يخصونه، على الدوام، بجميع المشاكل العفنة. وكل ذلك يعود، بلا شك، إلى واحدة من مزاياه الرئيسية: فقد كان يعطي الإنطباع للمجانين بأنهم قد ودجوا في شخصه أذناً متفهمة طالما أعياهم البحث عنها.

كانت تلك موهبته منذ ولادته. عندما كان لا يزال صغيراً، كان زملاؤه في المدرسة يأتون لكي يفضوا إليه بهذياناتهم. كان يهز رأسه بتعاظم وهو يثبت بصره في وجه محدثه دون أن يتفوه بغير كلمة واحدة: «طبعاً». وكان ينجح في ذلك على الدوام. الناس يعقدون حياتهم وهم يحاولون تركيب جمل مصطنعة ومجاملات هدفها إغراء الآخرين أو إثارة دهشتهم. ولكن بيلشايم كان قد لاحظ أن كلمة «طبعاً»، على ما فيها من بساطة، كانت أكثر من كافية. سر آخر من أسرار التواصل بين البشر كشفه بيلشايم!

ومما كان يزيد في غرابة الظاهرة أن بيلشايم، ذلك الفتى الذي كان دائم الصمت عملياً، قد اشتهر، في مدرسته، بأنه خطيب كبير. كانوا يصلون إلى حد الطلب إليه بأن يلقي خطابات آخر السنة.

وكان بإمكان بيلشايم أن يصبح طبيباً نفسياً، ولكن البذة العسكرية كانت تحدث فيه تأثيراً سحرياً. لذا، فإن ثوب المل الأبيض الذي يرتديه الأطباء لم يكن ذا قيمة في نظره. في عالم المجانين هذا، كان رجال الشرطة والجيش، على وجه العموم، هم القدوة المثلى بالنسبة لأولئك «الذين لا يستسلمون للتيار». كان بيلشايم يحتقر أولئك الذين يتحدثون كيفما اتفق، وإن كان يتفهم الأسباب التي تدفعهم إلى ذلك. أناس بلا أدمغة! أما الإنزعاج الأكبر، فقد كان يعيشه عند سماع أولئك الذين يتحدثون بأعلى أصواتهم في عربات أنفاق القطار (المترو) وهم يعيدون تمثيل الاخفاقات التي يمنون بها في حياتهم اليومية.

وعندما انخرط بيلشايم في صفوف الشرطة، لم يلبث رؤساؤه أن اكتشفوا مواهبه مما حدا بهم ألى تكليفه، على الدوام، بملاحقة جميع الحالات «غير المفهومة». ولم يكن، في الأغلب، يتوصل إلى إيجاد حل لأية مشكلة، ولكنه كان يهتم بالمشكلة في جميع الحالات. وعلى أي حال، كان ذلك أكثر من المطلوب.

ـ آه، وهنالك أيضاً عيدان الثقاب!

ـ وما لها، عيدان الثقاب؟

ـ يجب تشكيل أربعة مثلثات بستة عيدان ثقاب، إذا كنا نريد التوصل إلى إيجاد الحل.

ـ أي حل؟

ـ «الطريقة الجديدة في التفكير». «المنطق» الآخر الذي كان أبي يتكلم عنه.

ـ طبعاً.

ـ ولكن الصبي ثارت ثائرته هذه المرة:

ـ لا، ليس «طبعاً»! يجب البحث عن الشكل الهندسي الذي يمكن تشكيل المثلثات الأربعة من خلاله. فالنمل والخال ادمون وعيدان الثقاب، كل ذلك مترابط.

ـ الخال ادمون؟ من هو ذلك الخال ادمون؟

نيكولا يتحمس.

ـ هو الذي ألف **موسوعة العلم النسبي والمطلق**. لكنه مات. ربما بسبب الجرذان. الجرذان هي التي قتلت اورزازات.

المفوض بيلشايم يتنهد. شيء لا يصدق! ماذا سيكون من أمر هذا الغلام عندما يبلغ سن الرشد؟ مدمن على الكحول، على أقل تقدير.

وأخيراً عاد المفتش غالين بصحبة رجال الإطفاء. نظر إليه بيلشايم باعتزاز. إنه شخص متميز، هذا الـ «غالين». إنه أيضاً شخص منحرف. قصص المجانين تثير شهواته. كلما كانت المشكلة منحرفة، كلما ازداد تلذذاً بالتدي لِحلها.

بيلشايم المتفهم وغالين المتحمس يشكلان وحدهما السرية شبه الرسمية «لقضايا ـ المجانين ـ التي ـ لا ـ يريد ـ الاضطلاع ـ بها ـ أحد». فقد سبق وأُرسلا للتحقيق في قضية «المرأة المتقدمة

في السن التي أكلتها هررتها»، وفي قضية «المومس التي كانت تخنق زبائنها بلسانها ذلك، دون أن ننسى قضية «مُخَفِّض عدد رؤوس باعة لحوم الخنازير المقددة». قال غالين:

ـ ابقَ أنت هنا، أيها الرئيس. سننزل نحن وسنحضرهما فوق نقالات الإسعاف القابلة للنفخ.

الملكة ـ الأم في جناحها الملكي تتوقف عن وضع البيوض وترفع قرناً واحداً، مما يعني أنها تريد البقاء بمفردها. خادماتها يخرجن.

بيلو ـ كيو ـ كيوني، رحم المدينة الحي، ليست مطمئنة.

لا، ليست خائفة من الحرب. فقد سبق لها أن ربحت أو خسرت أكثر من خمسين حرباً. ما يثير قلقها هو شيء آخر. إنها قصة ذلك السلاح السري. قصة غصن الأكاسيا الذي يدور ويقتلع القبة. ثم إنها لم تنس شهادة الذكر رقم 327 وهلاك المحاربات الثماني والعشرين حتى قبل أن يأخذن مواقعهن للقتال... هل تمكن المجازفة بعدم أخذ هذه المعطيات غير العادية بعين الإعتبار؟

ليس بعد كل ما حصل.

ولكن، ما العمل؟

بيلو ـ كيلو ـ كيوني تتذكر تلك المرة التي كان عليها فيها أن تواجه «سلاحاً سرياً غير مفهوم». كان ذلك خلال الحروب التي نشبت بين بيل ـ او ـ كان ومعسكرات الأرضة الجنوبية. فقد أعلموها، ذات يوم، بأن كتيبة من مئة وعشرين محاربة قد تم العثور عليهن، لا مقتولات، بل «غير قادرات على الحركة»!

كان الذعر على أشده. ساد الإعتقاد بأن إلحاق الهزيمة بالأرضة لم يعد أمراً ممكناً، وبأن الأرضة قد حققت تفوقاً تقنياً حاسماً.

تم التعجيل بإرسال جواسيس للكشف عن الأمر وتبين أن الأرضة قد توصلت فعلاً إلى إعداد فئة سن الراشقات النافثات للغراء. فئة «النازوتوترم» (nasutitermes). كان بمقدور هاتيك الراشقات أن ينفثن صمغاً عن بعد مثني رأس من شأنه أن يمنع المحاربات من تحريك قوائمهن وملاقطهن.

فكرت الفيدرالية طويلاً قبل تأمين وسيلة وقائية قوامها التقدم والتترس بأوراق نباتات ميتة. وهكذا نشبت المعركة الشهيرة التي عرفت باسم معركة الأوراق الميتة التي انتصرت فيها الجيوش البيلوكانية...

غير أن العدو هذه المرة ليس حشرات الأرضة البليدة. إنه المقزومات اللواتي سبق لهن وتفوقن أكثر من مرة، على الصهباوات بفضل حيويتهن وذكائهن. ثم إن السلاح السري ذا قدرة تدميرية عالية، على ما يبدو.

تعرك قرنيها بعصبية

ماذا تعرف عن المقزومات، على وجه الدقة؟

تعرف الكثير والقليل.

ألقت المقزومات رحالها في المنطقة قبل مائة عام. في البداية، وصل عدد قليل من المستكشفات. لم يعبأ بهن أحد بسبب ضآلة أجسامهن. بعد ذلك، وصلت قافلة المقزومات. كن يحملن بيوضهن ومؤنهن على أطراف قوائمهن. قضين ليلتهن الأولى تحت جذع شجرة السرو الكبيرة.

في صبيحة اليوم التالي، كان نصف عددهن قد اختفى في بطن قنفذ جائع. إبتعدت الناجيات نحو الشمال حيث أقمن مخيماً في العراء، غير بعيد عن النمال السوداوات.

يومها، قالت نمال الفيدرالية: «هذه قضية بينهن وبين النمال السوداوات». ومنهن من بلغ من التعاطف معهن حد الإحساس بالذنب لترك هذه الكائنات العجفاء طعمة للنمال السوداء الضخمة.

لكن النمال المقزومة لم تتعرض للإبادة. كانت الفيدراليات ينظرن إليهن يومياً وهن ينقلن العشيبات وصغار مضمدات الأجنحة. أما اللواتي

اختفين عن الأنظار فكن. . . النمال السوداء الضخمة.

لم يعرف أحد حقيقة ما جرى. لكن المستكشفات البيلوكانيات روين أن المقزومات وضعن قوائمهن على كامل عش السوداوات. ونُظر إلى الحدث بتسليم جبري، بل حتى بالكثير من روح الدعابة، إذ انطلقت في ممرات الفيدرالية روائح تقول: **حسن ما جرى للسوداوات المتغطرسات**. وعلى كل حال، كان الاعتقاد سائداً بأن هذه النمال العديمة الأهمية هي آخرمن يمكنه أن يثير مخاوف الفيدرالية الجبارة.

ولكن سقوط السوداوات أعقبه سقوط أحد قفران النحل الكائنة. فوق شجرة النِسرين في قبضة المقزومات. . . وبعدهما، لم تلبث راية المقزومات أن رفرفت فوق آخر معاقل الأرضة في الشمال ثم فوق عش النمال الحمراء السامة!

وروى اللاجئون الذين تقاطروا إلى بيل ـ او ـ كان للانخراط في صفوف المرتزقة أن المقزومات يستخدمن استراتيجيات قتالية طليعية. فعلى سبيل المثال كن يفسدن ينابيع المياه بسموم يستخرجنها من أزهار نادرة.

ومع كل ذلك، لم تأخذ الفيدرالية أهبتها بشكل جدي. ولم تنتبه الفيدرالية إلى ما يشكله الخصوم من خطر حقيقي إلا بعد سقوط مدينة نيزيو ـ ني ـ كان العام الماضي في الدرجة الزمنية الثانية.

وإذا كانت الصهباوات قد استخففن بالمقزومات، فإن المقزومات لم يقدرن الصهباوات حق قدرهن. فنيزيو ـ ني ـ كان كانت مدينة صغيرة جداً، ولكنها كانت على ارتباط بالفيدرالية كلها. لذا استفاقت المقزومات، صبيحة اليوم الذي تلا انتصارهن، على ضجيج مئتين وأربعين فيلقاً في كل منها الف ومئتا محاربة صهباء. وكانت نتيجة المعركة مؤكدة لصالح الصهباوات، ولكن ذلك لم يمنع المقزومات من أن يقاتلن بضراوة مما اضطر جيوش الفيدرالية إلى القتال طيلة يوم كامل قبل الدخول إلى المدينة المحررة.

واكتشفت الصهباوات يومئذ أن المقزومات لم ينصبن في نيزيو ـ ني ـ كان ملكة واحدة بل. . . مائتي ملكة. وشكل ذلك صدمة كبيرة.

جيش هجومي: النمال هي الحشرات الاجتماعية الوحيدة التي تقيم جيشاً هجومياً.

أما الأرضة والنحل، وهي حشرات ملكية مخلصة وأقل رهافة ودقة من النمال، لا تجند الجنود إلا لأغراض الدفاع عن المدينة أو لحماية العاملات اللواتي يبتعدن عن العش. وإنه لمن النادر نسبياً أن نجد معسكراً من معسكرات الأرضة أو قفيراً من قفران النحل يجرد حملة للغزو الخارجي. ولكن مثل ذلك يحدث في بعض الأحيان.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

ملكات المقزومات اللواتي وقعن في الأسر يتحدثن عن تاريخ المقزومات وعاداتهن.

يقلن بأن المقزومات كن يعشن، قديماً، في بلد آخر يقع على بعد عدة مليارات من الرؤوس.

ذلك البلد كان مختلفاً تماماً عن الغابة التي تقوم فيها مدى الفيدرالية. تنمو فيه ثمار كبيرة الأحجام، متنوعة الألوان، شديد الحلاوة. وفوق ذلك، لم يكن فيه شتاء ولا حذر شتائي. وقد بنت المقزومات(في ذلك البلد السعيد، مدينة شي ـ غاي ـ بو الـ «قديمة»؛ وكانت المدينة نفسها متحدرة من سلالة ضاربة في القِدم. وكان ذلك العش قد أقيم في أصل شجرة غار وردي (Laurier -rose).

وحدث، في أحد الأيام، أن شجرة الغار الوردي اقتلعت من أصلها، مع الرمل المحيط بجذورها، ووضعت في صندوق خشبي. حاولت المقزومات أن يخرجن من الصندوق الذي كان قد وضع فوق ظهر بناء

ضخم وشديد الصلابة. وعندما بلغن أطراف ذلك البناء، وقعن في الماء. ماء مالح على امتداد النظر.

مقزومات كثيرات لاقين حتفهن غرقاً وهن يحاولن العودة إلى أرض الأجداد. ثم قررت الأكثرية الاستسلام للواقع ومواصلة العيش فوق ذلك البناء الواسع الذي تكتنفه المياه المالحة. وهكذا، بقين في ذلك البناء لفترة طويلة.

وقد لاحظن، بفضل عضو جونستون، بأن البناء يتحرك بسرعة كبيرة وبأنه اجتاز بهن مسافات هائلة.

اجتزنا أكثر من مئة حاجز مغناطيسي أرضي. أين يذهب بنا هذا البناء؟ إلى هذا المكان. وأنزلونا هنا مع شجرة الغار الوردي فاكتشفنا هذا العالم بحيواناته ونباتاته الغريبة.

خيبة أملهن كانت مريرة في البلد الجديد. فالثمار والأزهار والحشرات كانت صغيرة وباهتة الألوان. البلد الذي كن فيه من قبل كان أحمر وأصفر وأزرق فوقعن على بلد ليس فيه غير الأخضر والأسود والكستنائي. من عالم ذي ألوان مشعشعة، إلى عالم ذي ألوان غامقة.

ناهيكم عن الشتاء والبرد اللذين يجمدان كل شيء. هناك لم يكنَّ يعرفن مجرد وجود البرد. كانت الحرارة هي الشيء الوحيد الذي يجبرهن على الخلود إلى الراحة!

في البداية، وجدت المقزومات عدة وسائل لمقاومة البرد. وتبين لهن أن ملأ بطونهن بالسكر وطلي أجسامهن ببصاق البزاق هما الطريقتان الأكثر نجاعة في هذا المجال.

أما السكر فقد وجدنه على شكل فريكتوز في ثمار الفراولة والتوت والكرز. أما الدهون، فقد حصلن عليها من خلال حرب الإبادة الشاملة ضد البزاق في المنطقة.

أما عاداتهن، فقد كانت مدهشة حقاً. لم يكن فيهن ذوات جنس

مجنحات، ولم يكنَّ يعرفن طيران الزفاف. فالإناث يمارسن الحب ويضعن البيوض في بيوتهن تحت الأرض. من هنا، لم تكن في كل مدينة من مدنهن بيَّاضة وحيدة، بل عدة مئات من البيَّاضات. وكان ذلك يؤمن لهن تفوقاً جدياً: فبالإضافة إلى معدل الولادات الذي يفوق ما عليه الحال عند الصهباوات إلى حد بعيد، كانت المقزومات أقل تعرضاً للعطب بكثير. إذ يكفي أن تُقتل الملكة لتموت مدينة الصهباوات بكاملها. أما مدينة المقزومات، فكان بإمكانها أن تتجدد حتى ولو لم تبق فيها غير أنثى واحدة.

ولم يكن الأمر مقتصراً على هذا وحسب لأن للمقزومات فلسفتهن الخاصة بالغزو والفتوحات. ففي حين تهبط الصهباوات، بعد طيران الزفاف، على أبعد مسافة ممكنة من المدينة الأم لتقيم، بعد ذلك، طرق مواصلات تربطها بمدن الإمبراطورية المتناثرة، فإن المقزومات يتقدمن خطوة خطوة انطلاقاً من مدينتهن المركزية.

وحتى ضآلة قاماتهن شكلت، بالنسبة لهن، عنصراً من عناصر التفوق. إذ لا يلزمهن غير كمية قليلة جداً من الحريرات لبلوغ المستوى الكافي من الحيوية الذهنية والنشاط الحركي. وقد أمكن قياس قدرتهن على الرد السريع عند هطول الأمطار الغزيرة. ففي حين كانت الصهباوات لا يزلن منشغلات، بعسر شديد، بإخراج ما يمتلكنه من قطعان البرغثان، وآخر ما وضعته الملكة من بيوض، عبر الممرات المغمورة بالمياه، كانت المقزومات قد فرغن، قبل ساعات، من بناء عُشّ في أحد تجاويف قشرة شجرة السرو الكبيرة، ومن نقل كافة كنوزهن إلى ذلك العش. . .

بيلو ـ كيلو ـ كيوني تنتفض كما ولو أنها تريد طرد هذه الأفكار المقلقة. تبيض بيضتين. بيضتان ستخرج منهما محاربتان. ليست الحاضنات حاضرات للاهتمام بهما. وهي جائعة. تزدردهما بشراهة. بروتينات من مستوى ممتاز.

تداعب نبتتها الآكلة للحوم. مخاوفها تطغى على اهتماماتها الأخرى.

الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذا السلاح السري هي في اختراع سلاح آخر يكون أكثر فاعلية وفتكاً. فقد سبق للنمال الصهباوات أن اكتشفن تباعاً حامض الفورميك، ثم الدروع المتخذة من أوراق النباتات، ثم مصايد الغراء. يكفي الآن إيجاد شيء آخر. شيء يثير الرعب في قلوب المقزومات ويكون أكثر قدرة على التدمير من غضن الآكاسيا!

تخرج من جناحها. تلتقي ببعض المحاربات وتحادثهن. تشير عليهن بتشكيل مجموعات للتداول حول موضوع «إيجاد سلاح سري لمواجهة سلاحهن السري». القطيع يستجيب للرغبة الملكية وتتشكل في كل مكان مجموعات من المحاربات والعاملات. مجموعات من ثلاث أو خمس نمال. مئات الإتصالات المطلقة تم إجراؤها بين المجموعات التي عقدت قرونها على أشكال مثلثات أو مخمسات.

ـ انتبهوا، سأتوقف عن المسير! قالها غالين لعدم رغبته في أن يدفعه رجال الأطفاء الثمانية السائرون خلفه في الظلمة.

ـ كم الظلام شديد في هذا المكان! ناولوني مصباحاً أقوى من هذا. استدار إلى الخلف ومدوا إليه مصباحاً يدوياً كبيراً. لا تبدو على رجال الأطفاء علائم الاطمئنان، مع أنهم كانوا يرتدون سترهم الجلدية وخوذاتهم. لِمَ لَمْ يفطن إلى ارتداء شيء أكثر انسجاماً مع هذا النوع من المهمات من سترته التي يرتديها عند الخروج إلى المدينة! كانوا ينزلون بحذر. المفتش، عينُ المجموعة وطليعتها، كان يحرص على إضاءة كل زاوية قبل كل خطة يخطوها. تقدم بطيء ولكنه تقدم محفوف بالثقة.

مرت أشعة المصباح فوق كتابات محفورة على باطن القنطرة.

افحص نفسك بنفسك جيداً،
فإذا لم تكن قد تطهرت بمنتهى الدقة،
فإن الأعراس الكيميائية ستلحق بك الأذى.
الويل لكل من يتباطأ هناك.
ليمتنع عن الدخول كل من كان طائشاً.

الفن الأكبر

ـ هل رأيتم هذه الكتابة؟ سأل أحد رجال الإطفاء.

ـ إنها كتابة قديمة. هذا كل ما في الأمر...، قال المفتش غالين مهدئاً وملطفاً.

ـ تبدو ككتابات السحرة.

ـ على كل حال، هذا يبدو عميقاً جداً.

ـ معنى الجملة؟

ـ لا. السلم. يبدو أن هنالك كيلومترات من الدركات النازلة نحو الأسفل.

ثم واصلوا النزول. لا بد أنهم كانوا على عمق مئة وخمسين متراً تحت سطح المدينة. والسلم لا يزال يدور ويدور بشكل حلزوني كسلاسل الـ آ.د.ن (A.D.N)(*). كانوا على وشك الغثيان. نحو الأعماق، مزيداً من النزول نحو الأعماق.

(*) جزئيات من الحوامض على شكل سلاسل في نواة الخلية الحية، وهذه الجزئيات هي حوامل للخصائص التكوينية الأساسية.

ـ يمكن لهذا أن يستمر إلى ما لا نهاية. نحن لسنا معدّين للعمل في استكشاف الأغوار الباطنية. قال أحد رجال الأطفاء مغمغماً.

ـ أنا كنت أظن أن علينا أن نخرج أحدهم من قبو ليس إلا. زوجتي كانت تنتظرني الساعة الثامنة لتناول العشاء. لا بد أنها سعيدة الآن لأن الساعة قد تجاوزت العاشرة! قال الإطفائي الذي كان يحمل النقالة القابلة للنفخ.

غالين ينصرف نحو إحكام قبضته على عناصر المجموعة التي يقودها.

ـ اسمعوا يا شباب. نحن الآن أقرب إلى القرار منا إلى السطح. عليكم أيضاً أن تبذلوا بعض الجهد. أنتراجع ونحن في منتصف الطريق؟ ولكنهم، في الحقيقة، لم يكونوا قد قطعوا حتى عشر الطريق.

بعد عدة ساعات من ممارسة الإتصالات المطلقة، في جو تقترب فيه الحراراة من 15 درجة، توصلت مجموعة من المرتزقات الصفراوات إلى استخلاص فكرة لم تلبث جميع المراكز العصبية الأخرى أن اعتبرتها الفكرة المثلى.

الحقيقة أن بيل ـ او ـ كان تمتلك عدداً من المحاربات المرتزقات المنتميات إلى فصيلة ذات وضع خاص. فصيلة «طاحنات الحبوب». وهن يتميزن برؤوسهن الضخمة وبملاقطهن الطويلة القاطعة التي تمكنهن من طحن الحبوب حتى ولو كانت بالغة القسوة. ولكنهن لا ينفعن في المعارك بسبب قوائمهن البالغة القِصر تحت أجسامهن البالغة الثقل.

فما هي الفائدة إذن من مشيهن، بمنتهى العسر، إلى مكان المعركة إذا كن لا يلحقن بالعدو كبير نكاية؟ لذا، فقد انتهت الصهباوات إلى صرفهن نحو القيام بمهام منزلية كتقطيع الأعشاب الكبيرة مثلاً.

ولكن الصفراوات يقلن الآن بأن هنالك وسيلة لتحويل هذه الكتل الغليظة الثقيلة إلى صواعق حربية. يكفي لذلك أن يُحملن على ظهور ست عاملات صغيرات رشيقات!

وبهذا، يصبح بإمكان طاحنات الحبوب أن يوجهن «قوائمهن الحية»، عن طريق الروائح، وأن ينقضنّ بسرعة خاطفة على الأعداء، وتقطيعهم إرباً بملاقطهن الطويلة.

بعض المحاربات يقمن بإجراء التجارب في قاعة الاستحمام الشمسي بعد أن ملأن بطونهن بالسكر. ست نملات يحملن طاحنة حبوب ويركضن في محاولة لضبط حركة قوائمهن بالطريقة المناسبة. يبدو أن الأمر ممكن إلى أبعد الحدود.

وهكذا ظهر سلاح الدبابات في بيل ـ او ـ كان.

لم يصعدوا من القبو.

وفي اليوم التالي، كانت عناوين الصفحات الأولى في الصحف على الشكل التالي: «فونتينبلو ـ ثمانية إطفائيين ومفتش شرطة يختفون بشكل غامض في قبو».

الفجر يرسل أشعته البنفسجية والمقزومات اللواتي يحاصرن المدينة المحظورة في قلب لا ـ شولا ـ كان يتهيأن للهجوم. الصهباوات اللواتي ضاق عليهن الخناق داخل الجذع يتضورن جوعاً وقد بلغ بهن الإنهاك كل مبلغ. لن يكون بإمكانهن أن يصمدن طويلاً.

حمي وطيس المعارك. المقزومات يستولين على تقاطعي طرق

إضافيين بعد تبادل طويل لنيران الأسلحة الراشقة للحوامض. الخشب المنخور بفعل القصف يقيء جثث المحاربات المحاضرات.

الصهبوات الأخيرات اللواتي ما زلن على قيد الحياة لم تعد بهن أية قدرة على المقاومة والمقزومات ينقذن إلى داخل المدينة. القناصات المتمركزات في شقوق السقوف لا يكدن يُعِقْنَ تقدمهن.

المقزومات أصبحن على مقربة من الجناح الملكي. الملكة لا شو ـ لا ـ كيوني تبدأ بإبطاء ضربات قلبها. لقد انتهى كل شيء.

لكن طلائع المقزومات تلتقط فجأة رائحة إنذار. شيء ما يجري في الخارج. المقزومات يعدن على أعقابهن.

آلاف النقاط السود تبدو بوضوح بين الأزهار الحمراء. هناك، في أعلى تلة الأقحوان المشرفة على المدينة.

إنهن الصهباوات. عقدن العزم أخيراً على الهجوم. تعساً لهن إذن. المقزومات يوجهن رسلاً من الذباب العامل في خدمتهن لإعلام المدينة المركزية.

جميع الذبذبات يحملن الفيرومون نفسه:

الصهباوات يهاجمن. يجب إرسال تعزيزات من الشرق لأخذهن بين فكي الكماشة. يجب تجهيز السلاح السري.

حرارة الشروق المتسربة عبر غيمة عجلت باتخاذ قرار الإنتقال إلى الهجوم. إنها الثامنة وثلاث دقائق. الفيالق البيلوكانية تنحدر نحو السفح كالإعصار. تتلافى الأعشاب. تتقافز فوق الحصى. ملايين المحاربات يحثثْنَ الخطى مسرعات مشرعات الملاقط. مشهد رهيب حقاً.

لكن المقزومات لا يعرفن الخوف. كن يتوقعن هذا الخيار التكتيكي فحفرن في العشية ثقوباً متباعدة وموزعة على أشكال خماسية ثم اختبأن فيها مبديات قرونهن ومتخذات من الرمل دروعاً لأجسامهن.

خط الدفاع هذا مكن المقزومات من تدمير هجوم الصهباوات فور

إنطلاقه. الفيدراليات وجهن ضرباتهن في الفراغ وهن يقاتلن عدواً لا يبصرن منه غير نقاط قوته. لم تكن لديهن أية وسيلة لبتر القوائم وبقر البطون.

وفي هذه اللحظات بالذات، تحركت مشاة شي ـ غاي ـ بو التي كانت متمركزة، غير بعيد، تحت مظلة فطر كبير، لتشن هجومها المعاكس ولتضع الصهباوات بين فكي كماشة.

صحيح أن الصهباوات بالملايين. ولكن المقزومات بعشرات الملايين. خمس محاربات مقزومات على الأقل مقابل كل محاربة صهباء، عدا المحاربات القابعات في الحفر الفردية واللواتي كن يبترن كل ما يمر في مرمى ملاقطهن.

وهكذا دارت الدوائر سريعاً على الأقل عدداً، وانهارت صفوف الفيدراليات بعد أن اخترقتها المقزومات اللاتي طلعن من كل مكان.

إنها الساعة التاسعة وست وثلاثون دقيقة والصهباوات يقاتلن القهقرى في حين بدأت المقزومات بإطلاق روائح النصر. لقد نجحت حيلتهن ولم تكن بهن حاجة لاستخدام السلاح السري! ثم طاردن الجيش المهزوم وصار حصارهن لمدينة لا ـ شولا ـ كان بحكم القضية المحسومة.

ولكن النملة المقزومة تخطو عشر خطوات بقوائمها الصغيرة حيث لا تحتاج الصهباء لغير قفزة واحدة. لذا تقطعت أنفاس المقزومات وهن يصعدن تلة الأقحوان، وكان ذلك متوقعاً من قبل استراتيجيي الفيدرالية، لأن الهجمة الأولى لم تكن تهدف إلا لإخراج المقزومات من المنخَفَض وإجبارهن على القتال في المنحدر.

بلغت الصهباوات قمة التلة وفيالق المقزومات لا تزال تتعقبهن على غر انتظام. غابة من الشوك تنتصب هناك في أعل القمة. إنها الملاقط العملاقة التي تشهرها طاحنات الحبوب. يرفعن ملاقطهن، يجعلنها تبرق في أشعة الشمس، ثم يخفضنها لتصبح بموازاة الأرض ويهجمن على المقزومات. طاحنات الحبوب، طاحنات المقزومات!

عنصر المباغتة لعب دوره كاملاً. دب الذعر في صفوف الشيغايبونيات وتصلبت قرونهن من الهلع فقضمتهن الطاحنات كما يقضمن العشب، بعد أن صدعن صفوفهن واخترقنها في طرفة عين مستفيدات. في ذلك، من قوة اندفاعهن في المنحدر. تحت كل واحدة منهن ست عاملات يتحركن بانشراح، وهن يقمن بدورهن كزناجير لتلك الآلات الحربية. فبفضل الإتصالات بالقرون ـ إتصالات تامة التزامن بين البرج والعجلات ـ كان الحيوان الضخم يتحرك، بمنتهى اليسر، داخل كتلة الأعداء بقوائمه الست والثلاثين وبملقطيه العملاقين.

لم يكن بإمكان المقزومات أن يفعلن شيئاً غير رؤية هذه الأشكال الضخمة التي تسقط عليهن بالمئات فتدك صفوفهن وتطحنهن وتسحقهن. الملاقط العملاقة تنغرز في الكومة فتقضم ثم تعود فترتفع محملة بالقوائم والرؤوس المدماة والمهشمة كالعصف المأكول.

رعب شامل. المقزومات المذعورات يتصادمن ويدوس بعضهن بعضاً، وبعضهن يتقاتلن.

الدبابات البيلوكانية تجاوزت، لشدة اندفاعها، صفوف المقزومات، وهي تقوم بعملية «التمشيط» تلك. تتوقف وتباشر الصعود فوق التلة. صفاً مرصوصاً، لتقوم بعملية تطريق ثانية. المقزومات اللواتي بقين على قيد الحياة يحاولن الإمساك بزمام المبادرة، لكن صفاً جديداً من الدبابات يرتسم، هناك، في أعلى التلة... ثم ينطلق منحدراً!

ويلتقي الصفان. متوازيان. وأمام كل دبابة تتراكم الجثث. إنها المجزرة.

اللاشولاكانيات اللواتي يراقبن المعركة من بعيد يخرجن ليشددن من أزر أخواتهن البيلوكانيات. ذهول البداية يخلي المجال للحماس، فيطلقن فيرومونات الفرح. إنه انتصار التقنية والذكاء! لم يسبق لعبقرية الفيدرالية أن تجلت مطلقاً بمثل هذا الوضوح.

لكن شي ـ غاي ـ بو لم تكن قد لعبت كل أوراقها. لم تستعمل بعد

سلاحها السري. ذلك السلاح كان قد صمم أساساً لإجبار العدو المحاصَر على الخروج من مواقعه. غير أن سوء المنقلب في المعركة جعلهن يتسخدمن سلاحهن في الظرف الجديد.

السلاح السري هو عبارة عن جماجم. جماجم نمال صهباء مرفوعة فوق أغصان نباتات سوداء.

قبل أيام، كانت المقزومات قد عثرن على جثة مستكشفة فيدرالية كان جسمها قد انفجر تحت تأثير فطر طفيلي هو **الألترناريا** *(Alternaria)*. الباحثات المقزومات قمن بتحليل الظاهرة ولاحظن أن ذلك الفطر الطفيلي تتطاير منه غبيريات خفيفة. تلك الغبيريات تلتصق بالدرع فتنهشه وتنتهي بالنفاذ إلى جسم الحشرة ثم تتكاثر حتى ينفجر الجسم من تكاثرها.

يا له من سلاح!

ويا للنجاعة المضمونة في استعماله. لأن الغبيريات تلتصق بدروع الصهباوات ولا تؤثر مطلقاً في المقزومات. لسبب بسيط هو أن المقزومات قد اعتدن تقوية أجسامهن عن طريق تضميخها بلعاب البزاق! ولعاب البزاق يحمي من **الألترناريا**.

قد يكون من الصحيح أن البيلوكانيات اخترعن الدبابة، ولكن الشيغايبونيات اكتشفن الحرب الجرثومية.

فيلق من المشاة يبرز في الميدان. مقزومات يرفعن ثلاثمئة من جماجم صهباوات سبق وقُتلن وجمعت جماجمهن بعد معركة لا ـ شولا ـ كان الأولى.

المقزومات يرمين الجماجم وسط جموع العدو. طاحنات الحبوب وهاملاتهن يعطسن تحت سحابة الغبار القاتل. يلاحظن أن أجسامهن قد غشيها ذلك الغبار فيجن جنونهن وتلقي الحاملات ما يحملن وتصبح الطاحنات كالكسيحات فيستولي عليهن الذعر ويضربن بعضهن البعض بكل عنف ويذهبن في الهزيمة كل مذهب.

نسمة هواء بارد تهب حوالي الساعة العاشرة فتفصل بين الجيشين المتحاربين، فالنمال لا تستطيع القتال في تيارات الهواء القارس. تستفيد جموع المقزومات من الفرصة فتباشر الإنسحاب وتصعد دبابات المقزومات نحو قمة التلة بكل عناء.

يجري في المعسكرين تعداد الجرحى وتقدير مدى الخسائر. الحصيلة الأولية تشير إلى وقوع خسائر فادحة. كل فريق يود لو يغير مصير المعركة لصالحه.

البيلوكانيات عرفن أن ما أصابهن كان بسبب غبيريات **الألترناريا**. يقررن الإجهاز على جميع المحاربات اللواتي أصبن بغبار الفطر ليجنبنهن ما سيحل بهن من أوجاع.

جاسوسات يصلن بأنباء عاجلة: هنالك وسيلة لإتقاء هذا السلام الجرثومي، يجب الإطلاء بلعاب البزاق. ما أن علمت البيلوكانيات بذلك حتى شرعن بالعمل فقتلن ثلاثاً من هذه الرخويات (التي تتزايد صعوبة العثور عليها يوماً بعد يوم) واطلين اتقاءً للوباء.

إتصالات بالقرون والخبيرات الصهباوات بالاستراتيجيا يقطعن بأن الهجوم بالدبابات وحدها لم يعد ممكناً. يضعن خطة جديدة: الدبابات في القلب؛ مئة وعشرون فيلقاً من المشاة المحليات وستون فيلقاً من المشاة الأجنبيات في الجناحين.

وبهذا، عادت الثقة إلى نفوس البيلوكانيات.

نمال الأرجنتين: وصلت نمال الأرجنتين (ايريدوميرميكس هوميليس) إلى فرنسا عام 1920. وقد نقلن، على ما يبدو، داخل أحواض أشجار الغار الوردي التي تم استجلابها لتجميل طرقات الشاطئ اللازوردي!

اكتشفت هذه النمال للمرة الأولى عام 1866 في بيونس آيرس

(من هنا سميت بهذا الاسم). وفي العام 1891، عثر عليها في نيو اورليانز بالولايات المتحدة.

وقد انتقلت هذه النمال داخل أقفاص الخيول الأرجنتينية المصدرة، ووصلت إلى إفريقيا الجنوبية عام 1908، ثم إلى تشيلي عام 1910، واوستراليا عام 1917، ثم إلى فرنسا عام 1920.

ولا تتميز هذه الفصيلة بضآلة الجسم التي تضعها في موقع الأقزام، بالنسبة لسائر النمال وحسب، بل أيضاً بالذكاء والعدوانية الحربية اللذين أصبحا ميزتيهما الرئيسيتين.

ولم تكد هذه النمال الأرجنتينية تستقر في جنوب فرنسا، حتى شنت الحروب على سائر الفصائل المحلية... وهزمتها!

وفي العام 1960، عبرت جبال البيرينيه ووصلت إلى برشلونة. ثم عبرت جبال الألب، عام 1967، وتدفقت حتى وصلت إلى روما. وابتداءً من السبعينات، شرعت نمال الإيريدوميرمكس بالزحف نحو الشمال. وهنالك من يعتقد بأنهن اجتزن نهر اللوار خلال صيف حار في نهاية التسعينات. هاتيك الغازيات اللواتي لا تقل استراتيجياتهن الحربية جراة عن استراتيجيات [يوليوس] قيصر ونابليون، وجدن أنفسهن وجهاً لوجه مع فصيلتين لا تقلان عنهن عناداً وخشونة: النمال الصهباء (في جنوب وشرق المنطقة الباريسية، والنمال الفرعونية (في شمال وغرب باريس).

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

لم تتمكن المقزومات من حسم معركة الأقحوان لصالحهن. شي ـ غاي ـ بو تقرر، في تمام الساعة العاشرة وثلاث عشرة دقيقة، إرسال تعزيزات إلى الجبهة. مئتان وأربعون فيلقاً من المحاربات الاحتياطيات سيلتحقن بالباقيات على الحياة بعد الجولة الأولى. يتم إعلامهن بقضية الدبابات، فتجتمع القرون، وتنعقد جلسات الاتصالات المطلقة ـ إ.م. ـ لا بد من إيجاد وسيلة لتهشيم هذه الآلات الغريبة...

في الساعة العاشرة والنصف تقريباً، تتقدم إحدى العاملات بالفكرة التالية:

طاحنات الحبوب يتحركن بواسطة النمال الست اللواتي يحملهن. يكفي أن تُقطع «قوائمهن الحية» تلك.

فكرة أخرى تشق طريقها وتنتشر في الجمع:

نقطة الضعف عند تلك الآلات هي في صعوبة دورانها السريع على أعقابها. يمكننا أن نفيد من هذه الإعاقة. ليس علينا إلا أن نكون في تشكيلات مربعة كثيفة وعندما تكر علينا الآلات نفرج لها وندعها تمر دون مقاومة. ثم نضربها من الوراء وهي في أوج اندفاعها إلى الأمام، قبل أن تتمكن من الالتفاف.

وفكرة ثالثة أيضاً:

تزامن حركات القوائم يتم عن طريق الاتصال بالقرون، كما رأينا. يكفي أن نقفز فنقطع قرون طاحنات الحبوب فيصبحن، بذلك، عاجزات عن توجيه حاملاتهن.

قبلت الأفكار كلها، وانكبت المقزومات على وضع خطة جديدة للمعركة.

الألم: هل يمكن للنمال أن تتألم؟ الجواب المسبق هو بالنفي، لأنهن لا يمتلكن جهازاً عصبياً مناسباً لهذه الحالة. وحيث لا تكون

الأعصاب، لا تكون رسائل الألم. وهذا ما يفسر قدرة قطعة مقطوعة من جسد النملة على مواصلة «الحياة» أحياناً لفترة طويلة وبالاستقلال التام عن بقية الجسد.

غياب الألم يجعلنا نستقرئ عالماً جديداً من عوالم الخيال العلمي. غياب الألم يعني غياب الخوف وربما، غياب الوعي بوجود «الذات». وقد مال دارسو النمال، خلال فترة طويلة، إلى تبني النظرية التالية: النمال لا يتألمن وهذا ما يفسر تماسك مجتمعهن. هذه النظرية تفسر كل شيء ولا تفسر شيئاً، ولكن لهذه الفكرة قيمة ايجابية أخرى: إنها تحملنا على عدم التردد في قتلهن.

أنا، من جهتي، أخاف كثيراً من مواجهة حيوان لا يخاف. ولكن هذا الفهم خاطئ تماماً. لأن النملة المقطوعة الرأس تبث رائحة خاصة. رائحة الألم. هنالك إذن، شيء ما. فالنملة لا تمتلك سيالاً عصبياً كهربائياً، ولكنها تمتلك سيالاً كيميائياً. فهي تعرف أن قطعة قد اقتطعت من جسدها وتتألم لذلك. تتألم على طريقتها، وطريقتها مختلفة بالتأكيد عن طريقتنا، ولكنها تتألم.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

نشبت المعارك مجدداً في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة والعشرين. خط طويل وكثيف من المحاربات المقزومات يصعد ببطء لشن الهجوم على تلة الاقحوان.

الدبابات تبدو للعيان بين الزهور. تنطلق إشارة الهجوم فتندفع نحو

السفح. فيالق الصهباوات ومرتزقتهن تطبق من جوانب السفح وتكون جاهزة لإكمال العمل، بعد مرور الدبابات.

لم يعد الجيشان إلا على مسافة مئة رأس... خمسين... عشرين... عشرة! لا تكاد طاحنة الحبوب الأولى تبدأ عملها حتى يحدث أمر غير متوقع، ضعف الشيغايبونيات الكثيف ينفرج فجأة ليتحول إلى عدد كبير من النقاط المتقطعة. المحاربات شكلن كتلاً مربعة.

كل دبابة رأت العدو يتبخر من أمامها ووجدت نفسها تتقدم في ممر مقفر تماماً. لا يمكن لأي منها أن تنعطف لضرب المقزومات. الملاقط تصطفق في الفراغ، والقوائم الست والثلاثون تندفع إلى الأمام ببلاهة.

رائحة حادة تنتشر في المكان:

اقطعن قوائمهن!

محاربات مقزومات ينغرزن مباشرة تحت الدبابات ويقتلن حاملاتها ثم يخرجن مسرعات قبل أن تسحقهن أجسام طاحنات الحبوب الهاويات من عليائهن.

مقزومات أخريات يلقين أنفسهن بجرأة بين صفي الحاملات، المكون كل منهما من ثلاث عاملات، ويبقرن بضربة ملقط واحدة بطن الطاحنة المكشوف. سائل يسيل من البطون المبقورة: خزانات حياة طاحنات الحبوب يهرق ماؤها فوق التراب.

مقزومات أخريات يصعدن فوق الجسم الضخم فيقطعن القرون ويقفزن نحو الأسفل دون توقف.

الدبابات تنهار الواحدة تلو الأخرى. لم يعد لطاحنات الحبوب من يحملهن. كل واحدة تجرجر نفسها كمريض مقعد ويتم الإجهاز عليهن دون أية صعوبة.

مشاهد مرعبة! جثث طاحنات حبوب مبقورة. بطون لا تزال مرفوعة، في ظل سخرية القدر، فوق قوائم حاملاتها الست اللاتي لم يعرفن ما

جرى. . . طاحنات حبوب مقطعات القرون يرين «عجلاتهن» تذهب تحتهن في اتجاهين مختلفين فينفسخن، هن أنفسهن، بين الاتجاهين. . .

هذه الكارثة أنهت أسطورة الدبابات. اكتشافات كبيرة لا تعد ولا تحصى اختفت، هكذا، من تاريخ النمال، لأنها لم تلبث أن ووجهت بمضادات لها!

فيالق الصهباوات ومرتزقتهن التي كانت تحتضن صفوف الدبابات أصبحت الآن عزلاء تماماً. تلك الفيالق التي أخذت مواقعها لالتقاط الفتات المتبقي بعد مرور الدبابات لم يعد لها من عمل غير شن الهجمات اليائسة. لكن مربعات المقزومات عادت الآن إلى الالتئام بكل سهولة، بعد النجاح السريع في تدمير طاحنات الحبوب. وفي كل مرة تقترب فيها البيلوكانيات من صف المقزومات، لا يجدن غير قوة تجذبهن وتقطع أوصالهن بآلاف الملاقط الشرهة.

لم يعد أمام الصهباوات ومرتزقتهن غير التراجع. يتجمعن فوق قمة التل وينظرن إلى المقزومات وهن يصعدن ببطء بمربعاتهن الكثيفة المتلاصقة. مشهد مثير للرعب!

محاربات صهباوات من ضخام الأجسام ينقلن الحصى ويدحرجنه من أعلى التل في محاولة لكسب الوقت. ولكن الحصى المنهار لا يعيق تقدم المقزومات. إنهن محترسات. يبتعدن عند مرور الكتل المتساقطة ويعدن إلى مواقعهن بعد مرورها. لم يُسحق منهن غير القليل.

الفيالق البيلوكانية تبحث بحيرة ووله عن مخرج من هذه الورطة. بعض المحاربات يقترحن العودة إلى تقنيات الحرب القديمة. لماذا لا يتم اعتماد أسلوب الرشق، بكل بساطة؟ صحيح أن الحوامض لم تستعمل إلا قليلاً منذ بداية الحرب، لأنها تقتل الأصحاب كما تقتل الأعداء في المعترك. ولكن الحوامض يمكنها أن تعطي نتائج ممتازة في مواجهة المربعات الكثيفة.

راشقات الحوامض يسرعن إلى أخذ مواقعهن. يرتكزن على القوائم

الأربع الخلفية ويوجهن فوهات بطونهن إلى الأمام. يمكنهن، في هذه الوضعية أن يدرن يمنة ويسرة وأن يرتفعن وينخفضن لاختيار زاوية التصويب الملائمة.

المقزومات ينظرن من الأسفل فيشاهدن ألوف الفوهات المصوبة فوق حفافي القمة. لا يرصصن صفوفهن فوراً، لكنهن يسرعن في التقدم لاجتياز السنتيمترات الأخيرة من المرتفع.

إلى الأمام! بصفوف متراصة!

أمر واحد يلعلع في المعسكر المقابل:

أرشق!

الفوهات المصوبة تصب رذاذ سمومها المحرقة فوق مربعات المقزومات. **بفوت، بفوت، بفوت**. السوائل الصفراء تصفر في الهواء وتلسع بسياطها أوائل الصفوف المهاجمة.

القرون تبدأ، قبل غيرها، بالذوبان. تتهالك مرتخية فوق الجماجم. ثم يسيل السم فوق الدروع فتسيخ وتتحول إلى ما يشبه اللدائن.

الأجسام المعذبة تنوء وترتخي فتشكل حواجز تتعثر بها المقزومات. لكن المقزومات يتمالكن أنفسهن وكالمسعورات، ينقضنَّ دفعة واحدة على قمة التل.

هناك، فوق القمة، صف جديد من الراشقات الصهباوات يحل محل الصف الأول.

ارشق!

المربعات تتفكك، ولكن المقزومات يواصلن التقدم فوق الجثث الرخوة.

صف ثالث من الراشقات يحل محل الصف الثاني. نافثات الصمغ ينضمن إلى الصف.

ارشق!

مربعات المقزومات تنفجر فعلاً، هذه المرة. مجموعات كاملة تتخبط في مستنقعات الغراء. المقزومات يحاولن شن هجوم معاكس ويُقمن صفاً من الراشقات. يتقدمن القهقرى نحو القمة ويرشقن دون تصويب. لا يمكنهن تثبيت قوائمهن فوق الأرض المنحدرة إلى الأسفل. وتنطلق الأوامر:

ارشق!

ولكن بطونهن الصغيرة القصيرة لا تطلق غير نقيطات من الحامض. حتى لو أصابت النقيطات أهدافها، فإنها لا تفعل غير إثارة الحكاك في الأجسام دون اختراقها.

ارشق!

رشقات الحوامض المنطلقة من المعسكرين تلتقي في الفضاء. ترتطم أحياناً ببعضها البعض، فتسقط في الفراغ. النتائج غير مثمرة بالنسبة للمقزومات اللاتي يعدلن عن استخدام الأسلحة الراشقة. إنهن يملن إلى الاعتقاد بإمكانية كسب المعركة بالمحافظة على تكتيك تشكيلات المشاة في مربعات كثيفة.

رصوا الصفوف! تقول الأوامر عند المقزومات.

ارشق! تجيب الأوامر عند الصهباوات اللواتي تحقق راشقاتهن نتائج باهرة. رشقات جديدة من الحوامض والغراء.

المقزومات يصلن إلى أعلى تلة الأقحوان، على الرغم من كثافة الرشق الصهباوي. أشباحهن تشكل جداراً أسود يندفع متعطشاً نحو الثأر.

هجوم، غضب، ضرب.

انتهى الآن دور الاختراعات والألاعيب. لم يعد بإمكان الراشقات الصهباوات أن يعتصرن بطونهن. لم يعد بإمكان المقزومات أن يحافظن على تماسك المربعات.

غبار يتصاعد، جموع تتماوج، كتل تهوي وتزدلف.

الجموع تختلط، تشتبك، تصطف، تعدو، تدور، تكر، تفر، تفترق تجتمع، تحاول شن هجمات صغيرة، تدفع، تجذب، تقفز، تنهار، تثبت ترشق، تدعم، تنفث الهواء الحار، كلها تتسابق إلى الموت المشتهى. كلها تطاول وتصاول وتنازل. كلها تركض فوق الأجساد الحية وفوق الأجسا التي فارقتها الحياة. فوق كل صهباء ثلاث مقزومات، على الأقل، هائجات حانقات. لكن جسم الصهباء يعادل أجسام مقزومات ثلاث. لذا، يظل الصراع متكافئاً بين الطرفين.

التحامات. صراخ بالروائح. غيوم من الفيرومونات المرة.

ملايين الملاقط، مروسة، مثلمة، مسننة كالمناشير، صقيلة كالسيوف قاطعة كالمقصات العريضة؛ منها ما هو بحد واحد ومنها ما هو بحدين اثنين؛ منها ما هو مسقي بلعاب مسموم؛ ومنها ما هو مطلي بالغراء، ومنها ما هو ملطخ بالدم، وكلها ببعضها متشابكة. ترتجف الأرض من تحتها.

التحامات.

القرون المدببة رؤوسها كأسنة السهام تصفق في الهواء لتحول دو اقتراب العدو. القوائم مشرعة المخالب تضرب القرون المتمايلة أمامها كأن غرس قصب يهتز ولا يريم.

ضربات ناجحة، مفاجآت، ضربات تخطئ الأعداء لتصيب الأصحاب.

يمكن الإمساك بالخصم في كل مكان من جسده. من الملاقط أو م القرون، من الصدر أو من البطن، من القوائم والركب والأكواع، من الشع المتكاثف كالفرشاة عند المفاصل، من ثغرة في غلاف الجسد، من ثقب فم درع الجمجمة، أو من فتحة عين.

ثم تتهاوى الأجساد وتسقط لتتعارك فوق التراب الرطب. بعض المقزومات يتسلقن زهرة أقحوان. تتمايل تحتهن قبل أن يسقطن مشرعات المخالب فوق صهباء محمولة فيحفرن ظهرها ثم ينقبن عن قلبها.

التحامات.

الملاقط تشق الدروع الملساء. إحدى الصهباوات تستخدم قرنيها بمهارة. تعززهما معاً كرمحين. تهشم جماجم عشرة من الأعداء، دون أن تكلف نفسها عناء التوقف لتنظيف قرنيها من الدم الشفاف.

التحامات. حتى الموت.

الأرض مغطاة بالقرون والقوائم المقطعة حتى ليخال الماشي أنه يطأ فوق غطاء كثيف من إبر الصنوبر.

اللا ـ شولا ـ كانيات اللواتي نجون من الموت يقبلن مسرعات ويغطسن في المعترك كما ولو أن أعداء القتلى لم تصل بعد إلى حد الكفاية.

إحدى الصهباوات يصيبها الذعر لتكاثر المقزومات عليها، فتثني بطنها، وترشق نفسها بحامض الفورميك، فتموت مع أعدائها.

محاربة أخرى تقتلع، بضربة سريعة، رأس عدوتها، في الوقت الذي يسقط فيه رأسها، هي نفسها، بضربة من محاربة ثالثة.

المحاربة رقم 103683 تعرضت لهجمة من كامل الخطوط الأولى من المقزومات. ضمت إليها عدة عشرات من الزميلات المنتميات إلى فئتها وشكلن مثلثاً زرع الرعب في تجمعات المقزومات. لكن المثلث لم يلبث أن تصدع لتجد المحاربة الصهباء نفسها وحيدة تماماً أمام خمس شيفايبونيات قد تلطخت أجسادهن بدماء الشقيقات الحبيبات.

يغرزن فيها ملاقطهن، فترد عليهن ما يسعها الرد وتتذكر آلياً نصائح المحاربة القديمة التي كانت تتردد أصداؤها في قاعة التدريب:

كل شيء يتم قبل الاحتكاك بالعدو. فضربة الملقط أو رشقة الحامض لا تفعلان غير تثبيت هيمنة سبق واعترف بها أطراف النزاع... كل شيء يجري ويتم على مستوى التفكير. يجب الاقتناع بالنصر، ثم لا يثبت بعد ذلك أي شيء!

ربما يصدق ذلك أيضاً على القتال مع العدو. ولكن ما العمل عندما نكون إزاء خمسة من الأعداء؟ وهنا، تشعر بأن اثنتين، على الأقل، من المقزومات، يسعين لقتلها مهما كان الثمن. تلك التي تعمل ملاقطها قصاً في المفصل الذي يربط بطنها بصدرها، وتلك التي شرعت ببتر قائمتها الخلفية اليسرى. تغمرها موجة من الطاقة فتنتفض وتغرز قرنها المسوم كالسنان أسفل عنق إحداهن وتصرع الأخرى بضربة من صفحة ملقطها.

وفي هذه الأثناء عادت مجموعة من المقزومات وألقين في وسط المعترك عشرات من الجماجم الموبؤة **بالألترناريا**. وبما أن الفريقين محصنان الآن بلعاب البصاق، فقد تطايرت الغبيريات وتساقطت منزلقة على الدروع قبل أن تتهاوى بتراخ فوق أعشاب الأرض. فالحقيقة أن هذا اليوم ليس مناسباً للأسلحة الجديدة لأن جميع هذه الأسلحة قد صارت بلا فعالية، بعد اكتشاف مضادات لها.

في الساعة الثالثة بعد انتصاف النهار، بلغت المعارك أوج احتدامها. نفحات حامض الأوليك، وهي روائح مميزة تفوح من جثث النمال عند بدء تيبها، تملأ الهواء، وفي الساعة الرابعة والنصف، كانت الصهباوات والمقزومات، ممن لا تزال بهن قدرة على الوقوف على قائمتين، كحد أدنى، تواصل التضارب تحت أزهار الأقحوان. ولم تتوقف المبارزات إلا عند الساعة الخامسة وبعدما قصف الرعد منبئاً بمطر وشيك. كما ولو أن السماء تململت من كل هذا العنف. اللهم إلا إذا لم يكن ذلك غير عواصف آذار/ مارس التي تأخرت عن أوانها.

الباقيات على قيد الحياة والجريحات ينسحبن. حصيلة المعركة: خمسة ملايين من القتلى بينها أربعة ملايين من المقزومات؛ تحرير لا ـ شولا ـ كان.

أوصال مهشمة تمتد على مدى البصر؛ دروع مبقورة، أوصال كئيبة مشؤومة تتحرك أحياناً دفعة أخيرة من حياة منطفئة. الدم الشفاف يجف

ويغطي وجه التراب في كل مكان. مستنقعات الحامض الميال إلى الصفرة تملأ الرحب.

بعض المقزومات ما زلن يتخبطن في مستنقع من مستنقعات الغراء ويكافحن أملاً بالتخلص مما هن فيه والرجوع إلى المدينة. العصافير تعجل بالمجيء لالتقاطهن بمناقيرها قبل هطول المطر.

وميض البرق يضيء الغيوم الرمادية الداكنة وينعكس على دروع بعض الدبابات المهشمة التي كانت ملاقطها ما تزال منتصبة بكبرياء العجرفة. كما ولو أنها تريد أن تفقأ السماء، انسحب الممثلون وجاء المطر يكنّس أرجاء المسرح.

ـ كانت تتكلم وفمها مليء بالطعام.

ـ بيلشايم؟

ـ آلو؟

ـ **غرومف، غرومف**. . . أتهزأ بي يا بيلشايم؟ هل قرأت الصحف المفتش غالين، هو من القسم عندكم، أليس كذلك؟ إنه الشاب القصير المزعج الذي كان يريد أن يكلمني بصيغة المفرد، في بداية عمله؟

إنها سولانج دومينغ، مديرة الشرطة القضائية.

ـ أجل، أظن ذلك.

ـ سبق وقلت لك أن تسرحه من العمل. وها أنا أجد أنه قد أصبح نجماً معروفاً بعد أن مات. إنك مجنون تماماً! ما الذي حدا بك إلى وضع رجل قليل التجربة، إلى هذا الحد، على قضية من هذا النوع الخطير؟

ـ غالين ليس عديم التجربة، لا بل إنه عنصر ممتاز، لكن، يبدو أننا لم ننتبه إلى خطورة القضية. . .

ـ العناصر الممتازة هي تلك التي تجد الحلول. أما العناصر الرديئة فهي تلك التي تجد المعاذير.

ـ هنالك قضايا لا يمكن لأفضل عناصرنا أن. . .

ـ هنالك قضايا يتوجب فيها على أكثركم رداءة أن يجدوا حلولها. والذهاب لإخراج زوجين من قبو ينتمي إلى هذه الفئة من القضايا.

ـ عذراً، ولكن. . .

ـ أما أعذارك، فإنك تعلم أين يمكنك أن تضعها يا عزيزي. توجه حالاً إلى ذلك القبو وأخرج منه الجميع. بطلك غالين يستحق مأتماً مسيحياً. كما أريد تقريراً مفعماً بالمديح لأعمال قسمنا قبل آخر الشهر.

ـ حَوْلَ ماذا؟

ـ وحول هذه القصة كلها! وأريد أيضاً أن تقفل فمك! وأن لا تتشدق به مطلقاً أمام الصحافة بعد إقفال ملف القضية. يمكنك أن تأخذ معك ستة من رجال الدرك، إضافة إلى المعدات الحديثة. هذا كل شيء.

ـ وإذا. . . .

ـ وإذا لم تتحرك، فسيكون بإمكانك الإعتماد علي لإفساد فترة تقاعدك كلها!

تقفل الخط.

المفوض بيلشايم يعرف كيف يتعامل مع جميع المجانين، إلا هذه. لذا، يستسلم صاغراً ويشرع بإعداد خطة للنزول إلى القبو.

عندما يكون الإنسان: **عندما يكون الإنسان خائفاً أو سعيداً أو غاضباً، فإن غدده الدرقية تفرز هرمونات لا يكون لها تأثير إلا على جسمه وحسب. هذه الهرمونات تدور، إذن، داخل جسم ذلك الإنسان بمفرده فتتسارع دقات قلبه ويتعرق أو يعبس أو يصرخ أو يبكي. ذلك شأنه. أما الآخرون فينظرون إليه دون إشفاق عليه؛ وإن أشفقوا، فبناءً على قرار من عقولهم.**

أما عندما تكون النملة خائفة أو سعيدة أو غاضبة، فإن هرموناتها تدور في جسمها، وتخرج من جسمها لتدخل في أجسام النمال الأخرى. وبفضل هذه الفيرو ـ هرمونات، أو الفيرومونات، فإن ملايين النمال ستصرخ، أو تبكي، في وقت واحد. لا بد أن يكون الإحساس بالأشياء التي يعيشها الآخرون، وجعل الأشياء التي يعيشها الشخص محسوسة من قبل الآخرين... لا بد أن يكون ذلك أمراً ذا قيمة هائلة حقاً...

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الأفراح تعم كافة مدن الفيدرالية. عمليات تزقيم السكر تقدم بسخاء للمحاربات المنهكات. ولكن الأبطال لا وجود لهم هنا. كلٌ قد قام بمهمته، ولا أهمية لقيامه بها بشكل حسن أو بشكل رديء. كل شيء يعود وينطلق من الصفر عند الإنتهاء من تنفيذ المهام.

تضميد الجراح يتم باللعق. واللعق يصاحبه إغداق اللعاب على الجرح. بعض الساذجات من صغار السن عدن يحملن بملاقطهن قائمة أو اثنتين أو ثلاثاً من قوائمهن التي بُترت في المعركة واسترجعنها بعد اجتراح الأعاجيب. يجري إفهامهن أن لا جدوى من إعادة لصقها.

في قاعة التدريب الكبرى الكائنة في الطابق الخامس والأربعين تحت سطح الأرض، بعض المحاربات يروين، لمن لم يشارك في الحرب، تفاصيل الفصول المتعاقبة لمعركة الأقحوان. نصفهن يمثل دور المقزومات ونصفهن الآخر يمثل دور الصهباوات.

بالإيماء يمثلن عملية الهجوم على المدينة المحظوة في لا ـ شولا ـ كان وهجمة الصهباوات ومقارعة المقزومات في الحُفَر والهروب التكتيكي وظهور الدبابات على أرض المعركة وهزيمتها أمام مربعات المقزومات واجتياح التلة وتشكيل صفوف الراشقات والإلتحام الأخير...

أعداد كبيرة من العاملات يدخلن القاعة ويعلقن على كل مشهد من مشاهد القصة. إحدى النقاط تسترعي انتباههن بشكل خاص: إنها تقنية الدبابات. صحيح أن فئة العاملات لها دورها في المسألة و، برأيهن، لا ينبغي التخلي عن استخدام الدبابات، بل ينبغي تعلّم استخدامها بطريقة أكثر ذكاء، وليس فقط في هجمات المواجهة المباشرة.

من بين جميع الجرحى، كانت المحاربة رقم 103683 هي الوحيدة التي عادت بأقل ما يمكن من خسائر. لم تفقد غير قائمة واحدة. شيء تافه وزهيد لمن يمتلك ست قوائم. شيء لا يكاد يستحق الذكر. الأنثى رقم 56 والذكر رقم 327 اللذين لم يشاركا في المعركة بوصفهما من ذوات الجنس يدعوان المحاربة وينتحيان بها جانباً. إتصال بالقرون.

هل حدثت أية مشاكل هنا؟

لا، فالمحاربات اللاتي تفوح منهن رائحة الصخور كن جميعاً في المعركة. جميع النمال الأخرى بقيت في المدينة المحظورة تحسباً لإحتمال

وصول المقزومات. وهناك؟ هل رأيتِ السلاح السري؟

لا.

كيف ذاك؟ لم ترينه؟ سمعنا كلاماً عن غصن آكاسيا متحرك...

المحاربة رقم 103683 تشرح لهما كيف أن السلاح الجديد الوحيد الذي تعرضت له الصهباوات هو **الألترناريا** الرهيب، وكيف أنهن وجدن وسيلة لإتقائه.

لا يمكن أن يكون هذا السلاح هو الذي قتلت به البعثة الأولى، لأن الألترناريا سلاح ذو مفعول بطيء. ذلك ما استخلصه الذكر رقم 327 الذي يجزم، فوق ذلك، بأن أياً من الجثث التي فحصها لم تكن عليها أية غبيرات قاتلة.

ما هو إذن ذلك السلاح؟

تعصف الحيرة بالنمال الثلاث فيقررن تحديد الإتصال المطلق. بهن رغبة شديدة بالتوصل إلى المزيد من الوضوح. إعتصار جديد للأفكار والآراء:

لماذا لم تلجأ المقزومات، في الحرب الأخيرة، إلى استخدام السلاح الذي إجتث المستكشفات الثماني والعشرين بتلك الصورة الجذرية؟ فهن قد بذلن كل جهد ممكن في محاولاتهن لكسب المعركة. إذا كن يمتلكن مثل ذلك السلاح، فإن شيئاً لم يكن بإمكانه أن يردعهن عن استخدامه! وإذا كن لا يمتلكنه؟ إنهن يصلن دائماً قبل، أو بعد، استخدام السلاح السري. قد يحدث ذلك بمحض المصادفة...

هذا الإفتراض ينسجم، بما فيه الكفاية، مع ظروف الهجوم على لا ـ شولا ـ كان. أما بالنسبة للبعثة الأولى، فقد كان بالإمكان ترك آثار تدل على هوية المقزومات لتضليل جماعة الصهباوات ووضعهن فوق سكة لا تقود إلى الهدف المنشود. من يمكن أن يكون صاحب المصلحة في ذلك؟ وإذا لم تكن المقزومات مسؤولات عن جميع الضربات، فمن يكون المسؤول يا

ترى؟ الآخرون! الخصم العنيد الآخر، الخصم القديم: الأرضة!

ليست التهمة مصطنعة بحال من الأحوال. فمنذ بعض الوقت، تقوم جماعات معزولة من محاربات مدينة الأرضة الكبرى بعبور النهر وبشن الغارات في مناطق الصيد التابعة للفيدرالية. إنها الأرضة، بكل تأكيد. تصرفت بحيث تثير المقزومات والصهباوات على بعضهن البعض، مما يسمح لها بالتخلص من الفريقين دون أي عناء وبالإستيلاء، من ثم، على مدن النمل في ظروف ضعف أصحابها وعجزهم عن حمايتها.

والمحاربات اللواتي تفوح منهن روائح الصخور؟ إنهن، في هذه الحالة، جاسوسات يعملن لحساب الأرضة؛ هذا كل شيء.

كلما ازدادت الأفكار المشتركة عند النمال الثلاث تبلوراً بفعل دورانها في الأدمغة الثلاث، كلما ازدادت قناعتهن بأن حشرات الأرضة التي تسكن إلى الشرق هي صاحبة «السلاح السري» الغامض.

الروائح العامة التي يطلقها القطيع تعرقل ندوة النمال الثلاث وتنتزعهن من صفو مباحثاتهن. فالمدينة قد قررت الإفادة من فترة ما بين الحربين وتقديم موعد عيد الإنبعاث: مراسم العيد ستجري غداً.

على جميع الفئات أن تأخذ مواقعها! على الإناث والذكور أن يلتحقوا بقاعة الخزانات للإرتواء من السكر! على الراشقات أن يملأن بطونهن من جديد في قاعات الكيمياء العضوية!

الرقم 103683 تطلق هذا الفيرومون قبل أن تودع صاحبتيا:

أتمنى لكما وصالاً موفقاً! لا تقلقا، سأتابع التحقيق من جهتي عندما تصلان إلى السماء سأكون في طريقي نحو مدينة الأرضة في الشرق.

لم تكد النمال الثلاث يفترقن حتى ظهرت القاتلتان، الضخمة الغليظة والصغيرة العرجاء، وبدأتا بحك الجدران، لإلتقاط ذرات الحديث الذي جرى قبل لحظات.

بعد الفشل المأساوي الذي مني به المفتش غالين ورجال الإطفاء، عُهد بنيكولا إلى ميتم لا يبعد إلا عدة مئات من الأمتار عن شارع السيباريت.

الميتم لم يكن للأيتام وحسب. كانوا يحشرون فيه أولاداً ممن يتعرضون للرفض أو الضرب من قبل ذويهم. فالواقع، أن البشر هم من الأجناس النادرة التي يمكنها أن تتخلى عن ذريتها أو أن تسيء معاملتها. وفي الميتم، يمضي الأطفال سنوات مفعمة بالمحن إذ أن تربيتهم تتم بالركلات في المؤخرة. يكبررن وتقسو قلوبهم ويلتحق أكثرهم بصفوف الجيش النظامي.

أمضى نيكولا يومه الأول واهن القوى منبطحاً فوق شرفة الميتم ولم يفعل غير إدامة النظر نحو الغابة. وفي اليوم التالي، وجد عزاءه الرتيب أمام شاشة الإذاعة المرئية. كان الجهاز جاثماً في قاعة الطعام. أما النظار الذين لم يكن لهم من هم غير التخلص من «المزعجين»، فكانوا يتركونهم للجهاز يُبَهِّمْهُمْ لساعات طويلة كل يوم. جان وفيليب ـ يتيمان آخران ـ سألا نيكولا مساءً، في قاعة النوم:

ـ ما الذي حصل لك، أنت؟

ـ لا شيء

ـ قل لنا. لم تأتِ إلى هذا المكان دون سبب، وأنت في هذا العمر. وبالمناسبة، قل لنا ما عمرك أولاً.

ـ أنا أعرف. يبدو أن أبويه قد أكلهما النمل.

ـ من الذي جاء بهذا الخبر السخيف؟

ـ أحد الأشخاص!ـ نانانانير(*). سنخبرك إذا أخبرتنا بما حصل لأبويك.

ـ بوسعكما أن تغطسا قبل ذلك.

جان، الصبي الأكبر جثة، أمسك نيكولا من كتفيه، في حين راح فيليب يلوي ذراعه نحو الخلف.

انتفض نيكولا وتخلص منهما وضرب جان على عنقه بحديدة (شاهد هذه الضربة في أحد الأفلام الصينية). إنتابت الصبي نوبة من السعال ولكن فيليب انقض على نيكولا محاولاً خنقه، فما كان من نيكولا إلا أن طعنه في بطنه بمؤخر كوعه. سقط المعتدي على ركبتيه متلوياً من الألم، فانتصب نيكولا أمام جان وبصق في وجهه. لكن جان هجم عليه وعضه في بطة ساقه حتى أدماه. ثم تعارك الصبية الثلاثة تحت السرير وتناتفوا بضراوة. ودارت الدوائر أخيراً على نيكولا.

ـ قل لنا ما حصل لوالديك وإلا أطعمناك نملاً!

كانت الفكرة بنت ساعتها، وقد بدا جان فخوراً باكتشافها وهو يثبت نيكولاً طريحاً فوق أرض القاعة. عندها هرع فيليب لإحضار بعض النمال التي لا يندر العثور عليها في تلك الأمكنة، ثم عاد سريعاً وقرَّبَها من وجه نيكولا:

ـ انظر؛ إنها سمينة جداً!

(*) عبارة منغّمة يطلقها الأولاد في مواجهة رعيلهم دلالة على اكتشاف أحد الأسرار واستعدادهم للإبتزاز.

(كما ولو أن النمال المغطاة أجسامها بدروع صلبة يمكنها أن تخزن طبقات كثيفة من الشحم!)

ثم قرص الصبي من أنفه ليجبره على فتح فمه وألقى فيه، بقرف شديد، ثلاث عاملات كن أحوج، في الحقيقة، إلى القيام بعمل آخر. كانت المفاجأة كبيرة جداً بالنسبة لنيكولا. فقد كانت النمال لذيذة الطعم.

أما الصبيان الآخران، فقد فوجئا لأنه لم يلفظ هذا الطعام البائس، ورغبا في تذوقه هما أيضاً.

قاعة خزانات العسيل هي واحدة من أحدث الإكتشافات الجديدة في بيل ـ او ـ كان. فتكنولوجيا الخزانات، أو «القرب»، أُخذت، في الواقع، عن نمال الجنوب التي لم تكف عن التقدم نحو الشمال، منذ أيام القيض المحرق.

وبالطبع، كانت الحرب المظفرة، ضد هذه النمال، هي المجال الذي مكن الفيدرالية من اكتشاف قاعة الخزانات. فالحرب هي المصدر الأنسب والوسيلة الفضلى لنقل الإختراعات في عالم المجتمعات الحشراتية.

للوهلة الأولى، ذهلت البيلوكانيات من هول ما رأين. ماذا رأت؟ عاملات محكوم عليهن بقضاء حياتهن معلقات بالسقوف ورؤوسهن إلى الأسفل، وبطونهن منفوخة إلى حد يجعلها تكبر بطون الملكات بضعفين إثنين! وقد شرحت الجنوبيات بأن هذه النمال قد تمت «التضحية بها» لتكون عبارة عن قوارير حية بمقدورها أن تختزن كميات كبيرة من الرحيق والندى والعسيل، وأن تحفظ هذه المواد في حالتها الطازجة.

وباختصار، كان يكفي أن يتم تطوير فكرة «البطن العام» ودفعها إلى مداها الأقصى، للوصول إلى فكرة «النملة ـ الصهريج»، ثم وضع هذه

الفكرة موضع التطبيق. وهكذا، صار بإمكان الجميع أن يدغدغوا طرف هذه البطن المتحولة إلى جهاز تبريد حي للحصول على السائل الثمين، نقطة نقطة أو، حتى، على شكل فيض غزير.

وبفضل هذا النظام، تمكنت الجنوبيات من الصمود في وجه موجات الجفاف التي تضرب المناطق المدارية. وكن ينقلن قِرَبَهُنَّ هذه في هِجراتهن ويحملنها فوق أطراف القوائم فيرتوين منها تماماً ما طال بهن الإرتحال. وعلى ما يقلن، لا تقل هذه القوارير عندهن قيمة عن البيوض.

البيلوكانيات سرقن إذن تقنية القرب. لكنهن اكتشفن فيها، على وجه الخصوص، قدرتها على تخزين كميات كبيرة من الأغذية وحفظها بطريقة لا تضاهى، من حيث احترام مزاياها ونظافتها.

ذكور المدينة وإناثها يحضرون جميعاً إلى القاعة للتزود بالسكر والماء. صفوف طويلة من ذوي وذوات الأجنحة تنتظر دورها أمام القرب الحية للحصول على رزقها. الذكر رقم 327 والأنثى رقم 56 يرتويان معاً، ثم يفترقان.

وأخيراً نضب معين الصهاريج بعد مرور ذوات الجنس والراشقات جميعاً. جيش من العاملات يهرعن لإعادة ملئها بالرحيق والندى والعسيل. يملأنها حتى تستعيد البطون المترهلة أشكالها المنتفخة اللامعة.

أحد النظار فاجأ نيكولا وفيليب وجان وأنزل بهم العقاب معاً. وبذلك توطدت بينهم أواصر الإلفة وأصبحوا أفضل مجموعة أصدقاء في الميتم.

كانوا يقضون معظم وقتهم في قاعة الطعام، أمام الإذاعة المرئية. كانوا، في ذلك اليوم، يشاهدون حلقة من المسلسل الذي لا يشيخ: «نحن من خارج الأرض ونحن فخورون بهذا الإنتماء».

يزعقون ويتدافعون وهم يشاهدون قصة وصول رواد الفضاء إلى كوكب تسكنه نمال عملاقة.

«صباح الخير. نحن من الأرض.

ـ صباح الخير. نحن نمال عملاقة من الكوكب زغو».

كان الحوار، في بقية الشريط، عادياً نوعاً ما: النمال العملاقة تتواصل فيما بينها بالتخاطر (télépatie)(*). النمال العملاقة تدس إلى الأرضيين رسائل تأمرهم فيها بالتقاتل فيما بينهم. يتقاتلون. لكن أواخر الباقين على قيد الحياة يفهمون اللعبة ويحرقون المدينة المعادية...

الصبيان الثلاثة يعجبون بهذه النهاية ويقررون الذهاب لإلتهام بعض النمال الحلوة المذاق. يستغربون، لأن النمال التي تمكنوا من اصطيادها ليس لها طعم السكاكر كالنمال الأولى. كانت أصغر حجماً وكانت حامضة الطعم. كعصير الليمون المركز. شيء مقرف!

مراسم العيد ستجري عند الظهيرة، في أعلى مكان من المدينة.

الراشقات يخرجن مع أوائل خيوط الفجر الدافئة ويأخذن مواقعهن في حجرات الحماية التي تمتد على شكل إكليل حول القمة. يصوبن فوهات الإطلاق نحو السماء ليشكلن حاجزاً مضاداً لهجمات العصافير التي لن يتأخر

(*) الإتصال عن بعد بواسطة الأفكار والخواطر.

ظهورها فوق الإحتفال. بعض الراشقات حشرن بطونهن بين غصنين صغيرين للتخفيف من شدة الإرتداد عند الإطلاق. إنهن مطمئنات إلى أن وضعيتهن تلك تسمح لهن بإطلاق رشقتين أو ثلاث، في الإتجاه نفسه، دون أن يتغير إتجاه التصويب.

الأنثى رقم 56 لا تزال في حجرتها. ماشطات من غير ذوات الجنس يهيئنها ويضمخن جناحيها بلعابهن الواقي. تسألهن:

هل سبق لكن الخروج إلى الفضاء الواسع؟

لا يجبن على السؤال. لقد خرجن بالطبع. ولكن ما الفائدة في أن يقلن لها بأن العالم الخارجي مليء بالأشجار والأعشاب؟ لأن الملكة المحتملة ستعرف ذلك بنفسها بعد دقائق قليلة. ثم إن الرغبة في التعرف على العالم من خلال الإتصال بالقرون ليست غير نزوة من نزوات ذوات الجنس!

وتستمر العاملات في تهيئتها وتزيينها. يشددن قوائمها لجعلها أكثر مرونة. يجبرنها على التلوي لفرقعة مفاصلها الصدرية والبطنية. يفحصن بطنها العام للتأكد من امتلائه بالعسيل ويضغطنه حتى تنزّ منه قطرة. هذا السائل سيمكنها من الطيران المتواصل لعدة ساعات.

الأنثى رقم 56 جاهزة. ينتقلن إلى الأنثى التالية.

الأميرة المتبرجة بكل جمالها وعطورها تخرج من الحريم. لم يخطىء الذكر رقم 327 في التقدير: إنها حقاً باهرة الجمال.

ترفع جناحيها بعناء. عجيب كيف نحيا بكل هذه السرعة في الأيام الأخيرة. إنهما الآن ثقيلان طويلان يخطان في الأرض... كثوب الزفاف.

إناث أخريات يظهرن عند مخارج الممرات. الأنثى رقم 56 تسير الآن بصحبة مئة من العذارى بين غصينات القبة. بعض المتحمسات المتهيجات يعلقن بالعشيبات فتتمزق أجنحتهن الأربعة، تنخرق أو تنقلع من أصولها. البائسات لن يطرن، لا بل لن يتمكنّ من الإقلاع. يرجعن مغمومات إلى

الطابق الخامس. إنهن الآن كأميرات المقزومات. لن يعرفن طيران الحب. سيعدن للإقامة في إحدى الحجرات، بكل بلاهة. وعلى أرض الحجرة أيضاً.

الأنثى رقم 56 لا تزال، من جهتها، سليمة تماماً. تتقافز من عشبة إلى أخرى وتنتبه، في الوقت نفسه، لتتحاشى السقوط وإتلاف أجنحتها الرقيقة الناعمة.

إحدى الأخوات تسير إلى جانبها وتطلب عقد إتصال معها بالقرون. إنها تتساءل حول ما يمكن أن تكون تلك الذكور الشهيرة المخصبة. هل هي من نوع ذكور النحل أو ذكور الذباب؟

الرقم 56 لا تجيب. إنها تفكر مجدداً بالذكر رقم 327 وبلغز «السلاح السري». لقد انتهى كل شيء ولم تعد هنالك أية خلية عمل، على الأقل، بالنسبة لهما. القضية كلها هي، من الآن فصاعداً، بين مخلبي الرقم 103683.

تتذكر الأحداث بحنين.

الذكر الطريد الذي يأوي إلى حجرتها... دون روائح ثبوتية!

إتصالهما المطلق الأول.

لقاؤهما بالرقم 103683.

القاتلات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور.

المطاردة في دهاليز المدينة السفلية.

المخبأ المملؤ بجثث النمال التي كانت ستشكل «كتيبة» العمل اللمقز (Lomechuse).

الممر السري في صخرة الغرانيت...

كانت تتمشى وتحرك ذكرياتها وتكتشف أنها تتمتع بامتياز كبير: لم تخرج بعد من المدينة. ومع هذا، فإن المغامرات التي خاضت عبابها لم

تعرف مثلها أية واحدة من أخواتها.

القاتلات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور... اللمقز... الممر السري في صخرة الغرانيت.

القول بأنهن مجنونات لا يقدم ولا يؤخر. لا يفسر شيئاً عندما يكون الأمر متعلقاً بكل هذا العدد الكبير من النمال. مرتزقات يتجسسن لحساب الأرضة؟ لا، لا يمكن لهذه الفرضية أن تتماسك. لا يمكن للأرضة أن تحشد كل هذا العدد، ولا أن تبلغ هذه الدرجة العالية من التنظيم.

وهنالك، على كل حال، هذه المسألة التي لا تندرج في أي تحليل: ما قصة الأغذية المخزنة تحت أرضية المدينة؟ هل هي لتغذية الجاسوسات؟ لا، إنها تكفي لتسمين ملايين النمال... والجاسوسات لسن، بحال من الأحوال بالملايين.

وهذا اللمقز المدهش. إنه من الحيوانات التي تعيش على السطح. من المستحيل أن ينزل إلى الطابق الخمسين تحت سطح الأرض، بوسائله الخاصة. لا بد أن أحداً نقله إلى هذا المكان. ولكن أحداً لا يستطيع الإقتراب منه لنقله، لأن كل من يقترب منه يقع في إساره.

لا يمكن أن تنقل هذا الوحش إلا جماعة من أولي القوة بعد أن تلفه بأوراق طرية وتحمله إلى الأسفل بكل سرية وتكتم.

وكلما ازدادت تفكراً في الموضوع، إزداد اقتناعها بأن تنفيذه يتطلب إمكانات ضخمة. ثم إن الأمور تجري، إذا ما نظرنا إلى الأمور وجهاً لوجه، بشكل يمكن الإعتقاد معه بأن قسماً من القطيع يخفي سراً ما ويحميه بشراسة، لكي لا يشيع بين بقية الأخوات.

إتصالات مجهولة المصدر تعصف برأسها. تقف. بعض الأخوات إعتقدن بأنها تنهار من الإنفعال قبيل طيران الزفاف. هذا الأمر ليس نادر الوقوع لأن ذوات الجنس بالغة الحساسية. تلوي قرنيها نحو فمها وتردد على عجل: مقتل جميع عناصر البعثة الأولى، السلاح السري، مقتل

المحاربات الثلاثين، اللمقز، الممر السري في صخرة الغرانيت، الأغذية المخزنة. . .

آه، تباً لي. لقد فهمت!

ثم تندفع بعكس التيار. عسى ألا يكون الأوان قد فات.

التربية: تتم تربية النمال من خلال المرور بالمراحل التالية:

- من اليوم الأول إلى اليوم العاشر بعد الولادة، تعمل غالبية النمال في خدمة الملكة - الأم. تعتني بها، تلحسها، تداعبها. بالمقابل، تضخها الملكة - الأم بلعابها المغذي والمطهر من الأوساخ والجراثيم.

- من اليوم الحادي عشر إلى اليوم العشرين، تحصل العاملات على حق الإعتناء بالبيوض.

- من اليوم الحادي والعشرين إلى اليوم الثلاثين، يقمن بمراقبة وتغذية اليرقات.

- من اليوم الحادي والثلاثين إلى اليوم الأربعين، ينصرفن إلى الأعمال المنزلية وأعمال إصلاح الممرات مع مواصلة خدمة الملكة والحوراوات.

- اليوم الأربعون هو يوم الحدث الكبير. يسمح للعاملات بمغادرة المدينة، على إعتبار أن تجربتهن قد اكتملت.

- من اليوم الأربعين إلى اليوم الخمسين، يقمن بأعمال الحراسة ويحلبن قطعان البرغثان.

- من اليوم الخمسين إلى نهاية الحياة، يمكنهن الإرتقاء إلى الإضطلاع بالمهام الأكثر إثارة بالنسبة لنمال المدن: الصيد واستكشاف المناطق المجهولة.

ملاحظة: إبتداءً من اليوم الحادي عشر تتوقف الذكور والإناث عن العمل وتقضي معظم الوقت بلا أي نشاط في الأماكن المخصصة لها داخل المدينة، وذلك حتى حلول يوم الطيران، طيران الزفاف.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الذكر 327 يتهيأ هو أيضاً. تمر في حقل الإلتقاط الخاص بقرنيه أحاديث الذكور الآخرين. لا يتكلمون إلا عن الإناث. قليلون منهم سبق لهم ورأوا الإناث، اللهم إلا بعض النظرات الخاطفة في ممرات المدينة المحظورة. كثيرون منهم يشطح بهم الخيال. يحلمون بهن. يتصورونهن بروائح تدور لها الرؤوس، بشبق صاعق.

أحد الذكور يزعم أنه زقَّم إحدى الإناث وزقمته. عسيلها كان بطعم النسغ في عروق أشجار السندر. هرموناتها الجنسية كانت تفوح بعبق النرجس حين قطافه.

الآخرون يتآكلهم الحسد ويصمتون.

أما الرقم 327، فقد تذوق فعلاً عسيل أنثى (وأية أنثى!) ويعرف أن عسيلها لا يختلف بشيء عن عسيل العاملات وعسيل القِرَب. لكنه لا يحشر قرونه في النقاش.

فكرة لعوبٌ تمر في خاطره، بدلاً عن ذلك. إنه يود حقاً أن يقدم للإنثى رقم 56 ما يلزمها من حيواناته المنوية من أجل بناء عشها المستقبلي. لو كان بمقدوره أن يجدها... من المؤسف أنهما لم يتفقا على فيرومون تعارف يسمح لكل منهما بالعثور على صاحبه وسط الجموع المحتشدة.

عندما وصلت الأنثى رقم 56 إلى قاعة الذكور، دب في القاعة ذهول المفاجأة. دخول الأنثى إلى قاعة الذكور مخالف لكل قواعدالجماعة.

لا ينبغي للذكور والإناث أن يرى بعضهم بعضاً، للمرة الأولى، قبل طيران الزفاف. فالمدينة هنا، ليست مدينة المقزومات. النمال هنا، لا تتناكح في الأروقة.

الأمراء الذين كانوا قبل لحظات يودون من كل جوارحهم أن يعرفوا كيف تكون الأنثى غيروا رأيهم الآن تماماً. ينفثون جميعاً روائح عدائية مفادها أن على الأنثى مغادرة القاعة.

لكنها تستمر، مع ذلك، في التقدم وسط العجاج. تصدم كل من تمر به وتطلق فيروموناتها في جميع الإتجاهات:

327! 327! أين أنت؟

لا يجد الأمراء أية غضاضة في إعلامها بأنه لا يحق لها اختيار عريسها بهذه الطريقة، وبأن عليها أن تصبر وأن تَكِلَ أمرها إلى الصدفة. وأن تستحي. . .

ولكنها تنتهي، رغم كل ذلك، بالعثور على صديقها. وجدته. . . ميتاً. مقطوع الرأس بضربة ملقط!

الشمولية: بنو البشر يهتمون بالنمال لأنهم يعتقدون بأنها توصلت إلى إقامة نظام شمولي ناجح. صحيح أننا نظن، عندما ننظر إلى المسألة من الخارج، بأن جميع عناصر معسكر النمل تعمل وتطيع وتعيش في حالة استعداد تام للتضحية، وبأن جميع أفراد المعسكر يتشابهون فيما بينهم. وصحيح بأننا نعلم أن جميع النظم الشمولية البشرية قد فشلت حتى الآن... من هنا، فكر البعض بتقليد الحشرة الإجتماعية (ألم تكن النحلة شعار نابليون؟). وهكذا، كانت الإذاعة المرئية العالمية المعاصرة هي الفيرومون الذي يغرق المعسكر البشري بمعلومة شاملة واحدة. وهكذا، كان

أن اعتقد الإنسان بأنه سيتوصل، يوماً، إلى إقامة النظام الإنساني الكامل، عن طريق تقديم ما يظن أنه الأفضل للجميع.

لكن حقيقة الأمر ليست كذلك.

فالطبيعة لا تتطور، وإن استاء السيد داروين(*) من ذلك، نحو بقاء الأقوى والأفضل (ووفق أية معايير كان يمكن لمثل هذا التطور أن يتم؟)

الطبيعة تستمد قوتها من التنوع. تحتاج إلى الطيبين والخبثاء والمجانين واليائسين والرياضيين والمرضى والمحدودبين والمشوهين والمبتهجين والحزانى والأذكياء والأغبياء والأنانيين والكرام والصغار والكبار والسود والصفر والحمر والبيض... كما تحتاج إلى جميع الأديان والفلسفات والعصبيات وصنوف الحكمة... الخطر الوحيد هو في قيام أحد هذه الأصناف بإزالة الآخر من الوجود.

ولقد وجدنا أن حقول الذرة المخصّبة اصطناعياً من قبل الإنسان والمكونة من توائم مأخوذة من أفضل العرانيس (الأقل احتياجاً للماء والأقدر على مقاومة الجليد وإعطاء أكبر الحبوب) تتلف بأكملها عند ظهور أبسط الأمراض، في حين أن حقول الذرة البرية المكونة من عدة سلالات مختلفة، ولكل منها خصوصياتها ونقاط ضعفها وعيوبها، تستطيع جميعها أن تصمد في وجه الأوبئة.

(*) شارل داروين: صاحب النظرية القائلة بأن الكائنات الحية تتطور بالإنتخاب الطبيعي.

الطبيعة تكره النسقية الواحدة وتحب التنوع. وربما كان في ذلك كنه عبقريتها.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

تعود إلى القبة متثاقلة مهمومة. بعييناتها التي ترى بالأشعة ما تحت الحمراء تلاحظ وجود شبحين في أحد الممرات القريبة من الحريم. إنهما القاتلتان اللتان تفوح منهما رائحة الصخور! القاتلة الكبيرة، والقاتلة الصغيرة العرجاء!

تقبلان نحوها مباشرة. تطوح بجناحيها وتثب لتأخذ بعنق العرجاء. لكنهما تمسكان بها سريعاً و. . . بدلاً من قتلها، تجبرانها على مد قرنيها للإتصال.

الأنثى رقم 56 في ذروة الغضب. تسألهما عن سبب قتلهما الذكر رقم 327، طالما أنه كان سيموت، في جميع الأحوال، أثناء طيران الزفاف. تسألهما عن سبب اغتيالهما له.

القاتلتان تحاولان إعادتها إلى رشدها. تقولان بأن الإنتظار غير ممكن في بعض الحالات، ومهما كان الثمن. هنالك مهام لا ترى كما يجب أن ترى وتصرفات تطلق عليها أحكام غير صحيحة، لكن هذه التصرفات لا بد منها من أجل أن تواصل الجماعة حياتها بشكل طبيعي. يجب ألا نكون بسطاء وساذجين. . . يجب الإرتفاع إلى مستوى الجدارة اللازمة لتحقيق وحدة بيل ـ او ـ كان. لا ينبغي التردد أبداً، إذا ما اقتضت الظروف!

ليستا جاسوستين إذن؟ لا بل إنهما تصلان إلى حد الزعم بأنهما. . . المحافظتان الرئيسيتان على أمن الجماعة وصحتها.

الأميرة تصرخ بفيروومونات الغضب. أكان 327 خطراً على أمن الجماعة. نعم، قالت القاتلتان. قالتا أيضاً بأنها ستفهم يوماً ما، لأنها الآن لا تزال صغيرة. . .

أفهم؟ أفهم ماذا؟ بأن هنالك قاتلات يعملن بمنتهى النظام داخل المدينة بالذات، قاتلات يزعمن بأنهن ينقذن المدينة بقتل ذكور «لأنهم رأوا أموراً بالغة الأهمية، بالنسبة لبقاء الجماعة»؟

تكرمت العرجاء بإيضاح وجهة نظرها. مؤدى حديثها أن المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور هنا «مجندات مهمتهن مكافحة التوترات الرديئة. لأن هنالك توترات جيدة من شأنها دفع الجماعة نحو التطور والكفاح، وتوترات رديئة من شأنها دفع الجماعة نحو تدمير ذاتها. . .

لذا، هنالك معلومات لا يجوز أن تُسمع. بعض المعلومات تسبب مخاوف ما ورائية «ميتافيزيكية» لم تتوفر بعد وسائل لمعالجتها. هذه المعلومات تلقي الجماعة في أحضان القلق فتشعرها بأنها في حالة انحصار وعجز عن إيجاد الرد. . .

ذلك سيء بالنسبة للجميع. تدفع الجماعة نحو إنتاج توكسينات تُسَمِّمُها. حياة الجماعة على «المدى البعيد» أهم بكثير من معرفة الواقع على «المدى القريب». إذا رأت العين أمراً يعرف الدماغ بأنه خطر بالنسبة لبقية أعضاء الجسم، فإن من الأفضل أن يفقأ الدماغ تلك العين. . .

الكبيرة تنضم إلى الصغيرة العرجاء لتلخص أقوالها المشبعة بالحكمة:

نحن فقأنا العين،

نحن أزلنا المثير العصبي،

نحن أوقفنا القلق.

القرون تلح في إيضاح أن جميع الأجسام مجهزة بهذا النوع من الأمن الموازي. الأجسام التي لا تمتلك مثل هذا النوع تموت من الخوف أو تنتحر هرباً من مواجهة الواقع المقلق.

المفاجأة كبيرة بما فيه الكفاية عند الأنثى رقم 56، ومع ذلك، لا تَزِلُّ بها القدم. إنها فيرومون ممتاز حقاً! فإذا ما كانوا يريدون إخفاء الحقيقة حول وجود السلاح السري، فإن أوان ذلك قد فات على كل حال، لأن

الجميع باتوا يعرفون أن لا ـ شولا ـ كان قد وقعت ضحية للغز، على الرغم من الجهل الكامل بطبيعة هذا اللغز من الناحية التقنية...

ولكن المحاربتَين تواصلان الضغط على رأسها ولا تتراخيان. إذ، بالنسبة للا ـ شولا ـ كان، أصبحت القصة منسية من قبل الجميع، بعد أن خفف الإنتصار من حشرية التساؤلات. يكفي أن نتحسس الروائح في الممرات لنكتشف الغياب الكامل لأقل التوكسينات المتسائلة. فالجماعة كلها مطمئنة تماماً في هذه المدينة المنصرفة بكليتها إلى عيد الإنبعاث.

ماذا يردن منها إذن؟ لماذا يواصلن الضغط على رأسها هكذا؟

خلال المطاردة التي جرت في الطوابق السفلية، كانت العرجاء قد لاحظت وجود نملة ثالثة. محاربة. ما هو رقم هويتها؟

لهذا، إذن، لم يقتلنها منذ البداية! أجابت الأنثى بأن غرزت طرفي قرنيها في عيني النملة الكبيرة. صحيح أنها عمياء منذ الولادة، ولكن ذلك لا يغنيها عن الإحساس بألم شديد. أما العرجاء، فتذهلها المفاجأة، وتتراخى قبضتها بعض الشيء.

الأنثى تنفلت وتعدو، ثم تطير كي تسرع في الإبتعاد. خفق أجنحتها يثير غيمة من غبار تُعجز مُطاردتيها عن العثور عليها. لا بد لها الآن من الوصول سريعاً إلى سطح القبة.

كانت قاب قوسٍ أو أدنى من الموت. ها هي الآن على أبواب حياة جديدة.

مقتطفات من الخطاب الذي ألقاه ادمون ويلز أمام لجنة التحقيق التابعة للجمعية العمومية [الفرنسية]، حول موضوع معسكرات النمل ـ الألعاب:

«أمس، رأيت في المحلات التجارية هذه الألعاب الجديدة

التي تقدم إلى الأولاد في عيد الميلاد. إنها عبارة عن علب بلاستيكية شفافة مليئة بالتراب ومحتوية، بداخلها، على ستمائة نملة مع كفالة بوجود ملكة بياضة بينها.

هذه النمال ترى وهي تعمل وتحفر وتعدو، داخل العلب.

الأمر مثير جداً بالنسبة للولد. يشعر كأن مدينة برمتها قد أهديت إليه. مع فارق أن سكانها صغار الأجسام. كمئات من العرائس الصغيرة الحية والقادرة على الحركة بشكل مستقل تماماً.

ولكي أقول لكم كل شيء، لا بد لي من الإعتراف بأنني أمتلك، أنا بالذات، معسكرات نمل مشابهة. ذلك أن طبيعة عملي، كعالم أحياء، تفرض عليّ القيام بدراستها. وها هي ذي موجودة عندي في أكثر من حويْض (أكواريوم) مقفل بالكرتون الراشح للهواء.

إن شعوراً غريباً ينتابني كل مرة أقف فيها أمام أحد معسكرات النمل هذه. أشعر كما ولو أنني أمتلك سلطة مطلقة على تلك النمال. كما ولو أنني إله لتلك النمال...

نمالي كلها تموت لو رغبت في حرمانها من الغذاء. يكفيني، إذا ما انتابتني نزوة إسقاط المطر، أن آخذ كأساً من الماء وأن أرشه فوق مدينتها بالمرشة. يكفيني، إذا ما شئت أن أرفع درجة الحرارة في محيطها، أن أحملها وأضعها قريباً من المدفأة. يكفيني، إذا ما أردت التقاط إحداها لفحصها بالمجهر، أن آخذ ملقطي وأن أغرزه في الحويْض. وإذا ما ركبني النزق

وأردت قتل بعضها، فإنها لا تملك أن تقاوم. لا يتيسر لها حتى فهم ما يجري لها.

أقول لكم، أيها السادة، أن تسلطنا على تلك الكائنات باهظ التكاليف بالنسبة لها. لا لشيء إلا لأنها ضئيلة بأجسامها.

من جهتي، لا أتعدى حدودي في التعامل معها. ولكنني أتصور أن الولد... يمكنه، من جهته، أن يصنع بها ما يشاء.

أحياناً تخطر ببالي فكرة حمقاء، عندما أنظر إلى مدن النمل تلك. أقول في نفسي! ماذا لو كنا نحن في ذلك الرمل؟ ماذا لو كنا نحن أيضاً سجناء في حويْض كبير تهيمن علينا كائنات عملاقة أخرى؟

ماذا لو أن آدم وحواء لم يكونا غير كائنين تجريبيين تم وضعهما في إطار مصطنع لـ «رؤية» ما يكون منهما؟

ماذا لو أن طردهما من الجنة ـ على ما تقوله التوراة ـ لم يكن غير نقلهما من حويْض ـ سجن إلى حويْض ـ سجن آخر؟

ماذا لو أن الطوفان لم يكن غير كأس من الماء سكبه إله طائش أو إله فضولي؟

ستقولون بأن ذلك مستحيل. أو، كيف لنا أن نعرف... الفرق الوحيد هو في أن نمالي رهينة جدران من زجاج في حين أننا، نحن، سجناء قوة فيزيائية هي جاذبية الأرض!

غير أن نمالي تتوصل إلى اختراق الكرتون. بعضهن نفذن

منه وهربن. ملكنا عندما نتوصل إلى إطلاق الصواريخ التي تحطم حواجز الجاذبية.

لنعد الآن إلى مدن الحويْض. سبق وقلت لكم منذ قليل، بأنني أتصرف معها كإله رؤوف رحيم، بل حتى كإله متطير. لا أعذب عبادي مطلقاً ولا أحب لهم ما لا أحبه لنفسي.

ولكن آلاف معسكرات النمل التي تباع في أعياد الميلاد، ستحول الأولاد إلى آلاف الآلهة الصغيرة. هل سيكون الأولاد رؤفاء رحماء مثلي؟

من الأكيد أن أكثرهم سيفهمون بأنهم مسؤولون عن مدينة وبأن ذلك يعطيهم حقوقاً ويلقي عليهم واجباتٍ ذات طبيعة إلهية: توفير الرزق للنمال، تأمين درجة الحرارة المناسبة لها، عدم قتلها لمجرد التلذذ.

غير أن الأطفال، والصغار منهم على وجه التحديد، أولئك الذين لم يرتفعوا بعد إلى مستوى المسؤولية، يتعرضون إلى الكثير من الضواغط وأشكال الضيق والمعاكسات: كالرسوب في الإمتحانات وكالمشاجرات مع الأهل والأصدقاء. في فورة الغضب، يمكنهم تماماً أن ينسوا واجباتهم بوصفهم «آلهة صغيرة». وهنا، لا أجد الجرأة على تخيل مصير «رعاياهم»...

إنني لا أطالبكم بالتصويت لصالح هذا القانون الذي يحظر تحويل معسكرات النمل إلى ألعاب بدافع الشفقة على النمل، أو باسم الدفاع عن حقوق النمل كحيوانات. فالحيوانات ليس لها أي حق، وها نحن ننتجها في الحواضن الآلية لنضحي بها على

مذابح الإستهلاك. لكنني أطالبكم بالتصويت لصالح هذا القانون بعد أن تتخيلوا بأننا قد نكون، نحن البشر، سجناء وموضوعات للدراسة داخل بنيات عملاقة. هل يمكنكم أن تتمنوا أن تصبح الأرض، يوماً ما، هدية تقدم في عيد الميلاد لإله غير مسؤول؟».

الشمس في كبد السماء.

المتأخرون من الذكور والإناث يتزاحمون في الممرات المفضية إلى سطح المدينة. عاملات تدفعنهم، تلحسنهم، تشجعنهم.

الأنثى رقم 56 تغطس، قبل فوات الأوان، في هذا الزحام المتماوج فرحاً وحبوراً في ضباب الروائح المتمازجة. لا يمكن لأحد أن يميز رائحتها في هذا الزحام. تسلم نفسها لتيار أمواج أخواتها، فتتقدم نحو الأعلى، تجتاز الأحياء التي لم تكن تعرفها من قبل.

فجأة، تصادف، في زاوية أحد الممرات، شيئاً لم يسبق لها أن رأته. إنه ضوء النهار. لم يكن، عندما ظهر لها أول ما ظهر، غير هالة طفيفة فوق الجدران، لكنه لم يلبث أن صار شعاعاً وهاجاً يبهر الأبصار. ها هي أخيراً تلك القوة الخفية التي طالما كانت تصفها الحاضنات. إنه النور، النور الدافىء الناعم الأخاذ. ها هوذا الوعد بعالم جديد مذهل.

سكرت لكثرة ما جرعت بحدقتيها من فوتونات(*) الضوء الخام. سكرت، كما ولو أنها أسرفت في ارتشاف العسيل المختمر في الطابق الثاني والثلاثين.

الأميرة رقم 56 تواصل التقدم. الأرض مرصعة ببقع بيضاء صارخة. تتعثر في فوتونات الدفء. الفرق عنيف بين هذا وذاك، بالنسبة لمن عاش طفولته تحت الأرض.

(*) جزئيات صغيرة يتكون منها الضوء.

تنعطف من جديد. فرشاة ترشقها بالضوء الصرف، يتسع الضوء، يصير دائرة تبهرها. ثم يصير غلالة من فضة. تتراجع من وطأة زخات الضوء المنهمر. تحس حبيبات الضوء تَغَلْغَلُ في عينيها، تُحرق أعصاب الرؤية فيها، تنهش أدمغتها الثلاثة. ثلاثة أدمغة... ورثتها عن الأجداد الديدان التي كانت تمتلك عقدة عصبية في كل حلقة من حلقات أجسادها، جهازاً عصبياً في كل جزء من أجزاء أجسادها.

تتقدم ضد رياح الفوتون. تلوح لها في البعيد أشْدافُ الأخوات... أشباح يَلْقِفُها الضوء.

تتقدم، تتقدم. يَحْمَىٰ درع جمجمتها. ذلك الضوء الذي حاولوا وصفه لها آلاف الممرات يَجِلُّ عن اللغات. يُعاش ولا يوصف! تعطف بالفكر على هاتيك العاملات اللواتي ينتمين إلى فئة «البوابات» ويقضين كل حياتهن سجينات داخل المدينة لا يعرفن الخارج وشمس الخارج.

تمرق في جدار الضوء لتجد نفسها في الجهة الأخرى، خارج المدينة. عيونها ذات الأوجه المتعددة تتكيف قليلاً قليلاً. يلسعها وخز الهواء البري. هواء بارد، متحرك، عبق. على خلاف الهواء المدجن الذي عرفته في عالمها السابق.

قرناها يرتعشان. تجد صعوبة في توجيههما الوجهة التي تشاء. على وجهها يصطفقان. يلعب بهما تيار الهواء.

هناك، في أعلى القبة، عاملات مشغولات بالإستقبال. يأخذنها من قوائمها، يساعدنها لتنتصب، يدفعنها إلى الأمام، في زحام الذكور والإناث. مئات من الذكور والإناث يموجون ويزدحمون في الرقعة الضيقة. تدرك الأميرة أنها على مدرج الطيران. طيران الزفاف. تدرك أن عليها أن تنتظر... حتى يتحسن الطقس.

الريح تواصل ارتكاب ما ترتكبه من حماقات، وعشرات العصافير الدواري تكتشف التجمع. تجمع الذكور والإناث. تهيج لرؤية الغنيمة فتزداد اقتراباً في تحليقها من المكان. وعندما تبالغ في الإقتراب ترشقها الراشقات

المتمركزات في إكليل حول القمة برشقات من الحامض.

ها أحَدُ العصافير يجرب حظه في هذه اللحظة بالذات. يرمي بنفسه في المعترك. يلتقط ثلاث إناث ويطير! ولكن الجريء يسقط قبل أن يرتفع تحت وابل الراشقات. يتمرغ بين الأعشاب بشكل مثير للشفقة، دون أن يتخلى عن النمال التي يقبض عليها بمنقاره على أمل التمكن من مسح السم القاتل عن جناحيه.

لتأخذ العصافير كلها درساً وعبرة من هذا! يبدو أن العصافير قد اعتبرت، فابتعدت قليلاً... ولكن ذلك لا يخدع أحداً. فهي لن تبطىء في العودة لإختبار قدرة الدفاعات الجوية، مرة أخرى.

الضواري: ما كان سيكون من أمر حضارتنا البشرية لو أنها لم تتخلص من الضواري الرئيسية بالنسبة لها من قبيل الذئاب والأسود والدببة والسِّماع؟(*)

من المؤكد أنها كانت ستكون حضارة قلقة لا تتوقف عن إعادة النظر في ما هي فيه.

فالرومان كانوا يحضرون جثة إنسان ويضعونها وسط موائد شرابهم ولذائذهم، لكي لا ينسوا مشاعر الخوف. كان ذلك يذكرهم بأنهم لم يكسبوا المعركة، وبأن الموت حاضر يمكنه التدخل في أية لحظة.

ولكن إنسان العصر حطم جميع الفصائل الحيوانية التي يمكنها أن تأكله، وأزالها من الوجود، أو وضعها في المتاحف، وبذلك لم يعد هنالك من شيء يقض مضجعه غير الجراثيم و، ربما، النمال. أما الحضارة النملية، فقد تطورت،

(*) Lycaon سِمْع، جمع سماع. حيوان مفترس من فصيلة الكلبيات.

من جهتها، دون أن تتوصل إلى إزالة الضواري الرئيسية بالنسبة لها. وكانت النتيجة أن هذه الحشرة تعيش حالة إعادة نظر دائمة في ما هي فيه. فهي تعرف أنها لم تقطع غير نصف الطريق، لأن أي حيوان غبي يمكنه أن يدمر، بضربة واحدة من قائمته، ثمار ألوف السنين من تجاربها المتأنية.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الريح تهدأ وتيارات الهواء تقل ودرجة والحرارة ترتفع. إنها الدرجة الزمنية الثانية والعشرون، والمدينة تقرر إطلاق أبنائها.

الإناث، كل منهن تدير محركات أجنحتها الأربعة. إنهن جاهزات. جاهزات تماماً. كل هذه الروائح التي تطلقها ذكور بلغت ميعة الصبا دفعت شهوات الإناث الجنسية إلى مداها الأقصى.

أوائل العذراوات يطرن بأبهة فاتنة. يرتفعن إلى علو مئة رأس و. . . تزدردهن العصافير. لا تفلت منهن واحدة.

على الأرض، تعم الحيرة ويسود الإرتباك. ولكن، لا مجال للتراجع. موجة ثانية تقلع بدورها. أربع إناث من أصل مئة يتمكن من اختراق حاجز الريش والمناقير. تنطلق الذكور في إثرهن في أسراب متراصة. العصافير لا تتعرض للذكور. لا تلتفت الدواري إليها لشدة هزالها.

موجة ثالثة من الإناث تنطلق ميمّمة وجهها شطر الغيوم. أكثر من خمسين عصفوراً تقطع الطريق. مجزرة حقيقية. لا تفلت واحدة. العصافير تتكاثر وتتكاثر، كما ولو أنها على موعد. دواري، شحارير، حمر الرقاب، شراشير، حمائم. كل ذلك يملأ الرحب الأعلى ويزقزق. إنه العيد، بالنسبة للعصافير، أيضاً!

تقلع الآن دفعة رابعة. وهنا أيضاً، لا تنجو منها ناجية. تصطرع العصافير فيما بينها، لأجل الإستيلاء على أفضل اللقم.

الراشقات تثور أعصابهن. عامودياً، يطلقن حامض الفورميك بكل ما أوتين من قوة في غددهن العاصرة. لكن الطيور أبعد من أن تكون في مجال الرشق. يسقط رذاذ الحامض مطراً فوق المدينة فيحدث العديد من الخسائر والجروح.

بعض الإناث يستولي عليهن الذعر. يتخلين عن فكرة الإقلاع. يبدو لهن أن اجتياز الحواجز مستحيل. يفضلن النزول إلى الحجرات، للالتحاق فيها ببعض الأميرات المقعدات وممارسة الحب هناك.

الدفعة الخامسة تتهيأ. تستعد للتضحية الكبرى. يجب اجتياز حاجز المناقير مهما كان الثمن! سبع عشرة منهن يجتزن الحاجز، في أثرهن ثلاثة وأربعون من الذكور.

الموجة السادسة: اثنتا عشرة أنثى يعبرن!

الموجة السابعة: ثلاث وأربعون!

الأنثى رقم 56 تحرك أجنحتها. ليست بها الجرأة على الإقلاع بعد. قبل قليل، سقط رأس إحدى أخواتها أمام وجهها، في إثره نتفة من زغب مشؤوم. كانت تود لو تتعرف على الخارج الفسيح. آه، وطدت عزمها على الإنطلاق!

أتنطلق مع الدفعة الثامنة؟ لا. . . حسناً فعلت، لأن الدفعة التُهِمت بأكملها.

الأميرة ترتجف وجلاً. تحرك أجنحتها من جديد وترتفع قليلاً. أجنحتها تعمل بشكل جيد، على الأقل. لا مشكلة في الأجنحة. المشكلة هي في أن الرأس. . . يستولي عليها الذعر. لا يجب أن تفقد صوابها. إمكانيات النجاح ضئيلة جداً.

الرقم 56 تتوقف عن تحريك أجنحتها. ثلاث وسبعون أنثى من الدفعة

التاسعة يجتزن الحواجز. العاملات يطلقن فيرومونات التشجيع. ينتعش الأمل من جديد. هل تنطلق مع الدفعة العاشرة؟

في غمرة ترددها، تلتقط فجأة، رائحة تقترب منها. إنها رائحة العرجاء الصغيرة والقاتلة الكبيرة التي انطفأت عيناها قبل قليل. ما الذي يمكن أن يدفعها إلى حزم أمرها أكثر من هذا؟ تنطلق بوثبة واحدة. خلفها تنطبق الملاقط على الفراغ. كادت الملاقط أن تفعل فيها فعلها.

تتوقف الأنثى 56 للحظة، في الهواء، بين سطح المدينة وغيمة العصافير. تلفها انطلاقة الدفعة العاشرة. تستفيد من ذلك وتمضي علواً نحو هاوية الفضاء. جارتاها، من هنا ومن هنا، تُبتلعان. أما هي فتمرق بغتة بين مخالب قرقف.

مسألة حظ، ليس إلا.

عشر إناث من الدفعة العاشرة اجتزن الحواجز بسلام. لكن الأنثى رقم 56 لا تستسلم للأوهام. لم تجتز بعد غير الإختبار الأول. تنتظرها الآن اختبارات أكثر صعوبة بكثير. إنها تعرف الأرقام. تعرف أن من بين كل ألف وخمسمائة أميرة تطير، عشر يرجعن إلى الأرض سالمات. منهن، في أكثر الإحتمالات تفاؤلاً، أربع يتمكن من إقامة مدن لهن.

أحياناً عندما: أحياناً عندما أتنزه خلال فصل الصيف، ألاحظ أن قدمي تكاد تقع على حشرة كالذبابة، أركز النظر إليها، فاجد أنها ملكة من ملكات النمل. وعندما نعثر على ملكة منها، فإن ذلك يعني وجود ألف ملكة حولها. تسحقهن أحذية الناس أو ترتطمن بزجاج السيارات. يكنَّ منهكات، لا قدرة لهن على التحكم بطيرانهن. مدن كثيرة تزول هكذا، بضربة صغيرة من مسَّاحات زجاج السيارات فوق طرقات الصيف.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

كانت الأنثى رقم 56 أجنحتها الشفافة بمنتهى النشاط عندما لاحظت أن جدران الريش خلفها قد انطبقت على الدفعتين الحادية عشرة والثانية عشرة. يا للمسكينات. خمس دفعات أخرى من الإناث، وتكون المدينة قد لفظت كل آمالها.

تكف عن التفكير في ذلك وهي تهيم في غمرة اللازورد اللامتناهي. لا شيء غير الأزرق الأزرق! الأمر في غاية الإثارة بالنسبة لنملة لم تعرف من قبل غير الحياة تحت الأرض. يُخيل إليها أنها تتحرك في عالم آخر. غادرت الممرات الضيقة لتجد نفسها في فضاء يديخ الرؤوس. في فضاء ينفجر ويطير في الأبعاد الثلاثة.

بحدسها تكتشف كل ما تمتلكه من إمكانيات الطيران. تعلو، عندما تغير زاوية سرعة الحركة في أجنحتها. تهبط. تسرع... تلاحظ أن بإمكانها أن تحقق انعطافاً كاملاً إذا ما غرزت أطراف أجنحتها في محور وهمي دون أن تتردد في وضع جسمها في زاوية تزيد عن 45 درجة.

الأنثى رقم 56 تكتشف أن السماء ليست فارغة. فهي، على العكس من ذلك، مليئة بالتيارات. بعض التيارات تسحبها، يشدها نحو الأعلى. بعضها يجعلها تهبط نحو الأسفل. لا تمكن متابعتها إلا بملاحظة الحشرات التي تطير أمامها. حركات تلك الحشرات هي التي تمكن من توقع وجهة سيرها...

تشعر بالبرد، فالطقس بارد في الأعالي. هنالك زوابع ودوامات من الهواء الحار أو البارد تجعلها تدور كما يدور الخذروف.

مجموعة من الذكور تطير خلفها. تسرع الأنثى رقم 56 أمام الذكور، لكي لا يلحق بها غير الأسرع والأكثر عناداً. إنه الإنتقاء الجيني الأول.

تشعر بشيء يلمسها. ذكر يلتصق ببطنها، يتسلقها، يعتليها. إنه كبير الجثة. يكف عن تحريك أجنحته فيزداد ثقلاً.

يجبرها ذلك على الهبوط شيئاً فشيئاً. الذكر يتقلقل فوقها لأن حركة

أجنحتها تعيقه في عمله. يفقد توازنه تماماً ولكنه يثني بطنه لكي يصل بإبرته إلى عضوها الأنثوي.

تنتظر الإحساسات بفضول. إرتعاشات لذيذة تبدأ باكتساح جسمها. تولد في ذهنها فكرة من شدة اللذة. فجأة، تطوح بنفسها نحو الأمام، ثم تنقض نحو الأسفل. شيء يبعث على الجنون! إنها النشوة الكبرى! السرعة والجنس يكونان أول وأكبر مركب من مركبات اللذة عندها.

صورة الذكر رقم 327 تعبر ذهنها. الريح تنفخ بين شعيرات عينيها. نسغ لاذع يرتعش له قرناها. بعض أفكارها تستحيل بحوراً متلاطمة. سوائل غريبة تسيل من جميع غددها. تمتزج لتشكل حساءً يجيش ويصب في فلقتي دماغها.

تطير الآن فوق هام الأعشاب. تجمع قواها وتعود إلى تحريك أجنحتها. تصعد كالسهم، ثم تستوي في طيرانها. الذكر لا يشعر أنه في حال حسنة. قوائمه ترتعد، ملاقطه تنفتح وتنغلق دونما سبب. يتوقف قلبه عن الحركة، فيخر ساقطاً بلا حراك...

الذكور مبرمجة، عند معظم الفصائل الحشرية، لتموت بعد أول اتصال جنسي لها. لا حق لها بأكثر من مرة واحدة. مرة واحدة وفاعلة. فما أن تخرج الحيوانات المنوية من أجسامها، حتى تسحب معها الحياة من تلك الأجسام.

عند النمال، يموت الذكر بعد القذف. عند بعض الفصائل الأخرى، تقوم الأنثى، وهي في عز نشوتها. بالتهام ولي نعمتها. لا لسبب إلا لأن مشاعرها فتحت شهيتها.

لا بد من التسليم للواقع: عالم الحشرات هو، بالإجمال، عالم للإناث، وعلى وجه الدقة، عالم للأرامل. ليس فيه للذكور غير مرور عابر...

ذكر آخر يعتليها. مات سيد فقام سيد! يأتي ذكر ثالث، ثم تتكاثر من

خلفها الذكور. الأنثى رقم 56 لا وقت لديها للحساب. سبعة عشر ذكراً أو ثمانية عشر تتناوب عليها لتملأ خزانتها المنوية بالحيوانات الطازجة.

تشعر بالماء الحي يغلي في بطنها. بطنها محشر سكان مدينتها المستقبلية. ملايين من الخلايا الجنسية المذكرة ستمكنها من أن تبيض كل يوم طيلة خمسة عشر عاماً.

حولها أخوات أخريات. يشاطرنها الإنفعالات. السماء مليئة بالإناث الطائرة. فوق كل منها ذكر أو أكثر. عدة ذكور فوق أنثى واحدة. قوافل حب معلقة بالغيوم. تلك السيدات سكِرْنَ تعباً وسعادة. لم يَعُدْن الآن أميرات؛ صرن الآن ملكات. تراكمات النشوة أنهكتهن حتى فقدن القدرة على التحكم بوجهة طيرانهن.

إنها اللحظة المناسبة لأربع سنونوات انطلقت معاً من شجرة كرز مزهرة. لا تطير السنونوات، بل تنزلق بين أسجاف السماء بتصميم مرعب... تنقض السنونوات فاغرة مناقيرها على النمال المجنحة وتزدردها الواحدة تلو الأخرى. السنونوات تطارد الملكة رقم 56 كما تطارد غيرها.

النملة رقم 103683 في قاعة المستكشفات. تريد أن تتابع التحقيق وحدها باختراق مدينة الأرضة الشرقية. ولكنها تلقت عرضاً بالإنضمام إلى مجموعة من المستكشفات تنوي الخروج لـ «اصطياد التنين». فالواقع أنه قد تم الكشف عن حرذون يجوس في منطقة الرعي التابعة لمدينة زوبي ـ زوبي ـ كان التي تمتلك أكبر مجموعة من قطعان البرغثان في الفيدرالية كلها ـ تسعة ملايين برغثان حلوب! والحقيقة أن وجود واحد من هذه الزواحف في المنطقة من شأنه أن يلحق أبلغ الضرر بأعمال الرعي.

ولحسن حظ الرقم 103683، كان موقع زوبي ـ زوبي ـ عند الحدود الشرقية للفيدرالية، في منتصف الطريق تماماً بين مدينة الأرضة وبيل ـ او ـ كان. لذا، وافقت النملة رقم 103683 على الإنطلاق مع البعثة المذكورة. وبذلك لا ينتبه لرحيلها أحد.

المستكشفات الأخريات يتهيأن للرحلة باهتمام فائق. يملأن بطونهن

الإجتماعية باحتياطي السكر اللازم لتوليد الطاقة ويترعن جيوبهن الخاصة بتخزين حامض الفورميك. وبعد ذلك، يضمخن أنفسهن بلعاب البزاق للوقاية من البَرْدِ وكذلك (كما اكتشفن أخيراً)، ضد غبيرات الاترناريا.

يتحدثن عن اصطياد الحرذون. بعضهن يقلن بأنه شبيه بالسُرفوت أو بالضفادع، ولكن أكثرية المستكشفات الاثنتين والثلاثين تجمع على أن صيده أصعب بكثير.

إحدى المستكشفات المتقدمات في السن تزعم أن الحراذين تمتلك القدرة على إعادة إنبات أذنابها، إذا ما حدث لها وقطعتْ! بقية المستكشفات يسخرن من قولها. . . مستكشفة أخرى تؤكد بأنها رأت واحداً من هذه الوحوش وهو يقف ساكناً كالحجر ويستمر كذلك لمدة عشر درجات زمنية. كلهن يروين قصصاً عن جداتهن البيلوكانيات وهن يقارعن تلك الوحوش بالملاقط ليس إلا ـ لم يكن استخدام حامض الفورميك شائعاً كما هو اليوم.

الرقم 103683 لا تستطيع كتم ارتعاشة خوف. لم يسبق لها أن رأت حرذوناً، والإقدام على مهاجمته بالملاقط العارية، أو حتى بالحامض، ليس مما يبعث على الإطمئنان. تقول في سرها بأنها ستفر من وجهه عند أول فرصة. فالتحقيق الذي تقوم به عن «سلاح الأرضة السري» هو، في نهاية المطاف، أكثر أهمية وحيوية بالنسبة للمدينة من رحلة عادية للصيد الرياضي.

المستكشفات جاهزات. يصعدن داخل ممرات الحزام الخارجي ثم يخرجن إلى الضوء من بوابة الخروج رقم 7 المعروفة باسم «بوابة الخروج الشرقية».

عليهن، في البداية، أن يغادرن ضاحية المدينة. ليس الأمر سهلاً، لأن حفافي بيل ـ او ـ كان تعج بالعاملات والمحاربات. وكل واحدة منهن منهمكة أكثر من أختها.

أسراب عديدة. بعض النمال تحمل أوراقاً. بعضها الآخر ثماراً، أو

حبوباً، أو أزهاراً، أو فطريات. نمال أخرى تنقل أعشاباً أو حصى لاستخدامها كمواد بناء. ونمال أخرى تسحب الطرائد... عجاج كبير من الروائح.

الصيادات يقمن بشق طريق لهن في الزحام. حركة السير تتحسن بالتدريج. تضيق الجادة لتصبح طريقاً لا يزيد عرضه عن ثلاثة رؤوس (تسعة ملليمترات)، ثم عن رأسين، عن عن رأس واحد. لا بد أنهن قد ابتعدن الآن عن المدينة لأنهن لم يعدن يلتقطن الرسائل الجماعية. لقد قطعت المجموعة حبل سرتها الشمي وأصبحت وحدة مستقلة. تتقدم المجموعة في التشكيل المعروف باسم «نزهة»، حيث تصطف النمال في صفين متوازيين.

يلتقي التشكيل، بعد قليل، بمجموعة أخرى. مجموعة من المستكشفات أيضاً. هذه المجموعة مرت، على ما يبدو، بتجربة قاسية. ليس في أفرادها نملة واحدة غير معطوبة. ليس فيهن من لم يُبتر أحد أطرافها. بعضهن بقائمة واحدة يتشحطن بشكل محزن. لكن الأمر ليس بأفضل لهاتيك اللواتي صرن بغير بطن، أو بغير قرون.

النملة رقم 103683 لم يسبق لها أن رأت محاربات عُطِبْنَ بهذه الصورة، منذ حرب الأقحوان. لا بد وأنهن تعرضن لأمر مهول... كالسلاح السري، ربما؟

103683 تريد أن تحاور محاربة ضخمة الجثة كُسِرَ ملقطاها الطويلان. من أين قدمتن؟ ما حل بكن؟ الأرضة؟

تتمهل المحاربة في سيرها، ودون أن تحير جواباً، تقبل عليها بوجهها. يا للفظاعة، محجرا عينيها فارغان! وجمجمتها مشقوقة من الفم حتى مفصل الرقبة.

تنظر إليها وهي تبتعد. تبتعد ثم تسقط لكي لا تنهض بعد ذلك أبداً. لكنها تجد في نفسها بعض القوة فتزحف مبتعدة عن الطريق... لكي لا تعيق المرور بجثتها.

تحاول الأنثى رقم 56 أن تهبط رأسياً لكي تفلت من طائر السنونو. ولكن الطائر يفوقها سرعة بعشرة أضعاف. المنقار الكبير يلقي ظله الآن على أطراف قرنيها. المنقار يغطي رأسها وصدرها وبطنها. يتجاوزها. ملمس سقف حلق الطائر شيء لا يطاق. ينطبق المنقار. إنتهى الأمر.

التضحية: عندما تنظر إلى النملة، يتراءى لنا أنْ لا شيء يحفزها غير طموحات خارجية لا علاقة لها بوجودها الخاص. فرأس النملة المقطوع عن جسدها يحاول أن يكون مفيداً فيعض قوائم الأعداء أو يقطع حبة. وصدر النملة يجرجر نفسه ليسد منفذاً قد ينفذ منه الأعداء.

نكران للذات؟ تعصب أعمى للمدينة؟ حيوانية منشؤها الروح الجماعية؟

لا. فالنملة تعرف أيضاً كيف تعيش بمفردها. فهي لا تحتاج إلى الجماعة. ويمكنها أيضاً أن تثور.

ولكن، لماذا تضحي بنفسها؟

يمكنني أن أقول، إنطلاقاً مما توصلت إليه في أبحاثي، بأنها تفعل ذلك على سبيل التواضع. يبدو أن موتها لا يشكل حدثاً كافياً لصرفها عن إنجاز ما كانت قد بدأته قبل لحظات.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

المستكشفات يجانبن، في سيرهن، الأشجار وتلال التراب وأدغال الشوك ويواصلن التقدم نحو الشرق الشرير.

الطريق تضيق، ولكن فرق العمل في إصلاح الطرق لا تزال موجودة، لأن إهمال الطرق بين مدينة وأخرى أمر غير وارد. عاملات يقتلعن

الطحالب، ينقلن العشيبات التي تسد المنافذ، يعلقن إشارات شمية تفرزها عندهن غدة ديفور.

العاملات اللواتي يصلحن الطريق بالإتجاه المعاكس لإتجاه المستكشفات يتضاءل عددهن مع الإبتعاد التدريجي عن المدينة. إنهن الآن نادرات. غير أن فيرومونات المرور تُشم بوضوح: «عند التقاطع رقم 29، تنحرف الطريق لجهة أشجار الزعرور!». ربما كان ذلك بسبب اكتشاف آخر آثار كمين نصبته حشرات معادية.

تنتقل النملة رقم 103683، في مسيرها، من مفاجأة إلى مفاجأة. لم يسبق لها مطلقاً أن جاءت إلى هذه المنطقة. تشاهد فطريات من فصيلة بوليطس الشيطان (bolet Satan) يبلغ ارتفاعها تسعين رأساً! علماً بأن هذه الفصيلة من الفطريات هي من الفصائل المميزة للمناطق الغربية.

تشاهد فطريات الـ «سَتير» (Satyre) التي تجذب الذباب برائحتها الكريهة النتنة، وتتعرف إلى الفطر المسمى بـ «فقع الذئب» (Vesses de loup) المتلألىء. تتسلق قوقعاً (chanterelle) وتشعر بالسعادة وهي تدوس لحمه الطري.

تكتشف كثيراً من صفوف النبات الغريب. قنّب بري تجتمع فوق أزهاره قطرات الندى. حذاء فينوس (Sabots de Vénus)، تلك النباتات المخيفة، رجل الهر (Pied de chat)، تلك النباتات بسيقانها الطويلة...

تقترب من نبتة بلسمين (impatiente) أزهارها شبيهة بأشكال النحل، لا تأخذ حذرها وتلمسها فتنفجر ثمارها الناضجة في وجهها وتغطي كامل جسمها ببذور صفراء دبقة! من حسن حظها أنها لم تلمس فطر الألترناريا.

لا تضعف همتها لذلك فتتسلق نبتة شقار (anémone fausse) لتنظر من فوقها إلى السماء عن كثب. فتشاهد النحل في الأعالي وهي ترسم بحركاتها شكل 8 لتدل صاحباتها على مواقع الأزهار ذات الطلع.

يزداد المكان توحشاً. روائح غامضة تنتشر هنا وهناك. مئات الكائنات

الصغيرة غير المعروفة تفر في جميع الإتجاهات. لا تُرى إلا من خلال ما تحدثه من حفيف في الأوراق اليابسة.

تعود النملة رقم 103683 لموافاة المجموعة والحكاك لا يزال يلسع وجهها. تصل، والحكاك على حاله، إلى مشارف زوبي - زوبي - كان. يخالها الرائي من بعيد أجمة كسائر الآجام. لولا الرائحة والطريق الممهدة، ما كان لأحد أن يعرف أن مدينة موجودةً في الناحية. فالحقيقة أن زوبي - زوبي - كان هي مدينة صهباوية تقليدية بجذع وقبة من الغصينات ومطارح للنفايات. ولكن كل شيء مخفي تحت الشجيرات.

مداخل المدينة مرتفعة. تكاد تكون معلقة بمحاذاة قمة القبة. يتم الوصول إليها بعد تسلق جب من نبات السرخس وسيقان ورد بري. المستكشفات يتسلقن نحو المداخل.

المدينة تعج بالحركة. يصعب تمييز دويبات البرغثان لأن ألوانها شبيهة بألوان أوراق الشجر. قرن منتبه وعين واعية يميزان، مع ذلك، آلاف الدويدات الخضراء التي تنمو على مهل بمقدار ما «ترتعي» نسغ الأوراق.

إتفاق تم التوصل إليه منذ القدم بين النمل والبرغثان. البرغثان يقدم الغذاء للنمال، والنمال تقدم الحماية للبرغثان. بعض المدن تقص أجنحة «بقراتها الحلوب» وتعطيها روائح هويتها الخاصة. ذلك أيسر لحراسة القطعان...

وزوبي - زوبي - كان تمارس هذا النوع من المزاح الفظ. ولكي تبرىء ذمتها أو، ربما، لكي تكون أكثر حداثة، أقامت المدينة في طابقها الثاني زرائب ضخمة مجهزة بكل وسائل الراحة اللازمة لرفاهية البرغثان. وفي تلك الزرائب تقدم النمال الحاضنات كل العناية لبيوض برغثانها وتبدي نحوها صنوف الإهتمام الذي تبديه نحو بيوض النمال. وهذا ما يفسر، دون شك، ذلك النمو غير العادي للقطعان المحلية، كما يفسر حسن مظهرها.

النملة رقم 103683 تقترب، مع صاحباتها، من قطيع منهمك بامتصاص غصن ورد. يطرحن سؤالين أو ثلاثة أسئلة، ولكن قطيع البرغثان

يستمر في غرز خراطيمه في اللحم النباتي دون أن يعيرهن أدنى انتباه. ربما لا يعرف البرغثان، في نهاية المطاف، لغة الروائح المستخدمة من قبل النمال. . . المستكشفات يبحثن بقرونهن عن الراعية. لكنهن لا يعثرن على أية راعية.

وهنا، يحدث أمر مخيف: ثلاث دعسوقات(*) يلقين بأنفسهن وسط القطيع. هذه الوحوش المخيفة تنشر الذعر في صفوف دويبات البرغثان المسكينة التي لا تتمكن من الفرار بعد ما قطعت أجنحتها.

لكن مجيء هذه الذئاب يكون سبباً لعودة الراعيات. نملتان زوبيزوبيكانيتان تقفزان من وراء إحدى الأوراق. كانتا تختبآن لمفاجأة الكواسر الحمراء المبرقعة بالأسود. تصوبان وتصرعان الكواسر الثلاثة برشقات مركزة من الحامض.

ثم تسارعان إلى طمأنة قطعان البرغثان التي كانت ما تزال في حالة الهلع. تَحْلِبانها، تَرْبُتان على بطونها وتداعبان قرونها. عندها تَنِزُّ من البرغثان فقاعة كبيرة من السكر الشفاف. إنه العسيل الثمين. وفيما كانت الراعيتان الزوبيزوبيكانيتان ترتشفان من ذلك الشراب، عندما حانت منهما التفاتة فاكتشفتا وجود المستكشفات البيلوكانيات.

تتوجهان إليهن بالتحية. إتصالات بالقرون. إحدى البيلوكانيات تبث رائحة مفادها:

قدمنا لاصطياد الحرذون.

إذن، عليكن المضي قدماً نحو الشرق. فقد سجل وجود واحد من هذه الوحوش قريباً من موقع غايي - تيولوت.

وبدلاً من أن يعرضن عليهن التزقيم، على جري العادة، تقترح

(*) دعسوقة (coccinelle): حشرات من مضمدات الأجنحة؛ وهي تعرف أيضاً، في بعض لمناطق، باسم «بقرة الحسين».

الراعيتان عليهن أن يحتلبن ويشربن مباشرة، من الدويبات. المستكشفات لا يتمنعن ولا ينتظرن توجيه الطلب إليهن مرتين. تختار كل واحدة برغثانها وتبدأ بمداعبة بطنه ليخرج لها من عسيله الثمين.

في داخل الحلقوم، الظلام كثيف والرائحة كريهة والمكان لزج كالزيت. الأنثى رقم 56 مضمخة باللعاب. تنزلق الآن في حلقوم الطائر الكاسر. لم يَلُكْها لأنه بلا أسنان. لذا، بقيت كما هي، سليمة تماماً. لا يمكنها أن تستسلم. موتها يعني موت مدينة كاملة.

تبذل جهدها الأقصى وتغرز ملقطيها في اللحم الأملس. لحم البلعوم. هذا الفعل الإنعكاسي ينجيها. تشعر السنونوة بالغثيان فتعطس وتقذف بالطعام اللاذع خارجاً. الأنثى رقم 56 لا تبصر حولها. تحاول أن تطير، ولكن أجنحتها المضمخة باللعاب ثقيلة جداً. تسقط وسط النهر.

من حولها ذكور في النزع الأخير. فوقها، عشرون من أخواتها يطرن بغير انتظام بعد ما نَجَوْنَ من هجمة السنونو، الأخوات منهكات. لا يمكنهن أن يواصلن الطيران. ينخفضن.

إحداهن تحط فوق زهرة نيلوفر. يهرع إليها سرفوتان(*) يمسكان بها ويقطعانها إرباً. الملكات الأخريات يخرجن تباعاً من لعبة الحياة فور دخولهن في مناقير الحمائم أو أشداق الضفادع والمناجذ والأفاعي والخفافيش والدجاج والصيصان... في نهاية المطاف، كن ألفاً وخمسماية أنثى عندما طرن. لم يبق منهن غير ست.

منهن الأنثى رقم 56، نجت بأعجوبة. يجب أن تعيش. يجب أن تؤسس مدينتها وأن تحل لغز السلاح السري. تعرف أنها ستكون بحاجة للمساعدة، وأن بإمكانها أن تعتمد على جمهرة الأصدقاء من سكان بطنها. يكفي أن تخرجهم من بطنها...

(*) السرفوت: جنس من الزواحف الشبيهة بالحراذين.

عليها، قبل ذلك، أن تخرج من النهر. . .

تحسب زاوية إنعكاس شعاع الشمس، فتتمكن من تحديد النقطة التي حطت فيها فوق مياه النهر الشرقي. منطقة غير ملائمة، إذ وإن صح أن النمال موجودة في جميع جزر العالم، فإن أحداً لا يعرف كيف تمكنت من الوصول إليها؛ فهي التي لا تعرف السباحة.

ورقة تمر بالقرب منها. تتعلق بها بكل ما في ملقطيها من قوة. تحرك قوائمها الخلفية بشكل جنوني. ولكن هذا الشكل من أشكال الدفع لا يؤدي إلا إلى نتيجة بائسة. تمضي وقتاً طويلاً وهي تتخبط بهذه الصورة فوق الأمواج، قبل أن يتراءى أمامها ظل شيء ضخم. أهو فرخ ضفدع؟ لا، إنه أكبر من فرخ الضفدع بألف مرة. الأنثى رقم 56 ترى شكلاً طويلاً، بجلد أمسل مرقط. ترى ما لم تره من قبل قط. سمكة ترويت! القشريات الصغيرة كالبَلْعَطِ(*) وبراغيث الماء(**) تفر لدى رؤية الوحش القادم. يغوص الوحش ثم يعود فيطفو ويتوجه نحو الملكة المرتعبة المتشبثة بورقتها.

سمكة الترويت تنطلق بكل ما في زعانفها من قوة وتفقأ سطح الماء. موجة ضخمة تجعجع بالنملة في حين كانت السمكة تنتصب معلقة في الهواء وهي تَفْغُرُ عن شدق مسلح بأسنان صغيرة وتبتلع ذبابة كانت تطير متأرجحة فوق المكان. ثم تضرب السمكة بذنبها فتلتوي وتعود لتسقط في عالمها البلوري. . . تتلاطم الأمواج من سقطتها فيطغى على النملة الماء.

ضفادع تتمدد بأجسامها ثم تغوص متنافسة على الملكة وما فيها من كافيار. تطفو الملكة من جديد، لكن دوامة تسحبها، مرة أخرى، نحو أعماق خطرة. تغوص الضفادع في إثرها. تغيب النملة عن الوعي.

(*) Cyclope: حشرة قشرية تعيش في الماء ولها قوائم بحذافية.

(**) Daphnies: دويبات مائية صغيرة من فصيلة القشريات.

كان نيكولا يشاهد الإذاعة المرئية في قاعة الطعام مع صديقيه الجديدين جان وفيليب. حولهم يتامى آخرون بوجوه موردة يتأرجحون على شريط الصور المتتابعة.

سيناريو الفيلم يمر عبر عيونهم وآذانهم إلى ذاكرات أدمغتهم بسرعة 500 كم في الساعة. الدماغ البشري يمكن أن يخزن معلومات تصل إلى 60 مليار معلومة. وعندما تمتلىء هذه الذاكرات، يقوم الدماغ بعملية تنظيف تلقائية فينسى المعلومات التي يحكم بأنها أقل أهمية من غيرها. وبذلك، لا تبقى في الدماغ غير الذكريات المؤلمة والحسرات على الأفراح الماضية.

ينتهي المسلسل وتبدأ الإذاعة المرئية بعرض نقاش حول الحشرات. غالبية الأولاد ينهضون ويفترقون. علم الرّطانة(*) هذا لا يثير أحاسيسهم.

«بروفسور لودوك، إنك تُعتبر ـ أنت والبروفسور روزنفيلد ـ أهم أخصائي أوروبي في النمل. ما الذي دفعك إلى دراسة النمل؟

ـ ذات يوم، فتحت خزانة المطبخ في بيتنا، فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع سرب من هذه الحشرات. أمضيت ساعات طويلة في النظر إليها وهي تعمل، كان ذلك، بالنسبة لي، درساً في الحياة والتواضع. وبعد ذلك، أردت أن أستزيد في معرفتها... هذا كل شيء.

(*) رطانة: ثرثرة عقيمة غير مفهومة.

(يضحك).

ـ ما الذي يميزك عن ذلك العالم الجليل الآخر، البروفسور روزنفيلد؟

ـ آه، البروفسور روزنفيلد! ألم يتقاعد بعد؟(يضحك من جديد). لا، لسنا، في الحقيقة، في الوادي نفسه. فكما تعلمون، هنالك أشكال متعددة لـ «فهم» هذه الحشرات... في الماضي، كان الظن سائداً بأن جميع هذه الفصائل (أرضة، نحل، نمل) هي ذات نظام حكم ملكي. كان ذلك الظن بسيطاً، لكنه كان مجانباً للصواب. فملكة النمل لم تكن تتمتع بأية سلطة خارج سلطة الإنجاب، لا بل إن هنالك أشكال حكم عديدة عند النمال: حكم ملكي، حكم تمارسه فئة قليلة، حكم ثالوثي تمارسه المحاربات، حكم ديموقراطي، حكم فوضوي، الخ. ويحدث أحياناً أن يسخط المواطنون على الحكومة فيثورون وتقع «الحروب الأهلية» داخل المدن.

ـ شيء مثير!

ـ بالنسبة لي، وبالنسبة للمدرسة المعروفة بالمدرسة «الألمانية» التي أنتمي إليها، يرتكز تنظيم عالم النمال، بشكل أولوي، على تراتب الفئات، وعلى هيمنة الأفراد المنتمين إلى الفئة «ألفا». هذه الأفراد تتمتع بمواهب تفوق المتوسط وتقود جماعات العاملات... أما بالنسبة لروزنفيلد، وهو من المدرسة «الإيطالية»، فإن جميع النمال فوضوية من جذورها. ليس فيها أفراد من الفئة «ألفا» ولا مواهب تزيد عن المتوسط. ولا يكون

ظهور القادة أحياناً بأشكال عفوية مرتبطاً بالحاجة لإيجاد حلول لمشاكل عملية. فظهور القادة يتم بشكل مؤقت.

ـ لا أفهم جيداً.

ـ لنقل بأن المدرسة الإيطالية تعتبر أن أية نملة يمكنها أن تستلم القيادة بمجرد أن تطرح فكرة مبتكرة تهم الأخريات. في حين تعتبر المدرسة الألمانية أن النمال التي تضطلع بالمسؤوليات هي، مسبقاً، ذات «مميزات قيادية».

ـ أتصل المدرستان إلى هذا الحد من الإختلاف؟

ـ لقد وصل الأمر إلى حد التضارب بالأيدي في أحد المؤتمرات العالمية الكبرى... إذا كانت معرفة ذلك هي ما يهمك.

ـ إنها الخصومة القديمة بين العقليتين الساكسونية واللاتينية. أليس كذلك؟

ـ لا، ليس كذلك. المعركة شبيهة، من باب أولى، بالخلاف بين القائلين بـ «الفطري» والقائلين بـ «المكتسب». نكون أغبياء منذ الولادة، أم نصبح أغبياء فيما بعد؟ ذلك واحد من الأسئلة التي نحاول الإجابة عليها من خلال دراستنا لمجتمعات النمال!

ـ ولكن لماذا لا تجرون هذه التجارب عن الأرانب أو الفئران؟

ـ تفيدنا النمال بما تعطينا فرصة ثمينة لدراسة مجتمع أثناء

نشاطه، مجتمع مكون من ملايين عديدة من الأفراد. كما ولو أننا نشاهد عالماً كاملاً. لا توجد، على حد علمي، مدينة سكانها عدة ملايين من الأرانب أو من الفئران. . .

يلكزه بطرف كوعه.

ـ أتسمع هذا، يا نيكولا؟

نيكولا لم يكن يسمع. هذا الوجه، هذه العيون الصفراء، سبق له ورآها ذات مرة. أين؟ متى؟ يبحث في ذاكرته. بالضبط، إنه يتذكر. إنه الرجل الذي جاء يبحث عن المغلفات. زعم يومها أنه يُدعى غونيْ، ولكنه، هو نفسه، هذا الـ «لودوك» الذي يكال له المديح على شاشة الإذاعة المرئية.

هذا الإكتشاف أغرق نيكولا في هاوية من الأفكار المتلاطمة. إذا كان البروفسور قد كذب، فذلك لأنه كان يسعى إلى وضع يده على الموسوعة. لا بد وأن مضمونها مهم جداً لدراسة النمل. لا بد أنها كانت موجودة هناك، تحت، في القبو. كانوا جميعاً يطمعون في الحصول عليها: الوالد والوالدة ولودوك. لا بد من الذهاب الآن للبحث عن تلك الموسوعة اللعينة. عندها سيصبح بالإمكان فهم كل شيء.

ينهض.

ـ أين تذهب؟

لا يجيب.

ـ كنت أظن أن النمال تهمك.

مشى نحو الباب، ثم عدا مسرعاً إلى غرفته. لن يكون بحاجة إلى الكثير من الأمتعة. لا شيء سوى سترته الجلدية التي يتفاءل بارتدائها، وسِكِّينُهُ، وحذاؤه الكبير ذو النعل المطاطي.

ولم ينتبه له النظار، حتى عندما اجتاز القاعة الكبرى.

وهكذا، هرب نيكولا من الميتم.

عندما تنظر إلى غايي ـ تيولوت من بعيد، لا نميز غير شكل شبيه بمرتفع مستدير. كجُنوة الخِلد. فـ «الموقع المتقدم» هو عبارة عن معسكر نمل مصغر لا يسكنه غير قريب من مئة عنصر في الفترة الممتدة بين نيسان أبريل وتشرين الأول أكتوبر، ويكون خالياً تماماً طيلة الخريف والشتاء.

وكما هي الحال عند النمال البدائية، فإن هذا المعسكر لا ملكة فيه. ولا عاملات، ولا محاربات. كل نملة تقوم بجميع الوظائف في الوقت نفسه. لذا، لا تتردد النمال هنا في انتقاد المدن العملاقة وما يسود فيها من هياج واضطراب. النمال هنا تسخر من الزحام ومن إنهيارات الممرات ومن الأنفاق السرية التي تتحول المدينة معها إلى ما يشبه التفاحة المنخورة بالديدان. تسخر من العاملات العاليات التخصص واللواتي لا يعرفن ممارسة الصيد، ومن البوابات المكفوفات المسمرات لمدى الحياة في ثقوبهن.

النملة رقم 103683 تتفحص الموقع. غايي ـ تيولوت تضم مخزناً للحبوب قاعة رئيسية فسيحة. في سقف القاعة ثقبان تنزلق منهما أشعة الشمس لتكشف عن عشرات من تذكارات الصيد. جلود حيوانات مفرغة من أحشائها ومعلقة على الجدران. تصفر فيها تيارات الهواء.

النملة رقم 103683 تقترب من هذه الجثث العديدة الألوان. تقترب منها واحدة من السكان المحليين وتداعب قرنيها. تعرفها على هذه الكائنات الجميلة التي سقطت بفضل الحيل البارعة المبتكرة من قبل النمال. جميع

الحيوانات محنطة بحامض النورميك. إنه مادة لها فضلها أيضاً في حفظ الجثث.

صفوف مرتبة بعناية. فيها الفراشات والحشرات من مختلف الأنواع والأحجام والأشكال والألوان. ولكن حيواناً معروفاً واحداً لا وجود له في المجموعة: ملكة الأرضة.

النملة رقم 103683 تسأل عما إذا كانت هنالك مشالك مع الجيران من الأرضة. النملة المحلية ترفع قرنيها تعبيراً عن شعورها بالمفاجأة وتتوقف عن القضقضة بملقطيها. صمت ثقيل يخيم على المكان، إذ لا روائح متبادلة.

الأرضة!

قرناها يرتخيان. لم يعد عندها ما تقوله. عندها، على كل حال، عمل ينتظرها في سلخ أحد الحيوانات. لقد أضاعت ما يكفي من الوقت. إلى اللقاء. تستدير لتنصرف. لكن الرقم 103683 تستوقفها بإلحاح.

النملة الأخرى تبدو الآن في حالة ذعر شديد. قرناها يرتجفان بعض الشيء. من الواضح أن كلمة أرضة تثير لديها شعوراً مخيفاً وأنها لا تمتلك القدرة على مجرد الحديث حول موضوع الأرضة. تنسحب وتتجه نحو مجموعة من العاملات المستغرقات في معاقرة الشراب.

فبعد أن ملأت هاتيك العاملات بطونهن الإجتماعية بكحول عسل الزهور، جلسن في حلقة مقفلة يرتشفن الشراب من بطون بعضهن البعض.

صيادات خمس من اللواتي يمضين فترة الخدمة في الموقع المتقدم يدخلن ويحدثن بدخولهن جلبة كبيرة. يدفعن أمامهن دودة.

لقد وجدنا هذه. والعجيب أنها تُدِرُّ العسل!

الصيادة التي زفت النبأ تربت على الأسيرة بأطراف قرنيها، ثم تأخذ ورقة وتضعها أمامها. وبمجرد أن بدأت الدودة بتذوق الورقة، قفزت النملة فوق ظهرها. تلوت الدودة دون طائل، لأن النملة غرزت مخالبها في

خاصرتيها وأحكمت قبضتها عليها ثم استدارت فوقها وجعلت تلحس منطقتها الخلفية واستمرت على ذلك حتى سال منها الشراب.

توجهت النمال إليها بالتحية والتهنئة وأخذن يمررن العسيل، غير المعروف حتى الآن، من ملقط إلى ملقط. طعمه لا يشبه طعم عسيل البرغثان. فهو أشد كثافة وأثر طعمه يذكر بطعم النسغ بشكل أكثر صراحة. وفيما كانت النملة رقم 103683 تتذوق الشراب المستجلب الغريب، كان قرن إحدى النمال يحك جمجمتها.

يبدو أنك تبحثين عن معلومات حول الأرضة.

النملة التي همست إليها بهذا الفيرومون تبدو طاعنة في السن. جسمها كله مثلم بضربات الملاقط. الرقم 103683 تثني قرنيها إلى الوراء علامة الإيجاب.

اتبعيني!

إنها المحاربة رقم 4000. رأسها مرقق كالورقة وعيناها صغيرتان. وعندما تبث روائحها، تأتي أبخرتها المرتجفة فقيرة جداً بالكحول. وربما لهذا السبب أصرت على أن يكون الحديث في فجوة صغيرة مقفلة من الناحية العملية.

لا تقلقي. هذه الفجوة هي حجرتي. يمكننا أن نتكلم باطمئنان.

النملة رقم 103683 تسألها عما تعرفه عن مدينة الأرضة الكائنة في المنطقة الشرقية، وتخبرها أن سلاحاً سرياً وغامضاً قد استخدم ضد محاربات بيل ـ او ـ كان. وتضيف بأن الإعتقاد ساد في البداية بأن المقزومات كن وراء ذلك، ثم ثبت أن لا علاقة لهن بالموضوع. لذا، كان من الطبيعي أن تتجه الشكوك نحو أرضة المنطقة الشرقية، العدو الرئيسي الثاني...

تثني النملة المسنة قرنيها إلى الوراء علامة الشعور بالمفاجأة. فهي لم تسمع بهذه القضية قبل الآن. تتفحص النملة رقم 103683 وتسألها:

هل السلاح السري هو ما به فقدت قائمتك السادسة؟

المحاربة الشابة تجيب بالنفي. فهي فقدت قائمتها في حرب الأقحوان، أثناء تحرير لا ـ شولا ـ كان. لا يلبث الحماس أن يستولي على الرقم 4000. فهي كانت أيضاً في المعركة!.

في أي فيلق؟

الخامس عشر، وأنتِ؟

الثالث!

أثناء الهجوم الأخير، كانت إحداهما تحارب في الميسرة، والأخرى في الميمنة... تتبادلان بعض الذكريات. هنالك دائماً دروس يمكن استخلاصها من المشاركة في المعارك. فالمحاربة رقم 4000 لاحظت، مثلاً منذ بداية المعارك، أن استخدام المرتزقة من الذباب كمراسلين حربيين هو طريقة للإتصال البعيد المدى من النوع الذي يفوق بكثير استخدام «العدائين» التقليديين.

المحاربة البيلوكانية لم تلاحظ ذلك، لكنها توافقها الرأي بكل طيبة خاطر، ثم تسرع في العودة إلى الموضوع.

لماذا يرفض الجميع التحدث في موضوع الأرضة؟

المحاربة المسنة تقترب حتى احتكاك الرأسين.

إن أموراً غريبة جداً تجري عندنا أيضاً...

تبث روائح تشي بالسر.

غريبة جداً، غريبة جداً...

تتردد الجملة في أصداء شمية بين الجدران.

المحاربة رقم 4000 تشرح كيف أن أحداً لم ير، منذ مدة، رأساً واحداً من حشرات الأرضة الشرقية. كيف أن الأرضة كانت تستخدم، في السابق، ممر ساتيي النهري لإرسال الجواسيس نحو الغرب، وكيف أن

الصهباوات كن يعرفن ذلك ويتمكنّ من مراقبته بكل وسيلة ممكنة. أما الآن، فقد اختفى كل شيء حتى الجواسيس. اختفى كل شيء.

إنه لأمر مقلق أن يكون هنالك عدو يهاجم. ولكن اختفاء العدو، بعد وجوده، أمر أشد إثارة للحيرة. وإذ لم تعد هنالك أية مناوشات مع مستكشفات الأرضة، فقد اتخذت نمال موقع غابي ـ تيولوت قراراً بالقيام بمبادرات تجسسية من جهتهن.

تنطلق بعثة أولى من المستكشفات نحو مدينة الأرضة وتنقطع أخبارها تماماً. تنطلق في إثرها مجموعة ثانية وتختفي كاختفاء الأولى. تتجه الشكوك عند ذلك إلى الحرذون وإلى قنفذٍ كان مشهوراً بشراهته. ولكن لا. إذ عندما يكون الأمر متعلقاً ببعض الكواسر، فإن عنصراً واحداً، على الأقل، من عناصر المجموعة يفوز دائماً بالنجاة ويعود ولو جريحاً. ولكن الأمور تجري، في هذه الحالة، كما ولو أن المستكشفات يتبخرن ويختفين بسحر ساحر.

هذا يذكرني بأمر. . . قالت المحاربة رقم 103683 مقاطعة.

ولكن المتقدمة في السن لا تنوي الإلتهاء عن متابعة السرد.

بعد اختفاء عناصر البعثتين، قررت محاربات غابي ـ تيولوت اللجوء إلى استخدام الوسائل الكبرى. فسارعن إلى إرسال فيلق مصغر من خمسمائة محاربة عالية التسليح. محاربة واحدة نجت، هذه المرة، وتمكنت من العودة بعد أن جرجرت نفسها وقطعت مسافات من آلاف الرؤوس لتموت في الغيبوبة فور وصولها إلى العش.

فُحصت جثتها فلم يُعثر فيها على أية جروح. لم يكن في قرنيها أية تسجيلات تدل على حدوث معارك. كما ولو أن الموت سقط عليها دون أي سبب.

هل فهمت الآن لماذا لا يريد أحد أن يتحدث عن مدينة الأرضة الشرقية؟

المحاربة رقم 103683 فهمت واكتفت، بوجه خاص، لأنها كانت على ثقة بأنها وجدت بداية الطريق الصحيح: إذا كان هنالك من حل للغز السلاح السري، فإن إيجاد هذا الحل يمر، بالضرورة، في مدينة الأرضة الشرقية.

هولوغرافيا: النقطة المشتركة بين الدماغ البشري ومدينة النمل يمكن أن يُرمز إليها بالتصوير الهولوغرافي.

ما هي الهولوغرافيا؟ هي أشرطة مصورة تُجمع فوق بعضها البعض ويُسلط عليها الضوء من زاوية معينة فيحصل الإنطباع، عند النظر إليها، باننا ننظر إلى صورة مجسمة.

هذه الصورة لا توجد في أي مكان وتوجد، في كل مكان، في الوقت نفسه. فمن اجتماع الأشرطة المصورة يولد شيء آخر،بعد ثالث: وهم الإرتفاع فوق مستوى السطح.

كل خلية من خلايا دماغنا، كل نملة من نمال المدينة، تحتوي على كامل المعلومات الموجودة عند الخلايا أو النمال الأخرى. ولكن الجماعة ضرورية من أجل انبثاق الوعي، «الفكر المترفع فوق مستوى السطح».

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

عندما استعادت الأنثى رقم 56 وعيها (كانت قد تحولت إلى ملكة قبل قليل) وجدت نفسها فوق شاطىء من الحصى، قذفتها إليه المياه. لم تنج من الضفادع إلا بفضل تيار سريع. حاولت الطيران، ولكن أجنحتها المبللة لا تزال ثقيلة. إنها مجبرة على الإنتظار.

تنظف قرنيها بعناية وتتنشق الهواء المحيط. أين هي الآن؟ عسى ألا تكون المياه قد قذفت بها إلى الشاطىء الآخر من النهر!

تحرك قرنيها بسرعة 8000 ذبذبة في الثانية. تشتم حولها ريح أشياء تعرفها. إنها سعيدة الحظ: إنها فوق ضفة النهر الغربية. لكنها لا تجد أي فيرومون يدل على وجود طريق. عليها أن تقترب أكثر من المدينة المركزية لكي يكون بإمكانها أن تربط مدينتها المستقبلية بالفيدرالية.

أخيراً تطير. تتجه نحو الغرب. لا يمكنها أن تستمر الآن في الطيران. عضلات أجنحتها متعبة. لا تستطيع الإرتفاع فوق تلعات التراب.

تعودان إلى القاعة المركزية في معسكر غايي - تيولوت. جميع النمال تتحاشى الإقتراب من الرقم 103683 كما ولو أنها مصابة بالاترناريا، وذلك منذ أن بدأت تحقيقها حول أرضة الشرق. لكنها لا تريم. كل حياتها مكرسة للمهمة.

من حولها، بيلوكانيات يتبادلن الترقيم مع الغايتيولوتيات. يزقمنهن من محصول الموسم الجديد من فطر الغاريقون، ويتزقمن منهن أصنافاً من العسيل المستخرج من دويدات برية.

وبعد تبادل شتى الروائح، دار الحديث حول صيد الحرذون. فرَوَتِ الغوايتيولوتيات كيف تم، قبل مدة، تحديد موقع ثلاثة حراذين كانت تزرع الرعب في قطعان البرغثان التابعة لزوبيزوبيكان. كانت تلك الحراذين على وشك إبادة قطيعين من ألف رأس مع الراعيات اللاتي كن برفقتهما.

مرت لحظة دبَّ فيها الذعر فلم تعرف الراعيات كيف يوجهن القطيع نحو الممرات الآمنة المحفورة داخل الأغصان. ولكنهن تمكن من ردع التنانين الثلاثة بفضل الرشق بالحوامض. إثنان منهما ابتعدا عن المكان، في حين جُرِح الثالث وأُقْعي فوق حجر على بعد ألف رأس من هنا. كانت الفرق الغايتيولاتية قد قطعت ذنبه، وكان لا بد لها من استغلال الفرصة والإسراع في الإجهاز عليه قبل أن يتمكن من استعادة قوته.

إحدى المستكشفات تتساءل:

أصحيح أن أذناب الحراذين تعود فتنمو بعد قطعها؟

أجل، ولكن الذنب الذي ينبت هو غير الذنب الذي يُقطع. فالأمر كما تقول الملكة ـ الأم: لا يمكن أبداً استعادة ما فقدناه بصورة كاملة. فالذنب الذي ينبت لا فقرات فيه، إضافة إلى كونه يظل أكثر رخاوة بكثير.

معلومات جديدة تقدمها إحدى الغايتيولاتيات فتقول بأن الحراذين أكثر تأثراً بتغيرات الطقس من النمال، وبأن سرعة ردود أفعالها تكون مذهلة عندما تتمكن من تخزين ما يكفي من الطاقة الشمسية. أما عندما يكون الطقس بارداً، فإن حركاتها تتباطأ إلى حد بعيد. ولا بد من أخذ ذلك بعين الإعتبار في هجوم الغد، حيث يكون الأمثل مباغتة الوحش منذ الفجر، لأنه يكون قد برد خلال الليل وهمدت حركاته.

ولكننا نحن أيضاً سنكون في حالة معاناة من البرد، تلاحظ إحدى البيلوكانيات.

سنتجنب ذلك بواسطة التقنيات التي تستخدمها المقزومات لمقاومة البرد، ترد إحدى الصيادات. **سنبتلع كثيراً من السكر والكحول لتخزين الطاقة، وسنطلي أجسامنا باللعاب لنحول دون الصرف السريع للحُريرات.**

كانت النملة رقم 103683 تتلقى هذه المعلومات بقرن ساهم. إنها تفكر، من جهتها، بسر الأرضة، بالحملات التي اختفت بشكل غامض، كما أخبرتها النملة العجوز.

الغايتيولوتية التي سبق لها وأرتها تذكارات الصيد، ورفضت أن تحدثها عن الأرضة، تعود فتقترب منها.

هل تحدثت مع الرقم 4000؟

الرقم 103683 ترد بالإيجاب.

إذن، لا تعيري أي اهتمام لما قالته لك. إعتبري أن حديثك معها كان مع جثة. فقد لدغتها نمسية قبل أيام.

نمسية! الرقم 103683 تشعر بقشعريرة هول. فالنمسية هي ذلك الدبور ذو الإبرة الطويلة التي يخترق بها، أثناء الليل، أعشاش النمل، ويبحث حتى

يعثر على جسم حار فيغرزها فيه ويضع بيوضه بداخله.

النمسية هي واحد من الكوابيس المرعبة بالنسبة ليرقات النمل: إبرة تدخل من السقف وتبحث عن لحم طري تفرغ صغارها بداخله. بعد ذلك، تنمو الصغار بطمأنينة داخل الجسم المتلقي قبل أن تتحول إلى يرقات شرهة تلتهم النملة الصغيرة الحية من الداخل.

لا يغنيك الحرص! رأت النملة 103683، فيما يرى النائم، خرطوماً مرعباً يتبعها ليقذف في جسمها حشرات صغيرة مفترسة!

الرقم السري اللازم لفتح البوابة الخارجية لم يتغير. كان نيكولا لا يزال يحتفظ بمفتاح الشقة. لم يكن عليه إذن غير نزع الشمع الذي ختمت به الشرطة باب الشقة. في داخل الشقة، لاحظ أن مواضع الأشياء لم تتغير منذ اختفاء رجال الإطفاء. حتى باب القبو، كان لا يزال مفتوحاً على مصراعيه.

لم يكن معه مصباح جيب كهربائي. لذا، شرع دونما وجل بصنع مشعل. تمكن من نزع قائمة إحدى الطاولات وأثبت في طرفها كتلة كثيفة من الورق ثم أشعلها. شبت النار بسهولة في الخشب واندلع منه لسان صغير لكنه متجانس من اللهب القابل لعدم الإنطفاء حتى في تيارات الهواء.

ثم إنحدر الغلام على السلم الحلزوني، حاملاً شعلته بيد وسكينه باليد الأخرى. كان يعض على النواجذ من أضراسه مفعماً بالتصميم. كان يشعر بأنه خامة على وشك التحول إلى بطل.

نزل، ونزل... لا ينتهي النزول والدوران. خالَ أنه نزل

ودار طوال ساعات وساعات. جاع وأحس بالبرد. لكن كان به شغف بالإنتصار كالسُّعار.

حث خطاه باندفاع متوثب وراح يصرخ تحت القبة غير المشذبة، منادياً أباه وأمه مرة، مطلقاً صرخات حرب مدوية، مرة أخرى. مشى، بعد ذلك بخطى مفعمة بطمأنينة وثقة بالنفس غير عاديتين: طار نازلاً درجات السُّلَّم دون أي ضابط من وعي.

وجد نفسه فجأة أمام باب. دفعه فانفتح. قبيلتان من الجرذان كانتا تقتلان. هربت الجرذان لرؤية هذا الصبي الصارخ ومن حوله وميض اللهيب.

الجرذان الأكثر تقدماً في السن كانت تدب فيها مشاعر القلق. لقد تواترت، منذ فترة، زيارات «الكبار». ما معنى ذلك؟ عسى ألا يذهب هذا «الكبير» إلى مخابىء الإناث الحوامل لإحراقها!

واصل نيكولا نزوله. كان ينزل بسرعة لم يلتفت معها إلى الجرذان. . .

درجات تتلوها درجات. كتابات غريبة لن يقرأها، هذه المرة، بالمرة. فجأة، سمع حفيفاً (فلاب، فلاب. . .) وأحس بشيء يلمسه. خفاش تعلق بشعره. يا للرعب! حاول التخلص منه، لكن الحيوان كان كأنه ملتصق بجمجمته. حاول دفعه عن رأسه بالشعلة الملتهبة، ولكنه لم يوفق إلا في إحراق ثلاث خصل من شعره. صرخ وواصل النزول مسرعاً. بقي الخفاش على رأسه كالقبعة. لم يتركه إلا بعد أن امتص شيئاً من الدم.

زال عن نيكولا إحساسه بالتعب. كان يتنفس بضجيج. قلبه وصدغاه تضرب لدرجة توشك معها على الإنفجار. إصطدم فجأة بجدار. سقط ثم نهض دون أن تنطفىء الشعلة. إندفع وراء تجوال اللهيب.

أجل، كان ذلك جداراً. لا بأس بهذا الجدار: تعرف فيه نيكولا على صفائح الإسمنت والفولاذ التي كان أبوه قد أحضرها. كانت فواصل الطين بين الصفائح لا تزال طرية.

- أبي، أمي. أجيبا إذا كنتما هنا!

لا، لا شيء غير الصدى الكئيب. ولكن، لا بد أنه بات قريباً من نهاية النفق. إنه مستعد لأن يقسم بأن هذا الجدار يدور حول نفسه... لأن ذلك يجري في الأفلام ولأن هذا الجدار كان بغير باب.

ما الذي يخفيه هذا الجدار؟ وجد نيكولا أخيراً عبارة مكتوبة:

أربعة مثلثات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب!

تحت الكتابة تماماً، إطار صغير بداخله أزرار. ليس على الأزرار أرقام بل حروف. أربعة وعشرون حرفاً لا بد وأنها تكون الكلمة أو الجملة التي يتشكل منها الحل.

- يجب التفكير بطريقة مختلفة. قال نيكولا، بصوت عال. ووقف مشدوهاً لأن الجملة أتت من تلقاء ذاتها. فكر طويلاً دون أن يجرأ على لمس الإطار. ثم اعتراه هدوء، هدوء كبير أفرغه

من كل فِكرة. هدوء قاده، دون أن يعرف كيف، نحو الضغط على الأزرار لتشكيل كلمة من ثمانية أحرف.

سمع صريراً ناعماً ينطلق من جهاز آلي... وانزاح الجدار! تقدم نيكولا مفعماً بالحماس، مستعداً لكل شيء. عاد الباب إلى مكانه بعد مروره بقليل. أحدث انطباق الباب تياراً هوائياً انطفأت له الجذوة التي كانت ما تزال مشتعلة.

عاد نيكولا أدراجه بعد أن انطبقت عليه سجف الظلام الدامس وطاشت سهام فكره. ولكن هذا الجانب من الجدار ليست عليه لوحة أزرار. لا مجال إذن للتراجع. تكسرت أظفاره وهو ينهش بيديه صفائح الإسمنت والفولاذ. لم يكن أبوه صانع أقفال بلا طائل.

نظافة: هل هنالك ما هو أكثر نظافة من الذبابة؟ إنها تغتسل على الدوام وليس ذلك واجباً، بالنسبة لها، بل مجرد حاجة. فإذا لم تكن قرونها وجميع أوْجُهِ عيونها نظيفة إلى أبعد الحدود، فإنه لا يكون بإمكانها أن تكتشف الأطعمة البعيدة ولا اليد التي تهوي إليها لتسحقها. النظافة هي عنصر من عناصر البقاء الأساسية عند الحشرات.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

في اليوم التالي كتبت الصحافة الشعبية في عناوين صفحاتها الأولى: «قبو فونتينبلو الملعون يقتل من جديد. الإبن الوحيد لعائلة ويلز يختفي بدوره. ماذا تفعل الشرطة؟».

العنكبوت يلقي نظرة من أعلى نبتة السرخس. إنها عالية جداً. يفرز نقطة من حريره السائل، يلصقها بورقة ثم يتقدم حتى يصل إلى طرف الغصن ويلقي بنفسه في الفراغ. سقوطه يستمر للحظات. الخيط الرفيع يتمدد. يتمدد ثم يجف ويقسو ويمسك العنكبوت تماماً قبل أن يصل إلى الأرض. كاد العنكبوت يرتطم بالأرض وينفجر كحبة عنب ناضجة. كثيرات من بنات جنسه تقطعت أوصالها بسبب انخفاض مفاجىء في الحرارة يحول دون جفاف الخيط الحريري في الوقت المناسب.

العنكبوت يحرك قوائمه الثماني للتوصل إلى تحقيق حركة تأرجح متوازنة، ثم يمدها ويتمسك بورقة ستكون النقطة الثانية من نقاط تثبيت زوايا شبكته. يلصق بها طرف الخيط الرفيع. ها هو الآن يمتلك حبلاً ممدوداً، ولكن هذا الحبل وحده ليس بذي فائدة. يلاحظ جذعاً إلى يساره فيركض نحوه. بضعة أغصان أخرى وبضع قفزات يتوصل معها إلى تثبيت الخيطان التي ستشكل دعائم شبكته. هذه الخيطان هي التي ستتحمل ضغط الهواء والطرائد. أخذت الخيطان شكلاً هندسياً ثمانياً.

يتكون حرير العنكبوت من نوع من البروتيين الليفي اسمه الفيبروبين، وهو يتمتع بمميزات معروفة كالصلابة وعدم القابلية لامتصاص الماء ورشحه. ويمكن لبعض العناكب أن تنتج، بعد تناول وجبة جيدة، سبعمائة متر من الحرير بقطر 2 ميكرون وبصلابة معادلة نسبياً لصلابة النيلون، ومرونة تزيد عن مرونة النيلون بثلاثة أضعاف.

والأدهى من ذلك هو في تمتع العنكبوت بسبع غدد تنتج كل منها حريراً مختلفاً: حرير تكون منه الخيوط التي تشكل دعائم الشبكة؛ حرير تكون منه خيوط التجميع؛ حرير تكون منه خيوط قلب الشبكة؛ حرير مطلي بالغراء لتعلق فوقه الطرائد السريعة؛ حرير لحماية البيوض؛ حرير لبناء الملجأ؛ حرير للف الطرائد.

والحقيقة هي أن الحرير هو الإمتداد الخيطي لهرمونات العناكب، كما أن الفيرومونات هي الإمتداد المتطاير لهرمونات النمال.

وعندما ينتج العنكبوت خيط التجميع يثبته ثم يتعلق به، ويسقط عند أول إشارة خطر فيمكنه ذلك من النجاة، دون بذل جهد زائد. ولا تعد المرات التي نجا فيه العنكبوت بحياته بفضل هذه الطريقة.

وبعد ذلك، يشبك العنكبوت أربعة خيوط في وسط الشكل الثماني، وذلك من خلال حركات لم تتغير منذ مئة مليون سنة... بدأت الشبكة الآن تأخذ شكلاً جذاباً. ستكون هذه الشبكة من خيوط الحرير الجاف. صحيح أن الحرير المطلي بالغراء أكثر نجاعة بكثير ولكنه سريع العطب. ثم إنه لا يعتم ويصبح محطاً للغبار ونتف الأوراق الميتة. أما الحرير الجفا، فإن قدرته على التقاط الطرائد أقل، ولكنها تكفي، على الأقل، حتى حلول الليل.

وعندما ينتهي العنكبوت من وضع دعائم السقف، يضيف إليها عشرة من الخيوط التي تحتل مراكز الشعاع من الدائرة ويختتم بذلك وضع اللولب المركزي. وهنا، يصبح العمل أكثر متعة، إذ ينطلق العنكبوت من غصن يكون قد ربط به خيطه الجاف، ثم يقفز من شعاع إلى شعاع مقترباً بذلك شيئاً فشيئاً من المركز، ومتبعاً حركة دوران الكرة الأرضية حول نفسها.

ولكن العنكبوت يقوم بذلك على طريقته الخاصة. فلا توجد في العالم كله شبكتا عنكبوت متشابهتان. كما هي الحال بالنسبة لبصمات الأصابع عند البشر. عليه أن يقوم الآن بشد العُقد. إنه الآن في وسط الشبكة. يلقي نظرة على الأساس الذي سيمد فوقه خيوطه، بهدف التحقق من قوة هذا الأساس، ثم ينتقل من شعاع إلى شعاع ويهزها تباعاً بقوائمه الثماني. لا بأس بقوتها. إنها قادرة على إتمام المهمة.

غالبية العناكب في المنطقة تبني شبكات من طراز 12/ 75. خمس وسبعون دورة حلزونية لتشبيك الجدران، واثنا عشر شعاعاً. أما عنكبوتنا هذا فيفضل البناء على الطراز 10/ 95. مما يعطي الشبكة شكلاً مخرّماً أكثر نعومة.

قد يكون ذلك أكثر قدرة على جذب الأنظار، ولكنه يتمتع بصلابة

أكبر. وبما أن العنكبوت يستخدم الحرير الجاف، فإن عليه ألا يبخل بكميات الخيوط، وإلا فإن الحشرات ستمر مرور الضيوف الزائرة. . .

ولكن هذا العمل الذي يتطلب نفساً طويلاً استنفد كامل طاقته. عليه أن يأكل فوراً. فحياته حلقة مفرغة: يجوع بعد بناء الشبكة، ولكن هذه الشبكة هي ما يؤمن له الطعام.

مخالبه الأربعة والعشرون متشبثة بالدعامات الرئيسية. إنه ينتظر في مخبئه تحت الورقة. ودونما حاجة لإستخدام عيونه الثماني، يشم الفضاء المحيط، وبفضل الشبكة يشعر عبر قوائمه بأقل تموجات الهواء. فالشبكة تتمتع بحساسية شبيهة بحساسية مكبّر الصوت اللاقط.

هذه الذبذبة الخفيفة هي لنحلة ترسم أشكال 8 على بعد مئتي رأس من هنا لتحدد لسكان القفير موقع حقل مليء بالزهور.

هذا الإرتعاش الخفيف لا بد وأنه ارتعاش يعسوب. اليعسوب كم هو لذيذ الطعم. ولكن هذا اليعسوب لا يطير في الإتجاه الصحيح الذي يمكنه معه أن يصبح غذاءً للعنكبوت.

إرتطام. شيء ما اصطدم بالشبكة. إنه عنكبوت يحب أن ينتحل عمل الآخرين. أيها السارق! العنكبوت الأصلي يطرده سريعاً قبل مجيء بعض الطرائد.

بقائمته الخلفية اليسرى، يشعر بمجيء حشرة كالذبابة من الناحية الشرقية. لا يبدو أنها تطير بسرعة. ستسقط في الفخ دونما شك، اللهم إلا إذا غيرت اتجاهها.

تبلاف! لقد وقعت في الفخ.

إنها نملة مجنحة. . .

العنكبوت - ليس له إسم شخصي لأن الكائنات التي تعيش بمفردها لا تحتاج إلى التعرف إلى أفراد جنسها - ينتظر الآن بهدوء. عندما كان لا يزال صغيراً، كان يأخذه الحماس. لذلك، كان يخسر الكثير من الطرائد. كان

يظن أن كل حشرة تسقط في شبكته سوف لن تتأخر في الدخول إلى بطنه. ولكن ذلك لا يحصل إلا بنسبة خمسين بالمئة عند الإرتطام بالشبكة، لأن عنصر الوقت عنصر حاسم.

لا بد من الصبر، لأن الحشرة المرتعبة تورط نفسها بنفسها. ذلك هو سر التفنن الرفيع في الفلسفة العنكبية:

ليست هنالك تقنية حربية أفضل من تلك التي تقوم على الإنتظار ريثما يدمر العدو نفسه بنفسه...

بعد عدة دقائق، يقترب العنكبوت لتفحص صيده عن كثب. إنها ملكة. ملكة صهباء من الامبراطورية الغربية. بيل ـ او ـ كان.

سبق للعنكبوت أن سمع بهذه الامبراطورية المتقدمة جداً. يبدو أن الملايين من سكانها قد وصلوا إلى حالة من «الإعتماد المتبادل» على بعضهم البعض بحيث لم يعد بمقدور أحدهم أن يؤمن غذاءه بمفرده! ما الفائدة من ذلك؟ وأين هو التطور في ذلك؟

إنها إذن إحدى ملكاتهن... إنه ينشب مخالبه في أحد ذيول مستقبل تلك الغزاة التي لا يمكن تنظيف الأرض منها. إنه لا يحب النمل. لقد رأى أمه بالذات وقد تعاوى عليها قطيع من النمال الحمراء الحائكات...

بطرف عينه، ألقى نظرة جشعة على طريدته التي لم تتوقف عن المقاومة والتخبط. حشرات حمقاء، لا يمكنها أن تفهم أن عدوها اللدود هو هياجها بالذات. كلما ازدادت محاولات النملة المجنحة للتخلص مما هي فيه، ازداد تورطها في شبكة الحرير... محدثة فيها أضراراً تزيد من حنق العنكبوت.

أما الأنثى رقم 56، فإن غضبها يدفعها إلى المزيد من التخبط. لكنها الآن عاجزة تماماً عن الحركة. جسمها مقمط تماماً بالحرير الناعم ومع كل حركة يزداد الغلاف المحيط بها كثافة وسمكاً. إنها لا تصدق أنها انتهت إلى هذا المصير البائس بعد أن اجتازت كل ما اجتازته من المحن.

في شرنقة بيضاء ولدت، في شرنقة بيضاء ستموت.

العنكبوت يقترب منها. يتفحص، في طريقه إليها، خيطانه المقطعة.

الرقم 56 تراه الآن عن كثب. حيوان ضخم برتقالي اللون وأسود. له عيون ثمان مزروعة على شكل إكليل في أعلى رأسه. سبق لها وأكلت حيوانات من جنسه. كل واحد يكون بدوره وجبة للآخر... هذا الآخر الذي جللها ببصاقه الحريري!

لا ـ قال العنكبوت لنفسه ـ، كل ما نحيكه من خيوط لا يكفي. ثم أخرج نابين معقوفين مخيفين ينضحان بالسم الزعاف. ولكن العناكب لا تقتل. لا تقتل على الفور. إنها تقدر اللحم المرتعش بالحياة حق قدره، لذا فهي لا تقضي على طرائدها بل تفقدها الوعي بسم مُخَدِّر، ثم توقظها فيما بعد لتقضمها شيئاً فشيئاً وهي حية. وبذلك تلتهم العناكب ما تشاء من اللحم الطري الذي يظل محفوظاً داخل غلافه الحريري. ويمكن للعنكبوت أن يستمر في تذوق طريدته المحفوظة بهذه الطريقة، لمدة أسبوع كامل.

سبق للأنثى رقم 56 أن سمعت بهذه الطريقة. إنها ترتجف من الرعب. تلك الطريقة أشد هولاً من الموت. كيف يمكن للمأكول أن ينظر إلى جسمه وهو يؤكل عضواً بعد عضو... كلما أفاق من غشيته تقطع منه قطعة ثم يعود إلى النوم بلدغة جديدة. ينظر إلى جسمه وهو يتناقص شيئاً فشيئاً، حتى تأتي ساعة النزع الأخير، نزع الأعضاء الحيوية الذي يسلم الضحية للنوم المخلِّص النهائي.

تدمير الذات أفضل! تهرب من رؤية النابين المهولين المسلطين أمام وجهها وتبدأ بتخفيف سرعة نبضات قلبها.

في تلك اللحظة بالذات، يأتي ذكر ذبابة مايو ويصطدم بالشبكة. شدة اندفاعه كبلته في حواشي الحرير. شدت عليه الخناق... بالكاد ولد قبل دقائق وسيموت، بالشيخوخة، بعد ساعات. حياةٌ عابرةٌ، حياةُ حشرةٍ عابرةٍ. كان على ذكر الذبابة العابر أن يتصرف بسرعة دون أن يضيع ربع

ثانية. كيف يمكن له أن يملأ وجوده وهو يعرف أنه ولد هذا الصباح ليموت هذا المساء؟

لم يكد ينهي العامين اللذين أمضاهما في حياته اليرقية، حتى انطلق الذكر العابر باحثاً عن أنثى يستولدها. بحث عقيم عن الخلود من خلال الذُرية. يومه الوحيد، سيمضيه الذكر العابر في هذا البحث. يوم وحيد لا يفكر فيه بالطعام أو بالراحة ولا بالتمنع والتخير بين الإناث.

الوحش الكاسر الوحيد، بالنسبة له، هو الوقت. كل ثانية تمر هي خصم عنيد. وإلى جانب الوقت، لا يشكل العنكبوت الرهيب غير عنصر إعاقة، لا عدواً بكل معنى الكلمة.

يشعر بالشيخوخة تدب بخطى مسرعة في جسمه. بعد ساعات قليلة سيكون في أرذل العمر. سيكون كأنه لم يكن. لقد ولد للاشيء. يا لها من هزيمة لا تطاق...

ذكر الذبابة يقاوم ويتخبط. المشكلة مع بيت العنكبوت هي في أننا نزداد تورطاً إذا ما تحركنا، ولا نتخلص منه إذا لم نتحرك...

يقبل العنكبوت نحوه ويشد حوله بضع خيوط إضافية. لقد حاز اليوم على فريستين كبيرتين ستؤمنان له كل ما يلزمه من بروتينات لنصب شبكة جديدة منذ الغد. يعود العنكبوت نحو فريسته الأولى ليلدغها كي تنام. يميز، قبل وصوله إليها، ذبذبة بين ذبذبات المقاومة والتخبط، ذبذبة أخرى. ذبذبة... ذكية. تيب، تيب، تيبتيبتيب تيب، تيب، تيبتيب. إنها الأنثى، أنثاه هو! تتقدم فوق خيط وتنقر عليه كي يبث الإشارة.

أنا لك، لم آت لكي أسرق طعامك.

هذه الطريقة في بث الذبذبات، لا يعرف الذكر شيئاً يدانيها في إثارة الشبق. تيب، تيب، تيبتيبتيب. آه، لم يعد به صبر على التحمل. يطيرَ نحو حبيبته (صبية عنكبية في ربيعها الرابع - هو في ربيعه الثاني عشر).

جسمها يكبر جسمه بأربع مرات، ولكن ذلك يناسبه تماماً. يحب البدينات. يلفتها إلى الفريستين اللتين سيستمدان منهما قوة جديدة. . . فيما بعد.

ثم يقعُ عليها وتقعي له. تناكح العناكب معقد جداً. فالذكر لا قضيب له، بل شيء تناسلي كأنبوبة بفوهتين. على عجل، ينصب شبكة مصغرة ويرش عليها حيواناته المنوية ثم يبلل إحدى قوائمه بالسائل ويولجها في وعاء الأنثى. أما الجميلة الغضة فيغشى عليها من اللذة فلا تشعر إلا وهي قد أمسكت برأس الذكر وهشمته بأسنانها وابتلعته.

أما وقد أكلت رأسه فمن الحماقة ألا تأكل الباقي. ولما فرغت من أكله، كانت بها بقية من جوع. هرعت إلى ذكر الذبابة وجعلت حياته أكثر قِصراً مما هي في الأصل. ثم التفتت إلى النملة الملكة التي شعرت أن ساعة الحقنة قد أزِفَتْ فارتعبت وتخبطت.

لكنها محظوظة هذه الملكة. لأن شخصاً قادماً بجلبة من أعماق الأفق البعيد أعاد خلط الأوراق من جديد. ذلك الشخص هو واحدة من دويبات الجنوب التي وصلت حديثاً إلى الشمال. دويبة كبيرة جداً في الواقع. جُعَلٌ طَيّارٌ من صنف وحيدات القرون. يرتطم بالشبكة في وسطها فيمطها وراءه كأنها نسيج من غراء و. . . يقطعها. الطراز 95/10 متماسك شرط ألا يبلغ الأمر حد المبالغة. النسيج الحريري الجميل يتمزق ويستحيل خرقاً ونتفاً متطايرة في الهواء.

أنثى العنكبوت كانت قد قفزت وتعلقت بخيط التجميع. أما ملكة النمل فتتحرر من أغلالها البيضاء وتجرجر نفسها خلسة فوق الأرض دون أن تكون بها قدرة على الطيران.

ولكن تفكير أنثى العنكبوت كان منصباً على موضوع آخر. إنها ترتقي غصناً لتبني فوقه حضانة حريرية يمكنها أن تضع فيها بيوضها. صغارها سيخرجون من البيوض خفافاً سراعاً لا هم لهم غير التهام الوالدة!

تلك هي العناكب، لا تعرف كيف تقول «شكراً».

ـ بيلشايم!

أبعد سماعة الهاتف بعنف كما ولو أنها حشرة ستلدغه. يُبسته على الطرف الآخر من الخط. . . رئيسته سولانج دومينغ.

ـ آلو؟

ـ أعطيتك الأوامر ولم تفعل شيئاً حتى الآن. ماذا تفعل؟ هل تنتظر حتى تختفي المدينة كلها في ذلك القبو؟ إني أعرفك يا بيلشايم، إنك لا تفكر بغير راحتك! والحال أنني لا أحب الكسالى. آمرك أن تحل هذه المشكلة خلال أربع وعشرين ساعة!

ـ ولكن يا سيدتي. . .

ـ لا أسمع الـ «ولكن يا سيدتي». عمال الغاز تلقوا تعليماتي ولم يعد أمامك غير النزول معهم غداً صباحاً. ستجدون جميع المعدات بانتظاركم. حرك عجيزتك قليلاً. تزحزح بحق الشيطان! يعتريه إحساس بالإنضغاط. يداه ترتجفان. يشعر بأنه ليس إنساناً حراً. لماذا عليه أن يطيع؟ لكي ينأى بنفسه عن البطالة ولا يعيش على هامش المجتمع. طريقته الوحيدة في تصور حريته في الزمان والمكان لا يجدها في غير حياة المهمشين، ولكنه لم يكن يشعر بأنه قد أصبح جاهزاً لهذه التجربة. حاجته للنظام وللإندماج في المجتمع دخلت في صراع مع رغبته في عدم الخضوع لإرادة الآخرين. دخلت قرحة إلى ساحة الصراع، أي إلى معدته، وانتصر احترامه للنظام على حبه للحرية. وعند ذلك، أذعن.

مجموعة الصيادات تختبىء وراء صخرة وتراقب الحرذون. طوله ستون رأساً (ثماني عشرة سنتيمتراً) على الأقل. درعه الصخري الأصفر الميال إلى الخضرة والمبرقش ببقع سوداء يثير شعوراً بالخوف وبالقرف. النملة رقم 103683 تحس كأن هذه البقع هي لطخات من دماء جميع الضحايا التي أزهقها هذا الوحش الزاحف.

الحيوان خدر من البرد، كما هو متوقع. يمشي، لكن ببطء. كما ولو أنه يتردد في وضع قوائمه هنا أو هناك.

فيرومون ينطلق عندما أوشكت الشمس على البزوغ.

عليكن بالوحش!

يرى الحرذون جيشاً من أشياء صغيرة سوداء ينقض عليه بمنتهى العدوانية. ينتصب ببطء؛ يفتح شدقاً وردياً يتراقص فيه لسان سريع يصفق به النمال القريبة من متناوله، تعلق به فيزدردها. ثم يتجشأ ويبتعد في سرعة البرق.

الصيادات فقدن حوالي الثلاثين من اخواتهن ووقفن ذاهلات مستقطعات الأنفاس. إذا كان هذا فعله وهو حذر بالقرّ، فكيف يكون فعله في الحر!

النملة رقم 103683 معروفة بجبنها. هي إحدى أوائل القائلات بأن الهجوم على حيوان كهذا هو عين الإنتحار. فالقلعة تبدو غير قابلة للسقوط وجلد الحرذون درع لا تؤثر فيه الملاقط والحوامض. أما حجمه وحيويته، حتى في الحرارة المنخفضة، فإنها تعطيه تفوقاً من الصعب إيجاد ما يضاهيه.

ولكن النمال لا تتردد أبداً. تنطلق كزمرة من ذئاب ضئيلة الأحجام في أعقاب الوحش. تعدو تحت الأعشاب وتطلق فيرومونات التهديد المطعمة بروائح الموت. ولكن ذلك لا يخيف غير البزاق، حتى الآن. غير أنه

يساعد النمال على الإحساس بأنها رهيبة لا يقف لها شيء. تجد الحرذون، على بعد عدة آلاف من الرؤوس، ملتصقاً بجذع بيسية (épicéa). لا بد وأنه منشغل بهضم فطوره الصباحي.

يجب أن نتحرك! كل لحظة إنتظار تمر تزيده قوة على قوة! وإذا كان سريعاً في البرد، فإنه سيكون فائق القوة عندما يمتلىء بالحريرات الشمسية. مشاورات بالقرون. لا بد من الإتفاق على طريقة للهجوم. يتم التوصل إلى وضع خطة تكتيكية.

محاربات يرتقين غصناً ويسقطن على رأس الحيوان. يحاولن إتلاف بصره بِعَضّة في جفنيه ويبدأن بإحداث ثقوب في أنفه. لكن الفرقة الإنتحارية الأولى تفشل. فقد حك الحرذون وجهه بقائمة حانقة وابتلع المتأخرات.

موجة ثانية من المهاجمات كانت قد خفت فوراً إلى المجابهة. في اللحظة التي أصبحن فيها بمتناول لسانه، قمن بحركة إلتفافية واسعة ومذهلة... قبل أن ينهلن على جدعة ذنبه المقطوع. إذ كما تقول الأم: **لكل عدو نقطة ضعف؛ جدها ولا توجه ضرباتك إلى غيرها.**

يفتحن الثلمة بإحراقهما بالحامض، ثم يندفعن نحو الداخل ويجتحن أمعاء الحيوان. يبدأ بالتلوي، ينقلب على ظهره، يطوح بقوائمه الخلفية، يضرب على بطنه بقوائمه الأمامية. ألف قرحة تنهشه من الداخل.

وهنا، تتوصل موجة ثانية من المهاجمات إلى تثبيت مواقعها في فتحتي الأنف. يوسعان الفتحتين ويحفرانهما بالرشقات المحرقة.

إلى الأعلى، هجوم يشن على العيون. تخترق المحاربات هاتين الكرتين الرخوتين، لكنهن يجدن أنفسهن أمام طريق مسدود. ثقب العصب البصري أضيق من أن يَسْهُل اجتيازه للوصول إلى الدماغ. المحاربات ينتقلن إذن من العينين ويلتحقن بأخواتهن العاملات داخل المنخرين.

الحرذون يتلوى وينتفض. يغرز إحدى قوائمه في شدقه محاولاً سحق النمال التي تعمل في ثقب حلقومه. لقد فات الفوت.

في إحدى زوايا الرئتين، تلتقي المحاربة رقم 4000 بزميلتها رقم 103683. الظلام شديد في الداخل. لا يرين شيئاً لأن غير ذوات الجنس لا عيينات لهن للرؤية بالأشعة ما تحت الحمراء. يتماسكن بالقرون.

هيا، لنستفد من انشغال أخواتنا ولنذهب باتجاه مدينة الأرضة الشرقية. سيسود الإعتقاد عندهن بأننا قُتلنا في المعركة.

تخرجان من حيث دخلتا، من فتحة ما تحت الذنب. كانت تسيل بدم غزير.

غداً، سيكون الحرذون ألوفاً مؤلفة من القطع الغذائية. بعض القطع ستغطى بالرمل لتُجَّرّ نحو زوبي - زوبي - كان.. بعضها الآخر سيصل إلى بيل - او - كان. وسيتم وضع رواية ملحمية في وصف الحدث. فالحضارة النملية تحتاج إلى توكيد ثقتها بقوتها، وإيقاع الهزيمة بالحراذين يمنحها ثقة بالغة الخصوصية.

التهجين: من الخطأ الإعتقاد بأن الأعشاش غير قابلة للإختراق من قبل الأجانب. صحيح أن كل حشرة ترفع راية بروائح مدينتها. ولكن ذلك لا يعني أنها معادية للأجانب، بالمعنى الشائع عند بني البشر.

فإذا ما خلطنا، على سبيل المثال، داخل حويض مليء بالتراب مئة نملة من فصيلة «فورميكا روفا» مع مئة نملة من فصيلة «لازيوس نيجر»، وجعلنا مع كل فريق ملكة ملقحة، فإننا نلاحظ، بعد مناوشات بلا قتلى ومحادثات قرنية طويلة، أن الفريقين يتفاهمان أخيراً على بناء المعسكر بشكل مشترك.

بعض الممرات يتم حفرها لتاتي ملائمة لأحجام الصهباوات، وبعضها الآخر لتلائم أحجام السوداوات. لكن الفريقين

يلتقيان في الممرات ويختلطان بشكل ثبت معه تماماً عدم ظهور فريق مسيطر يحاول حبس الفريق الآخر في غيتو خاص، في حي من أحياء المدينة.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الطريق المؤدية إلى المنطقة الشرقية لم يجر تنظيفها بعد من آثار الحروب. فالحروب مع الأرضة تحول دون القيام بأية أعمال سلمية في المنطقة.

المحاربتان 4000 و103683 تسيران الخبب فوق طريق شهدت الكثير من المناوشات. فراشات سامة تطير متغطرسة فوق مستوى قرونهما مما يسبب لهما قلقاً فعلياً.

بعد برهة، تشعر المحاربة رقم 103683 بشيء يعج تحت قائمتها اليمنى. تتفحص المكان فتكتشف أنها القراديات. كائنات صغيرة جداً مجللة بالإبر والقرون، بالشعيرات والكلاليب، تهاجر قطعاناً للبحث عن أعشاش لا تكون فقيرة بالغبار، وجدت المحاربة تلك الكائنات مسلية جداً وعجبت كثيراً لوجود حشرات بصغر القراديات وحشرات بكبر النمال على سطح الكوكب نفسه!

المحاربة رقم 4000 تتوقف أمام زهرة. تحس فجأة بألم شديد. يرقات النمسية استيقظت أخيراً داخل جسمها المتهدم الذي تحمل اليوم كثيراً من المشقات. لا شك بأن اليرقات تتناول فطورها معملة «أشواكها» و«سكاكينها» في الأعضاء الداخلية للنملة المسكينة.

المحاربة رقم 103683 تحاول إسعافها. تبحث في قعر جيبها الإجتماعي عن بضع نقاط من عسيل اللمقز. كانت قد أخذت شيئاً يسيراً من هذا العسيل، بعد المعركة التي نشبت في أقبية بيل ـ او ـ كان، بهدف

استخدامه كمهدىء. حملته بكثير من الحذر لكي لا تنتقل إليها العدوى بذلك السم اللذيذ.

تزول أوجاع الرقم 4000 فور ابتلاعها الشراب. لكنها تطلب المزيد. الرقم 103683 تحاول إعادتها إلى رشدها ولكنها تصر وتبدي استعدادها للقتال من أجل إفراغ أحشاء صديقتها من المخدر النفيس. تتهيأ للوثوب عليها وضربها ولكنها تنزلق وتسقط في فجوة رملية. إنه فخ العِفرين!

هذه الحشرة أو، بالأحرى يرقتها، لها رأس شبيه بالرفش، وهي تستخدمه في حفر تلك الثقوب. ثم تدفن نفسها فيها وتتفرغ لإنتظار الزيارات.

فهمت المحاربة رقم 4000، بعد قليل، ما يحدث لها. كل النمال تمتلك، من حيث المبدأ، ما يكفي من الخفة اللازمة للخروج من هذا المأزق. غير أنها لم تكد تبدأ الصعود، حتى برز ملقطان مدرعان بالأسنان من قعر الحفرة وحثيا عليها الرمل.

النجدة!

تنسى الألم الذي تحدثه الضيوف التي تنهش أحشاءها، وتلهو عن الإحساس بالحاجة إلى عسيل اللمقز. إنها خائفة. لا تريد أن تموت بهذه الصورة.

تقاوم بكل ما أوتيت من قوة. ولكن فخ العفرين كشبكة العنكبوت: مصمم بحيث تزيد قدرته على تحقيق غرضه كلما ازداد ذعر الضحية. على هذا، يزداد انزلاق الرقم 4000 نحو الأعماق، كما يزداد تعرضها لما يحثوه العفرين من رمل ناعم، مع ازدياد حركاتها بهدف التسلق والخروج من الحفرة.

أدركت المحاربة 103683 بسرعة أن انحناءها فوق الحفرة ومدَّ إحدى قوائمها لإنقاذ صديقتها قد يؤديان بها، هي أيضاً، إلى الغرق. لذا، فقد ابتعدت لتبحث عن عشبة طويلة ومتينة بما فيه الكفاية.

النملة العجوز تجد الإنتظار طويلاً. تطلق رائحة صرخة شديدة وتحرك

قوائمها بأقصى السرعة داخل الرمل الذي يكاد يسيل كالماء من نعومته. يزيدها ذلك إنزلاقاً. لا تبعد الآن إلا مسافة خمسة رؤوس عن الملاقط، رهيبة تلك الملاقط عندما يُنظر إليها من قريب. كل واحد من الملاقط مثلم بمئات الأسنان الصغيرة الحادة التي تفصلها عن بعضها البعض أنياب طويلة معقوفة. أما أطراف الملاقط فينتهي كل منها بمخرز يمكنه أن يثقب، بمنتهى السهولة، جسد أي نوع من النمال.

أخيراً، تظهر المحاربة رقم 103683، من جديد، فوق حافة الحفرة وتمد ساق زهرة بليس لصاحبتها. أسرعي! تمد هذه الأخيرة قوائمها لتتشبث بالساق الممدود، لكن العفرين لا يريد التنازل عن فريسته. يحثو الرمل على النملتين بجنون. يحول الرمل بينهما وبين السمع والرؤية. العفرين يقذف الآن بالحصى. ينهال الحصى على الغلاف الجلدي محدثاً أصواتاً مشؤومة. المحاربة رقم 4000 مطمورة حتى نصفها وتواصل الإنزلاق.

المحاربة رقم 103683 تقوس جسمها وتشد على الساق بملاقطها. تنتظر أن يهتز الساق. بلا جدوى. في اللحظة التي تقرر فيها التخلي عن المحاولة، تبصر قائمة تنبثق من الرمل... لقد نَجَتْ! تقفز المحاربة رقم 4000 أخيراً خارج حفرة الموت.

داخل الحفرة، تصطفق الملاقط الشرهة بحنق شديد وخيبة أمل. فالعفرين يحتاج إلى البروتينات لكي يتحول إلى حشرة بالغة مكتملة. كم سيكون عليه الآن أن ينتظر قبل مجيء فريسة أخرى وانزلاقها إليه؟

المحاربتان تغتسلان وتتبادلان التزقيم. لكن عسيل اللمقز لم يكن، هذه المرة، على لائحة المأكولات.

- صباح الخير يا بيلشايم!

مدت إليه يداً رخوة.

- أجل، أعرف، تُفاجؤك رؤيتي هنا. ولكن بما أن هذه

القضية قد بدأت تراوح وتجرجر، وبما أن مدير الشرطة يهتم شخصياً بحلها على أكمل وجه، وأن الوزير لن يلبث أن يبدي اهتماماً مماثلاً، فقد قررت أن أهتم مباشرة بهذا الملف. . . هيا، ما هذه السحنة العجيبة؟ إني أفرح معك يا بيلشايم. أما عندك شيء من حس الدعابة؟

لم يعرف الشرطي العجوز بم يجيب. مضت عليه خمسة عشر عاماً وهو في هذه الحال. كلمة «طبعاً» لم تنفع معها مطلقاً، طيلة تلك المدة. حاول أن يثبت نظره في وجهها، ولكن نظرتها كانت محتجبة تحت خصلة طويلة من الشعر. شعرها أصهب، مصبوغ. إنها الموضة، يقولون في العمل بأنها تحاول الإيهام بأنها صهباء لتبرر الرائحة القوية التي تنبعث منها. . .

سولانج دومينغ. طبعها يزداد خشونة منذ بلوغها سن اليأس. كان بإمكانها، من حيث المبدأ، أن تتناول هرمونات أنثوية للتعويض. لكنها كانت شديدة الخوف من السمنة، فالهرمونات تمسك الماء في الجسم. هذا أمر معروف، لذا، كانت تتحمل وتحمل المحيطين بها أوزار تحولها إلى امرأة عجوز.

ـ لماذا أتيتِ؟ هل تريدين النزول إلى القبو؟ قال لها الشرطي.

ـ أتمزح، يا عزيزي. لا، ستنزل أنتَ. أما أنا، فسأبقى هنا، لقد أحضرت معي كل شيء، برّاد الشاي وجهاز الـ «توكي ـ ووكي».

ـ وإذا لم تسر الأمور على ما يرام؟

ـ هل أنتَ جبان لكي تتوقع الجانب الأسوأ أولاً؟ سنكون على إتصال بواسطة جهاز الإرسال، ألم تسمع؟ عندما تجد نفسك أمام أدنى خطر، تعلمني بالأمر فأتخذ الإجراءات الضرورية. وفوق ذلك، أعطيناك كل ما يلزمك. ستنزل معك أحدث المعدات الخاصة بالمهام الدقيقة. أنظر: ستأخذ معك حبلاً من النوع الذي يستخدمونه متسلقو الجبال. ستأخذ معك بنادق. دون الحديث عن هؤلاء الشجعان الستة.

وأشارت إلى رجال الدرك الستة الواقفين في وضعية «تأَهَّب». قال بيلشايم متذمراً:

ـ نزل غالين ومعه ثمانية رجال إطفاء، ولم يفده ذلك كثيراً...

ـ ولكنهم نزلوا بغير أسلحة وبغير إتصالات بالإرسال! هيا. لا ترتدِ سحنتك العجيبة يا بيلشايم.

لا يريد أن يناقش. ألعاب السلطة والتخويف تغيظه إلى أبعد الحدود. ثم إن مقاومتها بما هي سولانج تعني أنها ستتحول إلى دومينغ(*). فقد كانت كالأعشاب الضارة في حديقة. لا مفر من التعايش معها دون التعرض للأذى.

بيلشايم، المفوض المستنير، ارتدى زي مستكشفي المغاور

(*) أي أن التعامل سيصبح رسمياً وسلطوياً تماماً.

وربط حبل متسلقي الجبال حول وسطه وعلق جهاز الـ «توكي ووكي» حول عنقه.

ـ أريد، إذا لم أعد، أن تعطى جميع أملاكي للأيتام من أولاد رجال الشرطة.

ـ دع عنك هذه الحماقات يا بيلشايم، يا صاحب القلب الطيب. ستعود، وسنذهب جميعاً إلى المطعم، للإحتفال بعودتك.

ـ إذا حدث ولم أعد. . . أريد أن أقول لك شيئاً. . .

تقطب حاجبيها.

ـ توقف عن هذه الصبيانيات، يا بيلشايم!

ـ أريد أن أقول لك. . . بأننا نُحاسب، يوماً ما، على سيئاتنا.

ـ ها إنه يصير الآن صوفياً! لا، يا بيلشايم، أنت مخطىء. إننا لا نُحاسب على سيئاتنا! قد يكون هنالك «إله طيب». كما تقول، ولكنه لا يعيرنا بالاً. وإذا لم تستفد من هذا الوجود وأنت حي، فإنك لن تجني منه فائدة أكبر وأنت ميت!

ضحكت ضحكة مبتورة ثم اقتربت من مرؤوسها حتى كادت تلتصق به. أما هو، فقد حبس أنفاسه. فالروائح الكريهة، سيشم الكثير منها في ذلك القبو. . .

ـ ولكنك لن تموت بهذه السرعة. عليك أن تجد حل القضية وإلا فإن موتك لن يكون ذا فائدة.

الضيق الذي شعر به المفوض، في هذا الحِجاج، حَوَّلَهُ إلى طفل. كان كصبي سُلِبَ لعبته و، لعلمه بأنه لن يقدر على استرجاعها، يكتفي بتوجيه بعض السباب الخفيف.

ـ طبعاً، لأن موتي سيعني فشل التحقيق الذي تقومين به «شخصياً». سنرى النتائج عندما تبدئين «الإهتمام بالملف بشكل مباشر»، كما تقولين.

ازدادت اقتراباً منه، كما ولو أنها تريد تقبيله في فمه. وبدلاً من ذلك، قالت بتأنٍ ورذاذ لعابها يتطاير على وجهه:

ـ إنك لا تحبني يا بيلشايم. أليس كذلك؟ لا أحد يحبني، وهذا لا يهمني. وأنا أيضاً لا أحبك. لا حاجة لي بأن يحبني أحد. كل ما أريده هو أن أكون مرهوبة الجانب. لكنني أريد أن تعلم شيئاً: إذا فطست هناك، فإن ذلك لن يسبب لي حتى القليل من الإحساس بالضيق. سأرسل عندها فريقاً آخر. فإذا كنت تريد أن تسيء إلي، فما عليك إلا أن تعود منتصراً وحياً. عندها سأكون مدينة لك. لم يحر جواباً. نظر بإشتهاء إلى الأصول البيضاء لشعرها المسرح وفق الموضة الأخيرة. أعاده ذلك إلى هدوئه.

ـ نحن مستعدون! قال أحد رجال الدرك وهو يرفع بندقيته.

كان الجميع يلفون الحبال حول أوساطهم.

ـ طيب، هيا بنا!

لوحوا بأيديهم لرجال الشرطة الثلاثة الذين سيبقون على

إتصال دائم بهم من على سطح الأرض ثم غابوا في ظلمة القبو.

جلست سولانج دومينغ إلى مكتب كانت قد نصبت عليه جهاز الإرسال والإستقبال.

ـ حظاً سعيداً، عودوا بسرعة!.

– 3 –

أوديسات ثلاث

أخيراً، وجدت الأنثى رقم 56 مكاناً مثالياً لبناء مدينتها. المكان عبارة عن تلة مستديرة. تصعد فوق التلة. من أعلاها تشاهد المدينتين الأكثر بعداً لجهة الشرق: زوبي ـ زوبي ـ كان وغلوبي ـ ديو ـ كان. يفترض ألا تطرح إقامة الإتصال مع باقي مدن الفيدرالية كثيراً من المشاكل.

تقوم بفحص المنطقة. تجد أن الأرض رمادية وصلبة بعض الشيء. تبحث الملكة الجديدة عن مكان تكون الأرض فيه أكثر طراوة، لكنها لا تجد، في المكان، غير الصلابة. ومع ذلك، تغرز ملقطها دون هوادة لتحفر أول مقر ملكي لها فيهتز المكان من تحتها بشكل غريب. كما ولو أن هزة أرضية قد حدثت. ولكنها أكثر تموضعاً من أن تكون هزة عادية. تطغى الأرض مرة أخرى، فتهتز كأسوأ مما اهتزت في المرة الأولى؛ ترتفع التلة كلها ثم تنزلق نحو اليسار. . .

ذاكرة النمل حافلة بالظواهر العجيبة ولكن لا مكان فيها لتلة حية! هذه التلة تسير الآن مسرعة إلى الأمام، تشق طريقها بين الأعشاب، تسحق في مسيرها الهشيم.

لم تكن الأنثى رقم 56 قد استفاقت بعد من ذهول المفاجأة عندما رأت تلة أخرى تقترب من تلتها. أي سحر هو هذا السحر؟ تجد نفسها عاجزة تماماً عن النزول بعد أن انجرفت، رغماً عنها، في هذا

الروديو(*) العجيب. هذا الروديو هو، في الحقيقة، إحتفالية حب بين تلتين. التلتان تتلامسان الآن بغير احتشام... وزيادة في النكاية، كانت تلة الملكة رقم 56 هي الأنثى! أما الأخرى، فكانت تتسلق ظهر الأولى بكل هدوء، ثم يبرز منها شيئاً فشيئاً رأس حجري مخيف يفتح شدقه كأنه ميزاب.

لا! هذا يفوق القدرة على التحمل. تتخلى الملكة الشابة عن فكرة إقامة مدينتها في هذه الناحية. تهوي من فوق التلة المتحركة فتدرك طبعة الخطر الذي كان محيقاً بها. فالتلتان ليس لهما رأسان فحسب، بل إن لكل منهما قوائم أربع بمخالب وذنب صغير مثلث الشكل.

إنها المرة الأولى التي يحدث فيها للأنثى رقم 56 أن تشاهد السلاحف.

زمن المتآمرين: **نسق التنظيم الأكثر انتشاراً بين البشر هو التالي: هيكلية معقدة من الـ «إداريين» مكونة من رجال ونساء يمسكون بالسلطة ويؤطرون أو، على الأصح، يديرون، تحت غطاء التوزيع، جماعة أقل اتساعاً قوامها «الخلاقون» ومنهم «التجاريون»، ثم يضعون أيديهم على العمل... إداريون، خلاقون، تجاريون. إنها الفئات التي تقابل، في أيامنا هذه، فئات العاملات والمحاربات وذوات الجنس عند النمال.**

ويقدم الصراع بين ستالين وتروتسكي، وهما زعيمان روسيان في بداية القرن العشرين، يقدم تمثيلاً رائعاً للإنتقال من نظام يعزز الخلاقين إلى نظام يعزز الإداريين. تروتسكي، عالم الرياضيات ومخترع الجيش الأحمر، تمت

(*) ألعاب يتبارى فيها رعاة البقر الأميركيون بترويض الخيول أو النيران عن طريق ركوبها.

إزاحته من قبل ستالين، رجل المؤامرات. صفحة وطُوِيَتْ. إذا ما عرفنا كيف نمارس الإغراء ونجمع القتلة ونبث المعلومات الكاذبة، فإننا نخترق شرائح المجتمع بشكل أفضل وأسرع مما لو كنا قادرين على إنتاج مفاهيم وأشياء جديدة.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

عادت المحاربتان 4000 و103683 إلى سلوك الطريق الروائحي المؤدي إلى مدينة الأرضة الشرقية. تلتقيان في مسيرهما بحشرات من فصيلة الجعل وهي تدفع أمامها كُرات من الرّوَث، وبنمال مستكشفات من فصيلة ضئيلة الأحجام لا تكاد تبين للمحاربتين، وبأخريات كبيرات لا تكاد المحاربتان تبينان إزاءهن.

ذلك، لأن هنالك أكثر من اثني عشر ألفِ فصيلة من النمال، وكل منها لها خصائصها الجسدية المستقلة. أصغر هذه الفصائل لا تزيد قامة أفرادها عن بضع مئات من الميكرونات(*) وأكبرها يزيد عن سبعة سنتيمترات. ويأتي تصنيف الصهباوات في الوسط.

يبدو أن المحاربة رقم 4000 قد حددت موقع المكان الذي وصلتا إليه. عليهما أن تجتازا ما وراء هذه البقعة الطحلبية الخضراء، ثم أن تصعدا ذلك الدغل النابت بسيقان الآكاسيا، ثم أن تمرا بين أزهار النرجس لتصلا، كما هو مفروض، إلى حيث تقصدان. فالمكان الذي تقصدانه هناك، خلف جذع تلك الشجرة الميتة.

وهو كذلك، فما أن تتجاوزا ذلك الجذع حتى تشرفان، من خلال أعشاب الغاسول والأشنان، على النهر الشرقي ومرفأ ساتيي.

(*) الميكرون: جزء من ألف من المليمتر.

ـ آلو، آلو، بيلشايم، أتسمعني؟

ـ خمسة على خمسة.

ـ كل شيء على ما يرام؟

ـ لا مشاكل.

ـ طول الحبل الذي تسحبونه وراءكم يدل على أنكم قد قطعتم 480 متراً.

ـ جيد.

ـ هل رأيتم شيئاً؟

ـ لا شيء يذكر. فقط، بعض كتابات محفورة في الحجر.

ـ أي نوع من الكتابات؟

ـ عبارات باطنية. أتريدين أن أقرأ لك واحدة منها؟

ـ لا، أصدقك دون أن تأتي بدليل...

بطن الأنثى رقم 56 في حالة غليان تام. في الداخل شد ودفع واضطراب. جميع سكان مدينتها المستقبلية قد نفذ صبرهم.

لا يمكنها أن تستمر في البحث والتخيّر. تختار موطئاً من الأرض أسود قاتماً وتقرر أن تؤسس مدينتها فيه.

موقع المكان ليس سيئاً. لا تنبعث من الأرجاء المحيطة روائح المقزومات أو الأرضة أو الدبابير. لا بل إن هنالك فيرومونات إشارة تدل على أن البيلوكانيات سبق لهن وضربن في هذه البقاع.

تتذوق التراب فتجد الأرض غنية بالضروريات الحيوية والرطوبة كافية بغير إفراط. وهنالك أيضاً شجيرة فوق المكان.

تمهد مساحة دائرية بقطر ثلاثمئة رأس هي عبارة عن الشكل الأمثل لسطح مدينتها.

لكنها خائرة القوى. تحاول إخراج الغذاء من بطنها الإجتماعي. غير أن الغذاء قد نضب منذ مدة طويلة. ليس لديها أي مخزون إحتياطي من الطاقة. لا مناص. تقتلع أجنحتها بضربات حادة وتلتهم أصولها اللحمية بشراهة.

حريرات ستمكنها من الصمود لعدة أيام أُخَر.

تدفن نفسها حتى نهايات قرنيها. لا يجب أن يكتشف وجودها أحد في هذه الفترة لأنها تشكل فريسة سهلة.

تنتظر، وبهدوء، تستيقظ المدينة النائمة في بطنها. أي إسم ستعطي لمدينتها؟

عليها، قبل ذلك، أن تجد إسماً ملكياً لنفسها. فامتلاك الإسم يعني، عند النمال، امتلاك الوجود ككيان مستقل. العاملات والمحاربات والعذارى من ذوات الجنس لا أسماء لهن غير الأرقام التي يحصلن عليها تبعاً لتسلسل ولاداتهن. أما الإناث الملقحات فلهن الحق بالأسماء.

هُمْمْ! خرجت من المدينة خائفة تتعقبها المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور، إذن، ليس لها إلا أن تسمي نفسها «الملكة الطريدة». ولكنها طوردت لأنها حاولت أن تكشف عن لغز السلاح السري. لا يجب أن تنسى ذلك. هي إذن «الملكة التي ولدت من اللغز». وهذا الإسم يُشم، بلغة الروائح عند النمال، كما يلي:

شلي ــ بو ــ كان

إتصال جديد، بعد ساعتين من الإتصال الأول.

ـ كيف تسير الأمور، يا بيلشايم؟

ـ نحن نقف الآن أمام باب. باب عادي. عليه كتابة بخط

كبير وبحروف قديمة.

- ماذا تقول تلك الكتابة؟

- هل تريدين أن أقرأها لك هذه المرة؟

- نعم.

وجَّه المفوض نور المصباح نحو الكتابة وبدأ بقراءتها بصوت احتفالي بطيء لأنه كان يتعرف إلى الحروف بعد تهجئتها حرفاً حرفاً.

الأحاسيس التي تعيشها الروح في لحظة الموت هي نفسها الأحاسيس التي يعيشها الواصلون لحظة كشف الأسرار لهم.

في البداية، تقطع الروح مسافات ومسافات وتتعرض لإنعطافات مؤلمة. أسفار مخيفة لا تنتهي. ظلمات بعدها ظلمات.

ثم يصل الرعب إلى أوجه قبيل النهائية. لا شيء غير الإرتعاد والإرتجاف والعرق البارد.

هذه المرحلة يعقبها مباشرة صعود نحو النور. إشراقات مفاجئة.

أنوار بهية تظهر للعيان. تجتاز الروح أمكنة صافية وسهولاً يغمرها الغناء وأنواع الرقصات.

تسمع الروح كلاماً مقدساً يوحي بالمهابة الدينية. الإنسان الكامل والواصل يصبح حراً ويقرأ مجد الأسرار.

أحد رجال الدرك يرتجف والصوت المنطلق من جهاز الـ «توكي ووكي» يقول:

ـ وماذا يوجد خلف ذلك الباب؟

ـ حسناً، سأفتحه... اتبعوني يا شباب.

صمت طويل.

ـ آلو، بيلشايم! آلو بيلشايم! أجبني، ماذا ترى؟

يسمع صوت طلق ناري، ثم يعود الصمت.

ـ آلو بيلشايم، أجب يا عزيزي!

ـ هنا بيلشايم.

ـ تكلم إذن، ما الذي جرى؟

ـ الجرذان، آلاف الجرذان سقطت علينا، ولكننا أجبرناها على الفرار.

ـ ألهذا أطلقتم النار؟

ـ أجل. وهي الآن لا تخرج من مخابئها.

ـ صف لي ما ترى!

ـ كل ما يحيط بنا أحمر اللون. توجد آثار صخور حديدية فوق الجدران. وتوجد... دماء على الأرض! إننا نتابع طريقنا...

ـ لا تقطع الإتصال بالجهاز! لماذا قطعته؟

- أفضل أن أعمل بطريقتي وليس حسب نصائحك الموجهة من بعيد. هذا ما أفضله يا سيدتي، إذا سمحتِ.

- ولكن، يا بيلشايم.

كليك! قطع بيلشايم الإتصال.

ليس ساتيي مرفأ بكل معنى الكلمة. ولا هو موقع متقدم. ولكنه، بما لا يقبل الجدل، نقطة مميزة بالنسبة للبعثات البيلوكاتية التي تجتاز النهر.

قديماً، عندما وصلت النمال الأولى، من أسرة ني، إلى هذا الذراع المائي، لم تلبث أن فهمت أن اجتيازه لن يكون بالأمر السهل. ولكنها كانت مستعدة، إذا ما اقتضت ذلك الظروف، لأن تضرب الحاجز برؤوسها خمسة عشر ألف مرة وبخمسة عشر ألف شكل وشكل، حتى تموت أو تقضي على مقاومة الحاجز!

هذه الطريقة في التصرف تبدو غير منطقية. ولا شك بأنها كلفت الحضارة النملية كثيراً من الأرواح وأجبرتها على هدر الكثير من الوقت، ولكنها آتت أُكُلَها، في النهاية. فالنمال تبذل الجهود الجبارة وتتوصل، دائماً، إلى تذليل ما يعترضها من عقبات.

وصلت المستكشفات إذن إلى ساتيي وبدأن بمحاولة اجتياز النهر سيراً على القوائم. كان سطح الماء بالصلابة الكافية لتحمل ثقل أجسادهن، غير أنه كان من المستحيل، بالنسبة لهن، أن يثبتن مخالبهن فيه. فقد تقدمت النمال فوق ضفة النهر على طريقة المتزحلقين على الجليد. خطوتان إلى الأمام، ثلاث خطوات إلى هذا الجانب... ثم، فجأة: **سلورب!** تبتلعهن الضفادع.

وبعد أكثر من مئة من المحاولات غير الناجحة التي أدت إلى التضحية بألوف المستكشفات، انصرفت النمال إلى البحث عن حل آخر. شكلت

العاملات بأجسادهن سلسلة تماسكن فيها بالقوائم والقرون وأوصلن طرفها إلى الضفة الأخرى. وقد كان بإمكان هذه التجربة أن تلاقي ما تستحقه من نجاح لو أن النهر لم يكن عريضاً جداً وشديد إضطراب الأمواج. وانتهت التجربة بمئتين وأربعين ألف نملة قتيلة. ولكن النمال لم تتراجع. فبتوجيه من ملكتهن بيو ـ با ـ ني، التي كانت تحكمهن في ذلك الزمان، حاولن بناء جسر من أوراق الشجر، وجسر من سيقان الأعشاب، وجسر من جثث الخنافس، وجسر من الحصى... هذه المحاولات الأربع كلفتهن ستماية وسبعين ألفاً من القتلى في صفوف العاملات. وكان ما قتلته بيو ـ پا ـ ني من رعاياها على مذبح جسرها الأسطوري يفوق بكثير ما أوقعته جميع الحروب الإقليمية التي نشبت خلال فترة حكمها!

ومع ذلك كله، لم تتراجع. كان يجب أن تجتاز الأراضي الشرقية. ومع فشل الجسور، خطرت لها فكرة الدوران حول النهر بالصعود شمالاً حتى منبعه. ولكن واحدة من الحملات التي جردتها في هذا السبيل لم ترجع إلى قواعدها. ثمانية آلاف قتيل. ثم ارتأت أن على النمال تعلم السباحة. خمسة عشر ألف قتيل. ثم ارتأت أن على النمال أن تدجن الضفادع. ثمانية وستون ألف قتيل. وإذا ما جربنا الأوراق بالطيران عليها فوق الماء بعد القفز من أعالي الأشجار؟ 52 قتيلاً. والمشي تحت الماء بعد تثقيل القوائم بالعسل المتيبس؟ 27 قتيلاً. وتزعم الأسطورة بأن الملكة أُعلمت بأن المدينة لم يعد فيها غير عشر عاملات سالمات، وأن من الضروري التوقف، مؤقتاً، عن تنفيذ المشروع، فأطلقت يومئذ حكمتها المأثورة القائلة:

شيء مؤسف، في رأسي أفكار أخرى كثيرة...

ولكن نمال الفيدرالية توصلن أخيراً إلى إيجاد حل مرضٍ. فبعد ثلاثمائة ألف عام، إقترحت الملكة ليفوغ ـ ريوني على بناتها أن يحفرن نفقاً تحت النهر. كانت بساطة هذا الحل هي السبب في أن أحداً لم يفكر فيه من قبل.

وهكذا، صار المرور تحت النهر ممكناً دون أية متاعب، إنطلاقاً من ساتيي.

المحاربتان 103683 و4000 تتقدمان، منذ عدة درجات زمنية، داخل هذا النفق الشهير. في المكان رطوبة، ولكن الماء لم يتدفق إليه بعد. مدينة الأرضة عند الضفة الأخرى. والأرضة تستخدم النفق نفسه للتسلل إلى أراضي الفيدرالية. ساد تفاهم ضمني حول الموضوع حتى الآن. لا معارك داخل النفق وحرية المرور مؤمنة فيه للجميع، للأرضة وللنمال على حد سواء. غير أنه من الواضح أن مجرد ظهور علامات تدل على تفوق أحد الطرفين، فإن الطرف الآخر لن يتردد مطلقاً عن محاولة إغلاق النفق أو إغراقه.

تمشيان وتمشيان دون أن تصلا إلى نهاية النفق الطويل. المشي ليس مشكلة بذاته، فالمشكلة الوحيدة هي في تحول الكتلة السائلة التي تعبران تحتها إلى جليد. والأرض التي تطآن جليد أشد. البرد الشديد يخدرهما وكل خطوة تخطوانها تصبح أكثر صعوبة من سابقتها. وإذا حدث لهما ونامتا حيث هما، فإن ذلك سيعني دخولهما في خدر أبدي. تعرفان ذلك جيداً فتزحفان لبلوغ نهاية النفق. تبحثان في معدتيهما الإجتماعيتين عن بقايا احتياطي البروتيين والسكر. لكن عضلات جسميهما خدرة تماماً. وأخيراً تبلغان نهاية النفق، فتنامان من شدة البرد على قارعة الطريق، فور خروجهما إلى الهواء الطلق.

التقدم بهذه الصورة، واحداً تلو الآخر، داخل هذا المعي المظلم، كان يحول دون ترابط الأفكار. لا يمكن التفكير بشيء هنا غير مواصلة المسير حتى النهاية. على أمل أن تكون هنالك نهاية...

من خلفه، توقف الجميع عن الكلام. كان بيلشايم يسمع

رجال الدرك الستة وهم يتنفسون بأصوات جشَّاء ويقول في نفسه بأنهم ضحايا لعمل ظالم حقاً.

كان ينبغي له أن يكون مفوضاً رئيسياً وأن يقبض مرتباً حقيقياً. كان يقوم بعمله كما ينبغي وساعات دوامه كانت تفوق الحدود العادية، ثم إنه تمكن من إيجاد الحلول لأكثر من عشر قضايا. ولكن دومينغ كانت جاهزة على الدوام لتحول دون تقدمه.

يجد فجأة أن هذا الوضع لا يطاق.

ـ لا، هذا غير ممكن!

من خلفه، يتوقف الجميع عن المسير.

ـ الأمور على ما يرام، أيها المفوض؟

ـ أجل، أجل، على ما يرام. تابعوا المسير!

منتهى العار: ها هو الآن يتكلم وحيداً. عض على شفتيه موطّناً نفسه على التماسك. ولكنه عاد إلى همومه المتلاطمة بعد أقل من خمس دقائق.

لم تكن عنده أية مواقف معادية للنساء، ولكنه كان يكن العداء لغير الأكفاء. «العاهرة العجوز لا تكاد تعرف القراءة والكتابة. لم تقم بإجراء أي تحقيق، وها هي الآن تترقى إلى مركز رئاسة القسم. مئة وثمانون شرطياً تحت إمرتها، ومرتبها يفوق مرتبه بأربع مرات! انخرطوا في صفوف الشرطة، يقولون! أما هي فقد عينت تعييناً من قبل سلفها، ثمناً لخدمات ليلية، بكل

تأكيد. وفوق كل ذلك، لا تلزم حدودها ولا تريح الآخرين من تدخلاتها. كثيرة الجلبة دون أية فائدة. تؤلب العاملين على بعضهم البعض وتشيع الخراب في قسمها بالذات وهي تلعب دور العنصر الذي لا يستغنى عنه...».

هذه الإجترارات تقود بيلشايم إلى تذكر فيلم وثائقي عن ذكور الضفادع. فخلال فترة الإخصاب، يبلغ التهيج بهذه الحيوانات حد القفز فوق كل ما يتحرك وما لا يتحرك، من إناث الضفادع إلى ذكورها وصولاً إلى الأحجار. تقفز وتضغط على بطن ما تقفز عليه لإخراج البيوض وتلقيها. فتلك التي تضغط إناثاً ترى جهودها مكللة بالنجاح. وتلك التي تضغط على بطون الذكور لا تجد غير الإخفاق وتجدد البحث عن شريك آخر. أما تلك التي تضغط على الأحجار فتؤلمها شدة الضغط وتعرض عما هي فيه.

ولكن، هنالك حالة فريدة: حالة الذكور التي تضغط على تلعة من تراب. فتلعة التراب طرية كبطن الأنثى. لذا، لا تتوقف الذكور عن الضغط عليها. يمكنها أن تمضي أياماً وأياماً في إجهاد أنفسها بهذا العمل العقيم وتظن أنها تؤدي وظيفتها على أكمل وجه...

يبتسم المفوض لفكرة طرأت: قد يكون من الكافي لو أُفهمت هذه السولانج الطيبة أن تصرفات أخرى قد تكون ممكنة وأكثر نجاعة وإفادة من هذه التصرفات التي لا شأن لها غير تقييد المرؤوسين وإرهاقهم. ولكنه لا يعتقد بإمكانية ذلك. لذا، ينتهي

إلى القول، في نفسه، بأنه قد لا يكون، هو بالذات، في موقعه المناسب داخل هذه المؤسسة الخَرِبَة.

ومن ورائه، كان الآخرون غارقين، هم أيضاً، في أفكارهم المدلهمّة. كان هذا النزول الصامت ثقيل الوطأة على أعصابهم. إنهم يمشون منذ ساعات خمس دون أن ينالوا أي قسط من الراحة. معظمهم كان يفكر بالمكافأة التي لا بد من أن يطالبوا بها بعد هذه المغامرة. بعضهم كان يفكر بالزوجة والأولاد والسيارة أو بكأس من البيرة...

لا شيء: أي شيء هو أكثر إمتاعاً من التوقف عن التفكير؟ إيقاف هذا السيل الجياش بالأفكار المفيدة إلى هذا الحد أو ذاك، أو المهمة إلى هذا الحد أو ذاك. إيقاف التفكير! كما ولو أننا أموات مع قدرتنا على أن نعود إلى الحياة. كينونة الفراغ والعودة إلى الأصول العليا والوصول إلى حد ألا نكون أناساً لا نفكر في شيء. أن نكون لا شيء. ذلكم طموح رفيع.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

بعد أن أمضت المحاربتان الليل بطوله، على حافة النهر الموحلة، بلا حراك، جاءت خيوط الشمس الأولى لتبعث الحياة في جسديهما.

عيون المحاربة رقم 103683 يدب النشاط في أوجهها الواحد تلو الآخر ليستضيء دماغها بالمشهد الجديد الماثل أمامها. مشهد مكون بكليته من عين ضخمة معلقة فوقها بثبات وانتباه.

تطلق النملة الشابة فيرومون صرخة رعب تلهب قرنيها. يستولي الخوف على العين أيضاً فتتباعد ومعها يتباعد القرن الطويل الذي يحملها. القرن والعين يختبآن داخل شيء شبيه بحجر مستدير. إنها البزاقة!

بزاقات أخريات حول النملتين. خمس بزاقات يختبئن في قوقعاتهن. تقترب النملتان من إحداهن وتدوران حولها. تحاولان عضها. ليس إلى ذلك سبيل. هذا العش المتجول قلعة عصية.

تَطْرُقُ فكرها إحدى حكم الملكة ـ الأم:

الأمان عدوي اللدود؛ يخدر حركاتي العفوية ومبادراتي.

تقول المحاربة رقم 103683 لنفسها أن هذه الدواب القابعة في قوقعاتها قد أَلِفَتِ الحياة السهلة وهي ترعى الأعشاب الثابتة المنتظرة في أمكنتها. لم تجد نفسها أبداً مضطرة للقتال والإغراء والصيد والهرب. لم يكن عليها أبداً أن تجابه الحياة. إذن، لم يكن بإمكانها أبداً أن تتطور.

نزوة تحفز النملة على دفع البزاقات إلى الخروج من قوقعاتها، لتثبت لها بأنها ليست بمنأى عن التجارب المؤلمة. عند ذلك بالضبط، ظنت اثنتان من البزاقات الخمس بأن الخطر قد ابتعد وتركتا جسميهما يندلقان خارج حصنيهما في محاولة لخفض توترهما العصبي.

الجسدان يلتقيان ويلتصقان بطناً لبطن ولعاباً فوق لعاب. تلتحم البزاقتان في قبلة لزجة تَغْبُر جسديهما. عضواهما الجنسيان يتماسّان.

هنالك ما يجري بين البزاقتين.

لكنه يجري ببطء.

البزاقة اليمنى تدخل قضيبها المدبب برأسه الكلسي في حياء البزاقة اليسرى بكل ما فيه من بيوض. وما إن تبلغ هذه الأخيرة رعشتها تخرج بدورها قضيباً منتصباً وتغمده في شريكتها.

كلتاهما تعيشان اللذتين. لذة المولَج فيه والمولِج في آن. كلتاهما مجهزتان بمهبل فوقه قضيب. كلتاهما تعيشان إحساسات الجنسين.

تبلغ البزاقة اليمنى لذتها الذكرية قبل اليسرى. تتلوى وتتمدد في جميع الإتجاهات بفعل ما تمخر جسدها من شحنات. تشتبك قرون الخنثيين البصرية الأربعة. يتحول اللعاب إلى رغوة ثم إلى فقاعات. تحتكان في رقصهما وتلتصقان بشهوانية تزيد في التهابها تؤدة الحركات.

اليسرى قرناها ينتصبان. تبلغ بدورها رعشتها الذكرية. وما إن تنتهي من تفريغ شحنتها، حتى يغدق عليها جسمها بموجة ثانية من النشوة. نشوة مهبلية هذه المرة. تتبعها اليسرى في بلوغ نشوتها الأنثوية.

قرونهما ترتخي. سهام حبهما تنسحب. وينغلق المهبلان... وبعد هذا الفعل الكامل يتحول المتحابان إلى مغناطيسين بقطبين سالبين، فيعرض كل حبيب عن حبيبه. ظاهرة قديمة قدم العالم. آلتا أخذ اللذة وإعطائها تتباعدان ببطء، بعد أن لقحت كل منهما بويضاتها بمني الأخرى.

كانت المحاربة رقم 103683 لا تزال مشدوهة بجمال المشهد، عندما شنت المحاربة رقم 4000 هجومها على إحدى البزاقتين. قصدها أن تفيد من تعب ما بعد الحب لتبقر بطن كبرى البزاقتين، لكنها تأخرت في الهجوم. كانت البزاقتان قد تحصنتا في داخل القوقعتين.

غير أن المحاربة العجوز لا تتراجع. تعرف تماماً أنهما ستنتهيان إلى الخروج. تضرب حولهما الحصار. وأخيراً، خرجت عين خجول ثم تمادى قرن بكامله خارج القوقعة. فالرخوة العديمة القدمين تريد أن تطلع على سير العالم خارج حياتها الصغيرة.

وما أن خرج القرن الثاني حتى اندفعت المحاربة رقم 4000 وعضت العين بكل ما في ملقطيها من قوة. تريد أن تقطعها نصفين. ولكن الدابة الرخوة انكمشت وجذبت المستكشفة معها إلى داخل الحلزون.

فلوب!

ما العمل لإنقاذها؟

فكرت المحاربة 103683 فما لبثت أن التمعت فكرة في أحد أدمغتها الثلاثة. أخذت حصاة بملقطيها وطفقت تضرب بها القوقعة بكل قوتها. لقد

اخترعت المطرقة دون شك. ولكن البَلزا(*) شيء وقوقعة البزاقة شيء آخر. ثم إن الطقطقات التي تسمعها البزاقة ليست، بالنسبة للبزاقة، غير الموسيقى. يجب البحث، إذن، عن وسيلة أخرى.

يوم حافل بالمآثر، لأن النملة ما لبثت أن اكتشفت الرافعة. فقد تناولت قشة صلبة واستخدمت حصاة كنقطة ارتكاز ثم ألقت بكل ثقلها لتقلب الحيوان الثقيل. أعادت الكرة عدة مرات فاهتزت القوقعة من الأمام ومن الخلف ثم انقلبت على ظهرها وصارت فتحتها إلى الأعلى. وهكذا، نجحت النملة في مسعاها!

ارتقت النملة أهداب القوقعة الحلزونية وانحنت فوق فوهة البئر ثم ألقت بنفسها في التجويف لملاقاة الحيوان الرخو. انزلقت طويلاً قبل أن تكبح هبوطها مادة هلامية داكنة. تخبطت باشمئزاز في كل ذلك اللعاب الدسم وشرعت بتقطيع الأنسجة الرخوة. لا يمكنها استخدام الحامض، لأنها قد تحترق فيه، هي الأخرى.

سوائل أخرى تنز وتختلط باللعاب: إنه دم البزاقة الشفاف يرتخي الحيوان المذعور ثم تند عنه انتباضة تقذف بالنملتين خارج القوقعة.

لم يصبهما أي أذى. تتعانقان طويلاً بقرونهما.

البزاقة المحتضرة تحاول الفرار. لكن أحشاءها تتساقط خلفها فوق الطريق. تخف النملتان إليها وتجهزان عليها. يستولي الذعر على البزاقات الأربع الأخرى التي كانت قد أخرجت قرونها البصرية لمراقبة المشهد فتنكمش داخل قوقعاتها وتمضي بقية النهار دون حراك.

ذلك الصباح، أكلت المحاربتان 103683 و4000 من البزاقة حتى التخمة. قطعتاها والتهمتاها على شكل شرائح ساخنة عائمة في اللعاب. عثرتا أيضاً على الجيب الرحمي المليء بالبيوض. كافيار البزاق! أحد

(*) أشجار مدارية يستخدم خشبها الخفيف الوزن والقوي في بعض تجهيزات السفن والسجاد لعزل صوت المشي عليها.

الألوان المفضلة فوق موائد النمال الصهباء، أحد أهم مصادر الفيتامينات النفيسة والدهون والبروتينات والسكر . . .

ملأتا جيبيهما الإجتماعيين حتى الإفاضة وتشبعتا بالطاقة الشمسية ثم تابعتا مسيرهما بخطى جذلة ثابتة نحو الجنوب الشرقي.

تحليل الفيرومونات: **(التجربة الرابعة والثلاثون). توصلت إلى معرفة بعض جزئيات الإتصال عند النمال بواسطة المنظار الطيفي والتصوير الكروماتوغرافي. وقد تمكنت بذلك من إجراء تحليل كيميائي لإتصال تم التقاطه بين ذكر وعاملة في الساعة العاشرة مساءً. كان الذكر قد اكتشف قطعة من لب الخبز، فبث الرسالة التالية:**

ـ ميتيل ـ 6.

ـ ميتيل ـ 4 هيكزانون ـ 3 (مكرر).

ـ سيتون.

ـ اوكتانون ـ 3.

ثم، من جديد:

ـ سيتون.

ـ اوكتانون 3 (مكرر).

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

تلتقيان في الطريق ببزاقات أخرى. كلهن يختبئن كما ولو كنّ على اتفاق: «هاتان النملتان خطرتان». إحدى البزاقات لا تختبىء، لا بل إنها تظهر كامل شخصها الكريم.

تقترب النملتان باستغراب. تجدان أن الحيوان قد سُحق تماماً بكتلة ثقيلة. قوقعته مهشمة وجسمه قد انفجر وانتشرت أوصاله في دائرة واسعة.

ينصب تفكير المحاربة 10683 مباشرة على السلاح السري وعلى الأرضة. لا بد وأن مدينة الأعداء غير بعيدة من هنا. تتفحص الجثة عن كثب. كانت الصدمة كبيرة وقوية جداً وصلبة. ليس من العجيب أن تكون الأرضة قد تمكنت من تفجير لا ـ شولا ـ كان بهذا السلاح!

10683 تزداد تصميماً. لا بد من الدخول إلى مدينة الأرضة لمعرفة السلاح السري أو، بالأحرى، لسرقته. وإلا، فإن الفيدرالية كلها ستكون مهددة بخطر الإحتراق!

تهب فجأة ريح شديدة. لم تمهل الريح مخالب النملتين لتتشبث بالأرض. ترفعهما العاصفة نحو السماء. 10683 و4000 لا أجنحة لهما... لكنهما تطيران.

بعد عدة ساعات، وفيما كان الفريق العامل فوق السطح في حال ارتخاء كالإغفاء، عاد جهاز الـ «توكي ووكي» إلى إطلاق رنينه من جديد.

ـ ألو، مدام دومينغ؟ ها قد وصلنا إلى أسفل السلم.

ـ ماذا وجدتم؟ ماذا ترون؟

ـ الطريق مسدود. نرى حائطاً من الإسمنت والفولاذ قد بني حديثاً. يبدو الأمر كما ولو أن كل شيء يتوقف هنا... هنالك كتابة أيضاً.

ـ إقرأ!

كيف يمكن تشكيل أربعة مثلثات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب؟

ـ أهذا كل شيء؟

ـ لا، هنالك أزرار عليها حروف، لإعطاء الإجابة بالضغط عليها.

ـ أليس هنالك أي رواق جانبي؟

ـ لا شيء.

ـ ولا ترون جثث الآخرين؟

ـ لا، لا شيء... هُمْمْ... ولكن هنالك آثار أقدام. كما ولو أن أحذية كثيرة قد وطأت المكان أمام الجدار تماماً.

ـ ماذا نفعل، ألا نصعد؟ قال أحد رجال الدرك هامساً.

قام بيلشايم بتفحص الحاجز بمنتهى الدقة. كل هذه الرموز، وصفائح الإسمنت والفولاذ، لا بد أنها تخفي جهازاً آلياً ما. والآخرون. أين تبخروا إذن؟

كان رجال الدرك قد جلسوا خلفه على درجات السلم. أما هو، فقد ركز انتباهه على الأزرار. تحريك هذه الأزرار لا بد وأن يتم وفق نظام دقيق. جوناثان ويلز كان يعمل في تركيب الأقفال. لا بد وأنه طبق هنا نظام الحماية المستخدم في بوابات الأبنية. لا بد من إيجاد الكلمة السرية.

استدار نحو رجاله.

ـ هل معكم عيدان ثقاب يا شباب؟

ـ جهاز الـ «توكي ووكي» يزعق بنفاذ صبر.

ـ آلو، المفتش بيلشايم، ماذا تفعل؟

ـ إذا كنت تريدين مساعدتنا فعلاً فما عليك إلا أن تحاولي تشكيل أربعة مثلثات بستة عيدان ثقاب. ولا تتصلي بي قبل العثور على الحل.

ـ أتهزأ بي يا بيلشايم؟

وأخيراً، هدأت العاصفة. خلال ثوان قليلة أوقفت الريح رقصتها وعادت الأوراق والغبار والحشرات إلى سابق خضوعها لقانون الجاذبية وتساقطت حيث اتفق لأوزانها أن حملتها على التساقط.

الرقم 103683 والرقم 4000 التصقتا بالأرض، تفصل بينهما مسافة من عدة عشرات من الرئوس. اقتربت كل واحدة من الأخرى والتقتا سالمتين من الجراح وبدأتا بتفحص المكان. منطقة كثيرة الحصباء، لا تشبه المكان الذي اقتلعتا منه في شيء. ليس في المكان شجرة واحدة. لا شيء غير عشيبات برية ملقاةٍ حيث صادف أن ألقتها الريح. لا تعرفان المكان. . .

وفيما كانتا تستجمعان قوتيهما بقدر الإمكان لمغادرة هذا المكان الموحش، قررت السماء أن تعود لإظهار مقدرتها مرة ثانية. تكاثفت الغيوم واسودت؛ وشق هزيم الصاعقة عباب الأجواء، مفرغاً فيها كل مخزونة من شحنات.

فهمت جميع الحيوانات رسالة الطبيعة، فغاصت الضفادع واختبأ الذباب تحت الحصى وانزلقت العصافير في طيرانها نحو أداني السماء.

وانهمر المطر. لا بد للنملتين من الإسراع في البحث عن مأوى، لأن كل نقطة من الماء قد تحمل الموت الزؤام. تسرعان نحو نتؤ يبرز في البعيد. قد يكون شجرة أو صخرة.

شيئاً فشيئاً، كان النتؤ يرتسم بوضوح متزايد من خلال النقاط المدرارة والضباب الزاحف. لا النتؤ صخرة ولا هو شجرة. إنه كاتدرائية حقيقية من طين وقمم أبراجها العديدة تختفي في تكاثف السحاب. يا لها من صدمة.

إنها مدينة الأرضة! مدينة الأرضة الشرقية!

هكذا، وجدت المحاربتان 103683 و4000 نفسيهما بين فكي كماشة. فك الأمطار العاصفة الرهيبة وفك المدينة المعادية. لا شك بأنهما كانتا تنويان المجيء إلى المدينة، ولكن في غير هذه الظروف! ملايين من سنين الحقد والخصام تحول بينهما وبين التقدم.

ولكن ليس لوقت طويل. فهما قد جاءتا، في نهاية المطاف، للتجسس على مدينة الأرضة. لذا، تتقدمان مرتجفتين نحو مدخل معتم في أسفل البناء. قرونهما منتصبة. ملاقطهما مشرعة. قوائمهما منحنية بعض الشيء. إنهما مستعدتان لبيع حياتيهما بأغلى ثمن ممكن. لكنهما لا تجدا، بخلاف كل توقع، أية محاربة عند مدخل المدينة.

شيء غير طبيعي. ماذا يجري هنا؟ تنفذ النملتان إلى داخل المدينة الواسعة. فضولهما لم يلبث أن تغلب على الحد الأدنى من الحذر الضروري. لا بد من القول أولاً بأن المكان لا يشبه بيت النمل في شيء. فالجدران مبنية بمادة أقل تفتتاً بكثير من التراب. إنها من ملاط صلب كالخشب. ولكن الممرات مشبعة بالرطوبة وليس هنالك أقل تيار هوائي. أما الجو فغني، بشكل غير طبيعي، بغاز الكربون.

إنهما تتقدمان منذ ثلاث درجات زمنية دون أن تصادفا أية حارسة! هذا غير مألوف بتاتاً. . . تقف النملتان وتتشاوران بتلامس القرون. سريعاً، تقرران متابعة المسير.

ولكنهما لم تلبثا أن ضلّتا لكثرة ما تقدمتا داخل المدينة. هذه المدينة الغريبة هي متاهة أكثر تعقيداً من مهبط رأسهما. حتى روائح الإستدلال التي تفرزها غدة ديفور لا تَقْلَقُ مطلقاً على الجدران. لا تعرفان ما إذا كانتا فوق سطح الأرض أم تحتها!

تحاولان الرجوع من حيث جاءتا. لكن ذلك لا يحل المشكلة لأنهما تجدان على الدوام ممرات جديدة ذات أشكال غريبة. لقد ضلّتا بالفعل.

وهنا، تلاحظ المحاربة 103683 ظاهرة غير عادية. ترى ضوءاً. لا تصدقان أعينهما. ضوء في داخل مدينة الأرضة؟! أمر غير معقول وتتجهان فوراً نحو مصدر الضوء.

الضوء أصفر برتقالي يتحول أحياناً نحو الأخضر أو الأزرق. يومض الضوء بإشعاعة قوية نوعاً ما، ثم ينطفىء تماماً. ثم يعود فيشع ويترجرج وتنعكس خيوطه على درعي النملتين.

تنهبر النملتان وتندفعان بلا إرادة نحو هذه المنارة الجوفية.

كان بيلشايم يتقافز من شدة الفرح: لقذفهم. بَيَّنَ لرجال الدرك كيفية وضع عيدان الثقاب للحصول على أربعة مثلثات. شُدِهَ الجميع ثم هللوا من الحماس.

قالت سولانج دومينغ بعناد ومرارة:

ـ وجدتَ الحل؟ وجدتَ الحل؟ قل لي ما هو!

لكنه لا يستجيب لها. تسمع ضجيج الأصوات المختلطة بصرير آلي ثم يطبق الصمت.

ـ ماذا جرى يا بيلشايم؟ قل لي!

جهاز الـ «توكي ووكي» يوشوش بشكل جنوني.

ـ آلو! آلو!

ـ نعم (وشوشة)، لقد فتحنا باب الممر. يوجد خلف الباب (وشوشة) ممر. ينطلق (وشوشة) اليمنى. سنتابع المسير!

ـ انتظر! كيف توصلت إلى المثلثات الأربعة؟

ولكن بيلشايم ومن معه لم يكن بإمكانهم سماع الرسائل

القادمة من السطح فقد تعطل مكبر الصوت في جهازهم، بسبب انقطاع في التيار بلا شك. كانوا لا يستطيعون الإستقبال ولكنهم كانوا يستطيعون البث.

ـ آه! هذا شيء لا يصدق. كلما تقدمنا إلى الأمام، كلما ازداد امتداد البناء. فهذه قنطرة وهناك، بعدها نور يشع. هيا بنا إليه.

ـ انتظر، هل تحدثت عن وجود نور هناك، في الأسفل؟ صاحت سولانج دومينغ، بأعلى صوتها، دون طائل.

ـ إنهم هنا!

ـ عمن تتكلم؟ عن الجثث؟ أجب!

ـ انتبهوا...

شمعت سلسلة من الإنفجارات السريعة والصرخات ثم توقف البث.

الحبل الملفوف حول البكرة التي تدل بدورانها على استمرار سحب الحبل، وبالتالي على استمرار تقدمهم، توقف تماماً عن الحركة. ولكنه لا يزال مشدوداً على الرغم من ذلك. رجال الشرطة المنتظرون فوق السطح افترضوا أنه قد علق بشيء. لفوه على أيديهم وشدوه فلم يتحرك. كانوا ثلاثة فانضم إليهم إثنان وشدوه. فجأة، تحرر الحبل.

أخرجوا الحبل ولفوه في غرفة الطعام، لا في المطبخ لأن بكرته كانت شديدة الضخامة. وعندما وصل إليهم طرفه المقطوع وجدوه مهشماً كما ولو أن أسناناً قد لاكته وضَرَّسَتْهُ.

ـ ماذا نفعل يا سيدتي؟ تمتم أحد رجال الشرطة.

ـ لا شيء. ولا شيء على وجه الخصوص. إنتهى كل شيء. لا كلمة واحدة للصحافة. لا كلمة واحدة لأي كان. وعليكم الإسراع ببناء جدار لإقفال هذا القبو. لقد انتهى التحقيق. سأقفل الملف ولا أريد أن يحدثني أحد، بعد اليوم، عن هذا القبو الشيطاني! اذهبوا، أسرعوا، اشتروا الحجارة والإسمنت. أما أنت، فانطلق لتسوية القضية مع أرامل رجال الدرك.

بعد منتصف النهار، كان رجال الشرطة على وشك الإنتهاء من وضع الأحجار الأخيرة، عندما سمعوا ضجة مكتومة. هنالك من يصعد من أسفل القبو! فتحوا منفذاً فبرز رأس العائد في طيات الظلام، ثم برز كامل جسمه. إنه أحد رجال الدرك. هكذا، سيكون من الممكن معرفة ما جرى. كان وجهه ناطقاً بالخوف المطلق. بعض عضلات وجهه كانت منقبضة كما ولو أنه تعرض للسكتة القلبية. كان كعائد من الآخرة. طرف أنفه كان مقطوعاً والدم ينزف منه بغزارة. كان يرتجف وكانت عيناه زائغتين.

قال بصوت متجرجر:

ـ جيبيجيبيجي.

ـ سال خيط من اللعاب من فمه المندلق. رفع إلى وجهه يداً غطتها الجروح وتبينت فيها نظرات زملائه المتمرسين ما يشبه ضرب السكاكين.

ـ ماذا جرى؟ هل تعرضتم لهجوم؟

ـ جووو بيجي.

ـ هل بقي أحد على قيد الحياة في أسفل القبو؟

ـ بوجو جيييييجيبي!

كان عاجزاً عن أن يقول أكثر مما قال، فضمدوا جراحه وأدخلوه مركزاً من مراكز العناية العقلية وأقفلوا باب القبو بجدار.

أقل احتكاك لقوائمهما بالأرض يُحدث تغيراً في شدة الضوء. كان الضوء يرتعش كما ولو أنه يسمعهما وهما تقتربان. كان كما ولو أنه شيء حي.

تقف النملتان بلا حراك للوقوف على جلية الأمر، فما كان من الضوء إلا أن اشتد حتى أضاءت له أصغر تجويفات الممرات. اختبأت الجاسوستان سريعاً لكي لا يقع عليهما ذلك الضوء الكاشف. ثم استغلتا لحظة خفتت فيها حدة الضوء فاندفعتا نحو مصدر النور.

ما هو إلا حشرة من مغمدات الأجنحة من ذوات الوميض. إنه الحباحب (Luciole) وهو في حالة تهيج ناجمة عن الحاجة للتلقيح. انطفأ نوره تماماً عندما اكتشف وجود الدخيلتين... وبما أن شيئاً لم يحدث، عاد شيئاً فشيئاً إلى بث ضوء شاحب أخضر. ضوء حذر خفيف.

المحاربة رقم 103683 تطلق روائح غير معادية. ولكن الحباحب لا يجيب على الرغم من كون معتمدات الأجنحة كلها تفهم هذه اللغة. ثم يبهت ضوءه الأخضر ويميل إلى الصفرة قبل أن يتحول، شيئاً فشيئاً، إلى الحمرة. افترضت النملتان أن هذا اللون الجديد يعني التساؤل، فقالت المستكشفة العجوز:

نحن ضائعتان في مدينة الأرضة هذه.

لم يجب الحباحب، في البداية. ولكنه لم يعتم أن بدأ بالوميض والتعتيم المستمرين مما قد يعني الفرح مثلما قد يعني الإنزعاج. النملتان في شك من أمرهما فتنتظران. فجأة، يتوغل الحباحب في ممر جانبي وهو يومض بسرعة متزايدة، كما ولو أنه يريد أن يريهما شيئاً. تتبعانه.

إنهما الآن في قطاع أكثر برودة ورطوبة. أصوات نحيب كئيب تصل إلى المسامع. من أين تأتي هذه الأصوات الشبيهة بصرخات الإستغاثة والتي تنتشر في المكان على شكل روائح وأصداء؟

المستكشفتان تتساءلان والحشرة المضيئة التي لا تتكلم تسمعهما جيداً. أضاءت وانطفأت بشكل منتظم ولفترات أطول، كما ولو أنها تجيب على التساؤل بقولها

ـ لا تخافا؛ اتبعاني.

اندفعت الحشرات الثلاث في أعماق الطوابق التحتية الأجنبية لتصل إلى منطقة يسودها البرد القارس وتتميز ممراتها باتساع أكبر.

يعود النحيب إلى الأسماع بحدة متزايدة. المحاربة رقم 4000 تبث فجأة.

إنتباه!

تلتفت المحاربة رقم 103683 ويسلط الحباحب ضوءه فإذا بوحش غريب الشكل يدنو منهن. وجه مجعّد شائخ. جسم ملفوف في كفن أبيض شفاف. تطلق المحاربة رائحة رعب قوية تكاد أن تزهق لها رفيقتاها. تواصل المومياء تقدمها وتبدو كأنها تريد الإنحناء لتكلمهن. لكنها لا تنحني بل تنهار وتسقط على وجهها مستلقية بعنف فوق أرض الممر. ينفتح الغلاف وينشق الوحش العجوز الكريه الشكل عن مولودة جديدة.

حوراء من حوراوات الأرضة!

لا بد وأنها كانت مسندة إلى إحدى الزوايا عندما بُقرت وبدأت تجرجر نفسها وهي تطلق نحيبها الكئيب. ذاك هو إذن ما سمعنه من صراخ.

مومياءات أخرى. مومياءات أخرى كثيرة. الحشرات الثلاث كن في الحقيقة في جناح الحضانة. مئات من حوراوات الأرضة مسندات في صفوف عامودية إلى الجدران. المستكشفة رقم 4000 تتفحصهن فتجد أن بعضهن قد مِتْنَ لنقص العناية. الباقيات على قيد الحياة يطلقن روائح استغاثة برسم الحاضنات. مضت عليهن درجتان زمنيتان لم ينلن خلالهما نصيبهن من اللحس. إنهن يمتن من الجوع، واحدة بعد واحدة.

شيء مذهل. لا يمكن أبداً لحشرة اجتماعية أن تترك صغارها ولو لدرجة زمنية واحدة. . . الهم إلا إذا. . . خطرت الفكرة للنملتين في وقت واحد. اللهم إلا. . . إذا كانت الحاضنات قد متن جميعاً ولم يبق غير الحوراوات!

الحباحب يومض من جديد طالباً إليهما أن تتبعاه نحو ممرات أخرى. رائحة غريبة تشق الهواء. تطأ المستكشفة بقوائمها جسماً صلباً. ليست لها عيينات لرؤية الأشعة ما تحت الحمراء وللإبصار في الظلمة. يقترب الضوء الحي وينير موضع قوائم المستكشفة. جثة! جثة محاربة من الأرضة! شديدة الشبه بالنملة، غير أنها بيضاء تماماً ولا بطن لها منفصلة عن بقية جسدها.

مئات من هذه الجثث البيضاء تملأ الممرات. مجزرة مرعبة! والغريب أن لا أثر على الأجسام لأية إصابات. لقد متن بغير حرب! ولا بد أن الموت كان صاعقاً. كل منهن لا تزال جامدة حيث كانت في أوضاع العمل اليومي المختلفة. بعض الحشرات تبدو وكأنها لا تزال تتحاور أو تقطع الخشب بملاقطها. ما الذي من شأنه أن يكون قد أحدث مثل هذه الفاجعة؟

المستكشفة رقم 4000 تتفحص الجثث. كلها تفوح برائحة حادة. رجفة تعتري المستكشفتين. إنه الغاز السام. إنه التفسير الوحيد لكل ما حدث. من إبادة بعثة الإستكشاف الأولى في مناطق الأرضة إلى المحاربة الوحيدة. التي عادت من الحملة الثانية وماتت دون أن تكون مصابة بأي جرح.

ولماذا لا تشعر النملتان الآن بشيء! لأن الغاز السام قد تفرق بفعل

مرور الوقت. ولكن، لماذا لم تمت الحوراوات فوراً كالأخريات؟ تقدم المستكشفة العجوز افتراضاً مفاده أنهن يمتلكن دفاعات مناعية نوعية، أو أن الغلاف المحيط بهن قد حال دون تسرب الغاز إلى أجسادهن. لا بد وأنهن الآن مطعمات ضد السم. إنها المناعة السمية المعروفة التي تمكن الحشرات من مقاومة المضادات الحشرية بإنجاب أجيال جديدة مختلفة نوعياً.

ولكن، من هي الجهة التي كان من شأنها إدخال الغاز القاتل؟ تلك معضلة لا حل لها. وهكذا، وجدت المحاربة رقم 103683 نفسها، مرة أخرى، أمام «شيء آخر» غير السلاح السري الذي تبحث عنه. شيء آخر، لا يقل إبهاماً وغموضاً عن السلاح السري.

المستكشفة رقم 4000 تود الخروج. الحباحب يومض بالموافقة. تقدم النملتان قطعاً من الخلليلوز لليرقات التي لا يزال بها رمق للنجاة ثم تبدآن بالبحث عن طريق الخروج. الحباحب يقتفي آثارهما. كلما أوغلن في التقدم لاحظن أن جثث المحاربات تخلي المجال لجثث العاملات المولجات بخدمة الملكة. لا تزال البيوض في ملاقط بعضهن!

هندسة المكان تزداد تعقيداً. فالممرات مثلثة الأبعاد منقوشة بالرموز المحفورة. الحباحب يغير لونه ويبدأ بإرسال ضوء مزرورق. لا بد وأنه لاحظ شيئاً ما. حقاً، لهاث يسمع في أقصى الممر.

يتقدم الثلاثي ليجد نفسه أمام ما يشبه المعبد. تحرسه خمس محاربات عملاقات. كلهن ميتات. المدخل مسدود بجثث حوالي عشرين من العاملات. تسحب النملتان الجثث لفتح الطريق.

ينفتح أمامهما كهف يكاد شكله الكروي أن يكون تاماً. إنه جناح ملكة الأرضة. من هنا كانت تنعبث الضجة التي سمعتاها.

يطلق الحباحب ضوءاً جميلاً أبيض. يكشف الضوء في وسط القاعة حشرة شبيهة بالبزاقة. إنها ملكة الأرضة؛ صورة سافرة عن ملكة النمل. رأسها الصغير وصدرها الفقري يتصلان ببطن ضخمة طولها خمسون رأساً على وجه التقريب. هذه الزائدة العملاقة تتشنج بشكل مستمر.

الرأس الصغير يتلوى من الألم ويطلق عواء بالصوت المسموع والرائحة المشمومة. كانت جثث العاملات المتكدسة في المدخل هي التي أحكمت إقفاله عمداً لمنع الغاز من التسرب إلى الداخل. ولكن الملكة تموت الآن لافتقارها إلى العناية.

أنظري إلى بطنها!! البيوض تندفع من الداخل والملكة لا تستطيع إخراجها بمفردها.

يرتقي الحباحب إلى سقف القاعة و، بمنتهى البراءة، يطلق ضوءاً برتقالياً شبيهاً بذاك الذي تسبح فيه لوحات جورج دولاتور.

تتضافر جهود النملتين فتبدأ البيوض بالإنسياح خارج الغلاف الواقي الضخم. صنبور حقيقي تندلق منه الحياة. تبدو على الملكة علائم الراحة وتكف عن الصراخ.

تستفسر باللغة الشمية العالمية البدائية عن هوية منقذيها. يعتريها الإستغراب عندما تأتيها الإجابة رائحة نمال. أهي النمال المُقَنَّعَةُ؟

النمال المقنعة هي نوع ذو موهبة رفيعة في مجال الكيمياء العضوية. إنها حشرات سوداء ضخام الجثث تعيش في المنطقة الشمالية الشرقية. بمقدورها أن تنتج، بشكل إصطناعي، أي فيرومون تريد: فيرومون هوية، فيرومون إشارة طريق، فيرومون إتصال... وذلك عن طريق الموج الدقيق لأصناف النسغ والطلع واللعاب.

ويمكنها، بعد تقطير هذه المواد، أن تموه أنفها وتدخل، على سبيل المثال، إلى مدينة الأرضة، دون أن يفطن إلى دخولها أحد.

لا، لا، لسنا من النمال المقنعة.

تستفسر الملكة عما إذا نجا أحد في مدينة الأرضة فتجيب النملتان بالنفي. ترغب إليهما في قتلها وإختصار عذابها. ولكنها تود قبل ذلك أن تكشف لهما عن سر من الإسرار.

أجل، أنها تعرف السبب الذي كان في أساس دمار مدينتها. فمنذ

وقت قريب، اكتشفت الأرضة طرف العالم. نهاية حدود الكوكب. بلد أسود، أملس، كل من يصل إليه يصيبه التدمير الكامل.

تعيش فيه حيوانات عجيبة. هائلة السرعة. هائلة الفتك. تلك الحيوانات هي حرس حدود العالم. أسلحتها أشياء سوداء تسحق كل شيء و... غازات سامة!

هذا شيء يذكر بالملكة بي - ستين - غا وطموحها القديم: بلوغ أحد أطراف العالم. أيكون ذلك ممكناً إذن؟ النملتان في ذهول تام.

كانتا تعتقدان، حتى الآن، أن الأرض هي من الإتساع بحيث يستحيل إدراك أطرافها. ولكن ملكة الأرضة هذه تقول بأن طرف العالم غير بعيد، وبأن وحوشاً تقوم على حراسته... هل يكون حلم الملكة بي - ستين - غا قابلاً إذن للتحقق؟

كل هذه القصة تبدو لهما من الضخامة بمكان بحيث لا تعرفان من أين تبدآن بطرح الأسئلة.

ولكن، لماذا وصل «حرس حدود العالم» إلى هذا المكان. هل يريدون اجتياح المدن الغربية؟

لا تملك الملكة الضخمة أية إجابة. تريد الآن أن تموت، وتلحف في طلب الموت. لم تتعلم المسكينة كيفية إيقاف ضربات قلبها. لا بد من قتلها.

قطعت النملتان رأس ملكة الأرضة، بعد أن أرشدتهما إلى طريق الخروج. أكلتا بعد ذلك عدة بيوض صغيرة وغادرتا المدينة المهيبة التي لم تعد غير مدينة أشباح. تركتا، عند المدخل، فيرومومات تروي قصة المأساة التي تسكن المكان. إذ لا يمكنهما التقاعص، بوصفهما مستكشفتان فيدراليتان، عن القيام بأدنى الواجبات.

حياهما الحباحب بتحية الوداع. لا شك بأنه قد ضاع مثلهما في مدينة الأرضة بعد أن ألجأه إليها المطر. أما الآن، وقد عاد الصحو، فسيعود إلى

سابق عهده بالحياة: يأكل ويضيء لكي تقبل إليه الإناث، فيتوالد، ثم يأكل ويضيء لكي تقبل إليه الإناث، فيتوالد... حياة حباحب، كما هي حياة الحباحب!

تتجهان بأنظارهما وقرونهما نحو الشرق. لا تريان، من حيث تقفان، ما يستحق الذكر. لكنهما تعرفان أن طرف العالم غير بعيد. تعرفان أنه لجهة الشرق.

صدام حضارات: **إلتقاء حضارتين هو، على الدوام، لحظة حرجة. ومن بين عمليات إعادة النظر الكبرى التي قام بها البشر، تمكن الإشارة إلى حالة السود الأفارقة الذي اختطفوا، كعبيد، في القرن الثامن عشر.**

معظم الجماعات التي استخدمت كعبيد، كانت تعيش في عمق اليابسة، داخل السهول والغابات. لم تكن تعرف البحر. فجاة، يأتي ملك أرض مجاورة فيشن عليهم الحرب دون سبب ظاهر. وبدلاً من قتلهم، صاروا يؤسرون ويكبلون بالسلاسل ويسيَّرون باتجاه الشواطىء.

هنالك، كانوا يكتشفون أمرين غير مفهومين. أولهما البحر الواسع، وثانيهما الأوروبيون البيض. أما البحر الذي لا يعرفونه مباشرة فقد سبق لهم وعرفوه، من خلال الحكايات، بوصفه بلاد الموتى. وأما البيض، فقد كانوا، بالنسبة لهم، كما ولو أنهم من خارج الأرض. رائحتهم غريبة ولون جلدهم غريب وثيابهم غريبة.

كثيرون منهم كانوا يموتون خوفاً. منهم من كان يقفز مذعوراً من السفن طعاماً لأسماك القرش. أما الباقون، فكانوا ينتقلون من مفاجاة إلى مفاجاة. ماذا كانوا يرون؟ كانوا،

على سبيل المثال، يرون البيض وهم يشربون الخمر. كانوا واثقين من أن هؤلاء يشربون دماً. وأن هذا الدم دم بني جلدتهم.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الأنثى رقم 56 تتضوّر جوعاً. ليس جسمها وحده هو ما يطلب رزقه من الحريرات، بل كامل سكان هذا الجسم. كيف يمكنها أن تغذي الجماعة التي تعيش بداخلها؟ تنتهي بتوطيد العزم على الخروج من الثقب الذي حفرته لتبيض فيه. تجرجر نفسها لمسافة مئات من الرؤوس، وتجلب ثلاثاً من إبر الصنوبر، فتلحسها وتلوكها بنهم.

لكنها لا تكفي. تود لو تصطاد، لكنها خائرة القوى... لكنها قد تكون هي الصيد لآلاف الكواسر الرابضة في أنحاء الجوار. تقبع في ثقبها بانتظار الموت.

لكن الموت لا يأتي، بل تخرج منها بيضة. أول مولودة في شليبوكان! لم تكد تشعر بمقدمها حتى نفضت قوائمها الحذرة وضغطت بكل إرادتها على أحشائها. يجب أن تبدأ بالوضع لكي لا ينتهي المشروع بكامله. تتدحرج البيضة. بيضة صغيرة. تكاد تكون سوداء لشدة الإسمرار.

إذا تركتها لتفقس، فإنها ستنشق عن نملة بين الحياة والموت. ثم... كيف تغذيها حتى التفقيس؟ إذن، تلتهم أولى أولادها.

تحصل بذلك على شيء من الطاقة. بيضة خرجت من بطنها، بيضة دخلت معدتها. تجد في هذه التضحية قوة توظفها لوضع بيضة ثانية. تضع بيضة ثانية، قاتمة اللون كالأولى، صغيرة كالأولى.

تتذوقها أيضاً، وأيضاً تشعر بأنها أحسن حالاً. البيضة الثالثة لونها لا يكاد يكون فاتحاً أكثر من لون الأوليين إلا كلا شيء. تلتهمها هي الأخرى.

لا تغير الملكة استراتيجيتها إلا عند البيضة العاشرة. بيوضها تخرج الآن رمادية وبحجم كريات عينيها. شلي ـ بو ـ ني تبيض ثلاثاً؛ تأكل واحدة وتدع للحياة اثنتين. تدفئهما بجسمها.

بينا هي تواصل وضع البيوض، تحولت المحظوظتان إلى يرقتين طويلتين بقي رأساهما جامدين في وضع من العبوس الغريب. ثم بدأتا تجأران بالشكوى والإلحاف في طلب الغذاء. يصبح الحساب أكثر تعقيداً: من كل بيضات ثلاث تبيضهن، واحدة لها والإثنتان الباقيتان لتغذية اليرقات.

بمثل هذا، يمكن من خلال دورة مقفلة، إنتاج شيء من لا شيء. وعندما تبلغ إحدى اليرقات حداً من الكبر، تطعمها يرقة صغيرة... إنها الوسيلة الوحيدة لتموينها بالبروتيين اللازم لكي تصبح نملة حقيقية.

لكن اليرقة التي تظل على قيد الحياة تعاني من جوع دائم. تتلوى وتصرخ. لا تشبع من التهام أخواتها. وأخيراً، تحل شلي ـ بو ـ ني المشكلة، بالتهام مشروع أول أولادها بعد أن كان شارف على الإكتمال.

يجب أن أنجح، يجب أن أنجح.

يتردد ذلك في خاطرها ويقفز بها الفكر إلى الذكر رقم 327 فتبيض، في دفعة واحدة، خمس بيضات فاتحة اللون أكثر من ذي قبل. تبتلع اثنتين وتترك الثلاث الأخريات للحياة.

وهكذا، يتناوب التوليد وأكل الأولاد في دفع عجلة الحياة. ثلاث خطوات إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء. رياضة قاسية تفضي إلى انبثاق النموذج الأول لنملة مكتملة.

هذه الحشرة الأولى صغيرة الحجم وقليلة الذكاء لسوء التغذية. ولكن شلي ـ بو ـ ني نجحت في إنتاج أول مواطنة سكيبوكانية! كسبت، حتى الآن، نصف المعركة في سباقها مع الحاجة للتغذي على أولادها من أجل التوصل إلى إقامة مدينتها. هذه العاملة المهزولة يمكنها، في الواقع، أن تتحرك وأن تخرج في طلب الرزق من العالم المحيط. تخرج وتعود: جثث حشرات، حبوب، أوراق، فطريات...

وأخيراً، بدأت شلي ـ بو ـ ني، بفعل حصولها على تغذية عادية، تعطي بيوضاً فاتحة اللون أكثر وصلبة أكثر. فالغلافات الصلبة تحمي داخل البيوض من البرد فتخرج اليرقات بقامة معقولة. أبناء هذا الجيل كبار الحجم وبصحة جيدة. منهم سيرتفع البنيان السكيبوكاني.

أما العاملة الأولى المهزولة التي تمكنت بجهودها من تغذية واضعة البيوض، فقد نفذ فيها حكم القتل وانتهت في بطون الأخوات. وبعد ذلك، طويت في الذاكرة كل أعمال القتل وكل الآلام التي مهدت لقيام المدينة.

ها إن شلي ـ بو ـ كان قد ولدت.

بعوض: البعوضة هي الحشرة التي يمكنها أن تدخل في مبارزة مع الإنسان بكل طيبة خاطر. من منا لم يجد نفسه يوماً، واقفاً وسط سريره، بثياب النوم، ممسكاً خفه بيده متربصاً بوجود لا يراه في سقف الغرفة؟ موقف غير مفهوم. ومع هذا، فإن هذا الحكاك المؤلم ليس غير اللعاب المعقم الذي يخرج من خرطومها. ولولا ذلك اللعاب لأمكن لكل لسعة أن تلتهب. ناهيكم عن أن البعوضة تحاذر دائماً من أن تلسع إلا بين نقطتين من نقاط الإحساس بالألم!

ولقد تطورت استراتيجية البعوضة في مواجهتها مع الإنسان. فهي تعلمت كيف تكون أكثر سرعة وأكثر خفاءً وأكثر حيوية عند الإقلاع، وعرفت كيف تجعل من العثور عليها أمراً تزايد الصعوبة باستمرار. بعض العناصر الجريئة من الجيل الجديد لا تتردد في الإختباء تحت غدة الضحية. فهي قد إكتشفت مبدأ ادغار آلن بو(*) القائل بأن

(*) Edgar Allan Poe: كاتب وناقد أدبي أميركي. أنكر دور الاستيحاء في الأدب وشدّد على أن الشعر هو «الانتاج الموزون للجمال».

أفضل مخبأ هو ذاك الذي يملأ العين لشدة ظهوره، لأننا نفكر دائماً بالذهاب بعيداً للبحث عن أشياء هي شديدة القرب منا.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

تأملت الجدة أوغوستا حقائبها الجاهزة. كانت عازمة على الإنتقال منذ الغد للإقامة في شارع السيباريت. لم تكن تستطيع أن تتصور أن ادمون قد توقع اختفاء جوناثان، عندما كتب في وصيته: «إذا مات جوناثان أو اختفى دون أن يترك وصية، فإنني أتمنى أن تكون أمي، أوغوستا ويلز، هي التي تأتي للإقامة في شقتي. وإذا ما حدث واختفت، هي نفسها، أو رفضت قبول هذا الميراث، فإنني أتمنى أن يؤول الميراث لبيير روزنفيلد؛ وإذا ما رفض أو اختفى، يمكن لجازون براجيل عند ذلك أن يأتي للإقامة في الشقة...».

يجب الإعتراف، على ضوء الأحداث الراهنة، أن ادمون لم يكن مخطئاً عندما أوصى لأربعة أشخاص، واحداً تلو الآخر. ولكن أوغوستا لم تكن تؤمن بالنحس، بل إنها كانت تظن بأن ادمون ـ وإن كان فظاً يكره البشر ـ لم يكن ليسعى إلى موت ابن أخته ووالدته، ولا إلى موت أعز أصدقائه جازون براجيل!

فكرة مثيرة التمعت في ذهنها. يبدو وكأن ادمون كان يحاول إدارة المستقبل كما ولو أن كل شيء... سيبدأ بعد موته.

مضت عليهما عدة أيام وهما تمشيان نحو المكان الذي تطلع منه الشمس. صحة النملة رقم 4000 في تدهور مستمر، ولكن المحاربة العجوز تواصل المسير دون شكوى. إنها تتمتع حقاً بشجاعة وطموح يصمدان أمام جميع الإختبارات.

وصلتا، عصر أحد الأيام، إلى شجرة جوز. وبينما هما تتسلقان جذع الشجرة، إذ بهما فجأة مطوقتان من قبل النمال الحمراء. حشرات قدمت بدورها من الجنوب لرؤية البلاد! أجسامها المستطيلة تنتهي بإبرة سامة يعرف الجميع أن أية لمسة منها تسبب الموت الفوري. الصهباوتان تفضلان لو كانتا في غير هذا المكان.

لم يسبق للمحاربة رقم 103683 أن رأت النمال الحمراء في العالم الخارجي الفسيح. كل ما سبق لها ورأته منهن بضع مرتزقات منحطات. لا شك بأن اكتشاف الأراضي الشرقية يستحق العناء...

القرون تتحرك. فالحمراوات يعرفن التواصل بلغة البيلوكانيات.

ليست بحوزتكما فيرومونات هوية صالحة. اخرجا! فالمكان يخصنا نحن.

تجيب الصهباوتان بأنهما عابرتا سبيل ترغبان في الذهاب إلى الطرف الشرقي للعالم. الحمراوات يتشاورن.

عرفن أنهما مواطنتان من فيدرالية الصهباوات. صحيح أن الفيدرالية بعيدة، ولكنها قوية (64 مدينة قبل الطرد الأخير) وشهرة جيوشها تجاوزت حدود النهر الغربي. قد يكون من الأفضل عدم البحث عن ذرائع للصراع، لأن الحمراوات ـ وهن نمال تَرَحُل وسفر ـ سيجدن أنفسهن، يوماً ما، مضطرات إلى العبور في أراضي الفيدراليات الصهباوات.

تخف حركات القرون شيئاً فشيئاً ويخلي النقاش المجال للتحليل. إحدى الحمراوات تنقل رأي الجماعة:

يمكنكما البقاء هنا ليلة واحدة. نحن مستعدات لأن نرشدكما إلى

طريق طرف العالم وحتى لأن نرافقكما في رحلتكما. عليكما، بالمقابل، أن تتركا لنا بعضاً من فيرومونات الهوية الخاصة بكن.

الصفقة متكافئة 103683 و4000 تعرفان أنهما، بإعطاء الفيرومونات للحمراوات. إنما تعطيانهما جواز مرور إلى جميع أراضي الفيدرالية. جواز مرور ثمين. ولكن القدرة على الذهاب إلى طرف العالم والعودة منه لا تقدر بثمن...

مضيفاتهما تقودانهما نحو المخيم الواقع فوق بضعة أغصان نحو الأعلى. المخيم لا يشبه أي شيء معروف. فالحمراوات اللواتي يمارسن الحياكة والخياطة بنين عشهن المؤقت بأن ربطن، بعضها ببعض، أطراف ثلاث ورقات جوز كبيرة. استخدمن إحداهن كأرضية والباقيتين كجدارين جانبيين.

103683 و4000 تلاحظان مجموعة من الحائكات المنشغلات بالإنتهاء من إقفال «السطح» قبل هبوط الظلام. يقمن باختيار ورقة شجرة الجوز المناسبة للقيام بوظيفة السقف. ولربط هذه الورقة بالثلاث الأخريات، تقوم الحمراوات بتشكيل سلم حي مكوّن من عشرات العاملات اللواتي يتراكمن فوق بعضهن البعض كجبل صغير يُفترض بقمته أن تبلغ الورقة ـ السقف.

ولكن كومة النمال المتراصة فوق بعضها البعض تنهار عدة مرات. فالورقة لا تزال عسيرة المنال.

الحمراوات يغيرن، عند ذلك، منهج عملهن. ترتقي مجموعة من العاملات فوق الورقة ـ السقف ويشكلن سلسلة تتعلق برأسها المدبب وتبدأ بالتأرجح. ثم تأخذ السلسلة بالنزول شيئاً فشيئاً بهدف الإلتقاء بالسلم الحي الذي لا يزال قائماً في مكانه تحتهن. ولكن الوصول إلى السلم الحي لا يزال عسيراً، هو الآخر. عند ذلك، يتكون عنقود من الحمراوات عند طرف السلسلة الأعلى لإمساكها ومنعها من السقوط، ولإحداث ثقل من شأنه أن يخفض الورقة قليلاً نحو الأسفل.

انحنى ساق الورقة قليلاً وكاد يتم الإلتقاء. لم تبق إلا سنتيمترات قليلة لجهة اليمين. تنفذ نمال السلسلة حركة كحركة رقاص الساعة لردم الفارق المتبقي، وعند نهاية كل تأرجح تمط السلسلة نفسها حتى توشك على الإنفراط، قبل أن تعود إلى التماسك من جديد. وأخيراً تلتقي ملاقط بهلوانات الأعلى والأسفل ويتحقق الإرتباط، تشاك!

الجولة الثانية: تنكمش السلسلة عندما تخرج نمال الوسط من الصف بحذر شديد، ثم يصعدن فوق أكتاف رفيقاتهن ويشددن معاً لتقريب الورقتين من بعضهما البعض. شيئاً فشيئاً، تهبط الورقة ـ السقف لتنطبق على القرية ناشرة ظلها فوق الأرضية.

بهذا، وجدت العلبة غطاءها، لكنهما لم يلتحما بعد. تهرع عجوز حمراء إلى أحد البيوت ثم تخرج حاملة يرقة كبيرة في شرنقتها. تلك هي أداة الحياكة.

يوضع طرف إحدى الورقتين بشكل مواز لطرف الورقة الأخرى ويُشدان إلى بعضهما البعض. ثم يؤتى باليرقة الطرية. كانت المسكينة بصدد الإنتهاء من بناء شرنقتها بهدف إتمام تحولاتها بالهدوء اللازم. لكنهن لم يدعنها وشأنها. تأخذ إحدى العاملات خيطاً من تلك اللفافة و، بشيء من لعابها، تلصق طرفه بإحدى الورقتين، قبل أن تناول اليرقة لجارتها.

تشعر اليرقة بأن خيطها يُسحب، فتنتج غيره لتعويض الخسارة. كلما ازددن في تعريتها، كلما ازداد إحساسها بالبرد وإفرازها للحرير. تستفيد العاملات من ذلك على أتم وجه فيمررن هذا المكوك الحي بين ملاقطهن دون أن يقتصدن في كمية الخيوط. وأخيراً، تنضب اليرقة وتموت فيأخذن غيرها. يضحين باثنتي عشرة يرقة في إنجاز مشروعهن. ينتهين من خياطة الحافة الثانية من الورقة ـ السقف فتأخذ القرية شكل علبة خضراء بأضلاع بيضاء. المستكشفة رقم 103683 تتجول في القرية كما ولو أنها في بيتها تقريباً. أكثر من مرة تلاحظ وجود نمال سوداء وسط جمهرة النمال الحمراء. لا تملك نفسها عن طرح السؤال:

أمن المرتزقة هن؟

لا، إنهن من العبيد.

ولكن الحمراوات لسن معروفات، مع ذلك، بعاداتهن الإستعبادية. . . توافق إحداهن أن تشرح لنا كيف أنهن التقين مؤخراً بقطيع من النمال الإستعباديات كن يتجهن نحو الغرب، وكيف أن الحمراوات قايضنهن عشاً منسوجاً متنقلاً ببيوض نمال سوداء.

الرقم 103683 لا تدع محادِثَتَها تنفلت سريعاً وتسألها عما إذا كان اللقاء قد أفضى إلى المشاجرة. تجيبها بالسلب وبأن النمال الرهيبات كن مثقلات الحركة بما معهن من أعداد المستعبَدات؛ إضافة إلى خوفهن من الحمراوات ولسعاتهن القاتلة.

النمال السوداء التي خرجت من بيوض تلك المقايضة أخذن عن مضيفاتهن روائح هويتهن وخدمنهن كما يخدم الأبناء الآباء والأمهات. ومن أين يمكن لتلك السوداوات أن يعلمن أن إرثهن الجيني يجعل منهن نمالاً كاسرة لا مستعبدَات؟ إنهن لا يعرفن عن العالم شيئاً غير ما ترويه لهن الحمراوات.

ألا تخشين ثورتهن عليكن؟

لقد حصلت بعض الإنتفاضات، في الواقع. ولكن الحمراوات عرفن كيف يستبقن الأحداث عن طريق تصفية المعاندات وهن منفردات. طالما أن السوداوات لا يعلمن بأنهن سُرقن من عش آخر، وبأنهن ينتمين إلى نوع آخر، فإنهن يبقين بعيدات عن امتلاك محفزات حقيقية للثورة. . .

الليل والبرد يهبطان على شجرة الجوز. تحصل المستكشفتان على زاوية يقضين فيها خدرهن الليلي القصير الأمد.

شلي ـ بو ـ كان تكبر شيئاً فشيئاً. في البداية، تمت تهيئة المدينة المحظورة. لم يتم بناؤها في جذع شجرة، بل في شيء غريب كان مدفوناً هناك. علبة صدأة من علب الأغذية المحفوظة سبق لها واحتوت ثلاثة

كيلوغرامات من المربى، قبل أن تطرح بين نفايات دار للأيتام مجاور.

شلي ـ بو ـ ني في قصرها الجديد، تبيض بشكل جنوني طالما أن وصيفاتها يتخمنها بالسكر والدهون والفيتامينات.

بنت العاملات، في أسفل المدينة المحظورة تماماً، داراً للحضانة يزودها بالدفء روث آخذ بالتعفن. تلك هي الطريقة العملية الفضلى بانتظار بناء القبة وسقفها بالغصينات، وصولاً إلى قاعة الإستحمام الشمسي واختتام أعمال البناء نهائياً.

شلي ـ بو ـ ني تريد أن تسفيد مدينتها من جميع إنجازات التقنيات المعروفة: مزارع فطريات، نمال ـ قرب، قطعان برغثان، جذور لبلاب لتماسك البناء، قاعات لتخمير العسيل، قاعات لإعداد طحين الحبوب، قاعات للمرتزقة، قاعة للجواسيس، قاعة للكيمياء العضوية..

الحركة دائبة في جميع الزوايا. فالملكة الشابة عرفت كيف تبث حماسها وآمالها عند الجميع. فهي لا يمكن أن تقبل بأن تكون شلي ـ بو ـ كان مدينة فيدارالية كسائر المدن. إنها تطمح لأن تجعل منها قطباً طليعياً وذروة للحضارة النملية. وهي، فوق كل ذلك، طوفان من الأفكار.

فعلى سبيل المثال، تم اكتشاف جدول جوفي بمحاذاة الطابق الثاني عشر تحت سطح الأرض. لاحظت فوراً أن الماء عنصر لم يدرس بعد بشكل كاف. لا بد، بنظرها، من إيجاد وسيلة للمشي فوق سطح الماء.

وكبداية، شكلت فريقاً وكلفته بدراسة الحشرات التي تعيش في المياه العذبة، كالعومة والبلعط وبرغوث الماء... هل تصلح للأكل؟ هل يمكن التوصل يوماً إلى تربيتها في أحواض والسيطرة عليها؟

أول خطاب معروف ألقته كان حول موضوع البرغثان:

إننا نقف الآن أمام مرحلة ستكثر فيها الحروب. فالأسلحة تزداد تعقيداً وقد لا يكون بإمكاننا أن نكون دائماً بالمستوى المطلوب. وقد يأتي يوم لا يكون فيه الصيد ميسوراً على الدوام في الخارج. علينا أن نتوقع الأسوأ.

يجب أن تمتد مدينتنا إلى أعمق مستوى ممكن. وعلينا أن نعطي تربية البرغثان أولوية على جميع أشكال إنتاج مصادر السكر الحيوي. هذه الدواب يجب أن تخصص لها حظائر في طوابق المدينة السفلى...

ثلاثون من بناتها عدن من إحدى غزواتهن وقد أحضرن برغثانين أنثيَيْن على وشك الوضع. بعد بضع ساعات، كانت المدينة تمتلك أكثر من مئة برغثان صغير قطعت أجنحتها فوراً وحملت إلى الطابق الثاني والثلاثين تحت سطح الأرض. إنها بداية القطيع الذي يجب أن يوضع بعيداً عن متناول الدعاسيق وأن تحمل إليه كميات وفيرة من الأوراق الطرية وسيقان الأعشاب المكتنزة بالنسغ.

وأرسلت شلي ـ بو ـ ني المستكشفات إلى جميع النواحي. بعضهن عاد بغبيرات فطر الغاريقون التي لم تلبث أن زرعت في مزارع الفطريات. ثم قررت الملكة التواقة إلى الإكتشافات تحقيق حلم أمها فغرست صفاً من بذور الأزهار المفترسة على طول الحدود الشرقية، آملة بذلك إعاقة هجمات الأرضة وسلاحها السري.

ذلك أنها لم تنس لغز السلاح السري ومصرع الأمير رقم 327 ومخزن الأغذية المخبأ تحت صخرة الغرانيت.

ترسل مجموعة من السفيرات إلى بيل ـ او ـ كان. مهمتها الرسمية أن تعلن للملكة ـ الأم عن قيام المدينة الخامسة والستين وإنضمامها إلى الفيدرالية. أما مهمتها غير الرسمية فهي السعي إلى متابعة تحري شأن الطابق الخمسين تحت سطح الأرض، في بيل ـ او ـ كان.

دق جرس الباب بينما كانت اوغوستا منهمكة بتعليق صورها المرسومة بالسيبيا (Sépia)(*) فوق الجدار الرمادي. تأكدت من

(*) مادة ملونة تفرزها بعض الحشرات لتمويه أجسامها ويستخدمها الفنانون في تلوين الرسوم.

قيام سلسلة الأمان بوظيفتها وفتحت الباب بالمقدار الذي تسمح به السلسلة.

كان هنالك رجل متوسط السن بادي النظافة والأناقة. حتى ياقة سترته كانت خالية تماماً من أي أثر لقشرة الرأس.

ـ صباح الخير يا سيدة ويلز. أقدم نفسي: أنا البروفسور لودوك، أحد زملاء ابنك ادمون. لن ألجأ إلى المداورة، فأنا أعرف أنك فقدت ابنك وحفيدك في القبو وأن ثمانية من رجال الإطفاء وستة من رجال الدرك وشرطيين اثنين قد فقدوا فيه أيضاً. ومع هذا، أود يا سيدتي... أن أنزل إلى القبو.

لم تكن أوغوستا متأكدة تماماً من أنها سمعت ما يقول. رفعت طاقة جهاز السمع الإصطناعي إلى الحد الأقصى.

ـ أأنت البروفسور روزنفيلد؟

ـ لا، لودوك، بروفسور لودوك. يبدو أنك قد سمعت بروزنفيلد. روزنفيلد وادمون وأنا، كلنا نعمل في مجال دراسة النمل. إنها القاسم المشترك بيننا. مع فارق أن ادمون قد أحرز تقدماً كبيراً لم نحققه نحن في هذا المجال. وإنها لخسارة كبيرة ألا تستفيد البشرية من ذلك التقدم... أتمنى عليك أن تسمحي لي بالنزول إلى القبو.

عندما يكون السمع رديئاً، يكون البصر في حالة أفضل. نظرت إلى أذني لودوك هذا. يتميز الإنسان بكونه يحتفظ بشكل ماضيه الموغل في القدم؛ والأذن تمثل الجنين من هذه الناحية.

فشحمة الأذن ترمز إلى الرأس، وضلع الصيوان يأخذ شكل العمود الفقري، وهكذا. . . لا بد وأن لودوك هذا قد كان جنيناً نحيلاً، وأغوستا ليست شديدة الإعجاب بالأجنة النحيلة.

ـ وما الذي تأمل بالعثور عليه في القبو؟

ـ آمل أن أجد كتاباً. موسوعة كان يسجل فيه جميع أعماله. وادمون كان من النوع الذي يحب أن يخبىء أشياءه. لا بد أنه قد دفن كل شيء في القبو ثم أحاط ما أخفاه بالأفخاخ لقتل الأجلاف من المتطفلين أو لإبعادهم. أما أنا، فإنني أنطلق عن علم، والإنسان الذي ينطلق عن علم. . .

ـ. . . يمكن له أن يُقتَل! أكملت أوغوستا.

ـ امنحيني هذه الفرصة.

ـ ادخل، يا سيد. . .؟

ـ لودوك، بروفسور لوران لودوك، من المركز الوطني للأبحاث العلمية، رقم 352.

قادته نحو القبو. عبارة مكتوبة بالدهان وبالخط الأحمر العريض على الجدار الذي بنته الشرطة:

لا ينزلن احد

إلى هذا القبو الملعون!!!

أشارت إلى العبارة بطرف ذقنها.

ـ هل تعلم يا سيد لودوك ماذا يقول الناس في هذه البناية؟

يقولون بأن هذا القبو هو أحد أفواه الجحيم. يقولون بأن هذا البيت هو حيوان مفترس يلتهم البشر الذين يدغدغون حلقومه... بعضهم بلغ حد الإعلان عن رغبته في مَلْءِ هذا القبو بالإسمنت.

صعَّدت فيه نظرها.

- ألا تخف من الموت يا سيد لودوك؟

- بلى. وارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة. ثم أردف: بلى، أخاف من الموت وأنا أحمق... أي قبل أن أعرف ما في داخل هذا القبو.

غادرت المستكشفتان 103683 و4000 عش الحائكات الحمراوات قبل عدة أيام. رافقتهما محاربتان بإبرتيهما المروستين. مشين جميعاً على طرقات لا تكاد تفوح بروائح فيرومونات المرور. قطعن مسافات من آلاف الرؤوس، منذ أن انطلقن من العش المنسوج بين أغصان شجرة الجوز. التقين في طريقهن بأصناف الحيوانات الغريبة التي لا يعرفن أسماءها. دفعهن الحذر إلى تحاشي الإصطدام بأي منها.

عندما يجنُّ عليهن الليل، يحفرن في الأرض إلى أقصى عمق ممكن ثم يلجن للتمتع بما يمنحه حضن الأرض - الأم من حرارة ناعمة ومن حماية.

قادتهما الحمراوتان اليوم إلى قمة تل.

أما يزال طرف العالم بعيداً؟

إنه من هنا.

نظرت الصهباوتان من أعلى النتوء الشامخ فامتد أمامها، على مدى

البصر، عالم من الأعشاب القاتمة. أخبرتهما الحمراوتان بأن مهمتهما قد انتهت وبأنهما لن يرافقنهما أكثر مما فعلتا. لأن أمامهما أمكنة لا تُستقبل روائحهما فيها على الرحب والسعة.

على البيلوكانيتين أن تتابعا قدماً حتى الوصول إلى حقول النمال الحاصدات. تيك النمال يعشن على الدوام في المناطق القريبة من طرف العالم. سيكون بإمكانهن، دون شك، تقديم ما يلزم من إرشادات للصهباوتين.

وقبل أن تتركا دليلتيهما، قدمت الصهباوتان للحمراوتين فيرومونات الهوية الفيدرالية ذات القيمة البالغة من حيث أهميتها، مقابل مساعدتهما على القيام بالرحلة، وفقاً لما نص عليه الإتفاق بين الفريقين. ثم إنحدرتا نحو السفح للقاء الحقول، حقول الحاصدات الشهيرات.

هيكل عظمي: أيهما أفضل، أن يكون الهيكل العظمي داخل الجسم أم خارجه؟

عندما يكون الهيكل العظمي خارج الجسم، فإنه يشكل درعاً واقياً. ويكون اللحم بمناى عن الأخطار الخارجية، ولكنه يصبح رخواً بحيث يقترب من السيولة. وعندما ينفذ إلى الجسم رأس مدبب لا يتمكن الدرع الواقي من مقاومته، فإن الأضرار تكون من النوع الذي لا يمكن إصلاحه.

وعندما لا يشكل الهيكل العظمي غير سبيكة رقيقة وصلبة داخل الجسم، يكون اللحم الحي عرضة لجميع الأخطار. وعندها تتعدد الجروح وتكون حاضرة على الدوام. غير أن هذا الضعف الظاهر بالذات يجبر العضلات على أن تقسو والألياف على أن تقاوم. فاللحم يتطور.

ولقد عرفت أناساً استخدموا فكرهم بأن طرّقوا لأنفسهم

دروعاً «ذهنية» تحميهم من الخيبات. كانوا يبدون أكثر رسوخاً من أوساط الناس. كانوا يلقون حبل الحياة على غاربها ويضحكون من كل شيء، ولكن كان يكفي لخيبة من الخيبات أن تخترق دروعهم لتحدث فيهم أفدح الأضرار.

وعرفت أناساً يتألمون لأبسط خيبة ولأقل خدش، دون أن يؤدي بهم ذلك إلى إغلاق أذهانهم. أولئك يتحسسون كل شيء ويتعلمون من كل أذية يتعرضون لها.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

المستعبِدات يباشرن الهجوم!

ذعر في شلي ـ بو ـ كان. مستكشفات منهوكات ينشرن الخبر في المدينة الناشئة.

المستعبِدات! المستعبِدات!

جحافل سمعتهن المرعبة سبقت جحافل جيوشهن. من النمال من فَضَّل هذا السبيل أو ذاك من سبل النمو ـ تربية القطعان، تخزين الأغذية زراعة الفطريات، أو التخصص بالكيماويات ـ، أما المستعبِدات فتخصصن في مجال الحرب وحسب.

لا يعرفن عملاً غير الحرب، لكنهن يمارسنها كفنٍّ مطلق. تكيفت أجسامهن معها. أقل مفصل من مفاصلهن ينتهي بسنان معقوف. دروعهن الواقية يزيد سمكها مرتين عن دروع الصهباوات. رؤوسهن الضيقة والمثلثة بشكل تام لا مكان فيها لتشبّث مخلب. ملاقطهن الشبيهة بأنياب الفيلة المقلوبة هي سيوف مقوسة يلاعبنها بمهارة مخيفة.

أما أشكال عيشهن الإستعبادي فقد نجمت بشكل طبيعي عن تخصصهن المفرط لدرجة أن النوع كله وصل إلى حافة الهلاك ضحية ما هو

عليه من إرادة القوة بالذات. فلكثرة ما تحارب، لم تعد تلك النمال تعرف كيف تبني أعشاشها، أو كيف تربي صغارها، أو كيف... تأكل. ملاقطها التي صارت سيوفاً فتاكة في المعارك، لم تعد صالحة للإستخدام في تناول الطعام بشكل عادي. غير أن المستعبِدات ـ على ما هن عليه من الإستغراق في الإهتمامات الحربية ـ لسن غبيات: إذا كن قد فقدن القدرة على القيام بالمهام البيتية الضرورية لمواصلة الحياة اليومية... فإنهن سيجدن من يقوم لهن بتلك المهام.

المستعبِدات يهاجمن، خصوصاً، الأعشاش الصغيرة والمتوسطة للنمال السوداء أو البيضاء أو الصفراء. باختصار، كل النمال التي لا تمتلك إبراً للطعن أو غدداً لرشق الحوامض. يبدأن بضرب الحصار على القرية التي ينوين غزوها. وعندما تشعر النمال في القرية المحاصرة أن جميع العاملات اللاتي خرجن قد قُتلن، تأخذ قرارها بإحكام سد المداخل. وهذه اللحظة بالذات هي التي تختارها المستعبِدات لشن هجومهن الأول. يخترقن الحواجز بسهولة؛ يفتحن ثغرات في الجدران؛ ينشرن الذعر في الممرات.

عندها، تحاول العاملات المذعورات إيجاد طريقة للخروج بالبيوض بعيداً عن الخطر. ذاك بالضبط ما توقعته ومهدت له المستعبِدات اللواتي يُقمن الحواجز عند جميع المداخل ويجبرن العاملات على التخلي عن ثمين ما يحملن. لا يقتلن إلا كل عاملة ترفض التعاون؛ فالنمال لا تقتل لتقتل.

ومع انتهاء المعارك، تسيطر المستعبدات على العش، وتأمر العاملات الباقيات على قيد الحياة بإعادة البيوض إلى مواضعها، وبالإستمرار في العناية بها. وعندما تخرج الحوراوات من البيوض، يتعلمن كيفية خدمة الغزاة؛ وبما أنهن لا يعرفن شيئاً عن الماضي، فإنهن يعتقدن أن الإنصياع لهذه النمال الكبيرة هو طريقة الحياة العادلة والطبيعية.

أما المستعبدَات القديمات، فإنهن يبقين في الصفوف الخلفية ويختبئن بين الأعشاب، طيلة الوقت الذي تستغرقه الغزوة، بانتظار انتهاء سيداتهن من تنظيف الناحية. ومع حسم المعركة وتحقيق الإنتصار، يخرجن من

مخابئهن ويبدأن عملهن بنشاط ربات البيوت فيخلطن ما يحملنه من بيوض قديمة بالبيوض الجديدة، ويقمن بتعليم الأسيرات والنمال الصغيرة الموضوعة في عهدتهن. وهكذا تضاف أجيال الأسرى والمخطوفين إلى الأجيال الجديدة تبعاً لما تفرضه تنقلات القرصانات وهجراتهن.

كل واحدة من الحمراوات تحتاج عادة إلى ثلاث مستعبدَات لخدمتها. واحدة لإطعامها (لأنها لا تعرف إلا تناول الأطعمة التي يتم اجترارها وتقديمها لها بطريقة التزقيم)؛ وواحدة لتنظيفها (لأن غددها اللعابية قد ضمرت بفعل عدم الإستخدام)؛ وواحدة لإبعاد ما يخرج من جسمها من فضلات وأوساخ، لكي لا تتراكم حولها وتنتهي بالقضاء عليها.

وأسوإ ما يمكن أن تتعرض له هذه المحاربات اللواتي لا يعرفن غير الحرب هو هجرانهن من قبل خادماتهن. وفي حال حصول ذلك، يخرجن مسرعات من الأعشاش المحتلة ويبحثن عن مدينة جديدة لإحتلالها. وإذا لم يجدن مدينة قبل حلول الظلام، فإنهن يمتن من الجوع والبرد. أشنع ميتة يمكن أن تحل بهاتيك المحاربات العظيمات!

وقد سمعت شلي - بو - ني قصصاً عديدة عن المستعبِدات. فهنالك حكايات تقول بأن ثورات عديدة قامت بها المستعبَدات اللواتي لم تكن الهزائم نصيبهن الإجباري لما يعرفنه من دقائق شؤون سيداتهن.

وتقول الحكايات أيضاً بأن بعض فصائل المستعبِدات يجمعن ما يمكنهن الجمع من أصناف بيوض النمال، بهدف الحصول على مستعبَدات من مختلف الأحجام والأنواع.

تتخيل شلي - بو - ني قاعة مليئة ببيوض مختلفة الأحجام والألوان. . . تتخيل تحت كل غلاف أبيض. . . ثقافة نملية نوعية وجاهزة للإستيقاظ لخدمة هذه الغليظات الفظّات.

تنتزع نفسها من تخيلاتها المضنية. عليها أن تفكر في المواجهة. فقطيع المستعبِدات شوهد قادماً من الجهة الشرقية. وأكدت المستكشفات والجاسوسات الشليبوكانيات أنه يضم بين أربعمئة وخمسمئة ألف محاربة

قطعن النهر عبر النفق الجوفي عند ميناء ساتيي. ويبدو أنهن «حانقات» لاضطرارهن إلى التخلي عن عش نقال من الأوراق المنسوجة لم يقدرن على نقله داخل النفق. هن إذن من غير مَسْكَنٍ، وإذا لم يتيسر لهن أمر الإستيلاء على شلي ـ بو ـ كان، فإنهن سَيَبِتْنَ في العراء!

تحاول الملكة الشابة أن تفكر بأقصى قدر ممكن من الهدوء:

إذا كنَّ يشعرن بالسعادة في عشهن النقال المنسوج، فما الذي حملهن على عبور النهر؟

إنها تعرف الإجابة.

فالمستعبِدات ينطوين على حقد دفين وغير مفهوم تجاه المدن. كل مدينة تشكل، بالنسبة لهن، تهديداً وتحدٍ. إنها الخصومة القديمة الدائمة بين أهل السهول وأهل المدن. والمستعبِدات يعرفن جيداً أن وراء النهر مئات من مدن النمل، وأن كل مدينة أكثر غنى ورخاءً من الأخرى.

شلي ـ بو ـ كان ليست جاهزة، مع الأسف، للتصدي إلى هجوم كهذا. صحيح أن المدينة قد باتت تعج، منذ أيام، بأكثر من مليون ساكن. وصحيح أن سياجاً من النباتات المفترسة قد زرع بمحاذاة الحدود الشرقية... لكن ذلك لن يكون كافياً بوجه من الوجوه. شلي ـ بو ـ ني تعلم أن مدينتها لا تزال غضة طرية الدروع وغير متمرسة بالحرب بما فيه الكفاية. ثم إنها لم تتلق بعد أية أنباء من السفيرات التي أرسلتهن إلى بيل ـ او ـ كان لإعلامها بانضمام شلي ـ بو ـ كان إلى الفيدرالية. لا يمكنها إذن أن تعتمد على المدن المجاورة. حتى غايي ـ تيولوت تبعد عدة آلاف من الرؤوس. من المستحيل إخطار سكان ذلك العش الصيفي...

كيف يمكن للملكة ـ الأم أن تتصرف لو وجدت نفسها في مثل هذا الموقف؟ قررت شلي ـ بو ـ ني أن تجمع عدداً من أفضل الصيادات (لم تكن قد توفرت لهن الفرصة بعد ليثبتن بأنهن محاربات) لإجراء إتصال مطلق. فقد كان وضع استراتيجية مناسبة أمراً ملحاً.

كان الإجتماع لا يزال منعقداً في المدينة المحظورة، عندما أعلنت

الحارسات المتمركزات فوق الشجيرة التي تظلل شلي ـ بو ـ كان، بأن الأجواء قد امتلأت بروائح جيش يتقدم نحو المدينة.

شرع الجميع بالتهيؤ، دون الإعتماد على أية استراتيجية. سيتم القتال بحسب الظروف. دق نفير الحرب فأخذت الفيالق بالتجمع كيفما يتفق لها أن تتجمع (الشليبوكانيات ما زلن يجهلن كل شيء عن التشكيلات الحربية التي دُفع ثمن تعلمها غالياً في الحرب ضد المقزومات). والواقع أن أكثر المحاربات يفضلن عقد الآمال على سياج النباتات المفترسة.

في مالي: تعتبر قبائل الدوغون، في مالي، أن العضو التناسلي للأرض كان، عند زواجها من السماء، عبارة عن مدينة نمل. وعندما اكتمل العالم الذي نشأ عن ذلك الزواج، تحول العضو الأنثوي إلى فم خرج منه الكلام وحاملته المادية، أي تقنية الحياكة التي انتقلت من النمال إلى البشر.

وفي أيامنا هذه، لا تزال طقسيات الخصوبة على ارتباط بالنملة. فالنساء العواقر يجلسن فوق مدينة نمل ضارعات بذلك إلى الإله آملاتٍ أن يمنحهن النسل والخصوبة.

ولكن ذلك لم يكن كل ما قدمته النمال للبشر. فهن اللواتي علمنهم كيفية بناء البيوت، وهن اللواتي أرشدنهم إلى منابع المياه... لأن قبائل الدوغون فهمت أن عليها الحفر تحت مدن النمال لتجد المياه.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

الجراد يتقافز في جميع الإتجاهات. ذلك مؤشر على حدث. فوراء بقعة الجراد، بدأت النمال المجهزة بأقوى العيون تميز عاموداً من الغبار.

الكلام عن المستعبِدات شيء ورؤيتهن وهن يباشرن الهجوم شيء آخر. جيشهن لا خيالة فيه. فالخيالة هنَّ. كل أجسامهن مرنة وصلبة، كل قوائمهن عريضة ومفتولة العضلات، ورؤوسهن كلها دقيقة ومروّسة. كلها ينتهي بقرون متحركة هي عبارة عن ملاقطهن.

يتمتعن بقدرة حركية لا يُسمع معها أي حفيف لرؤوسهن وهي تشق الهواء بدفع من سرعة قوائمهن.

تنام الأعشاب تحت وطئهن، تربح الأرض، يتموج الرمل. قرونهن المصوبة إلى الأمام تبث فيرومونات كأنهما، من حدة لسعتها، زعيق!

أينبغي التحصن في مواجهة الحصار، أم ينبغي الخروج للقتال؟ شلي ـ بو ـ ني تتردد. إنها خائفة إلى حد عدم المخاطرة بتقديم أي توجيه. من الطبيعي إذن أن تفعل المحاربات الصهباوات ما لا ينبغي فعله. ينقسمن. نصفهن يخرج لمواجهة العدو في العراء؛ نصفهن يتحصن في المدينة كقوة احتياطية للمقاومة إذا ما ضرب حول المدينة الحصار.

شلي ـ بو ـ ني تحاول استذكار معركة الأقحوان، المعركة الوحيدة التي عرفتها. يبدو أن الراشقات من اللواتي أوقعن أفدح الخسائر في صفوف الأعداء. تأمر مباشرة بوضع ثلاثة صفوف من الراشقات في الخطوط الأولى.

فيالق المستعبدات تنقض الآن على سياج النباتات المفترسة. تنحني الوحوش النباتية لمقدمهن مشدودة إليهن برائحة اللحم الدافىء.

لكن حركة النباتات بطيئة. جميع المحاربات المستعبدات يعبرن قبل أن تتمكن أية نبتة من إلحاق الأذى بهن، ولو بخدش إحداهن.

لقد أخطأت الملكة ـ الأم!

الصف الشليبوكاني الأول أصبح على مرمى الضربات. يطلق رشقاً تقريبياً لا يخرج من المعركة غير عشرين من المهاجمات. الصف الثاني لا يجد الوقت الكافي لأخذ مواقعه مكان الصف الأول. تأخذ المستعبدات

بخناق الراشقات ويقطعن رؤوسهن قبل أن يتمكن من إطلاق نقطة حامض واحدة.

ضرب الرؤوس هو اختصاص المستعبِدات الأكبر. يقمن به على أتم وجه. جماجم الشليبوكانيات اليافعات تتطاير في الهواء. الأجسام التي فقدت رؤوسها تستمر أحياناً في الضرب على غير هدى، أو تنسحب فيلقي منظرها الرعب في قلوب أخواتهن اللواتي لم يُقتلن بعد.

بعد اثنتي عشرة دقيقة، لم يبق كبير شيء من جيوش الصهباوات. النصف الثاني من الجيش يسد جميع المنافذ. شلي ـ بو ـ كان لم تَبْنِ قبتها بعد. فهي ما تزال على مستوى سطح الأرض، عبارة عن عشرة ثقوب صغيرة تحيط بها حصَيَّات متناثرة.

ذهول شامل. كل العناء المبذول من أجل بناء مدينة حديثة، ثم رؤيتها في قبضة زمرة من البرارة الذين تبلغ بهم البدائية حد عدم معرفة كيفية تناول الطعام دون مساعدة!

أقامت شلي ـ بو ـ ني إتصالات مطلقة عديدة ولكنها لم تعثر على وسيلة للمقاومة. الحجارة التي سُدت بها المنافذ لا تصمد لأكثر من ثوان معدودة. أما الحرب في الأقبية، فإن الشليبوكانيات لم يتهيأن لها إلا كما تهيَّأن للحرب في العراء.

في الخارج، أخريات المحاربات الصهباوات يقاتلن كشيطانات. بعضهن استطعن الإنسحاب وهن يقاتلن، ولكنهن رأين المنافذ وهي تُسد خلف ظهورهن. لقد قضي الأمر بالنسبة لهن. ومع ذلك، يقاتلن بضراوة تزيد فعاليتها بازدياد إحساسهن بأنهن لم يعد لديهن ما يخسرنه وبازدياد عزمهن على إعاقة تقدم الغازيات بهدف تمكين الأخوات من إحكام سد المنافذ.

لم تبق إلاّ شليبوكانية واحدة. يقطعن رأسها فيخف جسمها، بحركة انعكاسية، نحو أحد المنافذ ويُنشب مخالبه فيه ليكون درعاً للمدينة، ولو لأقل من ثانية.

في داخل المدينة، لا شيء غير الإنتظار. إنتظار الغازيات بتسليم كئيب. فالقوة الجسدية الصرفة برهنت، في النهاية، عن ناجعية لم تتوصل التقنيات إلى التفوق عليها...

ولكن المستعبِدات لا يهاجمن المدينة. كهنيبعل(*) أمام روما؛ يترددن عن الإنتصار. يبدو لهن الأمر أكثر سهولة مما يتوقعن. وإذا كانت سمعتهن كقاتلات تسبقهن حيث يتوجهن، فإن للصهباوات أيضاً شأناً وأي شأن. في معسكر المستعبِدات، تتفشى الأقاويل عن مهارة الصهباوات في ابتكار الأفخاخ التي لا يُفطن إليها. تروج المزاعم عن معرفتهن بكيفية عقد التحالفات مع جيوش من المرتزقة تبرز إلى أرض المعركة على غير انتظار. ويقال أيضاً بأنهن خبيرات في ترويض الوحوش المفترسة وفي اختراع الأسلحة السرية التي تنزل بالخصوم آلاماً مبرحة. ثم إن المستعبِدات يتنعمن في الهواء الطلق بمقدار ما يمقتن الإحساس بالإختناق بين الجدران.

لكل هذا وذاك، يحجمن عن نسف الحواجز التي تسد المداخل وينتظرن. أمامهن متسع من الوقت؛ فالليل لن يهبط، في نهاية المطاف، قبل خمس عشرة ساعة.

يسود الإستغراب داخل المدينة. لماذا لا يباشرن الهجوم؟ شلي - بو - ني لا تحب هذا الوضع. ما يقلقها هو «تصرف الخصم بطريقة تشذ عن نمطها في الفهم» مع عدم احتياجه لذلك بحكم كونه الطرف الأقوى. بعض بناتها يطرحن آراءً خجولة مفادها أن العدو يسعى لتجويعهن. لكن هذا الإحتمال ليس من شأنه إلا أن يرفع من معنويات الصهباوات: يمكنهن أن يقاومن الحصار شهرين كاملين بفضل حظائر الطوابق السفلية ومزارع الفطر ومخازن طحين الحبوب والنمال؛ القِرب المليئة بالعسيل.

(*) قائد قرطاجي عبر بجيوشه شمال أفريقيا وجنوب غرب أوروبا لمباغتة روما التي ارتد عنها أخيراً بعدما بلغته أخبار سقوط قرطاجة بأيدي الرومان الذين قصدوها عن طريق البحر.

ولكن شلي ـ بو ـ ني ليست مع احتمال الحصار. فما تريده الأخريات، هناك في الأعلى، هو عش لقضاء الليل. تخطر ببالها حكمة شهيرة من حِكَم الملكة ـ الأم:

إذا كان الخصم هو الأقوى فعليك التصرف بطريقة لا يحيق بها نمط فهمه.

أجل، من أجل مواجهة هاتيك المتوحشات، التقنية الطليعية هي وحدها الخلاص.

الخمسمئة ألف شليبوكانية يشرعن بإجراء إتصالات مطلقة. نقاشات هامة تنبثق، أخيراً، عن تلك الإتصالات. عاملة نحيلة تأخذ الكلام:

خطؤنا كان في سعينا إلى إعادة إنتاج أسلحة أو وضع استراتيجيات سبق واستخدمت من قبل أخواتنا الكبيرات في بيل ـ او ـ كان. علينا ألا ننسخ. علينا أن نبتكر وسائلنا الخاصة لنحل بها مشاكلنا الخاصة.

ما إن أُطلق هذا الفيرومون حتى تحلحلت عقد الأذهان، وتم التوصل سريعاً إلى اتخاذ قرار. وبدأ الجميع بالعمل.

انكشارية: **في القرن الرابع عشر، أنشأ السلطان مراد الأول جيشاً من نوع خاص أطلق عليه اسم «الإنكشارية» (من الكلمتين التركيتين «بيني» و«تشيري» ـ الميليشيا الجديدة). ميزة الإنكشارية أنها كانت جيشاً كل أفراده من الأيتام. فقد كان الجيش التركي، في كل مرة يفتتح فيها مدينة أرمنية أو سلافية، يضع يده على الأطفال الصغار، ثم يلحقهم بمدرسة حربية خاصة لا يمكنهم فيها أن يعرفوا شيئاً مما يدور في العالم الخارجي. وكان هؤلاء الأطفال يتلقون تعليماً مقتصراً على فنون القتال. ذلك التعليم جعل منهم أفضل المقاتلين في الأمبراطورية العثمانية. ودون حرج، كانوا يجتاحون القرى**

التي كانت تقطنها عائلاتهم بالذات، دون أن يخطر ببالهم مطلقاً أن يحاربوا خاطفيهم نصرة منهم لذويهم. غير أن تزايد قوتهم ونفوذهم أقلق السلطان مراد الثاني، فأبادهم وأحرق مدرستهم في العام 1826.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

كان البروفسور لودوك قد أحضر حقيبتين كبيرتين. من إحداهما، أخرج مثقاباً آلياً ضخماً يعمل بالبنزين وشرع بدك الجدار الذي بنته الشرطة، حتى أحدث فيه ثقباً مستديراً يمكن له المرور منه.

عندما انتهى من إحداث الثقب، جاءت الجدة أوغوستا وعرضت عليه فنجاناً من زهورات اللويزة، ولكن لودوك رفض العرض بكل هدوء معللاً بأن ذلك قد يولد عنده الرغبة بالتبول. ثم انفتل إلى الحقيبة الثانية وأخرج منها عدة كاملة من النوع الذي يستعمله مستكشفو المغاور.

ـ أتظن أن القبو عميق إلى هذه الدرجة؟

ـ أقول لك بصراحة، يا سيدتي، بأنني أجريت دراسة على هذا المبنى، قبل مجيئي لرؤيتك. وقد توصلت إلى أن جماعة من العلماء البروتستانت قد سكنوا فيه وبنوا نفقاً سرياً. وإنني شبه متأكد بأن هذا النفق يفضي إلى غابة فونتنبلو. كان هؤلاء البروتستانت يسلكون النفق للإفلات من مضطهديهم.

ـ ولكن إذا كان الأشخاص الذين نزلوا إلى القبو قد خرجوا منه إلى الغابة، فإنني لا أفهم السبب في عدم ظهورهم بعد ذلك. إبني وحفيدي. . . وكنتي وأكثر من عشرة من رجال الإطفاء والدرك، كل هؤلاء الأشخاص ليس لديهم ما يوجب اختفاءهم. كلهم لهم عائلات وأصدقاء. وهم ليسوا من البروتستانت. . . والحروب الدينية وضعت أوزارها.

ـ أأنت متأكدة إلى هذا الحد، يا سيدتي؟

ونظر إليها بطريقة عجيبة.

ـ الأديان أخذت لنفسها أسماء جديدة. إنها تتبجح الآن بأنها فلسفات أو. . . علوم. ولكن ذلك كله لا يزال دوغمائياً.

يدخل إلى الغرفة المجاورة لإرتداء ثياب مستكشفي المغاور. وعندما عاد بادي الإنزعاج من ضيق أكمامه ومن رأسه المحشور داخل خوذة حمراء مُتَّقِدَة. . ومزودة بمصباح على مستوى جبهته، كادت أوغوستا تقهقه لمنظره. أما هو، فقد واصل حديثه كأن شيئاً لم يكن.

ـ بعد البروتستانت، جاءت جماعات سرية من كل صنف ولون وسكنت في هذه الشقة. بعضها كان يمارس طقوساً عبادية وثنية. بعضها الآخر كان يعبد البصل أو الفجل الأسود وما لست أدري.

ـ البصل والفجل الأسود ممتازان من الناحية الصحية. إنني أفهم السبب في عبادتهما. فالصحة هي أهم ما في الوجود. . .

أنظر، إنني صماء وسأفقد بصري عما قريب. إنني أموت شيئاً فشيئاً.

يحاول طمأنتها.

ـ لا تكوني متشائمة هكذا. إنك لا تزالين بصحة جيدة.

ـ ماذا تقول؟ كم تعطيني من العمر؟

ـ لا أدري... ستون، سبعون سنة.

ـ مئة سنة، أيها السيد! بلغت المئة قبل أسبوع. أشكو أوجاعاً في جميع أنحاء جسدي، وكل يوم يمر يُشعرني بعجز إضافي عن تحمل حياتي، خصوصاً مذ فقدت الأشخاص الذين أحبهم.

ـ أفهمك جيداً، يا سيدتي. فالشيخوخة هي امتحان صعب.

ـ هل في جعبتك عبارات كثيرة أخرى، من هذا النوع؟

ـ ولكن، يا سيدتي...

ـ هيا، إنزل بسرعة. إذا لم تعد غداً، سأتصل بالشرطة ولا أشك في أنهم سيبنون جداراً لن يقدر على هدمه أحد...

يرقات النمسية تقرض أحشاء المحاربة رقم 4000 دون توقف فتحول بينها وبين النوم، حتى في الليالي التي يشتد فيها البرد والصقيع.

لذا تنتظر الموت بهدوء وترمي بنفسها في أعمال مثيرة وخطرة لم تكن لتجرؤ على مقاربتها في الظروف العادية. من قبيل اكتشاف طرف العالم.

لا تزالان في الطريق نحو حقول الحاصدات. تستفيد المحاربة رقم 103683 من طول الطريق لإستحضار بعض الدروس التي تعلمتها من

الحاضنات. فقد فهمت منهن أن الأرض مكعبة الشكل، ولا حياة إلا على سطحها العلوي.

ماذا سيكون بإمكانها أن ترى لو وصلت إلى طرف العالم، أي إلى حافيّته؟ المياه؟ فراغ سماء أخرى؟ رفيقتها الميتة، مع وقف التنفيذ، وهي نفسها، ستعرفان من ذلك ما لم تعرفه جميع المستكشفات وجميع الصهباوات منذ بداية الزمان!

فجأة، تمتلىء خطى المستكشفة رقم 103683 بالعزيمة، أمام عيون المستكشفة رقم 4000 التي كانت ترمقها بمنتهى الدهشة.

عندما عزمت المستعبِدات على اقتحام مداخل المدينة، بعد منتصف النهار، فوجئن تماماً بغياب كل مقاومة. ولكنهن يعرفن تماماً بأنهن لم يقضين على كامل الجيش الصهباوي، حتى ولو أخذن بعين الإعتبار ضآلة حجم المدينة. الحذر، إذن، ثم الحذر. . .

يتقدمن بحذر يفرضه عليهن اعتيادهن العيش في الهواء الطلق حيث يتمتعن بقوة إبصار شديدة في ضوء النهار، وببطء يفرضه عليهن عماهن الكامل في ظلمات الأقبية السفلية. ذوات الجنس من الصهباوات لسن بأقدر على الرؤية في تلك الأقبية؛ ولكنهن معتادات، على الأقل، على الحركة داخل أمعاء هذا العالم المظلم.

المستعبِدات يصلن إلى أبواب المدينة المحظورة. الطرقات مقفرة وأكوام من الأطعمة الممتازة تنتشر في كل مكان! يواصلن النزول. مخازن مشحونة بالغلال. من الأكيد أن أحداً كان في القاعة قبل لحظات.

في الطابق الخامس تحت سطح الأرض، يلاحظن وجود فيرومونات تم إطلاقها منذ برهة وجيزة. يحاولن تحليل الأحاديث التي دارت في المكان قبل قليل، ولكن الصهباوات كن وضعن غصناً من الصعتر طغت رائحته على الروائح الأخرى.

في الطابق السادس تحت سطح الأرض، يستولي عليهن الكمد من

وجودهن، هكذا، في جوف الأعماق. ما أشد الظلمة في هذه المدينة! كيف يمكن لنمال أن تتحمل وجودها الدائم في مثل هذا المكان المغلق والمظلم كالموت؟

في الطابق الثامن تحت سطح الأرض، يكتشفن، أيضاً، وجود فيرومونات جديدة وطازجة. يحثُثْنَ الخطى. لا بد وأن الصهباوات غير بعيدات.

في الطابق العاشر تحت سطح الأرض، يقعن على مجموعة من العاملات المحملات بالبيوض. العاملات يسرعن بالفرار أمام الغزاة. هكذا إذن! أخيراً، فهمت المستعبدات أن المدينة كلها قد نزلت إلى الطوابق العميقة أملاً بإنقاذ نسلها الثمين.

أما وقد اتضحت الأمور للمستعبدات، فقد تخلين عن الحذر وشرعن بالعدو وهن يطلقن فيرومونات صيحات الحرب في الممرات. حاملات البيوض يعجزن عن الإمعان في الهرب بعيداً أمام الغازيات اللواتي وصلن الآن إلى الطابق السفلي الثالث عشر.

غير أن حاملات البيوض يختفين فجأة، دون أن يعرف أحد كيف اختفين. الممر الذي كن فيه يفضي إلى قاعة واسعة غطت أرضها برك من العسيل. المستعبِدات يندفعن بالغريزة إلى لحس الشراب الشهي قبل أن يمتصه التراب.

أعداد كبيرة من المحاربات يدخلن وراء الأفواج الأولى، ولكن القاعة شاسعة حقاً. تتسع للجميع وفيها برك عسيل للجميع. ما ألذه وما أحلاه طعم هذا الشراب! لا بد وأن هذه القاعات هي إحدى قاعات النمال ـ القرب. إحدى المستعبِدات سبق لها وسمعت بتلك القرب:

عندهن تقنية حديثة، بزعمهن، يجبرن بها نملة مسكينة على العيش معلقة ورأسها إلى الأسفل وبطنها منتفخة غاية الإنتفاخ.

يسخرن مجدداً من هاتيك المدنيات وهن منهمكات باتخام بطونهن

بلعق العسيل. ولكن تفصيلاً صغيراً لا يلبث أن يستحوذ على انتباه إحدى المستعبِدات. أليس من الغريب ألا يكون لقاعة بمثل هذا الإتساع غير منفذ واحد؟

لا وقت لمواصلة التفكير. فقد انتهت الصهباوات من الحفر. مسيل من الماء ينبثق من السقف. المستعبِدات يحاولن الهرب باجتياز الممر ولكن الممر قد أقفل الآن بصخرة كبيرة. الماء يعلو داخل القاعة والمستعبِدات اللواتي لم يقتلهن دفق خرطوم المياه المنبثقة يتخبطن الآن سباحة بكل ما أوتين من قوة.

الفكرة لمعت في ذهن المحاربة الصهباء التي قالت بأنه لا ينبغي النسخ عن الأخوات الكبيرات. قادت الفكرة إلى التساؤل:

ما هي الميزة الخاصة بمدينتنا؟

لم تكن بحاجة إلى أكثر من إطلاق فيرومون تفكير واحد:

الجدول الجوفي المجاور للطابق الثاني عشر تحت سطح الأرض!

فوراً، قامت الصهباوات بشق قناة من الجدول. ثم ساقت المياه في القناة بعد أن حالت بينها وبين أن تغور في التراب، بأن رصفت أرض المجرى بأوراق مطلية بالدهن. أما الباقي، فلم يكن غير تطبيق لتقنية القرب. فقد كُنَّ حفرن خزاناً كبيراً في أرضية إحدى القاعات وثقبن وسطه بغصن يابس. كانت المشكلة الكبيرة في كيفية إبقاء الغصن الثاقب ثابتاً فوق الماء. نمال تعلقن بسقف القاعة الخزان وأمسكن بالغصن وتمكَّنَّ من تحقيق ذلك النجاح الباهر.

المستعبِدات يضطربن في الطوفان السفلي ويتخبطن. أكثرهن لاقين حتفهن غرقاً. ولكن بعضهن تمكنَّ من الخروج من ثقب السقف، عندما امتلأت القاعة السفلية وارتفع مستوى سطح الماء. استقبلتهن الصهباوات برشقات الحامض فقتلنهن دون عناء.

بعد ساعة من الزمان، كفت شورباء المستعبِدات عن الحركة

وركدت. أما الملكة شلي ـ بو ـ ني فقد ربحت الحرب وأطلقت أولى حكمها التاريخية:

كلما كان العائق كبيراً، كلما كان تجاوزنا لضعفنا أكبر.

صوت ارتطام مخنوق ومنتظم اجتذب أوغوستا إلى المطبخ حيث رأت البروفسور لودوك وهو يتلوى ليخرج من ثقب الجدار، بعد أربع وعشرين ساعة من نزوله إلى القبو! هكذا إذن! أكان من الضروري، في الحالة الوحيدة التي كان يمكن لها أن تكون غير مبالية لإختفاء شخص غير قريب من القلب... أكان من الضروري لهذا الشخص أن يعود؟!

ثوب مكتشفي المغاور الذي يرتديه كان ممزقاً. ولكن مرتديه كان سالماً. غير أن الإخفاق كان ظاهراً عليه كظهور الأنف في منتصف الوجه.

ـ إذن؟

ـ إذن، ماذا إذن؟

ـ هل وجدتهم؟

ـ لا...

كانت أوغوستا شديدة الإضطراب. إنها المرة الأولى التي يعود فيها أحدهم من الثقب حياً وبكامل قواه العقلية. من الممكن إذن أن يظل الإنسان على قيد الحياة بعد هذه المغامرة!

ـ ولكن، ماذا رأيت هناك؟ هل يفضي النفق إلى غابة فونتينبلو كما كنت تعتقد؟

يتخلص من خوذته.

ـ قبل كل شيء، أعطني، من فضلك، شيئاً أشربه. لقد استنفذت كامل مخزوناتي الغذائية ولم أشرب منذ ظهر يوم أمس.

أحضرت له زهورات اللويزة التي كانت تحتفظ بها ساخنة في الوعاء الحافظ للحرارة.

ـ أتريدين أن أقول لك ماذا يوجد هنالك؟ هنالك سلم حلزوني ينزل مستقيماً لبضع مئات من الأمتار. هنالك باب، هنالك فوهة ممر تخرج منه إشعاعات حمراء وجيوش من الجرذان. وهنالك، في آخر السلم، جدار لا بد أن بانيه هو حفيدك جوناثان. جدار متين. حاولت ثقبه بالمثقاب الآلي دون جدوى. لا بد وأنه جدار من النوع الذي يدور أو ينكفىء لأنه مجهز بنظام من الأزرار المرقومة بحروف أبجدية تتشكل منها كلمة سر ضرورية لفتح الجدار.

ـ نظام أزرار... وكلمة سر لفتح الجدار؟

ـ أجل، ينبغي، دون شك، الضغط على الأزرار لكتابة كلمة هي الجواب على السؤال.

ـ أي سؤال؟

ـ كيف يمكن تشكيل أربعة مثلثات متساوية الزوايا بستة عيدان ثقاب؟

انفجرت أوغوستا ضاحكة، رغماً عنها، مما أحدث انزعاجاً عميقاً في نفس مخاطبها العالِم.

ـ هل تعرفين الجواب؟

تمكنت، بين شهقتين، من تحريك لسانها لتقول:

ـ لا، لا أبداً! لا أعرف الإجابة! ولكنني أعرف السؤال جيداً! ثم عادت إلى الضحك. ضحكت دون توقف. غمغم البروفسور لودوك قائلاً:

ـ أمضيت ساعات طويلة في البحث عن الحل. يمكن التوصل إلى نتيجة أكيدة على شكل أربعة مثلثات ضمن إطار مكون من حرفي V مقفلين. ولكن هذه المثلثات غير متساوية الزوايا.

ثم انصرف إلى المعدات يوظبها داخل حقيبتيه.

ـ سأذهب، إذا ما سمحت لي، لإستشارة صديق متخصص في الرياضيات، ثم سأعود.

ـ لا! لن تفعل ذلك.

ـ ولم ذاك؟

ـ الحظ لا يأتي إلا مرة واحدة. فإذا لم تفلح في هذه المرة، فإنك لن تفلح بعدها أبداً. تفضل بإخراج حقيبتيك من منزلي.

والوداع، أيها السيد!

لم تكلف نفسها أن تستدعي له سيارة أجرة بواسطة جهاز الهاتف. إمتعاضها منه انتهى بالهيمنة على الموقف. لا بد وأن رائحته لم تَرُقْ لها بالمرة.

جلست في المطبخ قبالة الجدار المثقوب. فالوضع قد تغير الآن بشكل يستدعي الإتصال بجازون براجيل وبالمدعو روزنفيلد. ثم إنها قررت أن تتسلى قليلاً قبل أن تموت.

فيرومون بشري: يمتلك الإنسان ـ شأنه شأن الحشرات التي تتواصل فيما بينها بالروائح ـ لغة شمية يستخدمها خفية في التحاور مع بني جلدته. وبما أن الإنسان لا يمتلك قروناً يبث بها، فإنه يطلق في الهواء فيرومونات من الإبطين والحلمتين وجلدة الرأس والأعضاء التناسلية.

هذه الرسائل يتم التقاطها بشكل لا واعٍ، دون أن يعني ذلك أنها غير بالغة التأثير. فالإنسان يمتلك خمسين مليون نهاية عصبية شمية، أي خمسين مليون خلية قادرة على التقاط آلاف الروائح، في حين أن لسانه لا يتعرف إلا إلى أربعة طعوم. ما هي المجالات التي يستخدم فيها الإنسان هذا النمط من أنماط الإتصال؟

أولاً، هنالك الدعوة الجنسية. فالذكر البشري يمكنه أن يشعر بالانشداد إلى أنثى بشرية لا لشيء إلا لتأثير روائحها الطبيعية فيه (غالباً ما تكون هذه الروائح مدفونة تحت الروائح الإصطناعية!). كما يمكنه أن يشعر بالنفور من أنثى أخرى لأن فيروموناتها لا «تتكلم» معه.

هذه العملية شديدة الدقة والحساسية لدرجة أن الكائنين ـ الذكر والأنثى ـ لا ينتبهان مطلقاً إلى ما يدور بينهما من حوار شمي. فكل ما يقال في هذا المجال هو أن «الحب أعمى». ويمكن لتأثير الفيرومونات البشرية أن يتجلى أيضاً

في علاقات العدوان. فالإنسان الذي يتنشق روائح تحمل رسالة «الخوف» الذي يبديه خصمه يرغب، بشكل طبيعي، في مهاجمته. تماماً كما عند الكلاب.

ومن الآثار المذهلة لتأثير الفيرومونات البشرية، نجد ظاهرة تزامن دورات الحيض الشهري عند النساء. فقد لوحظ أن عدة نساء يعشن معاً يطلقن روائح تضبط أجسامهن بحيث تبدأ دوراتهن الشهرية بالحدوث في وقت واحد.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

تشاهدان أوائل الحاصدات في قلب الحقول الصفراء. هنا، في الحقيقة، حطّابات لأن الحبوب التي يحصدنها أكبر منهن حجماً ولأنهن يقطعن سيقان النباتات من أصولها قبل أن يصبح بإمكانهن الحصول على البذور المغذية.

وفيما يتعدى الحصاد، يكمن نشاطهن الرئيسي في إزالة ما ينمو من أعشاب حول مزروعاتهن. يستخدمن في ذلك مبيداً عشبياً صنعنه بأنفسهن: إنه حامض الإندول ـ آسيتيك الذي ينفثنه من غدة في بطونهن.

الحاصدات لا يكدن يلتفتن إلى قدوم المستكشفتين 103683 و4000. فهن لم يسبق لهن أن شاهدن نمالاً صهباء، وهاتان الحشرتان هما، في أحسن الحالات بالنسبة لهن، عبدتان آبقتان أو نملتان تبحثان عن إفرازات اللمقز. باختصار، متشردتان أو مدمنتان على المخدرات.

ومع ذلك، ينتهي الأمر بإحدى الحاصدات إلى التقاط جزيئة تحمل ريح النمال الحمراء. تترك عملها وتقترب، مصحوبة بإحدى الرفيقات.

هل رأيتن الحمراوات؟ أين؟

من الحديث، فهمت الصهباوتان أن الحمراوات هاجمن عش الحاصدات قبل عدة أسابيع وقتلن، بإبرهن السامة، أكثر من مئة عاملة ونملة أخرى من غير ذوات الجنس، قبل أن يسرقن كامل مخزونات طحين الحبوب. كان جيش الحاصدات غائباً في رحلة بحث عن الحبوب. وعند عودة الجيش، لم يكن بإمكانه غير إحصاء الخسائر.

تعترف الصهباوتان بأنهما صادفتا نمالاً حمراء وتدلان الحاصدات على الطريق الذي ينبغي سلوكه لإدراكهن. يسائلنهما فتروِيان قصة رحلتهما الأوديسية.

أنتما تبحثان إذن عن طرف العالم؟

تردان بالإيجاب، فتطلق الأخريات فيرومونات ضحك صاخب الروائح. ما الذي يدفعهن إلى الإنفجار بكل هذه القهقهات؟ أيكون طرف العالم شيئاً غير موجود؟

بلى، بلى، هو موجود وأنتن فيه! ليس في حياتنا غير الحصاد ومحاولة اجتياز طرف العالم.

تتعهد الحاصدات بمرافقة «السائحتين»، منذ صباح الغد، إلى ذلك المكان الماورائي. يمضين السهرة في تبادل الأحاديث داخل العش الصغير الذي حفرته الحاصدات في قشر شجرة زان.

وحرس حدود العالم؟ تساءلت المستكشفة رقم 103683.

لا تقلقي، ستبصرينهم عاجلاً.

أصحيح أنهم يمتلكون سلاحاً من شأنه أن يسحق جيشاً كاملاً بضربة واحدة؟

تتعجب الحاصدات من معرفة الأجنبيتين بكل هذه التفاصيل.

أجل، هذا صحيح.

أخيراً، ستتمكن المستكشفة رقم 103683 من اكتناه لغز السلاح السري!

في تلك الليلة، رأت، في ما يرى نائم النمل، أن طرف الأرض ينحدر في زاوية قائمة؛ وأن جداراً عامودياً من الماء يلج في بطن السماء؛ وأن نمالاً زرقاء تمتشق أغصان أكاسيا. أغصان أكاسيا ذات قدرة تدميرية هائلة. كان يكفي لطرف واحد من هذه الأغصان السحرية أن يمس أي شيء ليستحيل هباءً منثوراً.

ـ 4 ـ

نهاية الطريق

بقيت أوغوستا حتى الظهيرة جالسة أمام ستة عيدان ثقاب. الحاجز نفسي أكثر مما هو واقعي. فهمت ذلك تماماً من عبارة ادمون الشهيرة عن «التفكير بطريقة مختلفة»... لا ريب في أن ابنها اكتشف شيئاً وبأنه يخفي ذلك الشيء بطريقة ذكية.

تذكرت الأعشاش التي كان يبنيها في طفولته. تذكرت «الأوكار». قد يكون تخريب أوكاره كلها هو السبب الذي دفعه إلى إنشاء وكر لا يصل إليه أحد... إلى البحث عن مكان لا يكون عرضةً فيه لإزعاج أحد... مكان يُسقط فيه سلمه الداخلي ورغبته في ألا تدركه الأبصار.

نفضت أوغوستا ما يعتريها من خدر فاشرأبت إحدى ذكريات طفولتها. كان ذلك في ليلة شتائية. كانت يومها طفلة صغيرة وكانت قد فهمت أن وجود أعداء أصغر من الصغر أمر ممكن... 3، 2، 1، صفر ثم ـ 1، ـ 2، ـ 3... أعداد بالمقلوب! كما ولو أننا نقلب قفاز الأعداد. فالصفر ليس إذن نهاية كل شيء أو بدايته. هنالك، من الجهة الأخرى، عالم آخر غير متناهٍ. كما ولو أن شيئاً يخرق جدار «الصفر».

كانت في سن السابعة أو الثامنة. لكنها اضطربت لهذا الإكتشاف ولم تنم طيلة ليلتها.

الأعداد بالمقلوب. . . بَوابةُ بُعْدٍ آخَرَ. البعد الثالث. النتوء!

يا إلهي!

يداها ترتعشان من شدة الإنفعال. تبكي. لكنها تمتلك القدرة على الإمساك بعيدان الثقاب. تشكل مثلثاً بثلاثة عيدان. ومن كل زاوية، تمد عوداً ليلتقي بالعودين الآخرين في نقطة عليا.

وهكذا، تحصل على هرم، هرم وأربعة مثلثات متساوية الزوايا.

هنا طرف العالم. مكان مذهل. لا شيء فيه طبيعي، لا شيء فيه أرضي. لا شيء فيه كما كانت تتخيله المتكشفة رقم 103683. طرف العالم أسود. أسود كما لم يسبق لها أن رأت سواداً بمثل هذا السواد! سواد صلب وساخن ويفوح بروائح الزيوت المعدنية.

ليس في المكان بحر عامودي، بل تيارات هوائية عنيفة لدرجة لا تصدق.

وقفت النمال طويلاً في محاولة منها لفهم ما يجري. من حين لآخر، تشعر النمال بذبذبة مقتربة. قوة الذبذبة ترتفع بطريقة متزايدة التصاعد، ثم ترتجف الأرض وتعصف ريح عنيفة ترتفع لها القرون ويتفجر ضجيج جهنمي يصطك له منح عظم الساق. كما ولو أن عاصفة مهولة قد عبرت. ولكن، لا تلبث هذه الظاهرة أن تحدث، حتى تتلاشى دون أن تترك خلفها غير نثارات خفيفة من غبار.

كثيرات من مستكشفات الحاصدات حاولن عبور هذا الحد. لكن الحرس متيقظ. فالضجة والريح والذبذبة هي، بالذات، ذلك الحرس. حرس حدود العالم. حرس يضرب كل من يحاول التقدم فوق الأرض السوداء.

هل سبق لهن ورأين ذلك الحرس؟

قبل أن تحصل الصهباوتان على الإجابة، انفجر ضجيج جديد، وتلاشى. إحدى الحاصدات الست اللواتي ترافقنهما أكدت بأن أحداً لم يتمكن من التقدم فوق «الأرض الملعونة» وأن يرجع حياً. فالحرس يسحق كل شيء.

الحرس... لا بد أن هذا الحرس هو مَنْ ضرب لا ـ شولا ـ كان وبعثة الذكر رقم 327. ولكن لماذا ابتعد الحرس عن حدود العالم ليتقدم نحو الغرب؟ هل يريد اجتياح العالم؟

الحاصدات لا يعرفن عن الموضوع أكثر مما تعرفه الصهباوات. هل يمكنهن، على الأقل، أن يصفن ذلك الحرس؟ لا يعرفن شيئاً غير الموت سحقاً لكل من يقترب من الحرس. يجهلن حتى في أية فئة من الكائنات يمكن أن يصنف الحرس: حشرات عملاقة؟ طيور؟ نباتات؟ كل ما يعرفنه هو أن الحرس سريع جداً وقوي جداً. قوة لا تمكن الإحاطة بها، ولا تشبه قوة أي شيء معروف...

في هذه اللحظة، تأخذ المتسكشفة رقم 4000 مبادرة مفاجئة وغير متوقعة. تنفصل عن المجموعة وتغامر بالدخول إلى الأرض المحرمة. الموت للموت. تريد عبور الحدود هكذا، لمجرد الجرأة. الأخريات ينظرن إليها بذهول.

تتقدم ببطء وهي ترصد، بأطراف قوائمها البالغة الحساسية، أقل ذبذبة وأدنى رائحة منذرة بالموت. ها قد اجتازت خمسين رأساً، مئة رأس، مئتي رأس، أربعمئة، ستمئة. اجتازت ثمانمئة رأس ولم يحدث لها شيء. بلغت طرف العالم سالمة غانمة.

من الجهة الأخرى، رفيقاتها يهتفن لها. من حيث هي، لا ترى غير أشرطة بيضاء متقطعة تعبر نحو اليمين ونحو اليسار. لا شيء على الأرض السوداء غير الموت. لا حشرة ولو صَغُرَتْ، لا نبتة ولو ضؤلت. الأرض سوداء سوداء. . . هذه الأرض ليست أرضاً حقيقية.

تلاحظ وجود نباتات هناك في البعيد. أيمكن أن يكون هنالك عالم وراء طرف العالم؟ تطلق بعض الفيرومونات لرفيقاتها اللاتي بقين هناك، على الحافة، لتعلمهن بما تشاهده. ولكن الإتصال صعب على هذا البعد.

تستدير لترجع وفي اللحظة نفسها ينطلق الإهتزاز والضجيج الهائلان من جديد. حرس الحدود يعود! تعدو بكل قوتها باتجاه رفيقاتها.

الرفيقات يحبسن أنفاسهن خلال جزيئة الوقت التي يستغرقها اجتياز سمائهن من قبل الكتلة المدهشة بضوضائها الهائل. لقد مر الحرس مخلفين روائح الزيوت المعدنية. أما المستكشفة رقم 4000 فقد اختفت.

تقترب الرفيقات قليلاً من الحافة فيفهمن. لقد سحقت المستكشفة والتصق جسمها بالأرض السوداء بعد أن تفلطح وصار سُمْكُهُ أقل من عُشْرِ رأس!

لم يبق شيء من المستكشفة البيلوكانية العجوز. وانتهى، في الوقت نفسه ما كانت تسببه لها بيوض النمسية من عذاب. في وسط الجسد المرقق نقطة صغيرة بيضاء لا تكاد ترى. ثقب كانت قد أحدثته في ظهرها إحدى يرقات ذلك الدبور. . .

تلك هي، إذن، ضربات حرس حدود العالم. ضجيج يُسْمَعُ، ريح تَصْفَعُ، وإذا بكل شيء دمارٌ، خرابٌ، بَلْقَعُ. لم تكن المستكشفة 103683 قد فرغت من تحليل الظاهرة حتى دوى انفجار جديد. فالموت يضرب حتى قبل الوصول إلى عتباته ثم يتهدل الغبار.

ومع هذا، لا تريد المستكشفة 103683 أن تتخلى عن فكرة العبور. يذهب بها الفكر مجدداً نحو ساتيي. فالمشكلة هنا شبيهة بالمشكلة هناك.

وإذا لم تُحَلّ المشكلة هناك بالعبور من فوق، فهي يجب أن تُحل هنا بالعبور من تحت. يجب التعامل مع هذه الأرض السوداء وكأنها نهر. والوسيلة الفضلى لعبور الأنهار هي حفر نفق تحتها.

تفضي بخواطرها إلى الحاصدات الست فيتحمسن للفكرة فوراً. فالأمر بديهي لدرجة لا يفهمن معها كيف لم يفكرن بذلك من قبل! يبدأن بالحفر بكل ما في ملاقطهن من قوة.

جازون براجيل والبروفسور روزنفيلد لم يكونا أبداً متعصبين لزهورات اللويزة ولكنهما كانا يتقدمان على طريق التعصب. كانت أوغوستا تشرح لهما أدق التفاصيل المتعلقة بوصية ابنها وكيف أنهما سيرثان الشقة من بعدها. من المرجح، برأيها، أن كلاً منهما ستستهويه، يوماً، فكرة النزول إلى القبو كما استهوتها. لذا، فإنها تفضل توحيد جميع الطاقات لتوجيه ضربة تكون ناجعة إلى الحد الأقصى.

لم يتكلم الثلاثة إلا قليلاً، بعد أن فرغت أوغوستا من عرض هذه المعطيات الأولية الضرورية. لقد فهموا من غير أن يتكلموا. نظرة، فابتسامة... لم يسبق لواحد من الثلاثة أن عاش تلاقحاً فكرياً مباشراً كالذي هم فيه. بل إن الأمر كان يتجاوز مجرد التفاهم الفكري... كانوا كما ولو أنهم قد وُجدوا ليكمل بعضهم بعضاً. كما ولو أن برامجهم الجينية متداخلة متدامجة. كان ذلك شيئاً سحرياً. كانت أوغوستا طاعنة في السن ولكنها كانت، في نظر الرجلين، آية في الجمال...

تحدثوا عن ادمون. عواطفهم المجردة عن أية مقاصد سيئة

تجاه الفقيد كانت تثير دهشتهم. جازون براجيل لم ينبس بكلمة عن عائلته. دانيال روزنفيلد لم ينبس بكلمة عن عمله. أوغوستا لم تنبس بكلمة عن مرضها. قرروا جميعاً أن ينزلوا إلى القبو مساء يومهم بالذات. كانوا يعرفون أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجب عليهم القيام به. في هذا المكان بالذات، وفي هذا الوقت بالذات.

خلال فترة طويلة: **خلال فترة طويلة، ساد الإعتقاد بأن المعلوماتية عموماً، وبرامج الذكاء الإصطناعي خصوصاً، سيكون من شأنها أن تمزج المفاهيم البشرية ببعضها البعض وأن تعيد عرضها من زوايا جديدة. وباختصار، كان الناس ينتظرون أن تقدم لهم الإلكترونيات فلسفة جديدة. ولكن المادة الأولية تظل هي هي، حتى ولو عرضت بأشكال مختلفة: تظل أفكاراً منتجة من قبل التخيلات البشرية. ذلك، إذن، طريق مسدود. أما أفضل السبل لتجديد الفكر فهو الخروج من الخيال البشري.**

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

شلبي ـ بو ـ كان تكبر وتزداد ذكاءً. إنها الآن مدينة «مراهقة». إتبعت طريق تطوير التقنيات المائية، فأقيمت فيها شبكة من القنوات تحت الطابق السفلي الثاني عشر. أذرع مائية تسمح بنقل الأغذية بين أطراف المدينة بمنتهى السرعة.

الشليبوكانيات أعطين لأنفسهن كل الوقت اللازم لتنفيذ إنجازاتهن التقنية في مجال النقل المائي. قمة هذه الإنجازات هي ورقة عائمة من

أوراق نبتة العنبية (airelle). يكفي ركوب التيار واتباع وجهته لإجتياز طرقات نهرية بطول عدة مئات من الرؤوس. من مزارع الفطريات شرقاً، على سبيل المثال، إلى الحظائر غرباً.

الشليبوكانيات يطمحن إلى النجاح يوماً في تطويع العومة. ذلك الجعل الضخم الذي يعيش فوق سطح الماء، له جيوب هوائية تحت أغماده وباستطاعته أن يسبح بسرعة فائقة. فإذا ما تم التوصل إلى إقناعه بدفع أوراق العنبية، فإن ذلك سيزوّد هذه المراكب بقوة دافعة أقل خضوعاً للمصادفات من التيارات.

شلي ـ بو ـ ني نفسها تطرح فكرة مستقبلية أخرى. فهي لم تنسَ الجعل الطيار، وحيدَ القرن الطيار، الذي خدمها من شبكة العنكبوت. يا له من آلة حربية ممتازة! فوحيدات القرون ليست مجرد حشرات لها قرن كبير في جبهتها، ولا هي مجرد حشرات مدرعة الأجسام. إنها حشرات تطير، وبسرعة فائقة. الملكة ـ الأم تتخيل، دفعة واحدة، فرقة كاملة من هذه الحشرات، على رأس كل حشرة منها عشر راشقات متمركزات! من الآن، تبصر هذه القاذفات وهي تغير، بمنأى شبه كامل عن التعرض للعطب، على الجيوش المعادية وتغرقها في طوفان من رشقات الحامض...

هنالك عقبة كأداء وحيدة. وحيدات القرون، شأنها شأن العومات، تبدو صعبة التطويع لدرجة يستحيل معها حتى التوصل إلى فهم لغتها! لذا، فإن بضع عشرات من العاملات قد تفرغن لتحليل رسائلهن الشمية ولمحاولة إفهامهن لغة النمال الفيرومونية.

صحيح أن النتائج لا تزال هزيلة حتى الآن، ولكن الشليبوكانيات نجحن تماماً في كسب وِدِّهِنَّ عن طريق إتخامهن بالعسيل. فالغذاء هو، في نهاية المطاف، لغة تتكافأ في فهمها الحشرات إلى أقصى حدود التكافؤ.

ولكن شلي ـ بو ـ ني شديدة القلق على الرغم من تلك الحيوية الجماعية. ثلاث دفعات من السفيرات تم إيفادهن إلى الفيدرالية بهدف تكريس شلي ـ بو ـ كان بوصفها المدنية الخامسة والستين، دون أن تصدر

أية إجابة على ذلك حتى الآن. هل يعني ذلك أن بيلو ـ كيو ـ كيوني ترفض التحالف؟

كلما ازداد انكباب شلي ـ بو ـ ني على التفكير بهذا المضووع، يزداد اعتقادها بأن سفيراتها الجاسوسات قد ارتكبن هفوات أوقعتهن في مخالب المحاربات اللاتي تفوح منهن رائحة الصخور. اللهم إلا إذا كن قد انسحرن، بكل بساطة، بلمقز الطابق السفلي الخمسي ونفحاته المهلوسة. . . ناهيكم عما لا تعلم من تصاريف أخرى.

تريد أن تكون على بينة من أمرها. فهي لا تنوي التنازل عن اعتراف الفيدرالية ولا التخلي عن متابعة التحقيق! تقرر إرسال النملة رقم 801، أفضل محارباتها وأكثرهن ذكاءً. لذا، تجري الملكة إتصالاً مطلقاً مع المحاربة الشابة بهدف تزويدها بجميع الوسائل اللازمة للنجاح. وبهذا الإتصال، عرفت المحاربة كل ما تعرفه الملكة عن ذلك اللغز وصارت:

عين شلي ـ بو ـ كان المبصرة

وقرنها الحساس

ومخلبها الضارب.

كانت السيدة العجوز قد هيأت ثلاث حقائب ظهرية مليئة بالمؤن والأشربة، بينها ثلاثة أوعية حافظة للسخونة مترعة بالفرفين الساخمن. من المهم خصوصاً، عدم التصرف كذلك الثقيل، لودوك، الذي كان مضطراً للعودة سريعاً بسبب إهماله لمسألة الزاد. . . وحتى لو لم يفعل ذلك، أكان بإمكانه أن يجد الكلمة المطلوبة؟ كانت أوغوستا تسمح لنفسها بالشك في ذلك.

جازون براجيل كان أحضر فيما أحضر قنبلة مسيلة للدموع من الصنف الكبير، إضافة إلى ثلاثة أقنعة واقية من الغاز. أما

دانيال روزنفيلد، فقد أحضر آلة للتصوير مزودة بمضيء سريع من آخر ما نزل إلى السوق من نماذج.

يدورون الآن داخل الحلزون الحجري. النزول يثير عندهم، كما أثار عند من كان قبلهم، أصناف الذكريات والأفكار الدفينة. الطفولة الأولى والأهل والعذابات القديمة والأخطاء المرتكبة والحب المكظوم والأنانية ومشاعر العزة والحسرات...

أجسامهم كانت تتحرك آلياً بعيداً عن أية إمكانية لتسرب التعب. كانوا ينفذُون في لحم الأرض؛ كانوا يتوغلون في أيامهم الماضية. آه! كم هي طويلة هذه الحياة، وكم هي قابلة لأن تكون مجالاً للتدمير. كم التدمير أكثر سهولة فيها من البناء...

وأخيراً، وجدوا أنفسهم أمام باب، على الباب كتابة:

الأحاسيس التي تعيشها الروح في لحظة الموت هي نفسها الأحاسيس التي يعيشها الواصلون لحظة كشف الأسرار لهم.

في البداية، تقطع الروح مسافات ومسافات وتتعرض لإنعطافات مؤلمة. أسفار مخيفة لا تنتهي. ظلمات بعدها ظلمات.

ثم يصل الرعب إلى أوجِهِ قبيل النهاية. لا شيء غير الإرتعاد والإرتجاف والعرق البارد.

هذه المرحلة يعقبها مباشرة صعود نحو النور. إشراقات مفاجئة.

أنوار بهية تظهر للعيان. تجتاز الروح أمكنة صافية وسهولاً يغمرها الغِناء وأنواع الرقصات.

تسمع الروح كلاماً مقدساً يوحي بالمهابة الدينية. الإنسان الكامل والواصل يصبح حراً ويقرأ مجد الأسرار.

أخذ دانيال صورة للباب وللكتابة.

قال جازون مؤكداً:

ـ أعرف هذا النص. كاتبة هو بلوتارك(*).

ـ نص جميل، في الحقيقة.

ـ ألا يخيفكما ذلك؟ تساءلت أوغوستا.

ـ بلى، فالقصد منه هو إشاعة الخوف. وعلى كل حال، يقال بأن الإشراق يأتي بعد الخوف. فلنتقدم، إذن، مرحلة مرحلة؛ وإذا كان لا بد لنا من بعض الخوف، فلنخف.

ـ أجل، فالجرذان...

كما ولو أن مجرد ذكر الجرذان يكفي لحضورها. فالجرذان كانت معهم. كان المستكشفون الثلاثة يشعرون بها وهي تنزلق بين أقدامهم المدرعة بالجزم الطويلة. شَغَّلَ دانيال آلة التصوير من جديد. ومضة المضيء كشفت صورة مقززة لبساط من كتل رمادية وآذان سوداء. سارع جازون بتوزيع الأقنعة ثم رش زخات غزيرة من الغاز المسيل للدموع. لم تنتظر القوارض تكرار العملية...

ثم واصلوا النزول لمسافة طويلة.

(*) Plutarque: مؤرخ وأخلاقي يوناني، عاش في بدايات العصر المسيحي.

ـ وإذا ما أكلنا شيئاً، أيها السادة؟ قالت أوغوستا، على سبيل الإقتراح.

أكلوا. مزاجهم كان جيداً وحقبة الجرذان إمَّحَتْ من ذاكرتهم. وبما أن الجو كان بارداً، فقد ختموا وجبتهم الخفيفة بجرعة كحول وفنجان من القهوة الساخنة. أما زهورات اللويزة، فلم تكن على القائمة إلا بين الغداء والعشاء.

حفرن لفترة طويلة قبل أن يصبح بإمكانهن الصعود ليجدن أنفسهن في منطقة طرية التراب. زوجان من القرون يطلعان أخيراً كما يطلع منظار الغواصة من الأعماق إلى سطح الماء. تحيط بالقرنين روائح غير معروفة.

يخرجن إلى الهواء الطلق. إنهن الآن في الجهة الأخرى من طرق العالم. لا جدار مائياً في المكان، بل عالم لا يشبه العالم المعروف في شيء. صحيح أن فيه بعض شجيرات وبعض بقع عشبية، وفيما عدا ذلك لا شيء غير صحراء تمتد رمادية صلبة وملساء، بلا أية مدينة للنمل، بلا أية مدينة للأرضة.

يمشين بضع خطوات. لكن أشياء كبيرة سوداء تتهابط حولهن. أشياء كالحرس مع فارق أنها تسقط دون إحداث أذى لحسن الحظ.

لكن ذلك ليس كل شيء. فبعيداً أمامهن ينتصب حجر عملاق يبلغ حداً من العلو لا تقدر قرونهن على استشعار منتهاه. يسحق الأرض وتدلهم له السماء.

لا بد وأنه جدار طرف العالم، لا بد أن من خلفه الماء، تقول المستكشفة 103683 في نفسها.

يتقدمن بعض الشيء أيضاً ليجدن أنفسهن، وجهاً لوجه، مع مجموعة من بنات وردان (blattes) وقد التصقن بقطعة من شيء ما. أجسامهن تشف

عن كل ما فيهن من أحشاء وأعضاء وحتى عن الدم النابض في عروقهن! حشرات كريهة! يبتعدن، لكن شيئاً يسقط فيسحق ثلاث حاصدات.

المستكشفة 103683 ورفيقاتها الثلاث الباقيات يقررن متابعة المسير رغم كل شيء. يجتزن بعض الجدران الصغيرة المثقوبة ويواصلن التقدم باتجاه الحجر اللامتناهي الإرتفاع. يجدن أنفسهن، فجأة، في منطقة أشد إثارة للحيرة. أرضها حمراء وتضاريسها كحبة الفراولة. يجدن ثقباً شبيهاً بالبئر فيخطر لهن أن ينزلن فيه بحثاً عن شيء من الظل، وإذ بكرُة كبيرة بيضاء، بقطر عشرة رؤوس، على الأقل، تسقط من السماء وتتدحرج خلفهن. يرمين أنفسهن في البئر ولا يكدن يجدن الوقت الكافي للتشبث بجوانبه، حتى تصل الكرة البيضاء لتسقط فيه وتستقر في قعره.

يخرجن مذعورات ويركضن. حولهن، الأرض زرقاء أو خضراء أو صفراء. أمامهن حيث اتجهن آبار، وخلفهن كرات بيضاء تلاحقهن. ذاق ذرعهن، هذه المرة. فللإقدام وللشجاعة حدود. وهذا العالم مختلف إلى درجة لا تطاق.

يسبقن الريح هرباً فيدخلن النفق ويرجعن مسرعات إلى العالم الطبيعي.

حضارة (تتمة): **صدام حضارات كبير آخر: إنه الإحتكاك بين الغرب والشرق.**

تذكر حوليات الأمبراطورية الصينية أن مركباً رومانياً، على ما يبدو، قد وصل إلى الصين في حدود العام 115 ب.م، عقب تعرضه لعاصفة استمرت عدة أيام وقذفت به نحو الشاطىء.

كان الركاب جماعة من البهلوانات والمشعوذين. فارادوا، مذ وطئت اقدامهم أرض الشاطىء، أن يكسبوا وِدَّ أهالي البلد

المجهول بتقديم واحد من عروضهم. ففغر الصينيون أفواههم وهم ينظرون إلى هؤلاء الأجانب طوال الأنوف وهم ينفثون اللهب من أفواههم ويلوون أطرافهم ويحولون الضفادع إلى ثعابين... واستنتج الصينيون، معذورين، بأن الغرب مسكون بالمهرجين وأكلة النيران. ومرت عدة مئات من السنين قبل حصول مناسبة تزيلهم عن اعتقادهم ذاك.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

ها هم أخيراً أمام جدار جوناثان. **كيف يمكن تشكيل أربعة مثلثات بستة عيدان ثقاب؟** لم يتوانَ دانيال عن التقاط صورة. ضغطت أوغوستا على الأزرار المكونة لكلمة «بيراميد» (هرم)، فانفتح الباب من تلقائه. امتلأت اعتزازاً بحفيدها.

ولَجوا وما عتموا أن سمعوا الباب يعود مقفلاً كما كان. وجه جازون ضوء المصباح إلى الجدران المحيطة؛ كلها جدران صخرية، لكنها مختلفة عن الجدران السابقة. قبل، كان الجدار أحمر. أما الآن، فهو أصفر معرّق بلون الكبريت.

لكن الهواء لا يزال نقياً. شعروا للحظة كما ولو أن نسمة خفيفة هبت عليهم. هل كان البروفسور لودوك محقاً؟ أيفضي هذا النفق حقاً إلى غابة فونتينبلو؟

فجأة، وجدوا أنفسهم، مرة أخرى، وسط قطيع جديد من الجرذان. كانت أكثر عدوانية من الجرذان السابقة. فهم جازون ما كان يحدث ولكن الوقت لم يكن يتسع لشرح ما فهمه

للآخرين: كان عليهم أن يضعوا الأقنعة وأن يرشوا الغاز المسيل للدموع. ما فهمه جازون هو أن جرذاناً تعبر من «المنطقة الحمراء» إلى «المنطقة الصفراء» بحثاً عن الغذاء، في كل مرة ينزاح فيها الجدار، وهو الأمر الذي لم يكن قد حدث لمرات عديدة. ولكن جرذان المنطقة الحمراء كانت لا تزال قادرة، فيما يبدو، على تدبر بعض شؤونها الغذائية، في حين أن الجرذان الأخرى، أي تلك التي كانت «تهاجر»، لم تكن تجد ما يقوتها، مما يجبرها على أن تأكل بعضها بعضاً.

جازون ورفيقاه كانوا، إذن، وجهاً لوجه مع الجرذان الآكلة غير المأكولة، أي مع الجرذان الأكثر شراسة. لم ينفع معها الغاز المسيل للدموع. كانت تهاجم! كانت تثب وتحاول التشبث بالذراعين...

كان جازون على حافة الهستيريا. راح يرشق الجرذان بطلقات من أشعة مضيء آلة التصوير. أشعة تعشى لها الأبصار، لكن هذه الحيوانات الكابوسية تزن بالكيلوغرامات ولا تخشى البشر. ظهرت الجراح الأولى وبدأ النزيف. أخرج جازون سكينه وطعن جرذين ثم ألقاهما طعاماً للآخرين. أطلقت أوغوستا عدة طلقات من مسدس صغير... وتمكنوا بذلك من الإبتعاد قبل فوات الأوان!

عندما كنت: عندما كنت صغيراً، كنت أمضي ساعات طويلة وأنا منبطح أراقب بيوت النمل. كان ذلك يبدو لي أكثر «واقعية» من الإذاعة المرئية.

هاكم أحد الأسرار التي اكتشفتها من مراقبة بيوت النمل: لماذا كانت النمال تحمل بعض الجريحات اللاتي كن يسقطن بعد أعمالي التخريبية ويتركن بعضهن الآخر؟ علماً بأن الجميع متساويات لجهة أحجام أجسامهن... ما هي معايير الإختيار التي يحكم من خلالها بأن هذا العنصر مهم، وذاك العنصر زهيد القيمة؟

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

كانوا يركضون في ذلك النفق المخطط جدرانه باللون الأصفر. أفضى بهم الركض إلى حاجز مشبك بالفولاذ. في وسطه فتحة يأخذ معها شكل السلة ـ الشرك التي يستخدمها صيادو الأسماك. شكل مخروطي يضيق تدريجياً بحيث يسمح بمرور جسم بشري متوسط العرض، دون أن تكون هنالك إمكانية للرجوع بسبب القضبان المسننة المحيطة بمدخل المخروط.

ـ هذا الجهاز صنع منذ فترة وجيزة...

ـ كما ولو أن الذين وضعوا هذا الباب وهذه السلة لا يرغبون لمن يدخل بالرجوع إلى الوراء...

مرة أخرى، تعرفت اوغوستا في هذا العمل إلى المهارات الخاصة بجوناثان، المعلم في صناعة الأبواب وأشغال المعادن.

ـ أنظروا!

كان دانيال يوجه ضوء مصباحه إلى عبارة مكتوبة:

هنا ينتهي الوعي

هل تريدون الدخول إلى اللاوعي؟

إستولت عليهم الحيرة.

ـ ماذا نفعل

كان الجميع يفكرون في الأمر نفسه وفي اللحظة ذاتها.

ـ إنها لخسارة أن نتراجع بعدما وصلنا إلى حيث نحن. أقترح أن نتقدم!

ـ سأكون أول الداخلين. قالها دانيال وهو يدخل شعره المعقوص على شكل ذنب الحصان تحت ياقته تفادياً لاشتباكه بقضبان الفولاذ.

ثم زحفوا، الواحد تلو الآخر، عبر السلة الفولاذية.

ـ شيء ممتع. أشعر وكأنني عشت هذه التجربة من قبل.

ـ هل سبق لك وكنت في سلة تعصرك وتمنعك من الرجوع إلى الوراء؟

ـ أجل. كان ذلك منذ زمن بعيد.

ـ ماذا تقصدين بالزمن البعيد؟...

ـ أوه، كنت صغيرة. كنت في عمر... ثانية أو ثانيتين.

الحاصدات في مدينتهن، يروين مغامراتهن في الجانب الآخر من العالم، بلد الكائنات العجيبة والظواهر غير المفهومة. بنات وردان

والأجسام السوداء والحجر العملاق والآبار والكرات البيضاء. . . شيء لا يطاق. ليست هنالك أية إمكانية لإقامة قرية في عالم غريب إلى هذا الحد.

103683 قابعة تستعيد قواها في إحدى الزوايا وتفكر. عندما تسمع أخواتها قصة رحلتها، سيكون عليهن إعادة النظر في جميع الخرائط وفي جميع المبادىء الأولية لعلومهن الخاصة بطبيعة الكوكب. تقول في نفسها بأن وقت الرجوع إلى الفيدرالية قد أزف.

بعد اجتياز السلة، كان عليهم أن يواصلوا المسير لمسافة تزيد عن عشرة كيلومترات. . . كيف يمكن التأكد من المسافة، في نهاية المطاف، ناهيكم عن التعب الذي كانت آثاره قد بدأت بالظهور.

وصلوا إلى جدول صغير يتقاطع مع النفق. مياه حارة ومشبعة بالكبريت، بشكل غير عادي.

فجأة، توقف دانيال عن المسير. بدا له للحظة أنه شاهد نمالاً تركب فُلكاً من ورق الأشجار في تيار المياه! يستعيد رجاحة حسه؛ لا ريب في أن أبخرة غبار الكبريت هي التي «تسبب له هذه الهلوسات». . .

بعد اجتياز عدة مئات أخرى من الأمتار، مشعر جازون بشيء ينكسر تحت قدمه. وجه ضوء المصباح فرأى قفصاً صدرياً لهيكل عظمي وأطلق صيحة مدوية! مشط دانيال وأوغوستا بمصباحيهما جوانب المكان فوجدا هيكلين عظميين آخرين أحدهما لولد صغير. أيمكن أن تكون هذه الهياكل بقايا جوناثان وأسرته؟

ثم واصلوا المسير واضطروا، بعد قليل، إلى الركض بعدما سمعوا حفيفاً شاملاً ينبىء بقدوم الجرذان. اللون الأصفر في الجدران يتحول تدريجياً نحو الأبيض. حجارة كلسية. أخيراً، وصلوا إلى نهاية النفق وهم في غاية الإجهاد. وجدوا أنفسهم أمام سلم حلزوني صاعد!

أطلقت أوغوستا طلقتيها الأخيرتين باتجاه الجرذان ثم اندفعوا يرتقون السلم. وجد جازون في نفسه الحيوية الذهنية الكافية ليلاحظ أن هذا السلم كان بعكس السلم الأول، أي أن الصعود يتم فيه كالنزول. باتجاه عقارب الساعة.

النبأ يحدث وقعاً مثيراً للغاية. نملة بيلوكانية تصل إلى المدينة. يسود الإعتقاد في المدينة بأنها سفيرة أوفدتها الفيدرالية لتعلن رسمياً بأن شلي ـ بو ـ كان صارت المدينة الخامسة والستين.

ولكن شلي ـ بو ـ ني أقل تفاؤلاً من بناتها. فقد شكّت في أمر هذه القادمة. ألا يمكن أن تكون إحدى المحاربات التي تفوح منهن رائحة الصخور وأن بيل ـ او ـ كان قد أرسلتها لإختراق مدينة الملكة المشاغبة؟

كيف هي؟

هي مُتْعَبَة، بوجه خاص! لا بد وأنها خرجت من بيل ـ او ـ كان وجاءت راكضة لتقطع المسافة في بضعة أيام.

الراعيات هن من رأينها؛ كانت منهكة ضائعة في خراج المدينة. لم تقل شيئاً حتى الآن، لأنهن قدنها مباشرة إلى قاعة النمال ـ القرب لتزويدها بالغذاء.

أحضروها إلي، أريد أن أتكلم معها على حدة. ولكنني أريد أن تظل الحارسات في مدخل الجناح الملكي وأن يكُنَّ جاهزات للتدخل عند أية إشارة مني.

كانت شلي ـ بو ـ ني ترغب، على الدوام، في معرفة أخبار مسقط رأسها. أما وقد جاءت الآن سفيرة من بيل ـ او ـ كان، فإن الفكرة الأولى التي خطرت لها هي التعامل معها كجاسوسة وقتلها. ستنتظر رؤيتها، وفي حال اشتمت منها أدنى جزئية من روائح الصخور، فإنها ستقتلها دون أي تردد.

جئن بالبيلوكانية. من اللحظة الأولى تعارفت النملتان ووثبت كل واحدة إلى الأخرى فاتحة ملقطيها وغابتا معاً في أعمق وألذ عملية تزقيم. لشدة الإنفعال، لم تتمكنا، مباشرة، من تبادل الكلام.

شلي ـ بو ـ ني تطلق الفيرومون الأول:

أين أصبح التحقيق؟ أهي حشرات الأرضة؟

أخبرتها المستكشفة رقم 103683 كيف اجتازت النهر الشرقي وكيف زارت مدينة الأرضة وكيف أن الأرضة قد أبيدت ولم ينج منها أحد.

من وراء ذلك إذن؟

تعتقد المحاربة أن المسؤولين الحقيقيين عن جميع هذه الأحادث المبهمة هم حرس حدود الطرف الشرقي من العالم. حرس الحدود! حيوانات هي من الغرابة بمكان لا تمكن معه رؤيتها أو إدراكها بالحواس. حيوانات تهبط فجأة من السماء. ثم يموت كل شيء!

شلي ـ بو ـ ني تصغي بانتباه. لكن المحاربة تضيف بأن أحد جوانب المسألة لا يزال بلا تفسير: كيف تمكن حرس حدود العالم من استخدام المحاربات اللاتي تفوح منهن رائحة الصخور؟

شلي ـ بو ـ ني تمتلك تصوراً حول هذه المسألة. تروي لصاحبتها أن المحاربات اللاتي تفوح منهن رائحة الصخور لسن جاسوسات ولا هن قرصانات، بل قوة سرية مهمتها مراقبة مستوى الإرهاق الذي يعيشه جسم المدينة، وخنق جميع المعلومات التي قد يكون من شأنها إثارة القلق في المدينة... تروي أيضاً كيف قامت تلك القاتلات باغتيال الذكر رقم 327، وكيف حاولن قتلها هي بالذات.

ومخازن الأغذية تحت الصخرة التي تقوم فوقها المدينة؟ والممر المحفور في الغرانيت؟

شلي ـ بو ـ ني لا تمتلك أية إجابة على هذين السؤالين. لكنها أرسلت سفيرات ـ جاسوسات سيحاولن التوصل إلى حل هذا اللغز المزدوج.

الملكة الشابة تقترح على صديقتها الخروج لمشاهدة المدينة. في الطريق، تشرح لها وجهة نظرها حول الإمكانيات الهائلة التي يوفرها الماء. فالنهر الشرقي، على سبيل المثال، كان يعتبر نهراً قاتلاً. لكنه ماء ليس إلا. ماء سقطت فيه الملكة ولم تمت. ربما يأتي يوم يتيسر فيه ركوب هذا النهر فوق فُلك من أوراق النبات وصولاً إلى الطرف الشمالي من العالم. . . شلي ـ بو ـ ني تبلغ من الحماس منتهاه: لا شك بأن للطرف الشمالي حراساً قد يمكن دفعهم إلى التصارع مع حراس الطرف الشرقي.

لم يفت المحاربة رقم 103683 أن تلاحظ ما تعجُّ به شلي ـ يو ـ ني من مشاريع جريئة. مشاريع قد لا تكون قابلة كلها للتحقيق، ولكن ما تحقق منها، حتى الآن، مثير للدهشة: لم يسبق للمحاربة أن رأت مزارع للفطر أو حظائر بمثل هذا الإتساع. لم يسبق لها أن رأت فلكاً تقوم في قنوات جوفية. . .

أما ما كان أكثر إثارة لدهشتها من كل ذلك فقد كان الفيرومون الأخير الذي أطلقته الملكة:

فقد أكدت بأنها ستعلن الحرب على بيل ـ او ـ كان إذا لم ترجع سفيراتها قبل مضي خمسة عشر يوماً. فهي تعتقد بأن مدينة المنشأ لم تعد متلائمة مع العصر في هذا العالم. وبرأيها أن مجرد وجود المحاربات اللاتي تفوح منهن رائحة الصخور يدلل على أنها مدينة لا تنظر إلى الواقع وجهاً لوجه. إنها مدينة هشة كالبزاقة. كانت ثورية في الماضي، ولكنها تأخرت اليوم عن قطار الزمن. لا بد اليوم من بديل آخر. فالنمال هنا، في شلي ـ بو ـ كان تتقدم بسرعة أكبر وشلي ـ بو ـ ني تعتقد بأنها قادرة على تسريع تقدم الفيدرالية، فيما لو أمسكت بزمام السلطة العليا فيها. فمبادراتها ستثمر

أضعافاً مضاعفة فيما لو اجتمعت عليها المدن الخمس والستون. شلي ـ بو ـ ني تفكر منذ الآن في إحكام قبضتها على مجاري المياه وتشكيل فرقة جوية تستخدم الجعل وحيد القرن.

المحاربة رقم 103683 تتردد. كان في نيتها الذهاب إلى بيل ـ او ـ كان لتروي قصة رحلتها، ولكن شلي ـ بو ـ ني طلبت إليها التخلي عن هذا المشروع.

بيل ـ او ـ كان شكلت جيشاً «كي لا تعلم»، لا تجبريها على علم ما لا ترغب في علمه.

رأس السلم الحلزوني ينتهي بدرجات من الألمينيوم. هذه الدرجات لا يعود إنشاؤها إلى عصر النهضة! تفضي إلى باب أبيض عليه عبارة مكتوبة:

ثم وجدت نفسي على مقربة من جدار مبني بأحجار بلورية ومحاط بألسنة من نار. عند ذلك بدأ ينتابني شعور بالخوف.

ثم دخلت في أَلسِنَةِ النار لأجد نفسي على مقربة من بيت كبير مبني بالبلور.

جدران البيت كانت كموجة من بلور مرصوف كمربعات رقعة الضامة، وقواعد البيت كانت من بلور.

سقفه كان كدرب النجوم،
وبين النجوم رموز من نار،
وسماؤها كانت صافية كالماء.

(أنوخ، I)(*).

(*) من شخصيات «الكتاب المقدس» وواضع السفر المعروف باسمه وغير المعترف به كسفر صحيح من قبل الكنائس الرسمية.

يدفعون الباب ويصعدون في ممر يرتفع أمامهم بشكل حاد. فجأة، تنفتح الأرض تحت أقدامهم فيسقطون! ويطول بهم السقوط... لدرجة لا يمتلكون معها الوقت الكافي للشعور بالخوف، لأنهم ينتقلون مباشرة إلى الشعور بأنهم يطيرون. إنهم يطيرون!

تتلقاهم، في سقوطهم، شبكة من النوع الذي يستخدمه لاعبو الجمباز فلا يصابون بأذى. يخْبُون على أيديهم وأرجلهم فوق الشبكة الفخمة ذات العيون الضيقة. يميز جازون براجيل، وسط الظلمة الحالكة، باباً جديداً... باب بلا لوحة أزرار وكلمة سر، بل بقبضة عادية بسيطة. يدعو رفيقيه بصوت خافت ثم يفتح الباب.

عجوز: في أفريقيا يبكون لموت العجوز أكثر مما يبكون لموت الطفل الوليد. فالعجوز يشكل كتلة من التجارب يمكنها أن تكون مفيدة لبقية القبيلة، في حين أن الوليد لا يتوصل حتى إلى وعي موته بحكم افتقاره للتجربة الحياتية.

أما في أوروبا، فيبكون لموت الوليد لأنهم يقولون في أنفسهم بأنه، لو عاش، لكان من شأنه أن يوفق إلى القيام بأعمال عظيمة. وبالمقابل لا يهتمون كثيراً لموت العجوز، لأنهم يقولون في أنفسهم بأنه استفاد من حياته على كل حال.

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

المكان يسبح في الضوء الأزرق.

المكان معبد بلا صور ولا تماثيل.

تعود أوغوستا إلى التفكير في كلام البروفسور لودوك. كان البروتستانت يلتجئون قديماً إلى هذا المكان عندما كان يحمى عليهم وطيس الإضطهاد.

القاعة واسعة، مربعة، شديدة الجمال تحت قناطر عريضة من الحجر المقصب. أرغن صغير، من النوع السائد في تلك الفترة، هو العنصر الوحيد الذي يزين وسط القاعة. أمام الأرغن منضدة وضع فوقها قميص غليظ.

على الجدران كتابات يبدو أكثرها ـ حتى من وجهة نظر غير دينية ـ قريباً من السحر الشيطاني أكثر مما هو قريب من الشعوذة. كان لودوك محقاً، إذ لا شك بأن الفرق الباطنية قد تتالت على العيش في هذا الملجأ الجوفي. وقديماً لم يكن الباب المتحرك موجوداً، ولا السلة الشبيهة بمصائد الصيادين، ولا الفخ المفضي إلى الشبكة.

يسمعون سقسقة. كما ولو أن ماء يجري. لا يرون مصدر السقسقة لحينهم. ولكن الضوء المزرورق يأتي من جهة اليمين. هنالك لجهة اليمين قاعة شبيهة بمختبر مليء بأجهزة الحواسيب وأوعية التجارب والإختبارات. الأجهزة جميعها لا تزال مضاءة. شاشات أجهزة الحواسيب هي التي تضيء المعبد بهذه الهالة الزرقاء.

ـ ذلك يثير فيكم الحيرة، أليس كذلك؟

ينظرون إلى بعضهم البعض. لم يصدر الصوت عن أحد منهم. ينبعث الضوء من مصباح في السقف.

يستديرون. جوناثان ويلز يتجه نحوهم برداء الإستحمام الأبيض. دخل من باب في جانب المعبد، إلى الجهة الأخرى من المختبر.

ـ تحياتي للجدة أوغوستا! تحياتي لجازون براجيل! تحياتي لدانيال روزنفيلد!

فغر الثلاثة أفواههم من الدهشة فلم يتمكنوا من رد التحية. لم يمت إذن! كان يعيش هنا! كيف يمكن العيش هنا؟ لا يعرفون بأي سؤال يبدأون. . .

ـ أهلاً بكم في جماعتنا الصغيرة.

ـ أين نحن؟

ـ أنتم هنا، في معبد بناه جان أندرويه دو سورسو في بداية القرن السابع عشر. وقد اشتهر اندرويه ببنائه فندق سولي في شارع سان ـ انطوان بباريس، ولكنني أجد أن هذا المعبد المبني تحت الأرض هو تحفته الكبرى. كيلومترات من الأنفاق بالحجر المقصب. وكما رأيتم، فالهواء متوفر فيها بشكل كامل. لا بد وأنه جعل لها مداخن غير مرئية، أو أنه استخدم جيوب الهواء الجوفي. إننا عاجزون تماماً عن معرفة كيفية تيسر ذلك له. وذلك ليس كل شيء، فليس الهواء هو وحده المتوفر، فالماء

متوفر أيضاً. لا شك بأنكم لاحظتم الجداول التي تخترق بعض جوانب النفق. انظروا، أحد هذه الجداول يصب هنا بالذات.

يريهم مصدر السقسقة الدائمة: نبع حفر مجراه في الصخر، خلف الأرغن.

ـ أشخاص كثيرون اعتزلوا هنا، على مر الأزمنة، بحثاً عن الأمن والصفاء اللازمين للقيام بأمور تتطلب... الكثير من الإنتباه. وقد علم خالي ادمون بوجود هذا المخبأ من كتاب سري قديم، فاتخذه مكاناً للعمل.

جوناثان يقترب من القادمين؛ عذوبة وانطلاق غير عاديين ينبعثان من شخصيته. أوغوستا لا ينقضي عجبها لذلك.

ـ ولكن، لا بد وأنكم منهكون. اتبعوني.

يدفع الباب الذي خرج منه قبل قليل ويقودهم إلى غرفة فيها أرائك مصفوفة بشكل دائري. ثم ينادي بصوت مرتفع:

ـ يا لوسي، عندنا زائرون!

ـ لوسي؟ أهي معك؟ تساءلت أوغوستا بفرح.

ـ همْمْمْ، كم عددكم هنا؟ قال دانيال.

ـ كنا حتى الآن ثمانية عشر: لوسي ونيكولا ورجال الإطفاء الثمانية والمفتش ورجال الدرك الخمسة والمفوض وأنا. أي جميع الأشخاص الذين تجشموا عناء النزول. سترونهم قريباً. أعذروني، فالساعة الآن هي الرابعة فجراً بتوقيت جماعتنا. إنهم جميعاً نائمون في هذه الساعة. أنا وحدي استيقظت لقدومكم.

ما الذي دهاكم فأحدثتم كل تلك الجلبة في الممرات؟! أخبروني. . .

تظهر لوسي، بثياب الإستحمام أيضاً.

ـ صباح الخير!

تتقدم باسمة وتعانق القادمين الثلاثة. خلفها أشخاص بثياب النوم يدخلون رؤوسهم من شق الباب لرؤية «القادمين الجدد».

جوناثان يملأ دورقاً من ماء النبع ويحضره مع بضعة كؤوس.

ـ سنترككم الآن للحظات. ريثما نرتدي ثيابنا ونهيىء أنفسنا. إننا نستقبل القادمين بإقامة احتفال صغير، لكننا لم نكن نعلم بأنكم ستصلون ليلاً. . . إلى اللقاء، بعد قليل!

أوغوستا ودانيال وجازون لا يحركون ساكناً. القصة التي يعيشون أحداثها في منتهى الضخامة. دانيال يقرص ذراعه مرة بعد مرة. أوغوستا وجازون يجدان الفكرة مناسبة تماماً ويحذوان حذو دانيال. لا، لا، فالحقيقة قد تتجاوز الحلم في بعض الأحيان. يتبادلون النظرات في دهشة لذيذة، ويبتسمون.

بعد دقائق، كانوا كلهم مجتمعين، على الأرائك جالسين. أوغوستا ودانيال وجازون استعادوا ما طاش من سهام بهم وهم الآن متعطشون لطرح الأسئلة.

ـ تحدثت، قبل قليل، عن المداخن. هل نحن بعيدون عن سطح الأرض؟

ـ لا، ثلاثة أو أربعة أمتار، على الأكثر.

ـ يمكننا إذن أن نخرج إلى الهواء الطلق؟

ـ لا، لا. جان اندرويه دو سيرسو اختار موقع معبده وبناه تحت صخرة مسطحة واسعة لا يزعزعها شيء. غرانيت!

ـ غير أن في الصخرة ثقباً باتساع ذراع كان يقوم مقام مدخنة التهوئة. قالت لوسي مكملة حديث جوناثان.

ـ كان يقوم...؟

ـ أجل. هذا الثقب يستخدم الآن لغرض آخر. لكن ذلك لا يطرح أية مشكلة. عندنا مداخن جانبية للتهوئة وها أنتم تلاحظون بأننا لا نختنق...

ـ أولاً نستطيع الخروج؟

ـ لا، أو، لا من جهة السقف، على كل حال.

تظهر على جازون علائم القلق.

ـ ولكن يا جوناثان، لماذا بنيت الجدار المتحرك والمصيدة المشابهة لمصائد الصيادين، ولماذا تلك الأرضية التي تنفتح عند المرور عليها. وتلك الشبكة؟... لقد أصبحنا سجناء تماماً في هذا المكان.

ـ أجل، هذا ما أردته بالضبط، تطلّب ذلك مني الكثير من الوسائل والجهود. كان ذلك ضرورياً. عندما وصلت للمرة الأولى إلى هذا المعبد، وقعت أول ما وقعت على المنضدة. وجدت فوقها موسوعة العلم النسبي والمطلق ورسالة من خالي،

كانت موجهة إلي شخصياً. ها هي ذي.

يقرأونها.

«عزيزي جوناثان

«لقد عزمتَ على النزول رغم تحذيري. إنك إذن أكثر شجاعة مما كنت أظن. حسناً. كنت أعتقد أن حظك بالنجاح لا يزيد عن واحدة من خمسة. أمك كانت قد حدثتني عن خوفك المرضي من الظلمة. أما وقد جئت إلى هنا، فإن ذلك يعني، بين أشياء أخرى، أنك تجاوزت إعاقتك وشحذت إرادتك، سنكون بحاجة إلى ذلك.

«ستجد في هذا المغلف موسوعة العلم النسبي والمطلق. وهي تضم، في اليوم الذي أقوم فيه بكتابة هذه الكلمات، 288 فصلاً تتحدث عن أبحاثي. أرجو أن تواصل هذه الأبحاث من بعدي، فهي تستحق العناء فعلاً.

«معظم هذه الأبحاث يدور حول حضارة النمل. ستقرأ وستفهم. ولكنني أود، بادىء ذي بدء، أن أطلب منك أمراً هو غاية في الأهمية: عندما تصل إلى هذا المكان ستلاحظ أنني لم أجد الوقت الكافي لإقامة الحمايات الضرورية لعدم افتضاح سري (إذ لو توفر لي ذلك الوقت لما كنت وجدت هذه الرسالة).

«إني أطلب إليك إقامة تلك الحمايات. وقد كنت بدأت برسم صور بعض التصاميم وأظن بأنك قادر على تطوير تلك الأفكار الأولية بفضل معلوماتك الخاصة. هدف هذه الأواليات بسيط جداً ومفاده أن الناس لا يجب أن يدخلوا بسهولة إلى المقر

الجوفي هذا، وألا يستطيع أولئك الذين يتمكنون من الدخول أن يرجعوا ليخبروا الناس بما شاهدوه.

«آمل أن يحالفك النجاح وأن يقدم إليك هذا المكان مثلما قدم إلي من ثروات».

«ادمون»

قالت لوسي مفسرة:

ـ انخرط جوناثان في اللعبة ووضع جميع الأفخاخ اللازمة، وقد لاحظتم أنها تعمل بشكل جيد.

ـ والجثث؟ أهي لأشخاص افترستهم الجرذان؟

ـ (جوناثان مبتسماً) لا. أؤكد لكم بأنه لم يمت أحد في هذا المكان الجوفي منذ مجيء ادمون وإقامته فيه. أما الجثث التي وجدتموها فهي تعود إلى خمسين عاماً على الأقل. لا نعرف ما هي المأساة التي جرت فصولها في هذا المكان. إحدى الجماعات السرية...

ـ ولكن ألا يمكننا الصعود مطلقاً؟، قال جازون بقلق.

ـ مطلقاً.

ـ يجب الوصول إلى الثقب القائم فوق الشبكة (على ارتفاع ثمانية أمتار!)، ثم يجب اجتياز المصيدة في الإتجاه المعاكس، وذلك مستحيل تماماً، ثم إننا لا نملك أية معدات يمكن تقويضها بواسطتها. وهنالك الباب الذي لم يجهزه جوناثان بجهاز لفتحه من الداخل.

ـ وكل هذا دون الحديث عن الجرذان. . .

ـ كيف تمكنت من إحضار الجرذان إلى هذا المكان؟ سأل دانيال.

ـ إنها فكرة ادمون. كان قد وضع زوجين من فصيلة «**راتوس نورفيجيكوس**» المعروفة بشراستها، في تجويف إحدى الصخور، ووضع معهما كمية كبيرة من الأغذية، كان يعرف أن ذلك يشكل قنبلة موقوتة. فالفئران التي تتغذى جيداً تتناسل بسرعة متصاعدة. ستة ولادات في الشهر والصغار تصبح جاهزة للتناسل بعد أسبوعين من ولادتها. . . ولكي يحمي نفسه منها كان يستخدم مرشة تطلق فيرومونات عدوانية لا تتحملها تلك القوارض.

ـ ولكن الجرذان هي التي قتلت اورزازات؟، تساءلت أوغوستا.

ـ أجل، للأسف الشديد. جوناثان لم ينتبه إلى أن الجرذان التي ستتمكن من العبور إلى الجهة الأخرى من «جدار الهرم» ستزداد شراسة.

ـ أحد رفاقنا كان يعاني من خوف مرضي من الجرذان. إنهار تماما عندما وثب أحد هذه الحيوانات إلى وجهه وأكل قطعة من أنفه. لقد رجع لتوه قبل انغلاق جدار الهرم. هل علمتم بذلك، هناك، فوق سطح الأرض.

ـ سمعت بأنه أصيب بالجنون وحُجِر عليه في أحد

المصحات العقلية. قالت أوغوستا، قبل أن تضيف: ولكن ذلك مجرد «أقاويل».

تتوجه أوغوستا نحو الطاولة لتتناول كأس الماء فتلاحظ عليها كثيراً من النمال. تصرخ وتكنسها عن الطاولة بحركة غريزية من ظاهر يدها. يهب جوناثان من مقعده ويمسك يدها. نظرته القاسية في حالة تضاد كامل مع جو الصفاء الذي كان يسود بين أفراد الجماعة حتى هذه اللحظة. والإلتواء القديم عاد إلى فمه بعد شياع الإنطباع بزواله.

ـ لا تفعلي ذلك... أبداً، بعد اليوم!

بيلو ـ كيو ـ كيوني وحيدة في جناحها الملكي. تلتهم دون انتباه آخر دفعة من البيوض التي وضعتها. إنها، في نهاية المطاف، غذاءها المفضل.

إنها تعرف أن هذه المستكشفة المزعومة رقم 801 ليست مجرد سفيرة أوفدتها المدينة الجديدة. فالأنثى رقم 56 أو، على الأصح، الملكة شلي ـ بو ـ ني، لأنها تريد أن تتسمى بهذا الإسم، هي التي أرسلتها لكي تواصل التحقيق.

لا داعي لأن تستسلم للمخاوف. فمحارباتها اللواتي تفوح منهن روائح الصخور لا بد وأن يتخلصن منها بسهولة. والعرجاء، بوجه خاص، عالية الكعب في فن انتزاع جذوة الحياة. فنانة حقيقية!

ولكنها المرة الرابعة التي تعمد فيها شلي ـ بو ـ ني إلى إرسال سفيرات من ذوات الفضول الواضح. عناصر الوفد الأول قتلن قبل الوصول إلى غرفة اللمقز. عناصر الوفدين الثاني والثالث قضت عليهن المواد المهلوسة التي يفرزها الجعُل المسموم.

أما الرقم 801، فيبدو أنها قتلت فور انتهاء المقابلة مع الملكة ـ الأم.

من الأكيد أنهن يتحرقن شوقاً إلى الموت! ولكنهن يبلغن، في كل مرة، أمكنة من المدينة أكثر عمقاً من السابق. وإذا ما حصل وتوصلت إحداهن، رغم كل شيء، إلى العثور على الممر؟ وإلى اكتشاف السر؟ وإذاعة الخبر؟ . . .

لن تكون الجماعة قادرة على الفهم. لن تكون المحاربات المولجات أمر مكافحة الإعياء قادرات على خنق المعلومة قبل انتشارها. كيف ستكون، إذن، ردة فعل الجماعة؟

محاربة تفوح منها رائحة الصخور تدخل على عجل:

الجاسوسة تمكنت من قهر اللمقز! لقد نزلت!

وها إن المحذور قد وقع. . .

666 هو اسم الدابة (سفر الرؤيا، بحسب القديس يوحنا).
ولكن من يكون الدابة بالنسبة لمن؟

ادمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

جوناثان يترك يد جدته. دانيال يحاول تغيير الموضوع قبل أن يلقي الضيق بكلاكله على المكان:

ـ وهذا المختبر، عند المدخل، ما هو وجه استخدامه؟

ـ إنه حَجَرُ «رشيد»(*)! كل جهودنا لا تخدم غير طموح

(*) رشيد (Rosette): مدينة مصرية تقع شرقي الاسكندرية. وحجر «رشيد» هو قطعة من مسلة يعود بناؤها إلى العام 196 ق.م تمّ اكتشافها في المدينة عام 1799، وعليها كتابات بالهيلوغريفية واليونانية. ومقارنة هذه الكتابات هي التي مكنت من فك رموز الهيلوغريفية. بهذا المعنى يكون المختبر حجر «رشيد» الخاص بفك رموز الاتصال بالنمال.

واحد هو الإتصال بهن!

ـ بهن. . . ومن هن؟

ـ النمال. اتبعوني.

يغادرون قاعة الإستقبال ويدخلون إلى المختبر. الإرتياح ظاهر على جوناثان وهو يقوم بدور المتابع لأعمال إدمون. يأخذ صحفة مليئة بالنمل ويقدمها من عيونهم وهو يقول:

ـ انظروا، هي كائنات. كائنات كاملة. ليست بكائنات لا قيمة لها، وهذا الأمر كان خالي قد فهمه منذ البداية. . . فالنمال تشكل ثانية الحضارات الكبرى على الأرض. أما إدمون فهو شبيه بكريستوف كولومبوس اكتشف قارة جديدة بين أصابع أرجلنا. هو أول من فهم بأن من الأمثل إقامة الإرتباط مع سكان داخل الأرض قبل السعي لإكتشاف سكان الكواكب في مجاهل الفضاء البعيد.

لم ينبس أحد بكلمة. أوغوستا تتذكر كيف أنها كانت تتنزه، قبل أيام، في غابة فونتينبلو عندما شعرت فجأة بأن أجساماً صغيرة جداً قد انفقأت تحت نعلها. كانت تلك الأجسام مجموعة من النمال. انحنت فوقها فوجدت أنها قد ماتت بكاملها. ولكنها رأت أمراً محيراً: كانت النمال متراصفة على شكل سهم مقلوب الرأس. . .

أعاد جوناثان الصحفة إلى مكانها وتابع حديثه:

عندما عاد أدمون من أفريقيا، وجد هذه البناية وقبوها والمعبد. كان المعبد مكاناً مثالياً لإقامة المختبر. . . المرحلة

الأولى من أبحاثه كانت عبارة عن فك رموز فيرومونات التخاطب عند النمال. انظروا إلى هذه الآلة إنها منظار لتحليل أشباح الأجسام يفكك المادة ويعرفنا بما فيها من ذرّات... لقد قرأت ما كتبه خالي. في البداية، كان يضع نمال تجاربه تحت جرس زجاجي متصل بمنظار التحليل بواسطة أنبوب يجذب الفيرومونات. كان يضع أمام النملة قطعة صغيرة من التفاح. وفي كل مرة كانت هذه النملة تلتقي بنملة أخرى وتقول لها: «يوجد تفاح هناك». ذلك بالطبع ما كان يفترضه في البداية. كان يجذب الفيرومونات المبثوثة ويقوم بتعليلها وتحويلها إلى معادلة كيميائية... فعبارة «يوجد تفاح لجهة الشمال»، على سبيل المثال، تصبح «ميتيل ـ 4 ميتيلبيرول ـ 2 كاربوغزيلات». كميات الفيرومون كانت ضئيلة جداً بالطبع، بين 2 و3 بيكوغرام (10 ـ 12 غرام) للعبارة الواحدة... ولكنها كانت كافية تماماً. وبذلك عرف أن النمال تعرف كيف تقول «تفاح» و«إلى الشمال». ثم تابع تجاربه مستخدماً جملة من الأشياء والأغذية والمواقف وحصل بذلك على قاموس فرنسي ـ نملاوي حقيقي. وقد اكتفى بمعرفة أسماء حوالي مئة من أصناف الفاكهة وثلاثين من أصناف الزهور وعشرة اتجاهات، ثم انتقل ليتعرّف على فيرومونات الإنذار واللذة والإيحاء والوصف. وصل إلى حد التعرف إلى نمال من ذوات الجنس علمنه كيفية التعبير عن «الإنفعالات المجردة» بواسطة المنطقة القرنية السابعة... ولكن معرفة كيفية «الإستماع» إلى النمال لم تكن كل ما يود معرفته. كان يريد أن يتكلم معها. أن يجري معها حواراً حقيقياً.

ـ شيء عظيم! لم يستطع البروفسور دانيال روزنفيلد حبس نفسه عن التلفظ بهذه العبارة.

ـ بدأ بعد ذلك بوضع مقابل صوتي، من نوع المقطع، لكل معادلة كيميائية. ميتيل ـ 4 ميتيلبيرول ـ 2 كاربوغزيلات تتحول، بذلك، إلى م ت 4 م ت ب 2 ك غ ثم إلى ميتيكاميتيبيديكيكسو. وأخيراً، ادخل إلى ذاكرة الحاسوب لفظة ميتيكاميتيبي = تفاح؛ ولفظة ديكيكسو = لجهة الشمال. أما الحاسوب، فكان يترجم من وإلى كلتي اللغتين. فإذا ما لُقم بكلمة «ديكيكسو»، فإنه يترجمها كتابة بعبارة «لجهة الشمال». وإذا ما ضُربت حروف هذه العبارة على لوحة المفاتيح»، فإنه يحولها إلى كلمة «ديكيكسو» مما يؤدي إلى تصاعد فيرومون الكاربوغزيلات من جهاز البث. . .

ـ جهاز بث؟

ـ أجل، إنه تلك الآلة.

يشير إلى شيء شبيه بمكتبة تضم آلاف القوارير الصغيرة التي ينتهي كل منها بأنبوب متصل بمضحة كهربائية.

ـ هذه المضخة تجذب الذرات الموجودة داخل كل قارورة ثم تضخها نحو هذا الجهاز الذي يقوم بفرزها ويعطيها عياراتها المحددة وفقاً للقاموس الموجود في ذاكرة الحاسوب.

ـ رائع. شيء رائع، بكل بساطة. هل توصل حقاً إلى التخاطب معها؟ قال دانيال روزنفيلد.

ـ همْمْمْ. . . الأفضل الآن هو أن أقرأ لكم ما كتبه في **الموسوعة**:

مختارات من الأحاديث المتبادلة مع النمال: جزء من المحادثة الأولى مع نملة محاربة من فصيلة فورميكاروفا.

إنسان: **هل تلتقطين ما أقوله لك؟**

نملة: **كررررررر.**

إنسان: **إنني أبث. هل تلتقطين ما أقول؟**

نملة: **كرررررررررررررر. النجدة.**

ملاحظة: تم إدخال تغييرات على العدد من أجهزة ضبط البث. فالفيرومونات المبثوثة كانت من القوة بحيث أوشك موضوع التجربة على الإختناق. كان لا بد من وضع مؤشر ضبط البث على الرقم 1 ورفع مؤشر ضبط الإلتقاط إلى الرقم 10، وذلك لعدم التفريط بأية جزئية).

إنسان: **هل تلتقطين ما أقوله لك؟**

نملة: **بوغي.**

إنسان: **إنني أبث، هل تسمعينني؟**

نملة: **زغنيني. النجدة! إنني سجينة.**

جزء من المحادثة الثالثة

(ملاحظة: المفردات التي استخدمت هذه المرة اتسعت لتشمل ثمانين مفردة. ولكن قوة البث كانت لا تزال شديدة جداً. إعادة ضبط البث بحيث يكون المؤشر قريباً من صفر).

نملة: **ماذا؟**

إنسان: **ماذا تقولين؟**

نملة: **لا أفهم شيئاً. النجدة!**

إنسان: **لنتكلم بمزيد من البطء!**

نملة: **إنك تبث بقوة شديدة! قرناي مشبعان تماماً. النجدة! أنا سجينة!**

إنسان: **هل الأمر أفضل، هكذا؟**

نملة: **لا، ألا تعرف كيف تحاور؟**

إنسان: **الحقيقة...**

نملة: **من أنت؟**

إنسان: **أنا حيوان كبير. اسمي** اد ـ مون. **أنا من** الـ ـ بشر.

نملة: **ماذا تقول؟ لا أفهم شيئاً. النجدة! ساعدوني! أنا سجينة!...**

(ملاحظة: ماتت النملة موضوع التجربة بعد خمس ثوان من انتهاء هذا الحوار هل ماتت لأن البث كان لا يزال سامًا جداً. هل ماتت بسبب الخوف؟).

جوناثان يتوقف عن القراءة.

ـ ليس الأمر بسيطاً كما تلاحظون! مراكمة المفردات لا تكفي للتحاور معهن. ثم إن لغة النمل ليست كلغتنا من ناحية النشاط العملي. فما يُدرك منها ليس مجرد الحوار المبثوث بمعناه الضيق، إذ أن هنالك مبثوثات أخرى تصدر عن المناطق القرنية الإحدى عشرة الأخرى. هذه المبثوثات تحدد هوية النملة ومشاغلها وشخصيتها. . . وتعبر عن حالة ذهنية كلية هي ضرورية جداً من أجل التفاهم بين الأفراد. لذا، فقد اضطر ادمون إلى

إيقاف تجاربه المتعلقة بهذا الموضوع. أقرأ لكم ملاحظاته حول ذلك.

كم أنا غبي: كم أنا غبي!

حتى ولو كانت هنالك كائنات في الفضاء الخارجي، فإنه لا يمكننا أن نتفاهم معها. فالأكيد أن مرجعيات التفاهم بيننا وبينها ليست متماثلة. قد يمكننا مثلاً أن نمدّ يدنا نحو تلك الكائنات، ولكن ذلك قد يعني، بالنسبة لها، حركة عدائية.

إننا لا نستطيع حتى التوصل إلى فهم اليابانيين عندما يمارسون الإنتحار الطقسي، ولا الهنود وتوزعهم إلى فئات متباعدة. نحن البشر، لا نستطيع التفاهم فيما بيننا، فكيف أدعي القدرة على فهم النمال؟!

لم يبق للرقم 801 غير قسم ضئيل من جذعها. صحيح أنها تمكنت من قتل اللمقز، ولكن المعركة التي خاضتها في مزارع الفطر ضد المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور قد أفقدتها جزءً لا يستهان به من جسمها. لحسن حظها أم لسوء حظها؟ إنها الآن بلا بطن ولكنها أكثر خفة من السابق بكثير.

تلج في الممر العريض المحفور في الغرانيت. كيف أمكن لملاقط النمال أن تحفر هذا النفق؟

في أسفل الممر، تكتشف ما سبق لشلي ـ بو ـ ني أن أخبرتها به: قاعة مليئة بكميات كبيرة من الأطعمة. لم تكد تسير بضع خطوات في تلك القاعة حتى وجدت ممراً آخر. تدخل الممر لتجد نفسها في مدينة، مدينة كاملة تفوح منها روائح الصخور! مدينة تحت المدينة.

ـ لقد فشل إذن؟

ـ قضى، في الحقيقة، فترة طويلة وهو يتجرع فشله هذا. ظن أن الوسائل قد انعدمت وأن انطواءه على انتمائه لجنسه البشري قد أعماه تماماً. ولكن المتاعب هي التي نبهته فيما بعد. مقته للبشر كان العامل الذي شكل نقطة الإنطلاق.

ـ فما الذي حدث؟

ـ تتذكر، أيها البروفسور، بأنك حدثتني عن عمله في شركة تدعى باسم «سويتميلك كوربورايشن» وعن نزاعه مع زملائه.

ـ صحيح.

ـ أحد رؤسائه كان عبث بمحتويات مكتبه. وذلك الشخص لم يكن غير مارك لودوك، شقيق البروفسور لوران لودوك!

ـ الإختصاصي في دراسة الحشرات؟

ـ بشخصه.

ـ شيء لا يُصَدَّق... لقد جاء لزيارتي زاعماً بأنه صديق لإدمون، ثم نزل...

ـ أنزل إلى القبور؟!

ـ أوه! لا تقلق هكذا، فهو لم يمعن في النزول،. عجز عن اجتياز جدار الهرم فرجع.

همْمْمْ، كان جاء أيضاً وتكلم مع نيكولا في محاولة للاستيلاء على الموسوعة. حسناً... المهم أن مارك لودوك كان قد لاحظ بأن أدمون يعمل بشغف على تصاميم آلات (كان

يعمل، في الحقيقة، على التصاميم الأولى لحجر رشيد). وقد تمكن لودوك من فتح خزانة مكتب إدمون ووقع فيها على مغلف لم يكن غير **موسوعة العلم النسبي والمطلق**. وعثر أيضاً على تصاميم أول جهاز للتخاطب مع النمل. وعندما فهم الغرض من هذا الجهاز (وكان هنالك الكثير من الملاحظات والحواشي التي أعانته على الفهم) لم يلبث أن نقل خبر ذلك إلى أخيه. وقد أبدى أخوه اهتماماً كبيراً بالموضوع وطلب إليه سرقة الوثائق... ولكن إدمون كان قد لاحظ بأن أحداً قد عبث بأوارقه فقرر حمايتها بأن وضع في الجارور أربعة دبابير من فصيلة النمسية. وعندما عاد مارك لودوك لتنفيذ مسعاه لدغته تلك الحشرات المعتادة على زرع يرقاتها الشرهة في الأجسام التي تغرز إبرها فيها. وفي اليوم التالي، لاحظ إدمون آثار اللدغات على جسم مارك، فسعى إلى فضحه أمام الملأ. وهنا تعرفون بقية القصة التي انتهت بطرد إدمون من العمل.

- وما كان أمر الأخوين لودوك؟

- مارك نال جزاءه. بدأت يرقات النمسية تلتهمه من الداخل. وقد استمر ذلك لفترة طويلة. عدة سنوات، على ما يبدو. فاليرقات تسعى إلى الخروج من ذلك الجسم الهائل لكي تتحول إلى دبابير فتحفر في جميع الإتجاهات بحثاً عن مكان تخرج منه. وأخيراً، بلغ به الوجع حداً جعله يقذف بنفسه تحت عجلات إحدى عربات القطار (المترو). لقد قرأت عن ذلك، صدفة، في الصحف.

- ولوران لودوك؟

- لم يكفَّ عن البحث عن الجهاز، بكل الوسائل. . .

- لقد قلت بأن تلك الأحداث هي التي حفزت إدمون على العودة إلى مواصلة أبحاثه. ما هي العلاقة بين هذه الأحداث القديمة وبين أبحاثه؟

- بعد ذلك، اتصل لوران لودوك مباشرة بإدمون. اعترف له بأنه على علم بجهاز «التحدث مع النمال». وزعم بأن الموضوع يهمه وبأنه يرغب في التعاون معه. ولم يكن إدمون معادياً، بالضرورة، لفكرة التعاون، فأبحاثه كانت تراوح في مكانها، على كل حال، وكان يتساءل فعلاً عما إذا لم يكن بحاجة إلى مساعدة خارجية. «هنالك دائماً لحظة ما نحتاج فيها إلى الآخرين»، كما يقول الكتاب المقدس. لذا، أبدى إدمون استعداده لاصطحاب لوران إلى مخبئه، ولكنه كان يريد أن يزداد معرفة به، قبل ذلك. تناقش طويلاً؛ وعندما بدأ لوران بامتداح النظام والإنضباط عند النمال وبالتركيز على أن التكلم معها سيمكن الإنسان من تقليدها، جُنَّ جنون إدمون فاستشاط غضباً وطلب إليه ألا يريه وجهه بعد اليوم.

- بفففف. . . ذلك لا يدهشني أبداً. قالها دانيال متنهداً. فلودوك عضو في زمرة من الإخصائيين بدراسة العادات هم أسوأ ما تحتضنه المدرسة الألمانية. يريدون تغيير البشرية عن طريق تقليد عادات الحيوانات من زاوية معينة. والحقيقة أن التمسك بالأرض والإنضباط في معسكرات النمل هي من الأمور التي

تسمح بالاسترسال في الأحلام.

ـ وللحال، وجد إدمون سبباً يدعوه إلى الشروع في العمل. فقد عزم على التحاور مع النمال ضمن أفق... سياسي؛ كان يظن بأنها تعيش في نظام فوضوي فأراد أن يطلب إليها تصديق ظنه.

ـ بالطبع! قال بيلشايم مغمغماً.

ـ صار الأمر تحدياً بالنسبة إليه. فكر خالي بعد ذلك طويلاً ثم قال في نفسه بأن أفضل وسيلة للتخاطب معها هي في صنع «نملة إلكترونية».

وأخرج جوناثان أوراقاً مليئة بالرسوم.

ـ ها هي تصاميم تلك النملة. أطلق عليها إدمون إسم «الدكتور ليفينغستون». إنها نملة من البلاستيك. يمكنكم أن تتصوروا العمل الدقيق، كعمل الساعاتي، والذي تطلبه صنع هذه التحفة الصغيرة! لم يقم فقط بتركيب جميع المفاصل وتشغيلها بواسطة محركات كهربائية لا ترى بالعين المجردة ومتصلة ببطاريات مركزها معدة الحشرات، بل إنه جعل لها قروناً مكونة من إحدى عشرة منطقة قادرة على أن تبث، في وقت واحد، أحد عشر فيرموناً مختلفاً!... الفرق الوحيد بين الدكتور ليفينغستون والنملة الحقيقية هو أن الدكتور متصل بأحد عشر أنبوباً كل منها رفيع كالشعرة وكلها مجتمعة في ما يشبه حبلاً سرياً لا يزيد قطره عن قطر خيط رفيع.

ـ هائل، هائل بكل بساطة. قال جازون متحمساً.

ـ ولكن، أين هو الدكتور ليفينغستون. سألت أوغوستا.

محاربات تفوح منهن رائحة الصخور يتعقبنها. المحاربة رقمن 801 تمعن أمامهن هرباً فتجد نفسها، فجأة، أمام مدخل نفق عريض فتدخل النفق دونما إبطاء. يقودها النفق إلى قاعة كبيرة الأبعاد تقف في وسطها نملة عجيبة يزيد حجمها بشكل واضح عن متوسط أحجام النمال.

تقترب منها على حذر. روائح النملة الغريبة المنعزلة نصف حقيقية. عيناها لا تلمعان وجلدها يبدو مصبوغاً بصباغ أسود... الشليبوكائية الشابة تود لو تفهم. كيف يمكن لنملة ألا تكون نملة إلى هذا الحد؟

ولكن المحاربات لم يلبثن أو وصلن. العرجاء تتقدم أمامهن للدخول مع الرقم 801 في مبارزة فردية. تثب على قرنيها وتبدأ بعضّهما. تسقط النملتان أرضاً وتعتركان.

المحاربة رقم 801 تتذكر بعض نصائح الملكة ـ الأم:

انظري إلى المكان الذي يتعمد الخصم تصويب ضرباته إليه، فهذا المكان غالباً ما يكون نقطة الضعف عند الخصم نفسه...

وهكذا كان. إذا ما إن أمسكت بقرني العرجاء حتى تلوت من شدة الألم. لا بد وأن قرني المسكينة شديدا الحساسية. المحاربة 801 تقطع القرنين وتهرب. ولكن قطيعاً من خمسين قاتلة يندفع في إثرها.

تريدون أن تعرفوا أين هو الدكتور ليفينغستون؟ اتبعوا الخيوط التي تخرج من منظار تحليل الأشباح...

ينظرون فيرون ما يشبه أنبوباً شفافاً يمتد بمحاذاة الحصير ثم ينفصل عنه وصولاً إلى الحائط قبل أن يرتفع حتى السقف،

ليدخل أخيراً في صندوق خشبي كبير معلّق في وسط المعبد، فوق الأرغن. الصندوق مليء بالتراب، على ما يبدو. يمد القادمون الجدد أعناقهم ليتمكنوا من تفحص ما في الصندوق.

ـ ولكنك قلت بأن صخرة لا يمكن تحطيمها تغطي المكان فوق رؤوسنا. قالات أوغوستا مستوضحة.

ـ أجل، ولكنني أعلمتكم أيضاً بأن هنالك مدخنة للتهوئة لم نعد نستعملها الآن. . .

ـ وإذا كنا لا نستعملها الآن، تابع المفتش غالين، فليس ذلك لأننا قمنا بإغلاقها!

ـ إذا كنتم لا تستعملونها أنتم. . .

ـ فلأنها تستعملها هي!

ـ النمال؟

ـ تماماً! مدينة ضخمة تسكنها نمال صهباء تقوم فوق البلاطة الصخرية. تعرفون النمال الصهباء. إنها تلك الحشرات التي تبني قباباً كبيرة من فروع الشجر الصغيرة داخل الغابات. . .

ـ عشرة ملايين نملة تعيش في تلك المدينة، حسب تقديرات إدمون!

ـ عشرة ملايين؟ بإمكانهن أن يقتلننا جميعاً.

ـ لا، لا تخافو. لا داعي للقلق. أولاً لأنهن يخاطبننا ويعرفننا و، ثانياً، لأن نمال المدينة لا يعلمن كلهن بوجودنا.

وبينما كان جوناثان يتكلم، سقطت نملة من الصندوق المعلّق بالسقف فوقعت على جبين لوسي. تحاول لوسي أن تمسكها برفق ولكن الجزَع يستولي على النملة فتتوغل بين ثنايا شعرها الأشقر ثم تنزلق على شحمة أذنها ثم على رقبتها لتغوص، بعد ذلك، تحت قميصها فتدور حول نهديها وسرتها، فتعدو على الجلد الناعم فوق فخذيها، فتهبط حتى قدمها ثم تنحدر إلى الأرض وتبحث، لحظة، عن جهة تتوجه إليها قبل أن تنطلق مسرعة نحو إحدى فتحات التهوئة الجانبية.

ـ ماذا دهاها؟

ـ اسأليها، إن استطعت. على كل حال، اجتذبها تيار الهواء البارد. لن تجد صعوبة في الخروج.

ـ ولكنها لن تستطيع الإهتداء إلى مدينتها من هذا المكان. سينتهي بها المسير إلى الناحية الشرقية من الفيدرالية، أليس كذلك؟

تمكنت الجاسوسة من الهرب! إذا استمرت الأمور على هذه الحال، سيكون علينا أن نهاجم المدينة الخامسة والستين المزعومة...

محاربات تفوح منهن رائحة الصخور قدمن تقريرهن منكسات القرون. بعد خروجهن، تجترّ بيلو ـ كيو ـ كيوني للحظات هذا الفشل الخطير الذي منيت به سياستها السرية. ثم تستعيد، بإعياء، شريط ذكرياتها منذ البداية.

عندما كانت صغيرة، حدث لها، هي الأخرى، أن واجهت واحدة من هذه الظواهر المرعبة التي يستشف منها وجود كائنات عملاقة. كان ذلك مباشرة بعد تلقيحها في عرس الطيران. فقد رأت كتلاً سوداء وهي تسحق

عدة ملكات ملقحات دون أن تأكلها. وبعد أن أقامت مدينتها، تمكنت من عقد لقاء حول هذا الموضوع حضرته معظم الملكات من الأمهات والبنات.

إنها تتذكر ذلك جيداً. كانت زوبي - زوبي - ني هي أولى المتكلمات. فقد روت أن العديد من رحلات الاستكشاف قد تعرضت لأمطار من الكرات الوردية أوقعت أكثر من مئة إصابة قاتلة.

الأخوات الأخريات زايدن وعرضن لوائهن بأعداد القتيلات والمقعدات من ضحايا الكرات الوردية والصفائح السوداء.

شولب - غاهي - ني، ملكة عجوز، لفتت، اعتماداً على الشهادات، إلى أن الكرات الوردية لا تتنقل، في الظاهر، إلاّ على شكل مجموعات تضم كل منها خمس كرات.

إحدى الأخوات الأخريات، روبغ - فايلي - ني، عثرت على كرة وردية غير متحركة كانت مطمورة على عمق حوالي ثلاثمئة رأس تحت الأرض. كانت الكرة الوردية متصلة بمادة طرية تفوح منها رائحة قوية. وأضافت أن نمالاً حفرت تلك المادة بملاقطها فأفضى بها الحفر إلى جذوع صلبة بيضاء... كما لو أن لتلك الحيوانات هياكل صلبة داخل أجسامها بدلاً من أن تكون خارجها.

وفي نهاية الاجتماع، وافقت جميع الملكات على أن مثل هذه الظواهر تتجاوز القدرة على الفهم وقررن الإلتزام بالتكتم المطلق بغية تجنب إثارة الهلع في مدن النمل.

أما بيلو - كيو - كيوني فقد خطر لها أن تسارع إلى إنشاء «شرطتها السريّة» الخاصة بها فشكلت، لهذه الغاية، فريق عمل مكون من خمسين محاربة. وكانت مهمة الفريق تصفية كل من يدلي بشهادات حول ظواهر الكرات الوردية والكتل السوداء لتجنب أية أزمة جنون - هلعي في المدينة.

ولكن أمراً غير معقول حدث ذات يوم.

عاملة من مدينة مجهولة وقعت أسيرة، ذات يوم، في ملاقط

المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور. ولكن الملكة ـ الأم لم تقتلها لأن ما روته كان أكثر غرابة من كل ما سُمع من قبل.

فقد ادعت العاملة أنها خطفت من قبل الكرات الوردية! وأن الكرات الوردية ألقتها في سجن شفاف مع عدة مئات أخرى من النمال.

وأن النمال أُخضعت لصنوف من التجارب. وأنها كانت توضع تحت جرس تهب بداخله روائح مركزة. وأن ذلك كان مؤلماً للغاية في البداية، قبل أن يخف تركيز الروائح بالتدريج، وقبل أن تتحول الروائح إلى... كلمات!

وفي نهاية المطاف، أخذت الكرات الوردية بالتحدث إليهن عن طريق الروائح والأجراس، وقدمت أنفسها على أنها حيوانات عملاقة تعرف باسم «البشر». ثم قالوا (أو قلن؟) بأنهم (أو بأنهن؟) يريدون (أو يردن) التحدث إلى الملكة، وبأن هنالك نفق محفور في الغرانيت تحت المدينة، وبأن الملكة يمكنها أن تثق تماماً بأنها لن تتعرض لسوء.

ثم جرى كل شيء بسرعة مذهلة. والتقت بيلو ـ كيو ـ تكيوني بنملتهم «السفيرة» المدعوة دوك ـ تور ليفينغ ـ ستون. كانت تلك النملة نملة عجيبة يخرج منها مَعِيٌّ شفاف. ولكن الحوار معها كان ممكناً.

وتحاورتا طويلاً. في البداية، لم يكن بإمكانهما التفاهم مطلقاً. ولكن النملتين كانتا في منتهى الحماس وكان من الواضح أن كلاً منهما عندها الكثير مما تود قوله الأخرى...

بعد ذلك، وضع البشر الصندوق المليء بالتراب عند مدخل المدخنة. وبذرت الملكة ـ الأم ذلك التراب بالبيوض فكانت بذلك مدينة جديدة. وكان ذلك خِفْيَةً عن جميع بناتها.

ولكن بيل ـ أو ـ كان 2 لم تكن مدينة المحاربات اللواتي تفوح منهن رائحة الصخور وحسب. فقد أصبحت مدينة الإرتباط بين عالم النمل وعالم البشر. وكانت تلك المدينة هي المقر الدائم للدوك ـ تور ليفينغ ـ ستون (إسم مضحك بما فيه الكفاية، على كل حال).

مقتطفات من المحادثات: مقتطف من المحاورة الثامنة عشرة مع الملكة بيلو ـ كيو ـ كيوني:

نملة: **الدولاب؟ من غير المعقول أن استخدام الدولاب لم يخطر ببالنا. كيف رأينا جميعاً هذه الجلالات (Bousiers)(*) وهي تدفع كراتها أمامها دون أن تتوصل إحدانا إلى استخلاص فكرة الدولاب من ذلك؟**

إنسان: **كيف تعتزمين استخدام هذه المعلومة؟**

نملة: **لا أدري، حتى الآن.**

مقتطف من المحاورة السادسة والخمسين مع الملكة بيلو ـ كيو ـ كيوني:

نملة: **لهجتك حزينة.**

إنسان: **قد يكون ذلك بسبب سوء ضبط أرغن الروائح. يبدو أن هذه الآلة قد اضطربت بعض الشيء منذ أدخلت إليها لغة الإنفعالات.**

نملة: **لهجتك حزينة.**

إنسان:...

نملة: **ألا تبث شيئاً؟**

إنسان: **أظن أن ذلك محض مصادفة. ولكنني حزين حقاً.**

نملة: **ماذا هنالك؟**

إنسان: **كانت لي أنثى. الذكور عندنا يعيشون طويلاً. لذلك**

(*) الجلالة جُعل يعيش على روث الحيوانات، يكوره ويدفعه أمامه إلى مخبئه، أو يضع بيوضه بداخله.

فإنهم يتزوجون، ذكر لكل أنثى. كانت لي أنثى، وقد فقدتها قبل عدة سنوات. كنت أحبها. لا أتوصل إلى نسيانها.

نملة: **ما معنى «أحبـ» ـها؟**

إنسان: **كانت لنا الرائحة ذاتها... على ما يبدو.**

الملكة ـ الأم تتذكر نهاية الإن ـ سان إد ـ مون. كان ذلك خلال الحرب الأولى مع المقزومات. كان إدمون راغباً بمساعدة الصهباوات فخرج من القبو. ولكثرة ما كان يشتغل بالفيرومونات علق الكثير منها بجسمه فأصبح أثناء مروره في الغابة وكأنه.. نملة صهباء من الفيدرالية. وعندما التقطت دبابير السرو (التي كانت في حرب مع الصهباوات حينذاك) روائحه الثبوتية، انقضت عليه بقضها وقضيضها.

قتلته ظناً منها بأنه نملة بيلوكانية. لا شك بأنه مات سعيداً بميتته تلك.

فيما بعد، قام جوناثان هذا وجماعته بتجديد الإتصال...

مرة أخرى، يسكب قليلاً من الهيدرومول في كؤوس القادمين الجدد الذين كانوا يمطرونه بالمزيد من الأسئلة:

ـ الدكتور ليفينغستون بإمكانه إذن أن يترجم كلامنا من مكانه هناك فوق الأرغن؟

ـ أجل، وبإمكانه أيضاً أن يُسْمِعَنا كلامهن. إننا نرى أجوبتهن على تلك الشاشة. أجل، لقد نجح إدمون بشكل كامل!

ـ ولكن ماذا كان يدور بينه وبينهن من أحاديث؟ وماذا يدور بينك وبينهن؟

ـ همْمْ... بعد النجاح الذي توصل إليه، أصبحت

ملاحظاته المكتوبة غائمة بعض الشيء. كما ولو أنه يقصد عدم قول كل شيء. لنقل بأنه، في البداية، وصف نفسه لهن ووصفهن له أنفسهن. حدثهن عن عالمه وحدثنه عن عالمهن. ومن هذه الأحاديث علمنا بأن مدينتهن تدعى بيل ـ أو ـ كان وبأنها مركز فيدرالية تضم عدة مئات من ملايين النمال.

ـ غير معقول!

ـ بعد ذلك، رأى الطرفان أنه من المبكر القيام بإذاعة النبأ في كلي العالمين. لذا، فقد عقدا اتفاقاً يضمن بقاء «الإتصال» القائم بينهما في السرية المطلقة.

ـ وهذا ما يفسر إصرار إدمون على قيام جوناثان بوضع كل هذه الحواجز. قال أحد رجال الأطفاء. ثم أضاف: لم يكن يريد أن يعرف الناس بما يجري قبل الأوان. كان يتصور، بكثير من الخوف، كل الإبتذال الذي قد يتعرض له مثل هذا النبأ عندما يصبح تحت رحمة الإذاعة والإذاعة المرئية والصحافة وما ينطوي عليه ذلك من تحويل النمال إلى دُرجة دارجة! كان يتخيل الملصقات الإعلانية وحمالات المفاتيح والقمصان الخفيفة وحفلات نجوم الروك... جميع البذاءات التي لا بد وأن يصار إلى ابتداعها حول هذا الإكتشاف.

ـ ومن جهتها، فطنت الملكة بيلو ـ كيو ـ كيوني إلى أن بناتها لا بد وأن يرغبن، مباشرة، بمقاتلة هؤلاء الغرباء الخطرين. قالت لوسي مضيفة إلى ما قاله رجل الاطفاء.

ـ لا، لا. فالحضارتان ليستا مؤهلتين بعد لأن تتعارفا ولا

لأن تتفاهما. لنكن واقعيين. فالنمال ليست فاشية ولا فوضوية ولا ملكية. فالنمال نمال وكل ما يخص عالمها مختلف عن عالمنا. وذلك بالضبط ما يمنحها غناها الخاص.

ذلك ما قاله المفوّض بيلشايم بكثير من الحماس. لا شك بأنه قد تغير كثيراً مذ فارق سطح الأرض - ورئيسته سولانج دومينغ.

- المدرسة الألمانية والمدرسة الإيطالية مخطئتان تماماً. قال جوناثان. لأنهما تحاولان حشر النمال في نظام فهم «بشري». فالتحليل الذي ينطلق من ذلك يظل بدائياً بالضرورة. تماماً كما ولو حاولت النمال فهم حياتنا بمقارنتها مع حياتها. تحليل... نِمالَوِيٌ بشكل أو بآخر... أما الحقيقة، فإن أقل خاصية من خاصياتهن أخاذة تماماً. نحن لا نفهم اليابانيين وسكان التيبت والهنود، ولكن ذلك لا يعني أن ثقافاتهم وموسيقاهم وفلسفاتهم ليست مثيرة للإعجاب حتى ولو وصلتنا مشوهة بفكرنا الغربي! ثم إن مستقبل كوكبنا هو مستقبل التهجين والإختلاط. ذلك واضح تماماً.

- ولكن، ماذا يمكن للنمال أن تقدم لنا على مستوى الثقافة؟ قالت أوغوستا باستغراب.

لا يحير جوناثان جواباً، ولكنه يوجه إشارة إلى لوسي فتخرج ثم تعود، بعد ثوان، وفي يدها ما يشبه حُقٍّ مربى.

- انظروا، لا شيء إلاَّ هذا، كنز وأي كنز! عسيل البرغثان. هيا، تذوقوه!

تخاطر أوغوستا بمد سبابتها المترددة.

ـ هُمْمْ، هذا شديد الحلاوة... طعمه لذيذ إلى حد القسوة! طعمه مختلف تماماً عن طعم عسل النحل.

ـ أرأيتِ! ألم تتساءلي كيف نحصل على غذائنا كل يوم في هذا القبو المسدود المدخل والمخرج تحت الأرض؟

ـ الحق، أجل، كنت...

ـ النمال هي التي تغذينا. من عسيلها ومن طحينها. إنها تخزن لنا احتياطياً غذائياً هناك، في الأعلى. ولكن ذلك ليس كل شيء. لقد أخذنا عنهن تقنيتهن الزراعية لإنبات فطر الغاريقون.

يرفع الغطاء عن صندوق خشبي كبير. تظهر في قعر الصندوق فطريات بيضاء نابتة فوق بساط من الأوراق المختمرة.

ـ غالين هو اختصاصي الفطريات الكبير عندنا. غالين يبتسم بتواضع:

ـ ما زلت بحاجة إلى تعلم الكثير.

ـ ولكن الفطريات والعسل... لا بد وأنكم تعانون من نقص في البروتيين.

ـ أما بالنسبة للبروتيين، فالمسأول هو ماكس.

أحد رجال الإطفاء يشير بإصبعه إلى السقف.

ـ أنا استلم جميع الحشرات التي تضعها النمال في العلبة الصغيرة إلى يمين الصندوق. نقوم بغليها لتسقط قشرتها بسهولة،

أما ما تبقى فإنها كحشرات الجمبري الصغيرة إن من حيث طعمها وإن من حيث مظهرها.

يضيف أحد رجال الدرك:

ـ أتعرفون؟ إننا نتدبر حياتنا هنا بشكل جيد. نحصل على الكهرباء من مفاعل ذري مصغر مكفول لخمسمئة عام. إدمون هو الذي أقام هذا المفاعل منذ الأيام الأولى لوصوله. والهواء يأتينا من المداخن والغذاء من النمال وعندنا نبع ماء عذب وفوق ذلك كله، نشغل وقتنا باهتمامات ممتعة. نشعر وكأننا رواد تجربة جديدة، في غاية الأهمية.

ـ نحن في الحقيقة كرواد الفضاء الذين يعيشون بشكل دائم في إحدى القواعد ويتخاطبون أحياناً مع جيرانهم من سكان النجوم.

يضحكون. تيار من روح الدعابة يسري في النخاع الشوكي لكل منهم. جوناثان يقترح العودة إلى غرفة الإستقبال.

ـ أتعرفون؟ لقد بحثت طويلاً عن وسيلة تمكنني من الإحتفاظ بأصدقائي قريباً مني. حاولت الإنخراط في كومونات وفالانستيرات(*)... لم أوفق مطلقاً. انتهيت إلى الإعتقاد بأنني لست غير طوباوي بسيط، لكي لا أقول «طوباوي مغفل». أما هنا... فإن أشياء كثيرة تحدث. نحن مجبرون هنا على التعايش

(*) Phalanstère: أشخاص متجانسون بأفكارهم وطموحاتهم ويتبعون نظاماً موحداً في الحياة والعمل...

والتكامل والتفكير المشترك. لا خيار لنا: إما أن نتفاهم وإما أن نموت، وليس أمامنا أي مجال للهرب. لا أعرف ما إذا كان مرد ذلك إلى اكتشاف خالي أم، إلى ما تعلمنا إياه النمال بمجرد وجودها فوق رؤوسنا. ولكنني أعرف حتى الآن بأن جماعتنا تتقدم بزخم!

ـ أجل، فالأمور تسير حتى بالرغم منا. . .

ـ نشعر أحياناً وكأننا نولد طاقة مشتركة ينهل منها كل واحد منا كما يشاء. إن ذلك لشيء عجاب.

ـ لقد سمعت بمثل ذلك من قبل عند بعض الفرق الباطنية، قال جازون. إنهم يطلقون على هذه الحالة اسم الـ «إغريغور» أو رأسمال «القطيع» الروحي. الأمر شبيه بوعاء يسكب كل فرد قوته فيه لإعداد حساء ينال منه كل فرد. . . وعلى العموم، هنالك دائماً لص يستغل طاقة الآخرين لخدمة أغراضه الشخصية.

ـ هذا النوع من المشاكل لا وجود له بيننا. لا يمكن أن تكون هنالك طموحات شخصية عند جماعة تعيش تحت الأرض. . .

صمت.

ـ ثم إن استخدامنا للكلام يتناقص شيئاً فشيئاً. لا حاجة بنا لذلك من أجل أن نتفاهم.

ـ أجل، هنالك أشياء تحدث هنا، ولكننا لم نتوصل بعد إلى فهمها والإحاطة بها. إننا لم نبلغ بعد نهاية الرحلة. لا نزال في منتصف الطريق.

صمت جديد.

ـ حسناً، باختصار، آمل أن تعجبكم الحياة في جماعتنا الصغيرة...

المحاربة رقم 801 تصل إلى مسقط رأسها خائرة القوى. لقد نجحت! لقد نجحت!

شلي ـ بو ـ ني تجري معها اتصالاً لمعرفة ما جرى. ما تسمعه من المحاربة يعزز أسوأ افتراضاتها بخصوص السر المخفي تحت صخرة الغرانيت.

تقرر فوراً شن هجوم عسكري على بيل ـ أو ـ كان. محارباتها يقضين الليل في التجهيز. فرقة وحيدات القرون الجوية الجديدة كانت جاهزة تماماً لمباشرة العمل.

المحاربة رقم 103683 تتقدم باقتراح حول الخطة: في الوقت الذي يشتبك فيه الجيش بشكل مباشر مع العدو، تقوم إثنتا عشرة فرقة بتطويق المدينة خفية، في محاولة لضرب المقر الملكي.

الكون يتجه: **الكون يتجه نحو التعقيد. من الهيدروجين إلى الهيليوم ومن الهيليوم إلى الكربون. نحو المزيد من التعقيد، نحو المزيد من الدقة. ذلكم هو اتجاه تطور الأشياء.**

الأرض هي الأكثر تعقيداً بين جميع الكواكب المعروفة. فهي تسبح في منطقة تتعرض فيها حرارتها للتغير، وهي مغطاة بمحيطات وجبال. ولكن دائرة احتمالات أشكال الحياة فيها غير قابلة عملياً للنضوب. ومن بين كائناتها إثنان يشمخان بذكائهما فوق الجميع: النمال والبشر.

كما ولو أن الله استخدم كوكب الأرض لإجراء تجربة أطلق فيها نوعين يمتلك كل منهما فلسفة مناقضة تماماً للأخرى ليرى أيهما أسرع في السباق نحو الوعي.

أما الهدف، فالمرجح أنه الوصول إلى وعي جماعي على مستوى الكوكب: الإنصهار الكامل لجميع أدمغة الكوكب. تلك هي، بنظري، المرحلة القادمة من مراحل تطور مغامرة الوعي. المستوى اللاحق من مستويات التعقيد.

غير أن النوعين المتفوقين اتبعا، في تطورهما، مسارين متوازيين:

- فلكي يصبح ذكياً، نفخ الإنسان دماغه فتضخم حجمه حتى صار وكأنه قنبيطة كبيرة وردية اللون.

- ولكي تصل النمال إلى النتيجة نفسها، فضلن استخدام عدة آلاف من الأدمغة الصغيرة المجتمعة في جهازي إتصال بالغي الصغر والدقة.

أكوام من فتات أوراق الملفوف عند النمال وقنبيطة عند البشر. أما كمية المادة، أو الذكاء، فمتكافئة من حيث القيمة المطلقة عند الفريقين. المعركة المحتدمة تستخدم فيها أسلحة متكافئة.

ما الذي يحدث لو أن شكلي الذكاء يتكاملان، بدل التسابق كضفتي نهر تسيران معاً ولا تلتقيان!؟(*)...

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

(*) العبارة الأخيرة هي، حرفياً، للشاعر الفلسطيني سميح القاسم. وقد استخدمت هنا لأنها جاءت مناسبة تماماً لمعنى النص الفرنسي.

جان وفيليب لا يحبان شيئاً غير الإذاعة المرئية، والفليبر، إلى حد ما. حتى لعبة الميني ـ غولف الجديدة، والتي تمّ ابتكارها مؤخراً بتكاليف باهظة، تظل قاصرة عن إثارة اهتمامهما. أما النزهات في الغابة... بالنسبة لهما، لا شيء أشد سوءً من تنفيذ أوامر الناظر بالخروج لاستنشاق الهواء. صحيح أنهما استمتعا جيداً، الأسبوع الماضي، ببقر بطون الضفادع، ولكن متعتهما بذلك كانت قصيرة بعض الشيء.

أما اليوم، فيبدو أن جان قد وجد مشروعاً جديراً بالاهتمام حقاً. ينتحي بصديقه بعيداً عن مجموعة الأيتام المنشغلين، بمنتهى الحمق، بالبحث عن أوراق ميتة ليصنعوا منها لوحات فنية مقرفة. ويدله على شيء شبيه بمخروط من الملاط. بيت من بيوت الأرضة.

يبدآن مباشرة بتدميرها ركلاً بأقدامهما. لكن شيئاً لا يخرج منها. بيت الأرضة فارغ تماماً. ينحني فيليب ويشم المكان.

ـ لقد قضى عليها عامل صيانة الطرق قضاءً مبرماً. أنظر، تفوح منها رائحة المادة المبيدة. لقد ماتت كلها في الداخل.

يجرجران خيبتهما استعداداً للحاق برفاقهما، لكن جان يلاحظ هرماً شبه متوارٍ تحت شجيرة على الضفة الأخرى للنهر الصغير.

الأمر مختلف تماماً، هذه المرة! بيت نمل ضخم لا تقل قبته ارتفاعاً عن متر كامل! صفوف طويلة من النمال تدخل وتخرج، مئات، بل ألوف من العاملات والمحاربات

والمستكشفات. الد. د. ت.(*) لم يمر بعد من هنا.

يطير جان من شدة الفرح.

ـ أنظر! أترى كل هذا؟

ـ آه، لا. إنك لا تنوي أن تأكل من النمال مرة أخرى... لقد كان طعمها رديئاً جداً آخر مرة.

ـ من قال بأنني سآكلها! إنك ترى أمامك مدينة بكاملها. ما تراه في الخارج هنا يفوق عدد سكان نيويورك أو مكسيكو. أتتذكر ما كانوا يقولونه في البرنامج الإذاعي؟ داخل المدينة مشحون بالسكان. أنظر إلى هذه السافلات اللاتي لا يتوقفن عن العمل كالسافلات!

ـ أجل، أجل، أرأيت كيف اختفى نيكولا لكثرة ما كان يفكر بالنمل؟ أنا متأكد بأن قبوه كان مليئاً بالنمل وبأن النمال قد التهمته. إسمع، لا أحب البقاء قريباً من هذا. هذا لا يعجبني! يا لها من نمال سافلة. بالأمس رأيت نمالاً تخرج من ثقب في الميني ـ غولف. ربما كانت تفكر بإقامة عش لها بداخله. يا لها من نمال سافلة وسخة!

يهزّه جان من كفته.

ـ طيب! أنت لا تحب النمال وأنا لا أحبها. فلنقتلها إذن! لنثأر لصديقنا نيكولا!

(*) D.D.T.، مبيد حشري معروف.

الفكرة تثير اهتمام فيليب.

ـ نقتلها؟

ـ طبعاً، لم لا؟ لنحرق هذه المدينة. أتتخيل مكسيكو وهي تلتهب، لا لشيء إلاَّ لأن ذلك يسلينا؟

ـ طيب، سنحرقها. أجل. لأجل نيكولا...

ـ انتظر، عندي فكرة أفضل: سنضع فيها مبيداً للأعشاب. وهكذا سنشاهد ألعاباً نارية حقيقية.

ـ فكرة عظيمة...

ـ اسمع، الساعة الآن هي الحادية عشرة. سنلتقي هنا بعد ساعتين بالضبط. هكذا لا نتعرض لإزعاجات الناظر والآخرون سيكونون جميعاً في مطعم المأوى. أنا سأذهب لإحضار المبيد الحشري، أما أنت فعليك أن تجد وسيلة للحصول على علبة ثقاب. الثقاب أفضل من القداحة.

ـ اتفقنا!

فرق المشاة تتقدم بسرعة. إذا ما سألتهن المدن الفيدرالية عن وجهتهن، فإن الشليبوكانيات سيجبن بأنهن سجلن تواجد حرذون في المنطقة القريبة وبأن المدينة المركزية قد طلبت معونتهن.

فوق رؤوسهن تئز وحيدات القرون دون أن يخفف من سرعتهن ثقل الراشقات المتمركزات فوق ظهورهن.

إنها الساعة الواحدة وبيل ـ أو كان تزخر بالنشاط. النمال تستفيد من حرارة الطقس لتجميع البيوض واليرقات وحشرات البرغثان في قاعة الإستحمام الشمسي.

ـ أحضرت معي شيئاً من الكحول القابل للإشتعال، لكي يلتهب كل شيء بشكل أفضل. قال فيليب ذلك مبشراً.

ـ تمام. أما أنا فقد اشتريت مبيد الأعشاب. عشرون فرنكاً للعلبة الواحدة. يا لهم من أنذال!

الملكة ـ الأم تلهو بنباتاتها المفترسة. مضى زمن على إحضار هذه النباتات إليها وهي تتساءل الآن عن السبب في عدم زرعها لتشكيل سياج وقائي، كما كانت تتمنى منذ البداية.

ثم تعود إلى التفكير بالدولاب. كيف يمكن لها أن تنفذ هذه الفكرة الفذة. قد يكون من الممكن صنع كرة ضخمة من الملاط ودحرجتها بالقوائم على العدو لسحقه. قد يكون عليها الآن أن تطلق هذا المشروع.

ـ لقد انتهيت. وضعت كل شيء، الكحول ومبيد الأعشاب.

عندما كان جان يقول عبارته الأخيرة، كانت إحدى المستكشفات قد بدأت بتسلق قدمه. ضربت على قماش سرواله بأطراف قرنيها:

يبدو أنك بنية حية ضخمة، هل يمكنك تقديم روائحك الثبوتية؟

يلتقطها ويسحقها بين إبهامه وسبابته. **بفوت!** سائل أصفر وأسود يسيل على أصابعه.

هذه واحدة قد نالت جزاءها. أما الآن، فتزحزح قليلاً لأن النار ستشتعل!

ـ سيكون عندنا شواء ضخم، قال فيليب.

ـ ملاحم آخر الزمان، بحسب يوحنا(*)! أجاب الآخر ضاحكاً.

ـ كم يمكن أن يكون عددها داخل المدينة؟

ـ بالملايين، دون شك. يبدو أن النمال قد هاجمت، العام الماضي، منزلاً في المنطقة.

ـ سنثأر لسكان المنزل أيضاً، قال جان. هيا، اذهب واختبيء خلف هذه الشجرة.

الملكة ـ الأم تفكر بالبشر. تريد أن تطرح عليهم المزيد من الأسئلة في المرة القادمة. ما هي استخدامات الدولاب عندهم؟

جان يشعل عود ثقاب ويقذف به نحو قبة الأشواك والغصينات ثم يبتعد راكضاً مخافة أن يعلق به اللهيب.

الجيش الشليبوكاني يصل إلى حيث تمكنه رؤية المدينة المركزية. كم هي كبيرة!

عود الثقاب الطائر يرسم خلفه خطاً منحنياً نحو الأسفل.

الملكة ـ الأم تقرر أن تكلمهم في الموضوع دون إبطاء. يمكنها أيضاً أن تقول لهم بأنها قادرة على زيادة ما تقدمه لهم من كميات العسيل دون أية إشكالات. فالكميات المنتجة وفيرة هذه السنة.

(*) المقصود هو الأحداث التي يذكرها سفر الرؤيا من «العهد الجديد».

يسقط عود الثقاب على غصينات القبة.

الجيش الشليبوكاني أصبح قريباً بما فيه الكفاية. يستعد للهجوم.

جان يقفز نحو شجرة الصنوبر الكبيرة التي كان فيليب قد اختبأ خلفها.

لم يسقط عود الثقاب على أية منطقة أصابها الكحول أو مبيد الأعشاب. عود الثقاب ينطفيء.

يعود الصبيان إلى النهوض.

ـ يا للعنة!

ـ أعرف ماذا يجب أن نفعل. يجب أن نضع قصاصة ورق وهكذا سنحصل على لهيب كبير لا بد وأن يصيب الكحول.

ـ أمعك ورق؟

ـ ليس معي غير بطاقة ركوب القطار (المترو).

ـ هاتها.

إحدى حارسات القبة تلاحظ شيئاً غريباً. ليس فقط أن بضعة أحياء تفوح، منذ بضع دقائق، برائحة الكحول، بل أن قطعة كبيرة من الخشب الأصفر(*) قد ظهرت، إضافة إلى ذلك، في أعلى القبة. تتصل مباشرة بإحدى خلايا العمل لتنظيف الغصينات من الكحول ولإبعاد الخشبة الصفراء.

(*) بطاقة المترو هي قطعة صغيرة من الورق المقوى الأصفر اللون.

ولكن حارسة أخرى تأتي راكضة نحو الباب الخامس.

إنذار! إنذار! جيش من النمال الصهباوات يهاجمنا!

ورقة الكرتون تحترق ويهرع الصبيان مجدداً للإختباء خلف الشجرة.

حارسة ثالثة ترى لهيباً كبيراً ينشب في طرف الخشبة الصفراء. الشليبوكانيات يتقدمن بخطوات سريعة جداً؛ كما رأين المستعبِدات يفعلن عند هجومهن على شلي ـ بو ـ كان.

الإنفجار الأول.

القبة بكاملها تشتعل دفعة واحدة.

انفجارات وكتل لهيب متطايرة.

جان وفيليب يحاولان إبقاء عيونهما مفتوحة على الرغم من الحرارة المتصاعدة. المنظر لم يخيب أملهما، فالخشب الجاف التهب سريعاً، وعندما وصل اللهيب إلى بقع مبيدات الحشرات، بدأت الانفجارات. أصوات راعدة ونيران خضراء وحمراء وليلكية تنشب من «مدينة النمال الضائعة».

الجيش الشليبوكاني المهاجم يجمد في مكانه. فقاعة الإستحمام الشمسي احترقت قبل غيرها بكل ما فيها من بيوض وقطعان، قبل أن يمتد الحريق ليشمل كامل القبة.

وكان الجذع الذي يؤوي المدينة المحظورة قد أصيب منذ الثواني الأولى لبداية الكارثة فانفجرت أجسام البوابات. اندفعت مجموعات من

المحاربات في محاولة لإنقاذ مصدر البيض الوحيد في المدينة. لكنهن وصلن بعد فوات الأوان. كانت الملكة قد ماتت مختنقة بالغازات السامة.

روائح الإنذارات تنطلق بمنتهى السرعة. المرحلة الأولى من الإنذار: إطلاق فيرومونات الحماس؛ المرحلة الثانية: أصوات القرع الكثيب تسمح في جميع الممرات؛ المرحلة الثالثة: نمال مذعورة تفر داخل الأنفاق وتنقل عدوى الذعر إلى غيرها؛ المرحلة الرابعة: كل ما هو نفيس (بيوض، نمال من ذوات الجنس، قطعان، أغذية...) ينقل إلى الطوابق السفلية، في حين تصعد المحاربات بالإتجاه المعاكس للتصدي للخطر الداهم.

في القبة، يستمر البحث عن حلول. فرق من الراشقات يتوصلن إلى إطفاء بعض المناطق بعد قصفها بحامض الفورميك المركز بدرجة تقل عن 10 بالمئة. تلك الراشقات اللاتي تحولن تحت ضغط الظروف إلى إطفائيات يلاحظن ناجعية تدخلهن فيوجهن رشقاتهن نحو المدينة المحظورة. قد يمكن إنقاذ الجذع عن طريق تبليله بالسوائل الحامضة.

ولكن النيران تزداد أواراً وتنتشر. السكان الذين حشرتهم النار داخل القبة يموتون إختناقاً بالغازات السامة والعقود الخشبية الملتهبة تسقط على الحشود المرتعبة. المواد الصلبة في أجسام النمال تنصهر وتتلوى كقطع من البلاستيك في مقلاة محماة.

لا شيء يمكنه الصمود في وجه الحرارة المحرقة الزاحفة.

مرحلة: لقد أخطأت. لسنا متساوين، وما بيننا ليس تزاحماً. فوجود البشر ليس إلاّ «مرحلة» قصيرة، وللنمال سلطان الأرض بلا منازع. فالنمال أكثر منا. أكثر منا بشكل غير محدود. مدنهن أكثر وأعشاشهن الطبيعية أكثر. يعشن في مناطق جافة ومتجمدة وحارة ورطبة لا يمكن لأي إنسان أن يحافظ على بقائه فيها. فالنمال موجودة حيث يذهب بنا البصر.

كانت هنا قبل أن نوجد بمئة مليون عام. وإذا ما حكمنا انطلاقاً من واقع أنها أحد الأنواع النادرة التي استطاعت مقاومة القنبلة الذرية، فإنها ستكون هنا بالتأكيد، بعد مئة مليون عام على زوالنا. لسنا غير حدث عارض لا يزيد عن ثلاثة ملايين سنة من تاريخهن. وإذا ما حدث يوماً ونزلت كائنات فضائية إلى هذا الكوكب، فإن تلك الكائنات لن تكون مخطئة أبداً إذا ما سعت إلى التباحث معهن. فالنمال هي سادة العالم. سادته الحقيقيون.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

في صبيحة اليوم التالي، كانت القبة قد اختفت تماماً. أما الجذع الأسود فقد بقي منتصباً في قلب المدينة العادية.

خمسة ملايين نملة لقين حتفهن، أي كل النمال التي كانت في القبة وجوارها القريب.

كل النمال التي احتفظت ببصيرتها ونزلت إلى الطوابق السفلية سلمت بأرواحها.

أما البشر الذين يعيشون تحت المدينة فلم يلحظوا شيئاً. حالت بينهم وبين ذلك بلاطة الغرانيت الضخمة. حدث كل شيء أثناء إحدى لياليهم المصطنعة.

موت بيلو كيو ـ كيوني يظل الحدث الأكثر وطأة والأشد تهديداً. فالجماعة مهددة بالإندثار بعد موت ملكتها وزوال المصدر الوحيد للبيوض.

الجيش الشليبوكاني شارك في مقاومة النيران، وما أن علمت المحاربات بموت بيلو ـ كيو ـ كيوني حتى أنفذن رسلاً إلى مدينتهن، فلم تمضِ ساعات قليلة حتى جاءت شلي ـ بو ـ ني شخصياً للإطلاع على

الوضع وتقدير الأضرار. جاءت محمولة جواً فوق جعل من وحيدات القرون.

وعندما وصلت إلى المدينة المحظورة، كانت بعض نمال الإطفاء لا تزال ترشق بسوائلها الرماد. لا يجدن شيئاً يقاتلنه فيرشقن الرماد. تسألهن فيروين لها قصة الكارثة المبهمة.

ماتت الملكة المولود فصارت هي بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة وألقت رحالها في الجناح الملكي في قلب المدينة المركزية.

كان جوناثان أول المستيقظين. دهش لسماع صوت طابعة الحاسوب. هنالك ما يُكتب في الطابعة.

على الشاشة كلمة وحيدة.

لماذا؟

لقد اتصلن إذن أثناء الليل. عندهن ما يقلنه. يضغط على أزرار لوحة المفاتيح ليكتب العبارة التي يفتتح بها كل محاورة معهن:

إنسان: **تحياتي، أنا جوناثان.**

نملة: **أنا بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة. لماذا؟**

إنسان: **بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة؟ أين هي القديمة؟**

نملة: **لقد قتلتموها. أنا بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة. لماذا؟**

إنسان: **ما الذي حدث؟**

نملة: **لماذا؟**

وانقطع الاتصال.

الآن تعرف كل شيء. البشر هم الذين فعلوا كل ذلك.

كانت الملكة ـ الأم تعرفهم.

كانت تعرفهم منذ البداية.

إحتفظت بالمعلومة سراً.

أمرت بقتل كل من قد يكون من شأنه الكشف عن أي دليل.

دعمتهم ضد خلاياها بالذات.

بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة تتأمل أمها الهامدة. تنتفض عندما تصل الحارسات لنقل الجثة ورميها في مستودع النفايات.

لا، لا ينبغي رمي الجثة.

تحدق في بيلو ـ كيو ـ كيوني القديمة التي كانت قد بدأت تفوح منها روائح الموت.

تأمر بإعادة لصق الأعضاء المهشمة بواسطة الصمغ، وبإفراغ الجسم من مواده اللينة لاستبدالها بالرمل.

تريد الإحتفاظ بها في جناحها الخاص...

شلي ـ بو ـ ني، بيلو ـ كيو ـ كيوني الجديدة تجمع بعض المحاربات وتقترح إعادة بناء المدينة المركزية بطريقة أكثر حداثة. فهي تعتقد بأن القبة والجذع كانا شديدي العطب. وينبغي بنظرها أن تضع النمال نصب عينها مسألة البحث عن الأنهار الجوفية، بل حتى التفكير بحفر قنوات تربط بين جميع مدن الفيدرالية. فالمستقبل يتوقف، بنظرها، على تسخير الماء. فالماء يسمح بوقاية أفضل من الحرائق ويمكن من السفر بسرعة ودون التعرّض للخطر.

وماذا بشأن البشر؟

تقدم إجابة مواربة.

لا أهمية كبيرة لهم.

ولكن المحاربة التي طرحت السؤال تصر:

وإذا ما هاجمونا من جديد بنيرانهم؟

كلما ازدادت قوة الخصم، كلما دفعنا ذلك إلى تجاوز ذاتنا.

وهؤلاء الذين يعيشون تحت الصخرة الكبيرة؟

بيلو ـ كيو ـ كيوني لا تجيب بالمرة. تعرب عن رغبتها بالبقاء وحدها، ثم تتوجه إلى جثة بيلو ـ كيو ـ كيوني القديمة.

الملكة الجديدة تطأطيء رأسها برقة وضتع قرنيها على جبين أمها. تظل جامدة، على هذه الصورة، لفترة طويلة جداً، كما ولو أنها غارقة في اتصال مطلق أبدي.

انتهى

معجم النمل

حامض الفورميك: سلاح الرشق. حامض النملي الأكثر قدرة على الإحراق يكون مركزاً بنسبة 40 بالمئة.

حامض الإندول ـ آسيتيك: مبيد عشبي.

حامض الأولييك: بخار يتصاعد من جثث النمال.

عمر الملكة: الملكة الصهباء تعيش خمسة عشر عاماً، في المتوسط.

عمر غير ذوات الجنس: العاملة أو المحاربة الصهباء تعيش ثلاث سنوات، بوجه عام.

كحول: النمال تعرف كيفية تخمير عسيل البرغثان وعصير الحبوب.

تغذية: نظام التغذية العادي عند النملة الصهباء: 43 بالمئة من عسيل البرغثان، 41 بالمئة من لحوم الحشرات، 7 بالمئة من نسغ الأشجار، 5 بالمئة من الفطر، 4 بالمئة من الحبوب المطحونة.

عنكبوت: وحش يفترس ضحيته الحية قطعة قطعة وينومها بين كل وجبة ووجبة. خطر.

أسلحة النمل: الملاقط السيوف والإبر السموم، أجهزة نفث الصمغ، جيوب الرشق بحامض الفورميك، المخالب.

معركة الأقحوان: في العام 666 000 100، أول حرب فيدرالية تمت فيها المواجهة بين الأسلحة الجرثومية والدبابات.

بيل ـ أو ـ كان: المدينة المركزية في فيدرالية الصهباوات.

بيلو ـ كيو ـ كيوني: ملكة بيل ـ أو ـ كان.

بنت وردان: جدة الأُرضَة. أول حشرة عاشت على الأرض.

جلاّلة: حشرة تدفع أمامها كرة من الروث. صالح للأكل.

جثة: قشرة جلدية فارغة.

فئة: هنالك ثلاث فئات، بوجه عام: ذوات الجنس والمحاربات والعاملات. وهذه الفئات تقسم إلى أصناف: عاملات زراعيات، محاربات راشقات، إلخ...

خفاش: وحش طائر يعيش في الكهوف. خطر.

مادة درعية: مادة تتكون منها دروع النمال المغطية لأجسامهن.

شلي ـ بو ـ ني: إبنة بيلو ـ كيو ـ كيوني.

شلي ـ بو ـ كان: مدينة حديثة جداً بنتها شلي ـ بو ـ ني.

مدينة محظورة: قلعة تحمي الجناح الملكي. هنالك مدن محظورة من الخشب أو الملاط ومنها ما هو داخل تجاويف الصخور.

قِربة: خزان يُجمع فيه قطر الندى.

تكييف: ضبط الحرارة في المدن الكبيرة بواسطة قاعات الاستحمام الشمسي والروث وفتحات الهواء البارد في أعلى القبة.

دعسوقة: حيوان يفترس دابة البرغثان. صالح للأكل.

قلب: جيوب متداخلة في بعضها البعض تأخذ شكل إجاصة. يكون القلب معلقاً داخل الظهر.

إتصال مطلق (إ.م): تبادل كلي للأفكار بواسطة الإحتكاك القرني.

بوابات: صنف من النمال ذات رؤوس مدوّرة ومفلطحة مهمتها إقفال المداخل الاستراتيجية.

دَرَجة: وحدة حساب الزمن ـ الحراري والزمن ـ التاريخي. كلما ارتفعت الحرارة، تنخفض الدرجات الزمنية. وكلما انخفضت الحرارة تزداد الدرجات الزمنية.

كثافة: في أوروبا، تبلغ كثافة النمال (من جميع الفصائل) 000 80 نملة في المتر المربع.

مخزن النفايات: كومة عند مداخل بيوت النمل تلقى فوقها الأوساخ والجثث.

آكلة هوام: وحش نباتي معروف في نواحي بيلو ـ أو ـ كان. خطر.

إثنا عشري: نمط التقييم الرقمي عند النمال. فالنمال تحسب إنطلاقاً من الرقم 12، لأن لها إثني عشر مخلباً (إثنان في كل قائمة).

عقيدة الملكات: مجموعة المعلومات الثمينة التي تنتقل من قرن إلى قرن من الملكات ـ الأمهات إلى بناتهن.

دولخون: مسلة ثانوية تبنى فوق القبة. وهي تكون عادة فوق بيوت الأرضَة، أكثر مما تكون فوق بيوت النمل.

دوريفور: حشرة من المغمدات الأجنحة، في أجنحتها خطوط طولية سوداء. تتغذى عادة على البطاطا. عصير هذه الحشرة هو سم قاتل.

سلالة: سلسلة من الملكات يتعاقبن على حكم أرض واحدة.

عومة: حشرة من مغمدات الأجنحة وهي تعيش فوق الماء وتحت الماء. صالحة للأكل.

تربية القطعان: فن اتخذته بعض الفصائل لتدجين بعض الحشرات كالبرغثان (حشرة المن) والقرمزية لاحتلاب ما تخرجه من إفرازات. يمكن للبرغثان الواحد أن يعطي ثلاثين نقطة من العسيل في الساعة، خلال فصل الصيف.

ذبابة مايو: نوع من اليعاسيب الصغيرة ذات الذيول المروحية. تمضي

الحشرة ثلاث سنوات من حياتها على شكل يرقة، ولكنها لا تعيش، بعد التفقيس، إلاّ فترة تتراوح بين 3 ساعات و48 ساعة. صالح للأكل.

بزاقة: منجم بروتيني. صالح للأكل.

مستعبِدات: فصيلة من النمال المحاربة. لا تستطيع العيش إلاّ بمساعدة الخادمات.

روث: وزن روث النملة يقل بألف مرة عن وزن جسمها.

فيدرالية: تجمع مدن ينتمي سكانها إلى الفصيلة ذاتها. تضم فيدرالية النمال الصهباء حوالي تسعين عشاً تغطي ستة هكتارات تخترقها سبعة كيلومترات ونصف من الطرقات الممهدة وأربعين كيلومتراً من الطرقات المُعْلَمة بالروائح.

عيد الإنبعاث: طيران ذوات الجنس. يتم عادة في بداية الفصل الدافيء.

نار: سلاح محرم.

قوة: يمكن للنملة الصهباء أن تجر وزناً يفوق وزن جمسها بستين ضعفاً. أي ما يعادل $3,2 \times 10^{-6}$ حصاناً.

نملة مقنعة: فصيلة متفوقة في مجال الكيمياء العضوية.

بَرْد: مُسَكِّن عام في عالم الحشرات.

غدة سُمِّية: جيب لتخزين حامض الفورميك. مزود بعضلات خاصة يمكنها قذفه بالضغط الشديد.

غدة ديفور: غدة تحتوي على فيرومونات إشارة لتحديد الطرقات.

حبَّة: النمال الصهباء تفضل البيوزوم الحبوب، أي أجزاءها الصغيرة الأكثر غنى بالزيوت. يجمع عش النمل المتوسط الحجم ما يزيد عن 000 70 حبة في الموسم الواحد.

غابي ـ تيولوت: عش نمل صغير من أعشاش الربيع.

دبّور: إبن العم البدائي والسام للنمال. خطر.

حرب الفراولة: نشبت بين النمال الصهباء والنمال الصفراء في العام 886، 999، 99.

إرتفاع: كلما كان العش مرتفعاً، كلما ازدادت حاجة المدينة إلى مساحة أكبر وأكثر تعرضاً للشمس. في المناطق الحارة، تكون مساكن النمال مدفونة تماماً تحت الأرض.

مبيد عشبي: ميرميكاسين، حامض الإندول ـ آسيتيك.

خدر شتوي: حالة نوم تستمر من تشرين الثاني/ نوفمبر حتى آذار/ مارس.

بشر: وحوش عملاقة يرد ذكرها في بعض الخرافات الحديثة. نعرف، بشكل خاص حيواناتهم المدجنة الوردية اللون: الأصابع. خطر.

نمسية: دبور يضع بيوضه الشرهة داخل جسمك. خطر.

بطن اجتماعي: عضو الكَرَم.

صوم: تستطيع النملة أن تعيش ستة أشهر بدون طعام، وذلك طيلة فترة الخدر الشتوي.

لا ـ شو لا ـ كان: أكثر مدن الفيدرالية بعداً لجهة الغرب.

برقة العفرين: رمال متحركة مفترسة. خطر.

فرقة: مجموعة من المحاربات القادرات على التحرك بشكل موحد.

جرذون: تنين معروف في حضارة النمل. خطر.

جناح ملكي: مكان تضع فيه الملكة بيوضها.

لمقز: حشرة من مغمدات الأجنحة تفرز مخدرات قاتلة. خطر.

حباحب: حشرة من مغمدات الأجنحة تشع منها أضواء فوسفورية. صالحة للأكل.

مصارعة بالملاقط: رياضة شائعة بين النمال.

أمراض: الأمراض الأكثر شيوعاً بين النمال الصهباء هي مرض البرهمة (الناجم عن نوع من الفطريات الطفيلية) والإيجيرتيل (وهي نوع من أنواع تآكل القشرة الجلدية) والدودة المخية (دودة طفيلية تعشش على مستوى العقد الما تحت بلعومية)، وتضخم الغدد الشفوية (انتفاخ غير طبيعي يصيب الصدر في المرحلة اليرقية)، والإترناريا (وهي عبارة عن غبيريات قاتلة).

ذكور: حشرات تخرج من بيوض غير ملقحة.

سرعوفة: حشرة تحب الباه والطعام بشكل مبالغ فيه. خطر.

مرتزقة: نمال منفردة تقاتل في خدمة عش غير عشها الأصلي مقابل الحصول على الغذاء والهوية المدينية.

رسل طائرة: تقنية تستخدمها المقزومات لنقل الرسائل بواسطة الذباب. صالحة للأكل.

استحالة: انتقال من شكل من أشكال الحياة إلى شكل آخر. معروف عند معظم الحشرات.

مناعة: قدرة الفصائل الاجتماعية على التعوّد على سم قاتل، لدرجة تصل معها إلى وضع بيوض ذات مناعة جينية ضد هذا الخطر.

حاصدات: نمال مزارعات يعشن لجهة الشرق.

بعوض: ذكور البعوض تمص نسغ النباتات. نمط التغذية عند الإناث غير معروف. صالح للأكل.

موسيقى: صوت أو ما فوق الصوت يصدر عن الجداجد والصراصير عندما تحك أغماد أجنحتها ببعضها البعض. ومزارعات الفطريات من النمال يعرفن أيضاً كيف يعزفن بواسطة عضلات بطونهن.

مقزومات: عدوات الصهباوات اللدودات.

أسوَد: المدنيات يفضلن الحياة في الظلمة.

ني: إحدى سلالات الملكات البيلوكانيات.

عيينات ما تحت حمراء: ثلاث عيون صغيرة على شكل مثلث في جبهة ذوات الجنس. تمكنها من الرؤية في الظلام الدامس.

بيضة: نملة في بداية حياتها.

عصافير: وحوش طائرة. خطر.

شم: تمتلك غير ذوات الجنس 6500 خلية حسية في كل واحد من قرنيها. أما ذوات الجنس فيمتلكن 000 300 خلية في كل قرن.

موجات: القاسم الأصغر المشترك لكل ما تبثه الكائنات أو الأشياء المتحركة بشكل أو بآخر.

وجهة المدينة: الصهباوات يبنين مدنهن بحيث تكون أجزاؤها الأكثر اتساعاً موجهة نحو الجنوب الشرقي، وذلك بهدف التعرض إلى أقصى ما يمكن من الأشعة الشمسية في بداية النهار.

خبز: كرات من الحبوب المطحونة والمهروسة.

هوية: رائحة عش المولد، أو العش الذي تنشأ فيه المرتزقة.

فيرومون: جملة أو كلمة سائلة.

نباتات مفترسة: غراسيت، ساكاراسيات، آكلات هوام، ندويات. خطر.

نباتات مسمومة: سورنجان، ستاريات، غارّ وردي، لبلاب. خطر.

مطر: متساقطات قاتلة.

وزن: يتراوح وزن النملة بين مليغرام واحد و150 مليغراماً.

برغثان: دابة أليفة. صالحة للأكل. (حشرة المن).

وحيد القرن: حشرة من مغمدات الأجنحة لها قرن طويل في جبهتها.

حمراوات حائكات: نمال مهاجرة من الشرق تستخدم يرقاتها كمكوكات للحياكة.

سرفوت: خطر.

مرحاض: حفرة يلقى فيها روث المواطنات.

أنعي: خطر.

شي – غاي – پو: مدينة النمال المقزومات. في الشمال الغربي.

قامة: يبلغ طول الصهباوات رأسان تقريباً.

دبابة: تقنية حربية قوامها حمل عاملة من ذوات الملاقط الضخمة فوق ست عاملات متحركات من الحجم الصغير.

رأس: وحدة القياس عند النمل. ثلاثة مليمترات.

درجة حرارة: لا تقدر الصهباوات على الحركة إلاّ عندما تبلغ الحرارة ثمان درجات مئوية. أما ذوات الجنس، فإنها تستيقظ أحياناً إبتداءً من ست درجات مئوية.

درجة حرارة العش: مدينة النمال الصهباوات تظل في حالة ضبط ذاتي للحرارة، بحيث تتراوح على الدوام، بين 20 و30 درجة مئوية.

أرضَة: نوع معادٍ للنمال.

أرض: كوكب مكعب الشكل.

نسيج: عملية تقوم بها اليرقة.

نقل: لكي تنقل النملة نملة أخرى تمسك بها بواسطة ملقطيها في حين تجمع الأخرى نفسها لكي تقلص احتكاكها بالأرض إلى الحد الأدنى.

تزقيم: قيام نملة بتقديم الطعام لنملة أخرى، من بطنها.

ريح: شيء يقتلعك من الأرض ليضعك حيث لا تدري.

رؤية: النمال ترى الأشياء كما ولو من خلال شبكة. ذوات الجنس تستطيع رؤية الألوان، ولكن جميع الأصباغ تميل نحو اللون ما فوق البنفسجي.

سرعة المشي: تسير النملة الصهباء، عندما تكون الحرارة على عشر درجات، بسرة 18 متراً في الساعة. على 15 درجة، تبلغ سرعتها 54 متراً في الساعة، و126 متراً في الساعة على 20 درجة.

عيون: مجموعة الأوجه المتراصة فوق كرة العين. لكل وجه عدستان بلوريتان. واحدة خارجية، وواحدة داخلية وكل واحدة من الخلايا متصلة بالدماغ. النمال لا ترى غير الأشياء القريبة، ولكنها تستطيع، إذا ما نظرت من مسافة بعيدة، أن تكشف أدق حركات الأشياء.

زوبي ـ زوبي ـ كان: مدينة شرقية شهيرة بوفرة ما تمتلكه من قطعان البرغثان.

56e: اسم شلي ـ بو ـ ني عندما كانت لا تزال عذراء.

327e: ذكر يافع من بيل ـ أو ـ كان.

4000e: صيادة صهباء تعيش في غابي ـ تيولوت.

103683e: محاربة بيلوكانية.

801e: إحدى بنات شلي ـ بو ـ ني. كلفتها القيام بمهمة تجسسية.

الأسماء الحقيقية للممثلات

(حسب التسلسل الألفبائي):

الحاصدة	**بوغونوميرمكس موليغاسينز**
الحمراء الحائكة	**أوكوفيلا لونچينودا**
زارع الفطريات	**آتا سيكسبون**
السوداء الراعية	**لازيوس نيجر**
الصهباء الفيدرالية	**فورميكا روفا**
طاحنة الحبوب	**ميسّور بارباروس**
الماغنان	**دوريلين أنوما**
المستعبِدة	**پويلييرغوس روفسنس**
المقزومة	**إيريدوميرمكس هوميلييس**
النملة ـ القربة	**ميرميكوسيستوس ميلليجر**
النملة المُقَنَّعة	**آنرغاتس أتراتيلوس**